



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عيد ميلاد
عمران

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

المطبعة

البيان في تفسير القرآن

تأليف
شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن
الطوسي

المجلد ١٠

دار الفکر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

المطبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التبيان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد بن حسن طوسى

نشرت فى الطباعة:

موسسه النشر الاسلامى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥ الفهرس
١٦ التبيان فى تفسير القرآن المجلد ١٠
١٦ اشارة
١٦ المجلد العاشر
١٦ ٦٢-سورة الجمعة ص: ٣
١٦ [سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١ الى ٥] ص: ٣
١٧ قوله تعالى: [سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٦ الى ١١] ص: ٥
١٩ ٦٣-سورة المنافقون ص: ١٠
١٩ اشارة
١٩ [سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٥] ص: ١٠
٢١ قوله تعالى: [سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٦ الى ١١] ص: ١٣
٢٢ ٦٤-سورة التغابن ص: ١٧
٢٢ اشارة
٢٣ [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٥] ص: ١٧
٢٤ قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ٦ الى ١٠] ص: ١٩
٢٥ قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٢٢
٢٦ قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٦ الى ١٨] ص: ٢٤
٢٧ ٦٥-سورة الطلاق ص: ٢٧
٢٧ اشارة
٢٧ [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥] ص: ٢٧
٣٠ قوله تعالى: [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٦ الى ١٠] ص: ٣٥
٣٢ قوله تعالى: [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١١ الى ١٢] ص: ٣٩
٣٤ ٦٦-سورة التحريم ص: ٤٣

- ٣٤ اشارة
- ٣٤ [سورة التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٣
- ٣٧ قوله تعالى: [سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ١٠] ص: ٤٩
- ٣٩ قوله تعالى: [سورة التحريم (٦٦): الآيات ١١ الى ١٢] ص: ٥٣
- ٤٠ ٥٦-سورة الملك ص: ٥٦
- ٤٠ اشارة
- ٤٠ [سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ٥] ص: ٥٦
- ٤٢ قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٦ الى ١١] ص: ٦٠
- ٤٤ قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ١٥] ص: ٦٣
- ٤٥ قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ١٦ الى ٢١] ص: ٦٥
- ٤٦ قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٢٦] ص: ٦٨
- ٤٧ قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٧ الى ٣٠] ص: ٧٠
- ٤٨ ٧٣-سورة القلم ص: ٧٣
- ٤٨ اشارة
- ٤٨ [سورة القلم (٦٨): الآيات ١ الى ١٦] ص: ٧٣
- ٥١ قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٢٥] ص: ٧٩
- ٥٣ قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٢٦ الى ٣٣] ص: ٨٢
- ٥٤ قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٤٠] ص: ٨٤
- ٥٥ قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٤١ الى ٤٥] ص: ٨٦
- ٥٦ قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٤٦ الى ٥٢] ص: ٨٨
- ٥٨ ٩٣-سورة الحاقة ص: ٩٣
- ٥٨ اشارة
- ٥٨ [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٩٣
- ٦٠ قوله تعالى: [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١١ الى ١٨] ص: ٩٦

- ٦٢ قوله تعالى: [سورة الحاقه (٦٩): الآيات ١٩ الى ٢٤] ص: ١٠٠
 ٦٣ قوله تعالى: [سورة الحاقه (٦٩): الآيات ٢٥ الى ٣٧] ص: ١٠٣
 ٦٥ قوله تعالى: [سورة الحاقه (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢] ص: ١٠٧
 ٦٨ ٧٠-سورة المعارج: ص: ١١٢
 ٦٨ اشارة
 ٦٨ [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١١٢
 ٧١ قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١١٧
 ٧٤ قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ٢٦ الى ٣٥] ص: ١٢٣
 ٧٥ قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤] ص: ١٢٦
 ٧٧ ٧١-سورة نوح: ص: ١٣١
 ٧٧ اشارة
 ٧٨ [سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٦] ص: ١٣١
 ٧٩ قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ٧ الى ١٤] ص: ١٣٤
 ٨٠ قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ١٥ الى ٢٠] ص: ١٣٧
 ٨١ قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ الى ٢٨] ص: ١٣٩
 ٨٣ ٧٢-سورة الجن: ص: ١٤٤
 ٨٣ اشارة
 ٨٤ [سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٤٤
 ٨٧ قوله تعالى: [سورة الجن (٧٢): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ١٥٠
 ٩٠ قوله تعالى: [سورة الجن (٧٢): الآيات ٢١ الى ٢٨] ص: ١٥٦
 ٩١ ٧٣-سورة المزمل: ص: ١٦٠
 ٩١ اشارة
 ٩١ [سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٦٠
 ٩٤ قوله تعالى: [سورة المزمل (٧٣): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ١٦٥

- ٩٥ قوله تعالى: [سورة المزمل (٧٣): آية ٢٠] ص: ١٦٨
- ٩٦ ٧٤- سورة المدثر: ص: ١٧١
- ٩٦ اشارة
- ٩٧ [سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٧١
- ٩٨ قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١٧٥
- ١٠٠ قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٢٦ الى ٣٥] ص: ١٧٩
- ١٠٢ قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٦ الى ٥٦] ص: ١٨٣
- ١٠٥ ٧٥- سورة القيامة: ص: ١٨٩
- ١٠٥ اشارة
- ١٠٥ [سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٨٩
- ١٠٧ قوله تعالى: [سورة القيامة (٧٥): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١٩٣
- ١١٠ قوله تعالى: [سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٦ الى ٤٠] ص: ١٩٩
- ١١٣ ٧٦- سورة الدهر: ص: ٢٠٤
- ١١٣ اشارة
- ١١٣ [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٢٠٤
- ١١٧ قوله تعالى: [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٢١١
- ١١٩ قوله تعالى: [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢١ الى ٣١] ص: ٢١٦
- ١٢٢ ٧٧- سورة المرسلات: ص: ٢٢٢
- ١٢٢ اشارة
- ١٢٢ [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ١٥] ص: ٢٢٢
- ١٢٤ قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٢٨] ص: ٢٢٦
- ١٢٥ قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٩ الى ٤٠] ص: ٢٢٩
- ١٢٥ اشارة
- ١٢٧ أحدهما- ص: ٢٣٢

- ١٢٧ والثاني- ص: ٢٣٢
- ١٢٨ قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٤١ الى ٥٠] ص: ٢٣٣
- ١٢٩ ٧٨-سورة النبأ: ص: ٢٣٧
- ١٢٩ اشارة
- ١٢٩ [سورة النبأ (٧٨): الآيات ١ الى ١٦] ص: ٢٣٧
- ١٣١ قوله تعالى: [سورة النبأ (٧٨): الآيات ١٧ الى ٣٠] ص: ٢٤١
- ١٣٤ قوله تعالى: [سورة النبأ (٧٨): الآيات ٣١ الى ٤٠] ص: ٢٤٤
- ١٣٦ ٧٩-سورة النازعات ص: ٢٥٠
- ١٣٦ اشارة
- ١٣٦ [سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٢٥٠
- ١٣٩ قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٥ الى ٢٥] ص: ٢٥٥
- ١٤٠ قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٦ الى ٣٣] ص: ٢٥٩
- ١٤٢ قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ٣٤ الى ٤٦] ص: ٢٦٢
- ١٤٤ ٨٠-سورة عبس ص: ٢٦٧
- ١٤٤ اشارة
- ١٤٤ [سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٢٦٧
- ١٤٦ قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ١١ الى ٢٣] ص: ٢٧٠
- ١٤٨ قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ٢٤ الى ٣٢] ص: ٢٧٤
- ١٤٩ قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ٣٣ الى ٤٢] ص: ١٧٦
- ١٥١ ٨١-سورة التكوير ص: ٢٧٩
- ١٥١ اشارة
- ١٥١ [سورة التكوير (٨١): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٢٧٩
- ١٥٣ قوله تعالى: [سورة التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩] ص: ٢٨٤
- ١٥٣ اشارة

- أحدها- ص: ٢٨٨ ----- ١٥٥
- و الثاني- ص: ٢٨٨ ----- ١٥٦
- الثالث- ص: ٢٨٨ ----- ١٥٦
- ٨٢-سورة الانفطار ص: ٢٨٩ ----- ١٥٦
- اشارة ----- ١٥٦
- [سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٢] ص: ٢٨٩ ----- ١٥٦
- قوله تعالى:[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١٣ الى ١٩] ص: ٢٩٣ ----- ١٥٨
- ٨٣-سورة المطففين ص: ٢٩٥ ----- ١٥٩
- اشارة ----- ١٥٩
- [سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٦] ص: ٢٩٥ ----- ١٥٩
- قوله تعالى:[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٧ الى ١٧] ص: ٢٩٧ ----- ١٦٠
- اشارة ----- ١٦٠
- أحدهما- ص: ٢٩٨ ----- ١٦٠
- و الثاني- ص: ٢٩٨ ----- ١٦١
- قوله تعالى:[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١٨ الى ٢٨] ص: ٣٠٠ ----- ١٦٢
- قوله تعالى:[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٩ الى ٣٦] ص: ٣٠٤ ----- ١٦٤
- ٨٤-سورة الانشقاق ص: ٣٠٧ ----- ١٦٥
- اشارة ----- ١٦٥
- [سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٩] ص: ٣٠٧ ----- ١٦٥
- قوله تعالى:[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١٠ الى ١٥] ص: ٣١٠ ----- ١٦٦
- قوله تعالى:[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١٦ الى ٢٥] ص: ٣١٢ ----- ١٦٧
- ٨٥-سورة البروج ص: ٣١٥ ----- ١٦٩
- اشارة ----- ١٦٩
- [سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣١٥ ----- ١٦٩

- ١٧١ قوله تعالى: [سورة البروج (٨٥): الآيات ١١ الى ٢٢] ص: ٣١٩
- ١٧٣ ٨٦-سورة الطارق ص: ٣٢٢
- ١٧٣ اشارة
- ١٧٣ [سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٢٢
- ١٧٤ قوله تعالى: [سورة الطارق (٨٦): الآيات ١١ الى ١٧] ص: ٣٢٦
- ١٧٥ ٨٧-سورة الأعلى ص: ٣٢٨
- ١٧٥ اشارة
- ١٧٥ [سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٢٨
- ١٧٧ قوله تعالى: [سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ٣٣١
- ١٧٨ ٨٨-سورة الغاشية ص: ٣٣٣
- ١٧٨ اشارة
- ١٧٨ [سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٣٣
- ١٧٩ قوله تعالى: [سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٣٣٥
- ١٨٠ قوله تعالى: [سورة الغاشية (٨٨): الآيات ٢١ الى ٢٦] ص: ٣٣٧
- ١٨١ ٨٩- سورة الفجر ص: ٣٤٠
- ١٨٢ اشارة
- ١٨٢ [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٣٤٠
- ١٨٤ قوله تعالى: [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠] ص: ٣٤٤
- ١٨٦ ٩٠-سورة البلد ص: ٣٤٩
- ١٨٦ اشارة
- ١٨٦ [سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٤٩
- ١٨٨ قوله تعالى: [سورة البلد (٩٠): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٣٥٢
- ١٨٩ ٩١-سورة الشمس ص: ٣٥٦
- ١٨٩ اشارة

- ١٨٩ [سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٥٦
 ١٩١ قوله تعالى: [سورة الشمس (٩١): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٣٥٩
 ١٩٢ ٩٢-سورة الليل ص: ٣٦٢
 ١٩٢ اشارة
 ١٩٢ [سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ١٣] ص: ٣٦٢
 ١٩٤ قوله تعالى: [سورة الليل (٩٢): الآيات ١٤ الى ٢١] ص: ٣٦٥
 ١٩٤ ٩٣-سورة الضحى ص: ٣٦٧
 ١٩٤ اشارة
 ١٩٤ [سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٦٧
 ١٩٦ ٩٤-سورة الانشراح ص: ٣٧١
 ١٩٦ اشارة
 ١٩٧ [سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٧١
 ١٩٩ ٩٥-سورة التين ص: ٣٧٥
 ١٩٩ اشارة
 ١٩٩ [سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٧٥
 ٢٠٠ ٩٦-سورة العلق ص: ٣٧٨
 ٢٠٠ اشارة
 ٢٠٠ [سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٧٨
 ٢٠٢ قوله تعالى: [سورة العلق (٩٦): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ٣٨١
 ٢٠٣ ٩٧-سورة القدر ص: ٣٨٤
 ٢٠٣ اشارة
 ٢٠٣ [سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥] ص: ٣٨٤
 ٢٠٤ ٩٨-سورة البيئنة ص: ٣٨٧
 ٢٠٤ اشارة

- ٢٠٤ [سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٨٧
 ٢٠٦ ٩٩-سورة الزلزال ص: ٣٩٢
 ٢٠٦ اشارة
 ٢٠٧ [سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٩٢
 ٢٠٨ ١٠٠-سورة العاديات ص: ٣٩٥
 ٢٠٨ اشارة
 ٢٠٨ [سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٩٥
 ٢١٠ ١٠١-سورة القارعة ص: ٣٩٨
 ٢١٠ اشارة
 ٢١٠ [سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٩٨
 ٢١١ ١٠٢-سورة التكاثر ص: ٤٠١
 ٢١١ اشارة
 ٢١١ [سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨] ص: ٤٠١
 ٢١٢ ١٠٣-سورة العصر ص: ٤٠٤
 ٢١٣ اشارة
 ٢١٣ [سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣] ص: ٤٠٤
 ٢١٤ ١٠٤-سورة الهمزة ص: ٤٠٦
 ٢١٤ اشارة
 ٢١٤ [سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩] ص: ٤٠٦
 ٢١٥ ١٠٥-سورة الفيل ص: ٤٠٩
 ٢١٥ اشارة
 ٢١٥ [سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٠٩
 ٢١٦ ١٠٦-سورة قريش ص: ٤١٢
 ٢١٧ اشارة

- ٢١٧ [سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤] ص: ٤١٢
 ٢١٨ ١٠٧-سورة الماعون ص: ٤١٤
 ٢١٨ اشارة
 ٢١٨ [سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧] ص: ٤١٤
 ٢١٩ ١٠٨-سورة الكوثر ص: ٤١٧
 ٢١٩ اشارة
 ٢١٩ [سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣] ص: ٤١٧
 ٢٢٠ ١٠٩-سورة الكافرون ص: ٤١٩
 ٢٢٠ اشارة
 ٢٢٠ [سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦] ص: ٤١٩
 ٢٢٣ ١١٠-سورة النصر ص: ٤٢٤
 ٢٢٣ اشارة
 ٢٢٣ [سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣] ص: ٤٢٤
 ٢٢٤ ١١١-سورة اللهب ص: ٤٢٦
 ٢٢٤ اشارة
 ٢٢٤ [سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٢٦
 ٢٢٥ ١١٢-سورة الإخلاص ص: ٤٢٩
 ٢٢٥ اشارة
 ٢٢٥ [سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤] ص: ٤٢٩
 ٢٢٧ ١١٣-سورة الفلق ص: ٤٣٢
 ٢٢٧ اشارة
 ٢٢٧ [سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٣٢
 ٢٢٨ ١١٤-سورة الناس ص: ٤٣٥
 ٢٢٨ اشارة

٢٢٩ [سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦] ص: ٤٣٥

٢٣١ تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

التبيان في تفسير القرآن المجلد ١٠

إشارة

سرشناسه: طوسي، محمد بن حسن، ق ٤٦٠ - ٣٨٥
 عنوان و نام پديد آور: التبيان في تفسير القرآن / تاليف ابى جعفر محمد بن الحسن الطوسي؛ قدم له آغا بزرگ الطهراني؛ تحقيق احمد حبيب قصير العاملى
 مشخصات نشر: بيروت: احيا التراث العربى، [١٩م. = ١٤ق. = ١٣].
 مشخصات ظاهري: ج ١٠
 وضعيت فهرست نويسى: فهرست نويسى قبلى
 يادداشت: كتابنامه
 موضوع: تفاسير شيعه — قرن ٥
 شناسه افزوده: عاملى، احمد حبيب قصير، محقق
 رده بندي كنكره: BP٩٤/ ط٩٢ ي الف ١٣٠٠
 شماره كتابشناسى ملي: م ٨١-٢٤٥٨٥

المجلد العاشر

٦٢-سورة الجمعة ص: ٣

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١ الى ٥] ص: ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)
 مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْإِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥)
 خمس آيات بلا خلاف.

لا خلاف بين القراء في هذه السورة إلا ما روى عن الأعمش انه قرأ «الجمعة» بسكون الميم. الباقون بضمها. وقد بينا معنى قوله «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» وبين وجه التكرار فيه. وإنما جاء - هاهنا - على لفظ المضارعة.
 وقوله «الْمَلِكِ» يعنى المالك للأشياء كلها ليس لاحد منعه منها «الْقُدُّوسِ» المستحق التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤
 للتعظيم بتطهير صفاته من كل صفة نقص «الْعَزِيزِ» معناه القادر الذى لا يقهر ولا يغلب «الْحَكِيمِ» فى جميع أفعاله.
 وقوله «هُوَ الَّذِي بَعَثَ» يعنى الله الذى وصفه بالصفات المذكورة هو الذى أرسل «فِي الْأُمَمِينَ» قال قتادة و مجاهد: الأميون العرب. و قال قوم: هم أهل مكة، لأنها تسمى أم القرى، و الامى منسوب إلى انه ولد من أمه لا يحسن الكتابة. و وجه النعمة فى جعل النبوة فى أمى موافقه ما تقدمت البشارة به فى كتب الأنبياء السالفة، و لما فيه من انه أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة.

وقوله «رسولاً» مفعول «بعث» و «منهم» يعنى من سميتهم الأُميين و من جملتهم «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ» أى يقرأ عليهم «آياته» أى حججه و بيناته من القرآن و غيرها «وَيُزَكِّيهِمْ» أى و يطهرهم من دنس الشرك بما يهديهم إلى الايمان فيجعلهم أذكىاء. و إنما يجعلهم كذلك بأن يدعوهم إلى طاعة الله التى يقع فيها الاجابة لأنه لو دعاهم و لم يجيبوا لما قيل: إنه زكاهم، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ» قال قتادة: يعلمهم القرآن و السنة، و الحكمة تعم الكتاب و السنة، و كل ما أَرادَه اللهُ، فان الحكمة هى العلم الذى يعمل عليه فيما يخشى او يحب من أمر الدين و الدنيا. «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ» يعنى من قبل أن يبعث فيهم و يتلو عليهم القرآن «لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى فى عدول عن الحق جائرين عن الصراط المستقيم مبين أى ظاهر.

وقوله «وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» قال ابن زيد و مجاهد: هم كل من بعد الصحابة إلى يوم القيامة، فان الله بعث النبى منهم و شريعته تلزمهم، و إن لم يلحقوا بزمان الصحابة. «وآخرين» نصب على تقدير و يزكى آخرين منهم، لما يلحقوا بهم. و يجوز ان يكون جزأً، و تقديره هو الذى بعث فى الأُميين و فى آخرين، «وَهُوَ الْعَزِيزُ» الذى لا يغالب «الْحَكِيمُ» فى جميع أفعاله و ما يأمر به. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥

وقوله «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (ذلك) إشارة إلى بعث الرسول بين الله تعالى ان إرساله الرسول (فضل) من (الله) و نعمة (يؤتيه) أى يعطيه (من يشاء) بحسب ما يعلمه من صلاحه مبعثه، و تحمل أعباء الرسالة (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) على عباده بما يفعل بهم من التفضل و الإحسان ساعة بعد ساعة.

وقوله «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» معنا (مثل الذين حملوا التوراة) يعنى العمل بها و بما فيها، فحفظوها و دونوها فى كتبهم ثم لم يعملوا بما فيها (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا) قال ابن عباس: الاسفار الكتب واحدا سفر، لأنها تكشف عن المعنى بإظهار حاله، يقال: سفر الرجل عن عمامته إذا كشف، و سمرت المرأة عن وجهها، و هى سافرة، و إنما مثلهم بالحمار لأن الحمار الذى يحمل كتب الحكمة على ظهره لا يدرى بما فيها، و لا يحس بها كمثله من يحفظ الكتاب و لا يعمل به، و على هذا من تلا القرآن و لم يفهم معناه و أعرض عن ذلك اعراض من لا يحتاج اليه كان هذا المثل لاحقاً به. و إن من حفظه و هو طالب لمعناه و قد تقدم حفظه فليس من أهل هذا المثل.

وقوله «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» معناه بس القوم قوم هذا مثلهم، و هم الذين كذبوا بحجج الله و بيناته. ثم قال (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يعنى الذين يظلمون نفوسهم بارتكاب المعاصى لا يحكم بهدايتهم و لا يرشدهم إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: [سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٦ الى ١١] ص: ٥

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَ لَا يَتَمَنَّوْهُ أَزِيداً بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرِّوْنَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)

وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوا قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦

ست آيات.

هذا أمر من الله تعالى للنبى صلى الله عليه و آله أن يخاطب اليهود، فيقول لهم (إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ) فالزعم قول عن ظن او علم، و لهذا صارت من أخوات (ظن) فى الظن و العلم و عملت ذلك العمل من الاعراب قال الشاعر:

فان تزعميني كنت أجهل فيكم فأنى شريت الحلم بعدك بالجهل «١»

و الأولياء جمع ولى، و هو الحقيق بالنصرة التى يوليها عند الحاجة، فالله ولى المؤمنين، لأنه يوليهم النصره عند حاجتهم. و المؤمن ولى الله لهذه العلة. و يجوز أن يكون لأنه يولى المطيع له بنصرته عند حاجته، فقال الله لهؤلاء اليهود: إن كنتم تظنون على زعمكم أنكم أنصار الله و أن الله ينصركم (فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(١) مر فى ١٦٨ / ٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧

فى ادعائكم أنكم أولياؤه دون الناس، فالتمنى هو قول القائل - لما كان - ليته لم يكن، و لما لم يكن: ليته كان. و هو من صفات الكلام. و قال بعضهم: هو معنى فى النفس.

ثم اخبر تعالى عن حالهم و كذبهم و اضطرابهم فى دعواهم، و انهم غير واثقين بما يدعونه فقال (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ) و معناه لا يتمنون الموت أبداً فيما بعد (بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ) مما لا يرجعون فيه إلى ثقة من التكذيب بالنبي صلى الله عليه و آله و التحريف لصفته فى التوراة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) أى عالم بأحوالهم و أفعالهم، لا يخفى عليه شىء منها. و فى الآية دليل على النبوة لأنه اخبر بأنهم لا يتمنون الموت أبداً، و ما تمنوه فكان ذلك اخباراً بالصدق قبل كون الشىء، و ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى.

و فيها بطلان ما ادعوه من انهم أولياء الله.

ثم قال للنبي صلى الله عليه و آله (قُلْ) لهم (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ) أى تهربون منه (فَبِأَنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) و إنما قال (فانه) بالفاء، و سواء فروا منه او لم يفروا منه فانه ملاقيهم، مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه لأنه إذا كان الفرار منه بمنزلة السبب فى ملاقاته فلا معنى للتعرض له لأنه لا يباعد منه قال زهير:

و من هاب اسباب المنايا ينلنه و لو رام أن يرقى السماء بسلم «١»

و هن ينلنه هابها او لم يهبها، و لكنه إذا كانت هيبته بمنزلة السبب للمنية كان لا معنى للهيبه. و قال قوم: تقديره قل إن الموت هو الذى تفرون منه فاجعلوا (الذى) فى موضع الخبر لا صلة. و يكون (فانه) مستأنف.

و قوله (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ) معناه ثم ترجعون الى الله تعالى

(١) مر فى ٥٢٦ / ٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨

يوم القيامة الذى يعلم سركم و علانيتكم و ظاهركم و باطنكم، لا يخفى عليه شىء من أحوالكم (فَيَسْبُغُكُمْ) أى يخبركم «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فى دار الدنيا و يجازيكم بحسبها على الطاعة بالثواب و على المعاصى بالعقاب، ثم خاطب المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) معناه إذا سمعتم أذان يوم الجمعة فامضوا إلى الصلاة. قال قتادة: معناه امضوا إلى الصلاة مسرعين غير متثاقلين و به قال ابن زيد و الضحاك. و قال الزجاج: المعنى فامضوا إلى السعى الذى هو الاسراع قال و قرأ ابن مسعود (فامضوا) إلى ذكر الله ثم قال: لو علمت الاسراع لأسرت حتى يقع ردائى عن كتفى. قال: و كذلك كان يقرأ (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) و أَنَّ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى) «١» يريد مضى فيه دون الاسراع. و مثله قوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) «٢» و فرض الجمعة لازم على جميع المكلفين إلا صاحب العذر: من سفر او مرض او عمى او عرج او آفة و غير ذلك. و عند اجتماع شروط و هى:

كون سلطان عادل او من نصبه السلطان للصلاة، و تكامل العدد - عندنا - سبعة، و عند قوم أربعين. و عند آخرين أربعة، و ثلاثة. و قد

بيننا الخلاف في ذلك في (خلاف الفقهاء).

و ظاهر الآية متوجه إلى المؤمنين و إنما يدخل فيه الفاسق على التغليب، كما يغلب المذكر على المؤنث، هذا على قول من يقول إن الفاسق ليس بمؤمن. فأما من قال: إنه مؤمن مع كونه فاسقاً، فالآية متوجهة اليهم كلهم. و قال مجاهد و سعيد ابن المسيب: المراد بالذكر موعظة الامام في خطبته. و قال غيرهما: يعنى الصلاة التي فيها ذكر الله. و قوله (وَ ذُرُّوا التَّبِيعَ) معناه إذا دخل وقت الصلاة اتركوا البيع و الشراء

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٩

(٢) سورة ٩٢ الليل آية ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩

قال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع و الشراء. و قال الحسن: كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة فانه بيع حرام، لا يجوز، و هو الذي يقتضيه ظاهر مذهبنا، لان النهي يدل على فساد المنهى عنه. ثم قال (ذَلِكُمْ) يعنى ما ذكره من السعى الى الصلاة (خَيْرٌ لَكُمْ) فى دينكم و انفع لكم عاقبه (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) صحه ما قلناه أى اعلموه.

و قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) أى إذا صليتم الجمعة فانتشروا فى الأرض طلباً لرزق الله. و صورته صورة الأمر و هو إباحة و إذن و رخصة- فى قول الحسن و الضحاك و ابن زيد و غيره- (وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) أى اطلبوا من فضل الله بعمل الطاعة و الدعاء به (وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) يا محمد على إحسانه و بالشكر على نعمه و التعظيم لصفاته (لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ) و معناه لتفلحوا و تفوزوا بثواب النعيم.

ثم اخبر تعالى عن حال جماعة كانوا مع النبي صلى الله عليه و آله و هو يخطب و هم معه يصلى بهم، فقال (وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) قال جابر بن عبد الله و الحسن: قدم غير لدحية الكلبى فيها طعام المدينة بعد ما أصابتهم مجاعة، فاستقبلوه باللهو و المزامير و الطبول- فى قول جابر بن عبد الله و مجاهد- و كانوا مع النبي صلى الله عليه و آله فى الصلاة فلما سمعوا صوت الطبول و المزامير (انْفَضُّوا) أى تفرقوا إلى العير يبصرونه و تركوا النبي صلى الله عليه و آله وحده قائماً، فقال الله لنبيه صلى الله عليه و آله (قُلْ) لهم يا محمد (مَا عِنْدَ اللَّهِ) من الثواب على سماع الخطبة و حضور الموعظة (خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ) و انفع و احمد عاقبه «وَ اللَّهُ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ» أى ليس يفوتهم بترك البيع شىء من رزق الله، و التقدير و إذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها و تركوك التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠

أى اليه، و إنما قيل (إِلَيْهَا) لأنها كانت أهم اليهم، ذكره الفراء. و قيل: تقديره و إذا رأوا لهواً أو تجارة انفضوا إليها، فرد الضمير الى اقرب المذكورين، لأنه كان أهم اليهم، و كذلك قرأ ابن مسعود فى مصحفه.

٦٣- سورة المنافقون ص: ١٠

إشارة

مدنية بلا خلاف و هو قول ابن عباس و عطا و الضحاك و هى احدى عشرة آية بلا خلاف.

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٥] ص: ١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهَمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعِيدُ فَاحْذَرْهُمْ فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنْتَى يُؤَفِّكُونَ (٤)

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَعْفِفْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْأَوْ رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١

خمس آيات.

قرأ «خشب» خفيفة ابن كثير و ابو عمرو و الكسائي. و قرأ الباقون «خشب» مثقل. و قرأ نافع و روح و زيد «لوا رؤسهم» خفيفة. الباقون «لوا» مشددة.

يقول الله تعالى لنبية صلى الله عليه و آله «إِذَا جَاءَكَ» يا محمد «الْمُنَافِقُونَ» و هم الذين يظهرن الايمان و يبطنون الكفر «قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» أى أخبروا بأنهم يعتقدون إنك رسول الله. فقال الله تعالى لنبية «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» على الحقيقة «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» فى قولهم إنهم يعتقدون إنك لرسول الله، و كان إكذابهم فى اعتقادهم و أنهم يشهدون ذلك بقلوبهم و لم يكونوا فيما يرجع الى ألسنتهم، لأنهم شهدوا بها بألسنتهم و هم صادقون فى ذلك و فى ذلك دلالة على بطلان قول من يقول إن المعرفة ضرورية. و كسرت (إن) لأجل اللام التى هى لام الابتداء التى فى الخبر، لان لها صدر الكلام. و إنما زحلت عن موضعها إلى موضع الخبر لثلاث تجمع بين حرفى تأكيد، و كانت أحق بالتأخير، لأنها غير عامة. و إنما كان لها صدر الكلام، لأنها نقلت الجملة إلى معنى التأكيد و كل حرف نقل الجملة عن معنى إلى معنى كان له صدر الكلام، لثلاث تختلط الجمل.

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء المنافقين فقال «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً» أى ستره يتسترون بها من الكفر لثلاث- يقتلوا و لا- يسبوا و لا- تؤخذ أموالهم. و الجنة السترة المتخذة لدفع الأذى كالسلاح المتخذ لدفع الجراح، فالجنة السترة، و الجنة البستان الذى يجنه الشجر. الجنة الجنون الذى يغطى على العقل. و اصل ذلك كله الستر «فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى منعوا غيرهم عن اتباع سبيل الحق. و قال الضحاك: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢

أيمانهم حلفهم إنهم لمنكم. و قرئ «إيمانهم» بكسر الهمزة بمعنى أنهم اتخذوا تصديقهم ظاهراً جنه، فقال تعالى «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و معناه بسس الذى يعملونه من اظهار الايمان مع إبطان الكفر و الصد عن السبيل. و قال زيد بن أرقم: نزلت الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول، لما قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا و قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأغر منها الأذل، فلما وقف على ذلك جرده و حلف انه ما قاله حتى نزلت السورة. و قوله «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا» بألسنتهم عند الإقرار ب (لا إله إلا الله محمد رسول الله) «ثُمَّ كَفَرُوا» بقلوبهم لما كذبوا بهذا و هو قول قتادة «فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» أى ختم عليها بسمه تميز الملائكة بينهم و بين المؤمنين على الحقيقة «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» ذلك بجحدهم توحيد الله و نفاقهم و إنكارهم نبوه رسوله الذى دعاهم الى الحق.

ثم قال: «وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ» بحسن منظرهم و جميل زيهم «وَ إِنْ يَقُولُوا» يعنى هؤلاء المنافقون «تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ» أى تصغى اليهم و تسمع ما يقولون بحسن بيانهم و بلاغه لسانهم، فقال تعالى «كَأَنَّهَمْ خَشَبٌ مَسْنَدَةٌ» فشبهم الله بالخشب المسندة، قيل: إنهم شهبو بخشب نخرة متأكلة لا خير فيها إلا أنها مسندة يحسب من يراها أنها صحيحة سليمة. و خشب جمع خشبه مثل بدن و بدنه فيمن سكن. و من ضم قال: مثل ثمره و ثمر. ثم وصفهم بالخور و الهلع فقال «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» أى يظنون أنها مهلكتهم، و أنهم المقصودون بها جنباً و خوراً.

ثم قال لنبية صلى الله عليه و آله «هُمُ الْعِيدُ» لك و للمؤمنين «فَاحْذَرْهُمْ» و توقهم «فَاتْلَهُمْ اللَّهُ» و قيل: معناه أخزاهم الله. و قيل: معناه أحلهم الله محل من يقاتله عدو قاهر له، و هذا أشد ما يكون من الذم و البلاء الذى ينزل بهم و أبلغ ما يكون فى البيان عن مكروهم

«أَنْتَى يُؤْفَكُونَ» أى كيف يصرفون عن الحق. و إنما قال «فَاخَذَرُهُمْ» التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣

لأنهم كانوا ينقلون الاسرار إلى الكفار و يحيون من قدروا عليه من أهل الكفر.

ثم اخبر تعالى فقال «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» يعنى لهؤلاء المنافقين «تَعَالَوْا» أى هلموا «يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أَوْ رُؤْسِهِمْ» و معناه أكثروا تحريكها بالهز لها استهزاء بدعائهم الى ذلك.

فمن شدد أراد تكثير الفعل. و ممن خفف فلانه يدل على القليل و الكثير.

ثم قال: و رأيتهم يا محمد «يَصُدُّونَ» عن سبيل الحق (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) أى يطلبون الكبر و يتجبرون عن إتباع الحق.

قوله تعالى: [سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٦ الى ١١] ص: ١٣

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠)

وَ لَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤

ست آيات.

قرأ ابو عمرو وحده (و أكون) بالواو، الباقون (و أكن) و فى المصحف بلا واو فليل لابي عمرو: لم سقطت من المصحف؟. فقال كما كتبوا: (كلهن) و قرأ يحيى عن أبى بكر (يعملون) بالياء، الباقون بالتاء. و من قرأ بالياء فعلى الخبر، و من قرأ بالتاء فعلى الخطاب. لما اخبر الله تعالى عن حال المنافقين، و انه «إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ» حركوا رؤسهم استهزاء بهذا القول، فقال الله تعالى لنبىه صلى الله عليه و آله (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) أى يتساوى الاستغفار لهم و عدم الاستغفار (لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) لأنهم يبتغون الكفر و إن أظهروا الايمان، و بين انه تعالى (لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) الى طريق الجنة، فهذا يجب ان يأسوا من المغفرة بالاستغفار.

و قال الحسن: اخبر الله تعالى أنهم يموتون على النفاق، فلم يستغفر لهم بعد.

وقيل: المعنى لا يحكم الله بهدايتهم، و قد كان النبى صلى الله عليه و آله يستغفر لهم على ظاهر الحال بشرط حصول التوبة و أن يكون باطن المستغفر له مثل ظاهره، فبين بها أن ذلك لا ينفع مع ابطانهم الكفر و النفاق.

ثم حكى تعالى عنهم فقال (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ) يعنى بعضهم لبعض لا تنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه و آله من المؤمنين المحتاجين (حَتَّى يَنْفَضُوا) عنه و معناه حتى يتفرقوا عنه لفرهم و حاجتهم. و الانفضاض التفرق، و فض الكتاب إذا فرقه و نشره، و

سميت الفضة فضة لتفرقها فى أثمان الأشياء المشترأه. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥

فقال الله تعالى (وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) بمعنى له مقدراته فى السموات و الأرض، لان فيها كل ما يشاء إخراجها، و له خزائن السموات و الأرض يخرج منهما ما يشاء. و هى داخله فى مقدراته، و الخزائن - بكسر الخاء - موضع يخبأ فيه الامتعة، و إذا كان لله خزائن السموات و الأرض، فلا يضررك يا محمد ترك إنفاقهم بل لا يضرهم إلا أنفسهم دون اولياء الله و المؤمنين الذين يسبب الله قوتهم و لو شاء الله تعالى لأغنى المؤمنين، و لكن فعل ما هو أصلح لهم و تعبدتهم بالصبر على ذلك لينالوا منزلة الثواب (وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) ذلك على الحقيقة لجهلهم بعقاب الله تعالى.

ثم اخبر عنهم فقال (يَقُولُونَ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ) يعنون نفوسهم (مِنْهَا الْأَذَلُّ) يعنون رسول الله و المؤمنين. وقيل: إن القائل لذلك في غزوة المريسيع، كان عبد الله بن أبي بن سلول، فقال الله تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) دون المنافقين و الكفار (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك فيظنون ان العزة لهم، و ذلك بجهلهم بصفات الله و ما يستحقه أولياؤه و ما يعمل بهم. و الأعز الأقدر على منع غيره و أصل الصفة المنع فلذلك لم يكن أحد أعز من الله و لا أذل من المنافق.

ثم خاطب المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ) أى لا تشغلكم أموالكم (وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) قال قوم الذكر المأمور به هو ذكر الله بالحمد و الشكر و التعظيم بصفاته العليا و أسمائه الحسنی، و يقال: ألهيته عن الأمر إذا صرفته عنه بما يمنعه قال امرؤ القيس:

فمثلك حبلی قد طرقت و مرضع فألهيتها عن ذی توائم محول «١»

(١) ديوانه (السندوبى) ١٤٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦

و قال قوم: ذكر الله جميع فرائضه ثم قال (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) أى من شغله ماله او ولده عن ذكر الله (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الذين خسروا ثواب الله و حصل لهم عقابه. ثم أمرهم بأن ينفقوا مما رزقهم الله فيما تجب عليهم النفقة فيه من الزكاة و الجهاد و الحج و الكفارات و غير ذلك من الواجبات. و فى ذلك دليل على ان الحرام ليس برزق من الله، لان الله لا يأمر بالمعصية بالإنفاق، و لأنه ينهى عن التصرف فيه بلا خلاف (مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) أى هلا. وقيل: معناه إنه يتمنى أن يرد الى دار الدنيا، و انما جاز التمنى ب (لو لا)، لأن أصلها التقدير، و التمنى تقدير الخير للاستمتاع (فاصدق) و معناه فأتصدق، و أنفق فى سبيل الله (وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) أى من الذين يعملون الأفعال الحسنه. و فى ذلك دليل على ان المقدره قبل الفعل، لأنهم تمنوا ان يؤخروا ليعملوا ما كانوا قادرين عليه متمكنين منه. و دليل على ان الله تعالى لا يخلق الكفر و النفاق فيهم، لأنه لو فعل ذلك كان لا معنى لتمنى التأخير و الرد بل الواجب أن يطلبوا منه تعالى ان يكف عنهم الكفر و يخلق فيهم الايمان و قدرته بدل الكفر و قدرته.

و قوله (فاصدق) انتصب بأنه جواب التمنى بالفاء، و كل جواب بالفاء نصب، إلا جواب الجزاء، فانه رفع على الاستئناف، لان الفاء فى الجزاء و صلة الى الجواب بالجملة من الابتداء و الخبر. و انما نصب الجواب بالفاء للإيدان بأن الثانى يجب بالأول بدلالة الفاء فى الجواب، و ليس يحتاج الى ذلك فى الجزاء من قبل ان حرف الجزاء يكفى فى الدلالة. و من قرأ (و أكن) فجزم عطف على موضع الفاء، لأنها فى موضع جزم. و من قرأ (و أكون) عطف على لفظ (فاصدق).

ثم قال (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) يعنى الأجل المطلق الذى التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧

حكم بأن الحى يموت عنده. و الأجل المقيّد هو الوقت المحكوم بأن العبد يموت عنده ان لم يقطع عنه او لم يزد عليه او لم ينقص منه على ما يعلمه الله من المصلحة. ثم قال (وَاللَّهُ خَبِيرٌ) أى عالم (بِمَا تَعْمَلُونَ) فمن قرأ بالياء أراد عالم بعملهم على لفظ الغيبة. و من قرأ بالتاء أراد بعملكم على الخطاب أى قل لهم.

٦٤-سورة التغابن ص: ١٧

إشارة

مدنية بلا خلاف- فى قول ابن عباس و عطاء و الضحاك- و هى ثمان عشرة آية بلا خلاف

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٥] ص: ١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)
خمس آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨

قد فسرنا معنى قوله «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» وأن المراد بها ما في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الأدلة الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وأنه منزّه عن القبائح وصفات النقص، فعبر عن ذلك بالتسبيح من حيث كان معنى التسبيح التنزيه لله عما لا يليق به.

وقوله «لَهُ الْمُلْكُ» معناه انه المالك لجميع ذلك والمتصرف فيه بما شاء، ولا أحد يمنعه منه، وله الحمد على جميع ذلك، لأن خلق ذلك أجمع للإحسان إلى خلقه به والنفع لهم فاستحق بذلك الحمد والشكر «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يعنى مما يصح أن يكون مقدوراً له، فلا يدخل في ذلك مقدور العباد، لأنه يستحيل أن يكون مقدوراً لله.

وقوله «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» معناه هو الذى اخترعكم وأنشأكم بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» معناه فمنكم من يختار الكفر بسوء اختياره ومنكم مؤمن بحسن اختياره للايمان. وقال الحسن: فيه محذوف وتقديره فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق. وقال غيره: ليس فيه حذف، لأن الغرض ذكر الطرفين لا المنزلة بين المنزلتين كما أن قوله «خلقكم» خطاب يتوجه إلى جميع الخلق. وإن كان منهم الأطفال والمجانين الذين لا حكم لهم بالايمان ولا بالكفر.

وقال الزجاج: معناه «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ» بالله بأن الله خلقه «وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» بذلك.

وقوله «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» معناه -ها هنا- أنه خلق الكافر، وهو عالم بما يكون منه من الكفر، وكذلك خلق المؤمن وعلم بما يكون منه من الايمان، وكل ذلك على وجه الإحسان فى الفعل الذى يستحق به الحمد والشكر. ثم قال «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» بمعنى اخترعهما وأنشأهما «بِالْحَقِّ» أى للحق وهو انه التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩

خلق العقلاء تعريضاً لهم للثواب العظيم، وما عداهم خلق تبعاً لهم لما فيه من اللطف. وهذا الغرض لا يتأتى إلا على مذهب العدل، وأما على مذهب الجبر فلا.

«وَصَوَّرَكُمْ» متوجه الى البشر كلهم «فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» معناه من الحسن الذى يقتضيه العقل لا فى قبول الطبع له عند رؤيته، لان فيهم من ليس بهذه الصفة. وقال قوم: لا بل هو من تقبل الطبع لأنه إذا قيل: حسن الصورة لا يفهم منه إلا تقبل الطبع، وسيبيله كسيل قوله «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (١) وإن كان فيهم المشوه الخلق لأن هذا عارض لا يعتد به فى هذا الوصف، والله تعالى خلق الإنسان على أحسن صورة الحيوان كله. والصورة عبارة عن بنية مخصوصة كصورة الإنسان والفرس والطيور وما أشبه ذلك.

ثم قال «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» يعنى اليه المرجع يوم القيامة واليه المآل. ثم قال «يَعْلَمُ» يعنى الله تعالى بعلم «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من الموجودات «وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ» أى ما تظهرونه وما تخفونه. وقيل: ما يسره بعضكم إلى بعض وما تخفوه فى صدوركم عن غيركم. والفرق بين الاسرار والإخفاء أن الإخفاء أعم لأنه قد يخفى شخصه وقد يخفى المعنى فى نفسه والاسرار والمعنى دون الشخص «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» معناه وهو عالم باسرار الصدور وبواطنها.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله والمؤمنين فقال «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» يعنى من قبل هؤلاء الكفار «فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ» أى بما سلطه الله عليهم بأن أهلكهم الله عاجلاً واستأصلهم «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى مؤلم يوم القيامة.

قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ٦ الى ١٠] ص: ١٩

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْجَلَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ (١٠)

(١) سورة ٩٥ التين آية ٤ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠
خمس آيات.

قرأ رويس عن يعقوب «نجمعكم» بالنون على الاخبار من الله عن نفسه.
الباقون بالياء على تقدير يوم يجمعكم الله.

(أَبَشَرٌ) لفظه لفظ الواحد والمراد به الجمع بدلالة قوله (يَهْدُونَنَا) لأنه على طريق الجنس الذي لا يجمع ولا يثنى.
لما قرر الله تعالى خلقه بأنهم جاءهم اخبار من مضي من الكفار وأن الله تعالى أهلكتهم بكفرهم، بين لم أهلكتهم فقال (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ) أى تجيئهم رسلهم من الله بالحجج الواضحات (فَعَالُوا) لهم (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) وقد بينا أن لفظ (بشر) واحد والمراد به الجمع، ومعناه أخلق مثلنا يهدوننا إلى الحق؟! متعجبين من ذلك مستهزئين به (فَكَفَرُوا) بالله ووجدوا رسله (وَتَوَلَّوْا) أى عرضوا عن القبول منهم (وَاسْتَعْجَلَى اللَّهُ) ومعناه أن الله لم يدعهم الى عبادته لحاجته اليهم، لأن الله تعالى غنى عنهم وعن غيرهم، و إنما دعاهم لما يعود عليهم بالنفع حسب التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١
ما تقتضيه حكمته فى تدبيرهم (وَاللَّهُ غَنِيٌّ) عن جميع خلقه (حَمِيدٌ) على جميع أفعاله لأنها كلها إحسان. وقيل (حميد) يدل على أنه يجب على عباده أن يحمدوه.

ثم حكى ما يقول الكفار فقال (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله ووجدوا رسله فقال المؤرج: (زعم) معناه كذب فى لغة حمير. وقال شريح (زعم) كنية الكذب والحدة كنية الجهل (أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا) أى لا يحشرهم الله فى المستقبل للحساب والجزاء ف (قل) لهم يا محمد صلى الله عليه وآله (بلى وَرَبِّي) أى وحق ربي، على وجه القسم (لَتُبْعَثُنَّ) أى لتحشرن (ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ) أى لتخبرن (بِمَا عَمِلْتُمْ) من طاعه و معصية (وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) سهل لا يتعذر عليه ذلك، وإن كثروا وعظموا فهو كالقليل الذى لا يشق على من يأخذه لخفته أمره، و مثله قوله (مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً) «١» وأصله من تيسير الشئ بمروره على سهوله.

ثم قال (فَأَمِنُوا بِاللَّهِ) معاشر العقلاء (وَرَسُولِهِ) أى وآمنوا برسوله (وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا) يعنى القرآن، سماه نوراً لما فيه من الأدلة و الحجج الموصلة الى الحق فشبّهه بالنور الذى يهتدى به على الطريق (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه خافية منها.

وقوله (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ) تقديره واذكروا يوم يجمعكم (لِيَوْمِ الْجَمْعِ) وهو يوم القيامة. وقوله (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) و التغابن هو التفاوت فى أخذ الشئ بدون القيمة، والذين أخذوا الدنيا بالآخرة بهذه الصفة فى أنهم أخذوا الشئ بدون القيمة، فقد غبنوا أنفسهم بأخذ النعيم المنقطع بالدائم و اغبنهم الذين اشتروا الآخرة بترك الدنيا المنقطع اليها من هؤلاء الذين تغابنوا عليها، وقال مجاهد و قتادة: يوم التغابن غبن أهل الجنة أهل النار.

ثم قال (وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا) أى من يصدق بالله ويعترف

(١) سورة ٣١ لقمان آية ٢٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢

بوحدايته وإخلاص العبادة له و يقَرُّ نبوة نبيه و يضيف إلى ذلك أفعال الطاعات (يُكْفِرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) أى يكفر عنه سيئاته التى هى دونها، و يتفضل عليه بإسقاط عقاب ما دونها من المعاصى (وَيَدْخُلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) يعنى بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار (خَالِدِينَ فِيهَا) أى مؤبدين لا يفنى ما هم فيه من النعيم أبداً (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى النجاح الذى ليس وراءه شىء من عظمه.

ثم قال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بالله و جحدوا وحدايته و أنكروا نبوة نبيه و كذبوا بمعجزاته التى هى آيات الله (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى بئس المآل و المرجع. و قرأ (نكفر، و ندخله) بالنون أهل المدينة و أهل الشام على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه. الباقرن بالياء على تقدير يكفر الله عنهم و يدخلهم.

قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٢٢

ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعِدْوَاتِكُمْ فَأَحِبُّوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَعُوا وَاغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥)

خمس آيات.

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه انه ليس يصيبكم مصيبة إلا بإذن الله. و المصيبة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣

المضرة التى تلحق صاحبها كالرمة التى تصيبه، و منه الصواب بأنه أصابه الحق كالرمة فى اصابه البغيء. و قيل: إنما عمم قوله (ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) و فى المصائب ما هو ظلم، و الله لا يأذن فى الظلم، لأنه لا يحسن فى الحكمة، الا ترى انه ليس منها إلا ما أذن الله فى وقوعه او التمكن منه و ذلك أذن للملك الموكل به كأنه قيل له لا تمنع من وقوع هذه المصيبة. و قد يكون ذلك بفعل التمكن من الله كأنه يأذن له ان يكون. و قال البلخى: معناه إلا بتخليء الله بينكم و بين من يريد فعلها. و قال قوم: هو خاص فيما يفعله الله تعالى او يأمر به، و يجوز أيضاً ان يكون المراد بالأذن- هاهنا- العلم، فكأنه قال لا يصيبكم من مصيبة إلا و الله تعالى عالم بها. ثم قال (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ) أى من يصدق بالله و يعترف بوحدانيته (يَهْدِ قَلْبَهُ) أى يحكم بهدايته. و يجوز ان يكون المراد يشرح صدره للايمان. و قيل: معناه يهدى قلبه بأن المصيبة بإذن الله- ذكره ابن عباس و علقمة- قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيسلم و يرضى و يعلم أنها من عند الله، و قال الفراء: هو أن يقول: إِنَّا لِلَّهِ وَاِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، و قال غيره: معناه إذا ابتلى صبر، و إذا أنعم عليه شكر، و إذا ظلم غفر.

و قرأ ابو بكر (يهد قلبه)- بفتح الدال- بمعنى يسكن قلبه (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لا يخفى عليه شىء من ذلك. ثم أمرهم فقال (وَأَطِيعُوا اللَّهَ) فيما أمركم به (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) فيما أمركم به و نهاكم عنه (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أى فان أعرضتم عن القبول منه و توليتم عن الحق فليس على رسولنا قهركم الى الرد الى الحق (فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) الظاهر، و حذف ايجازاً ثم قال (اللَّهُ) الذى يحق له العبادة (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فالتوكل هو تفويض الامر الى الله بأنه يتولاه على الحق فيه و قد أمر الله بالتوكل عليه فينبغى للمسلم أن يستشعر التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤

ذلك فى سائر أحواله. و قال قوم: التوكل تفويض الأمر إلى مالكة لتدبره بالحق فيه. و الوكيل المالك للتدبير فيمن فوض الامر اليه

فيه.

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) قال ابن عباس: نزلت الآية في قوم اسلموا بمكة وأرادوا الهجرة فمنعواهم من ذلك، وقال عطاء بن بشار: نزلت في قوم أرادوا البر فمنعهم هؤلاء. وقال مجاهد: هي في قوم إذا أرادوا طاعة الله منعهم أزواجهم وأولادهم فبين الله تعالى أن في هؤلاء من هو عدو لكم في الدين فاحذروهم فيه. و (من) دخلت للتبعيض لأنه ليس حكم جميع الأزواج والأولاد هذا الحكم، والعداوة المباحدة من الخير بالبغضة ونقيضها الولاية وهي المقاربة من الخير بالمحبة. والاذن الإطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالاذن، فهذا أصله، ثم قد يتسع فيه بما يقارب هذا المعنى.

ثم قال (وَإِنْ تَغْفُوا) يعني تتركوا عقابهم (وَ تَصِفُّوْا) و تعرضوا عما كان منهم (وَ تَغْفُرُوا) أى تستروا ذنوبهم إذا تابوا و اقلعوا عنها «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» أى ستار على خلقه «رَحِيمٌ» بهم.

ثم قال نِّمَّا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فِتْنَةٌ

أى محنة و ابتلاء. و قال قتادة:

يعنى بلاء. و الفتنة المحنة التى فيها مشقة تمنع النفس عما تدعو اليه الشهوة الله عنده أجر عظيم
أى ثواب جزيل على الصّبح و العفو و غيرهما من الطاعات.

قوله تعالى: [سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٦ الى ١٨] ص: ٢٤

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥

ثلاث آيات.

هذا أمر من الله تعالى للمكلفين يأمرهم بأن يتقوه بأن يتركوا معاصيه و يفعلوا طاعاته. فالإتقاء الامتناع من الردى باجتناب ما يدعو اليه الهوى، يقال: اتقاه بالترس إذا امتنع منه بأن جعله حاجزاً بينه و بينه. و قوله «مَا اسْتَطَعْتُمْ» معناه اتقوه بحسب طاقتكم، فان الله تعالى لا يكلف نفساً ما لا- تطيقه، و إنما يكلفها ما تسعه له، و لا ينافى هذا قوله «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» «١» لان كل واحد من الأمرين إنما هو إلزام ترك جميع معاصيه فمن ترك جميع المعاصى فقد اتقى عقاب الله، لان من لم يفعل قبيحاً و لا أحل بواجب فلا عقاب عليه إلا أن فى احد الكلامين تبيين أن التكليف لا يلزم العبد إلا فيما يطيق. و هذا يقتضى أن اتقاه فيما وقع من القبيح ليس بأن لا يكون وقع و إنما هو بالندم عليه مع العزم على ترك معاودته. و كل أمر يأمر الله به فلا بد من أن يكون مشروطاً بالاستطاعة، فان كانت الاستطاعة غير باقية على مذهب من يقول بذلك، فالأمر بما يفعل فى الثالث. و ما بعده مشروط بأن يفعل له استطاعة قبل الفعل بوقت و إلا لا يكون مأموراً بالفعل، و إن كانت ثابتة فالأمر على صفة الاستطاعة، لأنه لا يصح الشرط بالموجود، لان الشرط يحدث، فليس يخلو من ان يكون على شريطة وقوع القدرة او على صفة وجود القدرة و قال قتادة قوله تعالى «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» ناسخ لقوله «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» كأنه يذهب إلى أن فيه رخصة لحال التقي و ما جرى مجراها مما يعظم فيه المشقة

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦

و إن كانت معه القدرة على الحقيقة. و قال غيره: ليس بناسخ، و إنما هو مبين لإمكان العمل بهما جميعاً. و هو الصحيح، لأن تقديره: اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم و قوله «وَاسْمَعُوا» أى اصغوا إلى ما يأمركم الله به «وَ أَطِيعُوا» فيما أمركم به «وَ أَنْفِقُوا» فيما أمركم

بالإنفاق فيه من الزكاة والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك «خَيْراً لِّأَنْفُسِكُمْ» انتصب (خيراً) بفعل محذوف يدل عليه (أنفقوا) وتقديره و أنفقوا الإنفاق خيراً لأنفسكم، ومثله أنتهوا خيراً لكم، وهو كقولهم: و ذاك أوسع لك لأنك إذا أمرته بشيء فهو مضمن بأن يأتي خيراً له.

وقوله «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ» أى من منع و وقى شح نفسه. و الشح منع الواجب فى الشرع. و قيل: الشح منع النفع على مخالفته العقل لمشقة البذل، و مثله البخل يقال: شح يشح شحاً فهو شحيح و شحاح. و قال ابن مسعود: من الشح أن تعمد الى مال غيرك فتأكله. و قوله «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» معناه إن من وقى شح نفسه و فعل ما أوجه الله عليه فهو من جملة المنجحين الفائزين بثواب الله. و قوله «إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا» و القرض أخذ قطعة من المال بتمليك الآخذ له على رد مثله و أصله القطع: من قرض الشيء يقرضه قرضاً إذا قطع منه قطعة. و ذكر القرض فى صفة الله تطفافاً فى الاستدعاء إلى الإنفاق فى سبيل الله، و هو كالقرض فى مثله مع أضعافه. و لا- يجوز أن يملك الله- عز و جل- لأنه مالك للأشياء من غير تملكك و لأن المالك لا يملك ما هو مالكة. و قوله «يُضَاعَفُ لَكُمْ» أى يضاعف ثوابه لكم بأمثاله. و من قرأ «يضعفه» بالتشديد، فلان الله تعالى بذل بالواحد عشرة إلى سبعين و سبعمائة «وَيَغْفِرُ لَكُمْ» أى و يستر عليكم ذنوبكم و لا يفضحكم بها «وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ» أى يجازى على الشكر «حليم» لا يعاجل العباد بما يستحقونه من العقاب. و قوله التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧

«عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أى يعلم السر و العلانية و هو «الْعَزِيزُ» الذى لا يغالب «الْحَكِيمُ» فى جميع أفعاله و (الشكور) فى صفة الله مجاز و معناه إنه يعامل المطيع فى حسن الجزاء معاملة الشاكر و (الحلم) ترك المعاجلة بالعقوبة لداعى الحكمة. و (الغيب) كون الشيء بحيث لا يشاهده العبد. و (الغائب) نقيض الشاهد و هو «الحكيم» فى جميع أفعاله. و قرأ «يضعفه» بالتشديد ابن كثير و ابن عامر. الباقر «يضعفه» و قد مضى تفسيره.

٦٥-سورة الطلاق ص: ٢٧

إشارة

مدنية فى قول ابن عباس و عطاء و الضحاک و غيرهم و هى اثنتا عشرة آية فى الكوفى و المدنيين و عشر فى البصرى.

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥] ص: ٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَ اللَّائِي يَنْسَأَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ
أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨

خمس آيات.

قرأ حفص عن عاصم و نافع «بالغ أمره» على الاضافة. الباقون «بالغ» منون «أمره» منصوب، و قد بينا نظائر ذلك فيما مضى. و قيل: إنه إذا نون معناه انه تعالى بالغ مراده، و إذا أضيف فمعناه أن أمره تعالى يبلغ، فيكون اضافة الى الفاعل. يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه و المراد به أمته «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» و معناه إذا أردتم طلاق النساء، كما قال «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» (١) و روى عن ابن عباس انه قال: نزل القرآن بإياك أعنى و اسمعى يا جارة، فيكون الخطاب للنبي و المراد به الأمة من ذلك. و قال قوم: تقديره يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم

(١) سورة ٥ المائدة آية ٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩

النساء، فعلى هذا القول: النبي يكون خارجاً من الحكم. و قال آخرون: هو على خطاب الرئيس الذى يدخل فيه الاتباع، فعلى هذا حكم النبي حكم أمته فى هذا الحكم و أجمعت الأمة على أن حكم النبي حكم الامة فى الطلاق. و الطلاق فى الشرع عبارة عن تخلية المرأة بحل عقده من عقد النكاح بأن يقول: أنت طالق يخاطبها او يقول هذه طالق و يشير اليها أو فلانة طالق بنت فلان. و عندنا لا يقع الطلاق إلا بهذا اللفظ المخصوص، و لا يقع بشيء من الكنايات طلاق أراد بها الطلاق أو لم يرد.

و فيه خلاف ذكرناه فى الخلاف. و اما الفراق فقد يحصل بغير الطلاق، كالارتداد و اللعان و الخلع - عند كثير من أصحابنا- و إن لم يسم ذلك طلاقاً. و أما فسخ النكاح بالرد بالعيب. فقد يحصل بأشياء و لا يسمى طلاقاً. و من شرط وقوع الطلاق - عندنا- أن تكون المرأة طاهراً طهراً لم يقربها فيه بجماع بمحضر من شاهدين، و يقصد به إيقاع الطلاق، و يتلفظ بما قدمناه. فحينئذ يقع طلاقه تطليقة واحدة و هو أملك برجوعها ما لم تخرج من العدة. فان خرجت قبل ان يراجعها كان كواحد من الخطاب و متى تلفظ بثلاث تطليقات، فان كانت المرأة طاهراً مع باقى الشروط وقعت واحدة. و خالف جميع الفقهاء فى ذلك. و قالوا: يقع الثلاث. ثم اختلفوا فقال الشافعى، و من وافقه: و يكون ذلك مسنوناً. و قال اهل العراق: المسنون ان يطلقها طلقه واحدة بلفظ واحد، و متى أوقع ثنتين او ثلاثاً وقع. و أما غير المدخول بها فعند جميعهم يقع الثلاث، و لا عدة عليها، و عندنا لا يقع إلا واحدة، و فى أصحابنا من يقول: من تلفظ بالثلاث لا يقع شيء، و الاعتماد على ما قلناه أولاً، و متى طلقها ثلاثاً أو واحدة، و هى حائض و كان قد دخل بها و لا يكون غائباً عنها شهراً فصاعداً لا يقع عندنا شيء أصلاً. و قال جميع الفقهاء: هو بدعة.

و تبين المرأة بذلك. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠

و قوله تعالى «فَطَلَّقُوهُنَّ لِغَيْرَتِهِنَّ» معناه أن يطلقها و هى طاهر من غير جماع و يستوفى باقى الشروط. و قال ابن عباس: هو أن يطلقها طاهراً من غير جماع.

و به قال مجاهد و الحسن و ابن سيرين و قتادة و الضحاك و السدى، فعلى هذا متى طلقها فى الحيض فلا يقع طلاقها، لأنه خلاف المأمور به، و هو منهى عنه، و النهى يدل على فساد المنهى عنه و عند الفقهاء إنه يقع الطلاق، و إن كان بدعة.

ثم قال «وَ أَحْضُوا الْعِدَّةَ» فالعدة قعود المرأة عن الزواج حتى تنقضى المدة المرتبة فى الشريعة، و عدة المرأة على ضروب: أحدها - عدة التى لم تبلغ المحيض، و مثلها لا تحيض، و هى التى لم تبلغ تسع سنين، فهذه لا عدة عليها - عند أكثر أصحابنا - و فيهم من قال عدتها بالشهور، و به قال باقى الفقهاء. و عدة التى لا تحيض و مثلها تحيض ثلاثة أشهر بلا خلاف.

و عدة التى تحيض ثلاثة أقرء و هى الاطهار - عندنا و عند كثير من الفقهاء - و عند قوم انها الحيض.

و عدة التى ارتفع حيضها و مثلها تحيض ثلاثة أشهر بلا خلاف. و قد حد ذلك أصحابنا بأن يكون سنهأ أقل من خمسين سنهأ.

و عدة الآيسة من المحيض و مثلها لا تحيض، فلا عدة عليها - عند أكثر أصحابنا - و قال قوم: عدتها بالأشهر، و حد ذلك أصحابنا بأن يزيد سنهأ على خمسين سنهأ، و القرشية حدوها بستين سنهأ فصاعداً.

وعدة الحامل وضع ما في بطنها إذا كانت عدة الطلاق، فان كانت عدة الوفاة فأبعد الأجلين من وضع الحمل او مضى أربعة أشهر و عشرة أيام. و هو مذهب على عليه السلام و ابن عباس. و قال الفقهاء عدة المتوفى عنها زوجها وضع ما في بطنها و قوله «وَأَخْصُوا الْعِدَّةَ» يعني مدة زمان العدة. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١

ثم قال «وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ» بان لا ترتكبوا المعاصي «لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ» يعني زمان العدة، لأنه لا يجوز إخراجها من بيتها- و عندنا و عند جميع الفقهاء- يجب عليه السكنى و النفقة و الكسوة إذا كانت المطلقة رجعية، فان كانت بائناً فلا نفقة لها و لا سكنى. و قال الشافعي: فلا نفقة لها و لا سكنى إذا كانت بائناً. و قال أهل العراق: لها السكنى و النفقة.

و قوله «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ» من فتح الياء أراد فاحشة أظهرت.

و من خفض الياء أراد بفاحشة ظاهرة. و قال عطاء و الضحاك و قتادة: لا- يجوز ان تخرج من بيتها حتى تنقضى عدتها إلا- عند الفاحشة. و قال الحسن و عامر و الشعبي و مجاهد و ابن زيد: الفاحشة- هاهنا- الزنا تخرج لاقامة الحد.

قال ابن عباس: الفاحشة النداء على أهلها، و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام

و قال قتادة:

الفاحشة هو النشوز. و قال ابن عمر: هو خروجها قبل انقضاء العدة- و في روايه عن ابن عباس- ان كل معصية لله ظاهرة فهي فاحشة. و قوله «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» يعني ما تقدم ذكره من كيفية الطلاق و العدة و ترك إخراجها عن بيتها إلا عند فاحشة حدود الله، فالحدود نهايات تمنع أن يدخل في الشيء ما ليس منه او يخرج منه ما هو منه، فقد بين الله بالأمر و النهي الحدود في الطاعات و المعصية بما ليس لأحد ان يدخل في شيء من ذلك ما ليس منه او يخرج عنه ما هو منه.

و قوله تعالى «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ» معناه من يجاوز حدود الله بأن يخرج عن طاعته الى معصيته، فقد تعدى حداً من حدود الله و كذلك من دخل في معصية، فقد خرج عن الطاعة. و ليس كل من دخل في طاعة فقد خرج اليها عن معصية، لأنها قد تكون نافله. ثم

بين تعالى فقال: و من يجاوز حدود الله التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢

«فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» بأن فعل ما يستحق معه العقاب و يحرم معه الثواب.

و قوله «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» قال قوم: معناه لا تدري لعل الله يغير رأى الزوج في محبة الطلاق، فتكون مطلقة على ما أمر الله به و يملك الرجعة فيما بين الواحدة و الثانية و ما بين الثانية و الثالثة. و قال الضحاك و السدى و ابن زيد «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» يعني الرجعة في العدة. و قيل معناه «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ» شهوة المراجعة.

و قوله «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» معناه فإذا قاربن أجلهن الذي هو الخروج عن عدتهن، لأنه لا يجوز ان يكون المراد فإذا انقضى أجلهن، لأنه عند انقضاء أجلهن لا يملك رجعتها. و قد ملكت نفسها و قد بانت منه بواحدة، ثم تتزوج من شاءت هو او غيره. و إنما المعنى إذا قاربن الخروج من عدتهن فأمسكوهن بأن تراجعوهن بمعروف بما يجب لها من النفقة و الكسوة و المسكن و حسن الصحبة «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» بأن تتركوهن حتى يخرجن من العدة.

و قوله «وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنْكُمْ» فعند أصحابنا أن الاشهاد شرط في وقوع الطلاق، لأن ظاهر الامر بذلك يقتضيه. و الامر عندنا على الوجوب.

و قال قوم: إن ذلك راجع الى الرجعة، و تقديره و اشهدوا على الإمساك إن أمسكتن ذوى عدل منكم و هو الرجعة- في قول ابن عباس. و قال الشافعي:

الاشهاد على الرجعة أولى. و يجوز عند أكثرهم بغير إشهاد، و إنما ذكر الله الاشهاد كما ذكر في قوله «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» (١) و هو على الندب، و هذا ترك الظاهر و متى حملنا الاشهاد على الفراق، و هو الطلاق حملناه على ظاهره من الوجوب و جعلناه

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣

شرطاً في وقوع الطلاق. ثم قال «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ» إذا طولبتم بإقامتها «ذلكم» معاشر المكلفين «يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ» فالوعظ معنى يدعو الى الحق بالترغيب و الترهيب. و إنما أضاف الوعظ إلى من يؤمن بالله و اليوم الآخر دون غيره، لأنه الذي
ينتفع به دون الكافر الجاحد لذلك، فالطاعة الواجبة فيها وعظ بالترغيب فيها باستحقاق الثواب و في تركها بالعقاب. و المندوبة فيها
وعظ باستحقاق المدح و الثواب على فعلها و المعاصي فيها وعظ بالزجر عنها و التخويف من فعلها باستحقاق العقاب و الدم على فعلها
و الترهيب في تركها بما يستحق على الإخلال به من الثواب.

ثم قال «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ» يعنى باجتناب معاصيه (يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا) من عقابه (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) أى من حيث لا يتوقعه و لا
يظنه (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أى من أسند أمره الى الله و وثق بحكمه و سكن إلى رحمته (فَهُوَ حَسْبُهُ) أى كافيه جميع ذلك (إِنَّ اللَّهَ
بِالْعَمْرِ) أى يبلغ ما يريد و يشاء من أمره و تدبيره (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) أى قدر الله لكل شىء مقداراً واجلاً، لا زيادة فيه و
لا نقصان.

ثم بين كيفية العدد باختلاف احوال النساء، فقال (وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ) يعنى ان
اليائسة من المحيض إذا كانت ترتاب بنفسها و لا تدرى أرتفع حيضها لكبر او عارض (فَعَدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ) و هى التى قلنا او لا أن
مثلا تحيض، لأنها لو كانت فى سن من لا تحيض لم يكن لريبتها معنى. و قال الزهرى و عكرمة و قتادة (إِنْ ارْتَبْتُمْ) فلم تدرؤا: للكبر
او لدم الاستحاضة، فالعدة ثلاثة أشهر. و قال قوم: ان ارتبتم فلم تدرؤا الحكم فى ذلك فعدتهن ثلاثة أشهر. التبيان فى تفسير القرآن،
ج ١٠، ص: ٣٤

و قوله (وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ) تقديره و اللائى لم يحضن إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، و حذف لدلالة الكلام الأول عليه و الكلام فيها
كالكلام فى اليائسة.

و قال قتادة: اللائى ييسن الكبار، و اللائى لم يحضن الصغار.
ثم قال (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) بين ان عدة الحامل من الطلاق وضع الحمل الذى معها، فان وضعت عقيب
الطلاق فقد ملكت نفسها، و يجوز لها أن تعقد لغيره على نفسها، غير أنه لا يجوز له وطؤها. لان نفاسها كالحيض سواء، و إذا طهرت
من نفاسها حل له ذلك، فان كانت حاملا باثنين و وضعت واحداً لم تحل للأزواج حتى تضع جميع الحمل، لقوله تعالى (أَنْ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ) فاما انقطاع الرجعة، فقد روى أصحابنا أنها إذا وضعت واحداً انقطعت عصمتها من الاول، و لا يجوز لها العقد بغيره حتى
تضع الآخر. فاما إذا توفى عنها زوجها، فعدتها- عندنا- أبعدهن الأجلين إن وضعت قبل الأربعة أشهر و عشر استوفت اربعة أشهر و عشرة
أيام، و إن مضى بها أربعة أشهر و عشر و لم تضع انتظرت وضع الحمل. و قال ابن عباس: الآية فى المطلقة خاصة، كما قلناه. و قال ابن
مسعود و أبى بن كعب و قتادة و السدى و اكثر الفقهاء:

إن حكم المطلقة و المتوفى عنها زوجها واحد فى أنها متى وضعت حلت للأزواج. و الذى اخترناه هو مذهب على عليه السلام.

ثم قال (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ) باجتناب معاصيه (يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) يعنى سهوله فى أموره و لا يعسر عليه أمره.

و قوله (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ) يعنى حكم الطلاق و الرجعة و العدة فيما أنزله الله و حكم به و أمركم بالعمل به.

ثم قال (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ) باجتناب معاصيه و فعل طاعاته (يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) التى هى دونها و يفضل عليه بإسقاط عقابها (وَيُعْظِمَ لَهُ
أَجْرًا) على ذلك يعنى ثوابه التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥

و نعيمه فى الجنة،

أَسِيكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَزْتُمْ فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعِيدَ عَشِيرٍ يُشِرًّا (٧) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُؤْسِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّتْهَا عَذَابًا نَكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠)

خمس آيات في الكوفي والبصري والمدني الأخير، وست آيات في المدني الاول، عدوا (يا أُولِي الْأَلْبَابِ) رأس آية.

قرأ (من وجدكم) بكسر الواو، روح. الباقون بضمها، و هما لغتان.

و حكى الفراء - فتح الواو - لغه و لم يحك الكسر. و حكى الزجاج: الكسرة و لم يحك بالفتحة. و قرأ ابن كثير (و كايين) خفيفه على

وزن (كاهن) الباقون التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦

(كأين) مشددة الياء، و الأصل (أى) إلا انه حذف للتضعيف، كما يحذف من رب. و قدمت الياء و أخرت الهمزة نحو شاك و شائك.

ثم قلبت الياء ألفاً، لأنها في موضع حركة و قبلها فتحة نحو: رمى، و إنما احتمل هذا التغيير للعدول به عن معنى الاستفهام إلى معنى

(كم) في التكثر على وجه الإبهام. و قال قوم: في (كأين) لغتان (كأين) مشددة الياء و (كايين) على وزن (قائل) و قد قرأ بهما. و حكى

ان أهل الحجاز يقولون: بكايين تبع هذا الثوب. أى بكم تبعه.

يقول: الله تعالى مخاطباً لمن طلق زوجته يأمره أن يسكنها حيث يسكنه، و قد بينا أن السكنى و النفقة يجب للرجعية بلا خلاف. فاما

البائنة فلا سكنى لها و لا نفقة - عندنا - و هذا مذهب الحسن. و

قد روت فاطمة بنت قيس عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: لا نفقة للمبتوتة.

و قال الشافعي و مالك لها السكنى و النفقة و هو قول معاوية و ابن مسعود و عمر بن الخطاب.

و قوله (من وجدكم) قال السدي معناه من ملككم. و قال ابن زيد: هو إذا قال صاحب المسكن لا أترك هذه في بيتي فليس من

جده. و يجوز له حينئذ أن ينقلها إلى غيره، و الوجد ملك ما يجده المالك، و ذلك أنه قد يملك المالك ما يغيب عنه. و قد يملك

ما هو حاضر له، فذلك جده، يقال: وجدت في المال جداً و جدة، و وجدت الضالة وجداناً، و وجدت الرجل صالحاً وجوداً.

و قوله (وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) معناه لا تدخلوا الضرر عليهن بالتقصير في النفقة و السكنى و الكسوة و حسن العشرة لتضييقوا

عليهن في السكنى و النفقة، و أمر بالسعة. و المضارة المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر و المضارة المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر

بصاحبه. و قد تكون المضارة من واحد كما يقال: طارقت النعل، و عافاه الله، و يمكن أن يكون من كل واحد منهما لصاحبه. و

التضييق تقليل التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧

ما يحتاج إلى التصرف فيه عن مقدار الكفاية. و قد يكون التضييق في الرزق و في المكان و في الأمر. و «إِنْ كُنَّ» يعنى النساء

المطلقات (أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) أمر من الله تعالى بالإنفاق على الحامل المطلقة سواء كانت رجعية او

مبتوتة، و لا - خلاف في ذلك، و إنما يجب ان ينفق عليها بسبب ما في بطنها، و إنما تسقط نفقتها بالوضع. و الحمل - بفتح الحاء -

يكون على الظهر و في البطن، و يقال للعدل - الحمل - بكسر الحاء.

و قوله (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أمر من الله تعالى بأن الأم المطلقة متى ولدت و رغبت في رضاع ولدها، كان على الأب

أجرة الرضاع أجرة المثل، فان رضيت الاجنبية بشيء معلوم لاجرة الرضاع و رضيت بمثله الأم كانت الأم أولى، و إن لم ترض الأم

بذلك القدر كان للأب تسليمه الى الاجنبية، و ان كان الولد لا يقبل إلا لبن الأم أجبرت عليه. و إلا أدى الى هلاك الولد.

و الرضاع سقى المرأة من لبنها للولد. و منه

قول النبي صلى الله عليه وآله (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)

يعنى ان المرضعة تصير بمنزلة الام، و أمها بمنزلة الجدّة و أختها خالّة، و بنتها اختاً و ابنها اخاً، و هكذا سائر المحرمات.

و قوله (وَ أَمَرُوا بِبَنَاتِكُم بِمَعْرُوفٍ) فالإثمار أمر كل واحد لصاحبه بفعل من الافعال كالاتثمار بالمعروف الذى يسطلحان عليه.

و قوله (وَ إِن تَعَاسَرَ زُمْرُهُمْ فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى) خطاب للرجل و لزوجته المطلقة أنهما متى اختلفا فى رضاع الصبى و أجرته أرضعته امرأة

اخرى فالتعاسر التمانع يتعذر من الأمر كالتمانع بما يتعسر به رضاع الام، فمتى كان كذلك فالحكم فيه أن ترضعه امرأة اخرى ثم امر

تعالى فقال «لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ...» و معناه ان كل انسان يجب عليه النفقة بحسب حاله فالغنى ينبغى ان يوسع فى النفقة و الفقير

بحسب حاله. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨

و قوله (وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) معناه من ضيق عليه، لأنه أتى على مقدار البلغة التى تضيق عن غيره، فمن هذه صورته «فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ

اللَّهُ» على حسب إمكانه و طاقته (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) يعنى إلا بقدر ما أعطاهها من الطاقة.

و فى ذلك دلالة على انه تعالى لا يكلف أحداً ما لا يقدر عليه و لا يطيقه.

ثم قال (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) أى سيفعل الله بعد شدة سهولة، فاليسر إتيان الأمر من غير مشقة، و هو سهولة الأمر، و ضده العسر،

و هو صعوبة الأمر.

و قوله (وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ) معناه و (كم من قرية) على التكثر، لأنه يخبر ب (كم) عن الكثرة (عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا) و العتو الخروج إلى

فاحش الفساد. و المعنى كم من أهل قرية كفروا بالله و تجبروا عن طاعته و خرجوا بذلك الى افحش الفساد (وَ رُسُلِهِ) معناه عتوا عن

امر الله و امر رسوله (فَحَاسِبِينَهَا حِسَابًا شَدِيدًا) فالحساب الاعمال مقابلة ما يستحق على الطاعة و بما يستحق على المعصية و الحساب

الشديد مقابلة ذلك من غير تجاوز عن صغيرة و لا عفو عن ذنب، و ذلك أن الكافر يعاقب على كل صغيرة و كبيرة من حيث انه لا

طاعة معه تكفر معاصيه. و قوله (وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا) معناه عذبنا أهل تلك القرية العاتية عذاباً نكراً، و هو الذى ينكره الطبع و تأباه

النفوس لصعوبته و شدته. و الأمر النكر الذى ينكره العقل. و قوله (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) فالوبال عاقبة السوء، أسند الفعل الى القرية،

فلذلك أنث قوله (فَذَاقَتْ) و لو قال: (عتوا، عن أمر ربهم، و عذبناهم فذاقوا) على المعنى كان جائزاً. و الوبال ثقل العائد من الضر. و

قيل: ان معنى نكر أنه متجاوز فى الشدة لكل ما عرفوه فى الدنيا من العقوبة او كان عاقبة أمرها حسراً أى و كان آخر أمر تلك القرية

العاتية خسراً أى هلاك أنفسهم، و أصله هلاك رأس المال.

ثم بين ما لهم فى الآخرة، فقال (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) من عذاب النار التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩

يعاقبهم به على طريق التأييد موجعاً شديد الألم (فَاتَّقُوا اللَّهَ) يا معاشر العقلاء (يا أُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا) يعنى المؤمنين منهم، و

خصهم بالذكر و الخطاب، لأنهم المنتفعون بذلك دون الكفار. و قوله تعالى (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) قال قوم: أراد بالذكر القرآن

لأنه سماه ذكراً فى قوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) «١» ذهب اليه السدى و ابن زيد، فعلى هذا تقديره انزل الله إليكم ذكراً و أرسل إليكم

رسولاً، و سماه ذكراً لأنه يتذكر به ما يجب العمل به و الانتهاء عنه. و قيل إن معنى الذكر الشرف كأنه قال: أنزل الله إليكم شرفاً. و

قيل: المراد بالذكر الرسول لقوله (فَسَيُلْأَمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) «٢» ذهب اليه الحسن، فعلى هذا يكون (رسولاً) بدلا منه، و تقديره أنزل الله

إليكم ذكراً هو رسوله. قال الزجاج: تقديره فأنزل الله إليكم ان ذكر رسولا هو جبرائيل عليه السلام.

قوله تعالى: [سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١١ الى ١٢] ص: ٣٩

رَسُولًا- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

آيتان.

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) سورة النحل آية ٣: و سورة الأنبياء آية ٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠

قريئ (ندخله) مدني و شامي على وجه الأخبار من الله تعالى عن نفسه.

الباقون بالياء بمعنى يدخل الله. و الياء أشبه بما قبله.

قيل في انتصاب قوله (رسولا) وجهان:

أحدهما- أن يكون بدلا من ذكر، و هو بدلا الاشتمال، و يكون الذكر القرآن، كأنه قال رسولا ذكراً.

الثاني- ان يكون الذكر بمعنى الشرف، فيكون الذكر هو الرسول، كما قال (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) «١».

و فيه وجه ثالث و هو أنه لما قال: انزل ذكراً دل على انه جعل رسولا، و كأنه قيل و بعث رسولا كما قال الشاعر:

يا رب غير آيهن مع البلى إلا رواكد جمرهن هباء

و مشجع اما سواء قذاله فبدا و غيب ساره المغراء «٢»

لأنه لما قال: إلا رواكد دل على ان بها رواكد فحمل مشجع على المعنى.

و قال الزجاج: يحتمل ان يكون نصباً بذكر، كأنه قال ذكر رسول، بمعنى أن ذكراً رسولا، يكون ذكر مصدر، و الذي انزل جبرائيل

لقوله «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» «٣» و قوله (يَتْلُوا عَلَيْكُمْ) أى يقرأ عليكم آيات الله يعنى دلائله و حججه مبيّنات أى واضحات فى من يفتح

الياء و من كسرهما أراد انها تبين الآيات و التلاوة.

من قولهم جاء فلان ثم تلاه فلان أى جاء بعده، و منه قوله تعالى (وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) «٤» أى يأتى بعده، فالتلاوة جعل كلمة بعد كلمة

على ما وضعت عليه من المرتبة فى اللغة. و القراءة جمع كلمة الى كلمة بما يسمع من الحروف المفصلة، و هو قولهم

(١) سورة الزخرف آية ٤٤

(٢) قد مر فى ١٢٥ / ٢

(٣) سورة الشعراء آية ١٩٣

(٤) سورة هود آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١

قرأت النجوم إذا اجتمعت و ظهرت، و يقولون: ما قرأت الناقه سلاقط أى ما جمعت رحمها على ولد. و البيان هو الأدلة. و قيل: هو ما

أبان المعنى للنفس بما يفصل من غيره، و هو من قولهم: أبان العضو من غيره إذا قطعه منه.

و قوله (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ) يعنى ظلمات الكفر الى نور الايمان، و ذلك يدل على فساد قول

المجبرة: إن الله تعالى بعث الأنبياء ليكفر بهم قوم و يؤمن آخرون. و إنما خص (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) بالإخراج، لأنهم

الذين خرجوا بدعائهم من الكفر إلى الايمان. و النور- هاهنا- نور الحق الذى يهدى إلى الرشد و الجنة، كما يهدى نور الشمس إلى

المواضع المقصودة و الظلمة- هاهنا- الباطل الذى يعود إلى الغى، كما يعود الظلام من مر فيه من غير دليل الى الهلاك.

ثم قال (وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ) أى من يصدق بوحدانيته و إخلاص العبادة له (وَيَعْمَلْ صَالِحًا) أى يعمل الاعمال الصالحات (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) جزاء على ذلك و ثواباً عليه (خَالِدِينَ فِيهَا) نصب على الحال (أَبَدًا) أى مؤبدين لا آخر لنعيمهم (قَدْ أَحْسَنَ

اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) أى أجزل الله لهم ما ينتفعون به ولا- يمنعون منه، فالرزق النفع الجارى فى الحكم، فلما كان النفع للمؤمنين فى الجنة جارياً فى حكم الله كان رزقاً لهم منه.

وقوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) اخبار من الله تعالى انه الذى انشأ سبع سموات (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) أى وخلق من الأرض مثلهن فى العدد لا فى الكيفية، لأن كيفة السماء مخالفة لكيفة الأرض. و المثل ما سدّ مسدّ غيره فيما يرجع الى ذاته. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢

وقوله (يَنْزِلُ الْمَاءُ بَيْنَهُنَّ) معناه يتنزل الأمر بالتدبير من الله بين السموات و بين الأرضين، ب حياة بعض و موت بعض، و غنى إنسان و فقر غيره، و سلامة حى و هلاك آخر، و تصريف الأمور على الحكمة لا يكون إلا من قادر عالم و هو معنى قوله (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فالقادر، هو من كان له مقدور يصح منه إيقاعه على بعض الوجوه كما ان السامع هو من له مسموع موجود و التقدير عبارة عن ان يكون قادراً على ما يصح ان يكون مقدوراً له ك (سميع) يفيد أنه على صفة يجب ان يسمع لأجلها ما يصح ان يكون مسموعاً.

وقوله (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) معناه إن معلوماته متميزة له بمنزلة ما قد أحاط به فلم يفته منه شىء، و مثله (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) «١» أى إنه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه، فيكون كأنه قد أحاط به و قوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) «٢» معناه ولا يحيطون بشىء من معلومه إلا بما شاء أن يضطرهم اليه أو يدلهم عليه، فهو تذكير بالنعمة أى لا ينالون هذه المنزلة إلا بمشيئته، و لو لا ذلك لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما شاء، لكن لما دخل التذكير بالنعمة حسن من هذه الجهة و ليس فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع، غير هذه- ذكره الجبائى- و قوله (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) دليل على بطلان مذهب المجبرة فى أن الله أراد من قوم أن يجهلوا كونه على هذه الصفة، لأنه تعالى بين انه ذكر ما تقدم وصفه ليعلم المكلفون أجمعون (أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و انه) تعالى قادر (قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) و على مذهب المجبرة إن الله تعالى أراد من جماعة الكفار خلاف ذلك و أراد منهم ان يجهلوه و يجهلوا صفاته و ذلك خلاف الظاهر. و قوله (علماً) نصب على المصدر و دل عليه قوله تعالى

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٠

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣

(أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) كأنه قال: علم كل شىء علماً.

٤٣- سورة التحريم ص: ٤٣

إشارة

مدنية فى قول ابن عباس و الضحاك و غيرهما و هى اثنتا عشرة آية بلا خلاف

[سورة التحريم (٤٣): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغَى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانُكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَدَرْنَا النَّبِيَّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَيْدِيئًا فَلَمَّا تَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا

تَبَاهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ (٣) إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ تَيَّابَاتٍ وَأُبَّكَارًا (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٤

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة (تظاهرا) خفيفة. الباقون بالتشديد، يعنى (تظاهرا) فأدغم. و من خفف حذف إحداهما. وقرأ الكسائي وحده (عرف بعضه) خفيفاً و هى قراءة الحسن و أبى عبد الرحمن، و كان أبو عبد الرحمن إذا قرأ إنسان بالتشديد خطأه. وقرأ ابن كثير (جبريل) بفتح الجيم و كسر الراء من غير همزة. وقرأ - بكسر الجيم و الراء من غير همزة - نافع و ابو عمرو و ابن عامر و حفص عن عاصم.

وقرأ بفتح الجيم و الراء و كسر الهمزة مقصور على وزن (جحمرش) أبو بكر عن عاصم. وقرأ بفتح الجيم و الراء مهموزة بين الراء و الياء على وزن (خزعل) حمزة و الكسائي و قد بينا الوجه فى ذلك فى سورة البقرة. قال ابو على: جبريل - بكسر الجيم - بلا همزة على وزن (قنديل) و بفتح الجيم و الراء و الهمزة مع المد على وزن (عندليب) و بفتح الجيم و الراء و كسر الهمزة على وزن (جحمرش) و ليس فى العريئة على وزن (قنديل) بفتح القاف غير أنه جاء خارجاً على أوزان العريئة.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه و آله و عتاب له على تحريم ما أباحه الله له و أحله له، و لا يدل على انه وقعت منه معصية، لان العتاب قد يكون على أمر قد يكون الأولى خلافه، كما يكون على ترك الواجب.

و قيل فى سبب نزول قوله (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ) قولان:

أحدهما -

قال زيد بن أسلم و مسروق و قتادة و الشعبى و ابن زيد و الضحاك: ان النبي صلى الله عليه و آله حرم على نفسه مارية القبطية يمين انه لا يقربها طلباً لمرضاة حفصة زوجته، لأنها غارت عليه من أجلها.

و

قال الحسن: حرم رسول الله أم ولده إبراهيم، و هى مارية القبطية على نفسه فأسر بذلك الى زوجته حفصة فأفضت به إلى التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٥

عائشة و كانت حفصة بنت عمر قد زارت عائشة، فحلا بيتها، فوجه رسول الله الى مارية القبطية، و كانت معه و جاءت حفصة فأسر إليها التحريم.

و القول الثانى - ما

رواه عبد الله بن شداد بن الهلال: ان النبي صلى الله عليه و آله كان شرب عند زينب شراب عسل كانت تصلحه له، فكان يطول مكثه عندها فكره ذلك عائشة و حفصة، فقالت له إنا نشم منك ريح المغاير، و هى بقله متغيرة الرائحة

- فى قول المفسرين - و

قال الزجاج: هى بقله منتنة، فحرم النبي صلى الله عليه و آله شراب العسل الذى كان يشربه عند زوجته زينب بنت جحش.

وقيل: ذكرت ذلك له حفصة، فحرمه النبي صلى الله عليه و آله على نفسه. و من قال: انها نزلت بسبب مارية قال:

انه قال: هى على حرام، فجعل الله فيه كفارة يمين

- ذكره ابن عباس و الحسن - و من قال: إن التحريم كان فى شراب كان يعجبه قال: إنه حلف على انه لا يشربه فعاتبه الله على تحريم ما أحل الله له.

و التحريم تبين ان الشئ حرام لا يجوز، و نقيضه الحلال. و الحرام هو القبيح الممنوع بالنهاى عنه، و الحلال الحسن المطلق بالاذن فيه.

وعندنا أنه لا يلزم بقوله أنت على حرام شيء، ووجوده كعدمه، وهو مذهب مسروق. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. وإنما أوجب الله الكفارة، لأنه صلى الله عليه وآله كان حلف ألا يقرب جاريتيه أو لا يشرب الشراب المذكور، فعاتبه الله على ذلك وأوجب عليه أن يكفر عن يمينه ويعود إلى استباحة ما كان يفعله. وبين أن التحريم لا يحصل إلا بأمر الله ونهيه، وليس يصير الشيء حراماً بتحريم محرم، ولا باليمين على تركه، فلذلك قال «لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ».

وقوله «تَبَتَّغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ» معناه إنك تطلب رضا أزواجك في تحريم ما أحله الله لك. فالابتغاء الطلب، ومنه البغي طلب الاستعلاء بغير حق، التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٦

والبغية معتمد الطلب والبغى الفاجرة لطلبها الفاحشة.

وقوله «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» معناه ارجع إلى الأولى والأليق، فإن الله يرجع للتائب إلى التولى، لأنه غفور رحيم. وقوله «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» أي قد قدر الله تعالى ما تحلون به يمينكم إذا فعلتموه، وذلك يدل على أنه صلى الله عليه وآله كان حلف دون أن يكون قال: هي على حرام، لأن ذلك ليس يمين - عند أكثر الفقهاء - وقال الحسن: فرض الله تحلة اليمين في الكفارة للمؤمنين. فأما النبي صلى الله عليه وآله فلا كفارة عليه، لأن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وتحلة اليمين هو فعل ما يسقط تبعته في اليمين إما بكفارة أو بتناول شيء من المحلوف عليه، فمن حلف ألا يأكل من هذا الطعام، فمتى أكله حث، و لزمته كفارة، وينحل اليمين بها، ومن حلف أنه يأكل من هذا الطعام وأكل منه شيئاً قليلاً فقد انحلت يمينه، فلذلك سمي تحلة اليمين.

وقوله «وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ» معناه الله ناصركم، وهو أولى بكم منكم بأنفسكم، ومن كل أحد «وَهُوَ الْعَلِيمُ» بجميع الأشياء «الْحَكِيمُ» في جميع أفعاله.

وقوله «وَإِذْ أَسْرَرَ النَّبِيُّ» معناه واذكروا حين أسر النبي «إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» فالإسرار إلقاء المعنى إلى نفس المحدث على وجه الإخفاء عن غيره، يقال:

أسر إليه كذا وكذا إسراراً والإسرار نقيض الإعلان. وقيل: إنه كان أسر إلى حفصة ألا تخبر عائشة بكونه مع مارية في يوم عائشة وقال إنه حرمها على نفسه، فأطلعت عليه عائشة. وقيل: إنه كان يوم حفصة، فأطلعت عليه عائشة فاستكتمتها النبي فأخبرت حفصة بذلك فانتشر الخبر فعاتبهم الله على ذلك. وقال الزجاج والفراء: أسر إليها بأنه سيلي الأمر بعده أبو بكر وعمر وعثمان فتباشروا بذلك فانتشر الخبر. وروى أصحابنا أنه أسر إلى عائشة بما يكون بعده من قيام من التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٧

يقوم بالأمر ورفع على عليه السلام عن مقامه فبشرت بذلك أباها فعاتبهم الله على ذلك.

وقوله «فَلَمَّا تَبَأَّتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ» معناه لما أخبرت التي أسر إليها الذي خبرها به إلى غيرها وأعلم الله تعالى نبيه ذلك وأظهره له «عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ» فمن قرأ بالتخفيف قال الفراء: معناه إنه عاتب على بعض ذلك وصفح عن الباقي. وروى أنه طلق حفصة تطليقة جزاء على ذلك ثم راجعها بأمر الله تعالى، وقيل: معنى قراءة من شدد أراد أنه صلى الله عليه وآله أعلمها جميع ذلك وعرفها إياه، فلما نبأها به يعني لما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وزوجته بذلك وعرفها أنها افشت سره «قَالَتْ» له في الجواب «مَنْ أَتَبَأَكَ هَذَا» أي من أخبرك بهذا فقال النبي صلى الله عليه وآله «تَبَأَنِي» أي أخبرني بذلك واعلمني «الْعَلِيمُ» بجميع المعلومات «الْخَبِيرُ» بسائر الصدور الذي لا يخفى عليه شيء من أمور عبادته ظاهراً وباطناً.

ثم خاطبهما يعني عائشة وحفصة وقال قل لهما «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ» وارجعا إلى طاعته «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» قال ابن عباس ومجاهد: معناه زاغت قلوبكما إلى الإثم. وقال عمر بن الخطاب وجميع أهل التأويل: إنه عنى عائشة وحفصة، وقال بعضهم: معناه مالت قلوبكما إلى ما كرهه الله من تحريم ما حرمه. وقوله «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» من صلة «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ» والجواب محذوف، وتقديره إن توبوا إلى الله قبلت توبتكما، وقال قوم «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» جواب كقول القائل إن تتابع المجيء إلى فلقد جفوتني وقطعتني دهرًا

أى يحق لك ان تفعل ذلك، فقد صرمت فيما قبل. و إنما قال (قلوبكما) مع أن لهما قلبين، لأن كلما تثبت الاضافة فيه معنى التثنية، فلفظ الجمع أحق به، لأنه أمكن و أخف باعراب الواحد و قلة الزائد. و ذلك فى كل شيئين من شيئين، و يجوز التثنية لأنها الأصل، كما قال الراجز: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٨

ظهورهما مثل ظهور الترسين (١)

فجمع المذهبين. و قوله «وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ» معناه و إن تعاوننا على خلافه «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ» يعنى الله الذى يتولى حفظه و حياطته و نصرته «وَجَبْرِيلُ» أيضاً معين له و ناصره «وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» قال الضحاك: يعنى خيار المؤمنين. و قال قتادة: يعنى أتقياء المؤمنين. و قال الزجاج: «صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» واحد فى موضع الجمع. و قال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني: هو صالحوا المؤمنين على الجمع، غير انه حذف الواو للاضافة، و هذا غلط، لأن النون سقطت للاضافة، فكان يجب ان يثبت الواو فى الحظ، و فى المصاحف بلا واو.

و روت الخاصة و العامة أن المراد بصالح المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و ذلك يدل على انه أفضلهم، لان القائل إذا قال: فلان فارس قومه او شجاع قبيلته او صالحهم، فانه يفهم من جميع ذلك انه افرسهم و أشجعهم و أصلحهم.

و قوله «وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» معناه إن الملائكة بعد من ذكره معينون له، فالظهير المعين الذى هو كالظهير له فى القوة. و قوله «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ» معاشر نساء النبى «أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ» فمن خفف الدال، فلأنه يدل على القليل و الكثير، و من شدد أراد ان الله يبدلهن اكثر منهن. و معنى «خَيْرًا مِنْكَ» أى أفضل منك و أصلح له. ثم وصفهن تعالى فقال «مُسْلِمَاتٍ» و هن اللواتى يظهرن الإسلام و الشهادتين مستسلمات لما أمر الله به «مُؤْمِنَاتٍ» أى مصدقات بتوحيد الله و اخلاص العبادة له مقرات بنو نبيه صلى الله عليه و آله و قيل: معناه مصدقات فى قولهن و فعلهن «قَانِتَاتٍ» أى خاضعات متذللات لله تعالى. و قيل: معنى «قَانِتَاتٍ» راجعات الى الله بفعل ما يجب له

(١) مر فى ٥١٣/٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٩

– عز و جل – «عَابِدَاتٍ» لله بما تعبدن به من العبادات متذللات له «سَائِحَاتٍ» معناه ماضيات فى طاعة الله. و قال ابن عباس و قتادة و الضحاك: معنى سائحات صائمات. و قال زيد ابن اسلم: معنى «سَائِحَاتٍ» مهاجرات، و هو اختيار الجبائى و قيل: للصائم سائح، لأنه يستمر فى الإمساك عن الطعام و الشراب، كما يستمر السائح فى الأرض «تَيَّابَاتٍ» و هن الراجعات من عند الأزواج بعد افتضاضهن مشتق من ثاب يثوب إذا رجع «وَأُبْكَارًا» جمع بكر، و هى التى على أول حالها قبل الافتضاض.

قوله تعالى: [سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ١٠] ص: ٤٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَئْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (١٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٠

قرأ نصوحاً بضم النون حماد و يحيى الباقون بفتحها، و هما لغتان.

وقال قوم: من فتح النون جعله نعتاً للتوبة و حمله على الكثرة. و من ضممه جعله مصدراً هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الذين صدقوا بتوحيد الله و اخلاص العباداة له و أقروا بنبوته نبيه صلى الله عليه و آله يأمرهم بأن يقوا أنفسهم أى يمنعونها، و يمنعون أهلهم ناراً، و إنما يمنعون نفوسهم بأن يعملوا الطاعات، و يمنعون أهلهم بأن يدعواهم إليها و يحثوهم على فعلها، و ذلك يقتضى أن الامر بالمعروف و النهى عن المنكر ينبغى ان يكون للأقرب فالأقرب. و قال مجاهد و قتادة: معنى «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَاراً» مروهم بطاعة الله و انهوهم عن معصيته.

ثم وصف تعالى النار التى حذرهم منها فقال «وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ» قيل حطب تلك النار الناس و الحجارة كوقود الكبريت و هو أشد ما يكون من العذاب «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ» فى الأخلاق و إن كانوا رفاق الأجسام، لان الظاهر من حال الملك انه روحانى فخروجه عن الروحانية كخروجه عن صورة الملائكة «شِدَادٌ» فى القوى «لَا يَعْصِيُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» به. و فى ذلك دلالة على ان الملائكة المؤكلين بالنار و بعقاب العصاة معصومون عن فعل القبيح لا يخالفون الله فى أمره و يمثلون كل ما يأمرهم به، و عمومه يقتضى انهم لا يعصونه فى صغيرة و لا كبيرة. و قال الرماني: لا يجوز أن يعصى الملك فى صغيرة و لا كبيرة لتمسكه بما يدعو اليه العقل دون الطبع. و كل من تمسك بما يدعو اليه العقل دون الطبع، فانه لا يقع التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥١

منه قبيح. و قد اختارهم الله على ما فى المعلوم منهم و قيل: هم غلاظ شداد يعذبون على قدر قواهم بأنواع العذاب. و قال الجبائى قوله «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» يعنى - فى دار الدنيا - لان الآخرة ليست دار تكليف. و إنما هى دار جزاء. و إنما أمرهم الله بتعذيب اهل النار على وجه الثواب لهم بأن جعل سرورهم و لذاتهم فى تعذيب اهل النار، كما جعل سرور المؤمنين و لذاتهم فى الجنة.

ثم حكى ما يقال للكفار يوم القيامة فان الله تعالى يخاطبهم فيقول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا» نعمتى و جحدوا ربوبيتى و أشركوا فى عبادتى من لا يستحقها، و كذبوا أنبيائى و رسلى «لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ» فان اليوم دار جزاء لا دار توبة و اعتذار «إِنَّمَا تُجْرُونَ» على قدر «مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» فى الدنيا على الطاعات بالثواب و لا طاعة معكم، و على المعاصى بالعقاب و دخول النار، و أنتم مستحقون لذلك. ثم عاد الى خطاب المؤمنين فى دار التكليف فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ» من معاصيه و أرجعوا الى طاعته «تَوْبِيَهُ نَصُوحاً» أى توبه خالصه لوجه الله. فمن قرأ - بضم النون - و هو أبو بكر عن عاصم أراد المصدر، و من فتح النون جعله صفة للتوبة و نعتاً لها. و التوبة النصوح هى التى ينصح فيها الإنسان نفسه بإخلاص الندم مع العزم على ألا يعود إلى مثله فى القبح. و قوله «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» معناه متى تبت توبه نصوحاً كفر الله عنكم سيئاتكم، و غفر لكم فان (عسى) من الله واجبه «وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» مضافاً إلى تكفير السيئات و العفو عنها «يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ» و لا يخزى «الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» أى لا يذلهم لا يعاقبهم بل يعزهم بإدخال الجنة.

ثم وصف النبى صلى الله عليه و آله و المؤمنين معه فقال «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ» قال ابن عباس: معناه يسعى نور كتابهم الذى فيه البشرى «يَقُولُونَ رَبَّنَا» فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٢

موضع الحال، و تقديره قائلين «رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ» قال: يقول ذلك المؤمنون حين يطفى نور المنافقين و يبقون فى الظلمة فيسأل المؤمنون حينئذ إتمام نورهم «وَ أَغْفِرْ لَنَا» أى استر علينا معاصينا و لا تهلكننا بها «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» لا يعجزك شىء. ثم خاطب النبى صلى الله عليه و آله فقال «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ» قيل:

معناه جاهد الكفار بالقتال و الحرب، و المنافقين بالقول الذى يردع عن القبيح لا بالحرب إلا أن فيه بذل المجهود، فلذلك سماه جهاداً. و فى قراءة اهل البيت «جاهد الكفار بالمنافقين» لأنه صلى الله عليه و آله كان يجاهد الكفار و فى عسكره جماعة من المنافقين

يقاتلون معه.

وقوله «وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى اشدد عليهم. قال الحسن: أكثر من كان يصيب الحدود فى ذلك الزمان المنافقون. فأمر الله أن يغلظ عليهم فى إقامة الحدود. ثم قال «وَمَا وَاهُمْ» يعنى مأوى الكفار و المنافقين و مستقرهم «جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ» لما فيها من أنواع العقاب. وقوله «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ» قال ابن عباس: كانت امرأة نوح و امرأة لوط منافقتين «فَخَانَتَاهُمَا» قال ابن عباس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس انه مجنون، و كانت امرأة لوط تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتهم لهما، و ما زنت امرأة نبي قط، لما فى ذلك من التنفير عن الرسول و إلحاق الوصمة به، فمن نسب أحداً من زوجات النبي إلى الزنا، فقد أخطأ خطأ عظيماً، و ليس ذلك قولاً- لمحصل. ثم قال «فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا» أى لم يغن نوح و لوط عن المرأتين «مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى لم ينجياهما من عقاب الله و عذابه «وَقِيلَ» لهما يوم القيامة «ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ» من الكفار. و قال الفراء: هذا مثل ضربه الله تعالى لعائشة و حفصة، و بين انه لا يغنيهما و لا التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٣ ينفعهما مكانهما من رسول الله إن لم يطيعا الله و رسوله، و يمتثلا- أمرهما، كما لم ينفع امرأة نوح و امرأة لوط كونهما تحت نبيين. و فى ذلك زجر لهما عن المعاصى و امر لهما أن يكونا كآسية امرأة فرعون و مريم بنت عمران فى طاعتهما لله تعالى و امتثال أمره و نهييه.

قوله تعالى: [سورة التحريم (٦٦): الآيات ١١ الى ١٢] ص: ٥٣

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كَتَبْنَا فِيهَا وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) آيتان.

قرأ اهل البصرة و حفص عن عاصم و نافع فى روايه خارجة «و كتبه» على الجمع. الباقون «و كتابه» على واحد، لأنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير.

و الفائدة فى هذه الآيه، و فى الآيه التى قبلها: أن احداً لا ينفعه إلا عمله و لا يؤخذ بجرم غيره، و لا يثاب على طاعة غيره، و إن كان خصيصاً به و ملازماً له. و تبين ان امرأة نوح و امرأة لوط لم ينفعهما قربهما من نبيين و اختصاصهما و التصاقهما بهما، لما كانتا كافرتين عاصيتين لله تعالى بل عاقبهما الله بالنار بكفرهما و سوء أفعالهما.

و بين فى هذه الآيه أن كفر فرعون لم يتعد إلى زوجته لما كانت مؤمنة طائعه لله تعالى خائفة من عقابه، بل نجاها الله من عقابه و أدخلها الجنة على إيمانها و طاعتها، فضرب المثل الاول للكفار لما كانت المرأتان كافرتين، و ضرب المثل التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٤

الثانى للمؤمنين، لما كانت امرأة فرعون مؤمنة، فقال «وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ» و اسمها آسية. و المثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالأول. فهذه الآيه فيها قول فيه تشبيه حال المؤمنة التى زوجها كافر بحال امرأة فرعون فى انه لا يضرها كفره مع قربها منه، كما أن امرأة نوح و امرأة لوط، لم ينفعهما نبوتهما و إيمانهما حين كانتا كافرتين.

وقوله «إِذْ قَالَتْ» أى حين قالت امرأة فرعون داعية الله «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي» أى و خلصنى «مِنَ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ» يعنى من مثل سوء عمله «وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» يعنى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله و استحقوا لذلك العقاب. و إنما دعت بالخلاص من عمل الكفار بأن سألت الله تعالى أن يلفظ لها فى التمسك بالايمان، و ألا تعتر بتمكين الله لفرعون و كفار قومه و طول سلامته و سوايغ نعمته عليهم و الانس به لطول مخالطته و صحبته، فربما أفتنت من هذه الوجوه، فدعت بهذا ليلطف الله لها فى ذلك و تبقى على التمسك بالايمان.

وقوله (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ) يحتمل ان يكون عطفاً على قوله (امرأة فرعون) فلذلك نصبه. والعامل (و ضرب) فكأنه قال: و ضرب مثلاً مريم ابنت عمران، و يحتمل ان يكون نصباً على تقدير و اذكر أيضاً مريم بنت عمران (الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) فاحصان الفرج منعه من دنس المعصية يقال: أحصن يحصن إحصاناً، و منه الحصن الحصين، لأنه بناء منيع، و الفرس الحصان الذى يمنع من ركوبه إلا مقتدرأً على تلك الحال، و امرأة حصان - بفتح الحاء - لأنها تمنع من لمس الحرام.

وقوله (فَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) قال قتادة معناه فنفخنا فى جيبها من روحنا و قال الفراء: كل شق فهو فرج فاحصنت فرجها منعت جيب درعها من جبرائيل عليه السلام و الظاهر انه أراد الفرج الذى يكنى عنه. و قوله (فيه) يعنى فى الفرج، فلذلك التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٥

ذكر فى الأنبياء (فيها) لأنه رده إلى التى أحصنت فرجها. و قيل: إن جبرائيل عليه السلام نفخ فى فرجها، فخلق الله - عز و جل - فيه المسيح (وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا) يعنى بما تكلم الله به، و أوحاه إلى أنبيائه و ملائكته (وَكُتِبَ) أى و صدقت بكتبه التى أنزلها على أنبيائه. فمن قرأ (و كتبه) جمع لأنها كتب مختلفة. و من وحد ذهب إلى الجنس، و هو يدل على القليل و الكثير (وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ) و إنما لم يقل من القانتات لتغليب المذكر على المؤنث، فكأنه قال من القوم القانتين، فالقانت المقيم على طاعة الله. و قيل: معناه الداعى لله فى كل حال، و قال الحسن: رفع الله آسيه امرأة فرعون إلى الجنة، فهى تأكل و تشرب و تنعم فيها إلى يوم القيامة، فنجأها الله أكرم النجاء. و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله انه قال (حسبك من نساء العالمين أربع: مريم ابنت عمران، و آسيه امرأة فرعون، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد صلى الله عليه و آله)

و

روى أن فرعون امر أن تسمر آسيه بأربع مسامير و يرفع فوقها حجر الرخام، فان رجعت عن قولها و إلا أرسل عليها الحجر فأراها الله منزلها من الجنة، فاخترت الجنة فتزع الله روحها، فلما أرسل الحجر وقع على جسد ميت.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٦

٦٧-سورة الملك ص: ٥٦

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و عطاء و غيرهم و هى ثلاثون آية فى الكوفى و البصرى و المدنى الاول واحد و ثلاثون فى المدنى الأخير و قال الفراء: سورة الملك تسمى المنجية لأنها تنجى قاريها من عذاب القبر و روى إن فى التوراة مثل (سورة الملك)

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ٥] ص: ٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصِيرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ
إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ (٤)

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي (من تفوت) بتشديد الواو بلا- ألف. الباقون (تفاوت) على وزن تفاعل. ومعناها واحد. وهو مثل: تصعر و تصاعر، و تعهد و تعاهد.

و التفاوت إختلاف التناقض، و هو تباعد ما بين الشئين في الصحة. و التباين التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٧ امتناع كل واحد من المعنيين ان يصح مع الآخر.

يقول الله تعالى مخبراً عن عظمتة و علو شأنه (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) فمعنى تبارك بأنه الثابت الذى لم يزل و لا يزال. و أصل الصفة من الثبوت من البرك و هو ثبوت الطائر على الماء. و منه البركة ثبوت الخير بنمائه. و قيل: معناه تعاضم بالحق من لم يزل و لا يزال، و هو راجع إلى معنى الثابت الدائم. و قيل:

المعنى تبارك من ثبوت الأشياء به إذ لولا لبطل كل شىء لأنه لا يصح شىء سواه إلا مقدوره او مقدور مقدوره، الذى هو القدرة، لان الله تعالى هو الخالق لها.

و قيل: إن معناه تبارك لان جميع البركات منه، إلا ان هذا المعنى مضمن فى الصفة غير مصرح به، و إنما المصرح به تعالى باستحقاق التعظيم.

و قوله (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) معناه الذى يجب كونه قادراً و انه السلطان العظيم الذى كل ملك له، ليس من ملك إلا داخل فيه لان الله تعالى مالك الملوك، و مكنهم منها. و الملك هو اتساع المقدور لمن له السياسة و التدبير.

و قوله (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) معناه إن الذى بيده الملك و السلطان القادر على كل شىء يصح ان يكون مقدوراً له و هو أخص من قولنا: و هو بكل شىء عليم، لأنه تعالى يعلم كل ما يصح أن يكون معلوماً فى نفسه، و لا يوصف بكونه قادراً إلا على ما يصح ان يكون مقدوراً له، لان مقدور القدرة لا يصح أن يكون مقدوراً له، و كذلك ما تقضى وقته مما لا يبقى لا يصح ان يكون مقدوراً فى نفسه.

ثم وصف تعالى نفسه فقال (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) أى خلق الموت للتعبد بالصبر عليه، و الحياة للتعبد بالشكر عليها. و قيل: وجه خلق الموت و الحياة للابتلاء هو ما فيها من الاعتبار المؤدى إلى تثبيت قادر على الاضداد مع التحذير التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٨

فى كل حال من مجيئ الموت الذى ينقطع به استدراك ما فات، و مع التسوية بين الغنى و الفقر و الملك و السوقة فى الموت بما يقتضى قاهراً للجميع قد عمهم بحسن التدبير فقد أذل الله ابن آدم بالموت ليكون أبعد من الطغيان فى حال التمكين من العصيان. و فى كون الموت معنى خلاف بين الشيخين: أبى، و أبى هاشم.

و قوله (لِيُبْلُوَكُمْ) معناه ليعاملكم معاملة المختبر بالأمر و النهى فيجازى كل عامل على قدر عمله. و الابتلاء الاختبار. و قال الفراء و الزجاج: فى الكلام إضمار و تقديره ليلوكم فيعلم أيكم، لأن حروف الاستفهام لا تشغل إلا بفعل يتعلق بالجملة على تقدير المفرد كقولك: علمت أزيد فى الدار أم عمرو، و تقديره و قد علمت ان أحدهما فى الدار (و عرفت، و نظرت) بمنزلة (علمت) فى هذا، لأنها توافقها فى (عرفت انه فى الدار) و (نظرت بقلبي انه فى الدار) و مثله (سَلِمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ) «١» أى سؤال من يطلب ان يعلم أيهم بذلك زعيم، و لو قلت اضرب أيهم ذهب لم يكن إلا- نصباً، لأنه بمعنى الذى. و التقديم تعالى و إن كان عالماً بالأشياء قبل كونها، فإنما يتلى الخلق و يختبرهم اختبار من يطلب العلم، حتى يجازى على الفعل بحسبه، و لما كان لم يحسن الثواب و العقاب و التعظيم و الإجلال إلا بعد وجود الطاعة و المعصية لم يكن بد من التكليف، و الأمر و النهى فأجرى عليه الاختبار مجازاً.

و قوله (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فى انتقامه من أعدائه و الكافرين لنعمه، لا- يقدر أحد على مغالته و مقاهرته، غفور لمن تاب إليه، او إن يريد التفضل بإسقاط عقابه و لا- يصح التكليف إلا- مع الترغيب و الترغيب، لأن التمكين من الحسن و القبيح يقتضى ذلك، و التكليف تحمیل المشقة فى الأمر و النهى.

ثم عاد إلى صفات نفسه فقال (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) أى انشأ

(١) سورة ٦٨ القلم آية ٤٠ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٥٩

و اخترع سبع سموات واحدة فوق الأخرى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ) يعنى من اختلاف و تناقض، و ذلك يدل على ان ما فيه تفاوت من الكفر و المعاصى ليس من خلق الله، لأنه نفى نفيًا عاماً أن يكون فيما خلقه تفاوت. و تفاوت و تفوت مثل تصاعر و تصعر.

ثم نبه تعالى العاقل على صحه ما قاله من انه ليس فى خلق الله تفاوت.

فقال (فَارْجِعِ الْبَصِيرَ) أى فرد البصر و أدرها فى خلق الله من السموات (هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) أى من شقوق و صدوع يقال: فطره يفطره، فهو فاطر إذا شقه و منه قوله (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُونَ مِنْهُ) «١» أى يتصدعن. و قال ابن عباس: معناه هل ترى من وهن، و قال قتادة: من خلل. و قال سفيان: من شقوق. ثم أكد ذلك بقوله (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصِيرَ كَرْتَيْنِ) أى دفعه ثانية، لان من نظر فى الشىء كره بعد أخرى بان له ما لم يكن بايناً له.

ثم بين انه إذا فعل ذلك و تردد بصره فى خلق الله انقلب اليه بصره و رجع اليه خاسئاً يعنى ذليلاً صاعراً- فى قول ابن عباس- و ذلك كذله من طلب شيئاً لم يجده و أبعده عنه «وَهُوَ حَسِيرٌ» قال قتادة: معناه كآل معيى، فالحسير الكليل، كما يحسر البعير. ثم أقسم الله تعالى بقوله (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ...) لان لام (لقد) هى التى يتلقى بها القسم بأنه زين السماء أى حسنها و جملها أى السماء الدنيا بالمصابيح، يعنى الكواكب و سميت النجوم مصابيح لإضاءتها، و كذلك الصبح. و المصباح السراج و واحد المصابيح مصباح. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث خصال: أحدها زينته السماء. و ثانيها رجوماً للشياطين. و ثالثها علامات يهتدى بها، فعلى هذا يكون

(١) سورة ١٩ مريم آية ٩١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٠

تقديره و جعلنا فيها.

و قوله (وَاعْتَدْنَا لَهُمُ عَذَابَ السَّعِيرِ) معناه إنا جعلنا الكواكب رجماً للشياطين أعتدنا لهم و ادخرنا لأجلهم عذاب السعير يعنى النار المسعرة، فالسعير النار المسعرة المشتعلة. و قيل: ينفصل من الكواكب شهاب بأن يكون رجوماً للشياطين، فأما الكوكب نفسه، فليس يزول إلى أن يريد الله فناءه، ففى هذه الآيات بيان ما يجب من تعظيم الله تعالى لم يزل و لا يزال، و أن له الملك الكبير، و انه على كل شىء قدير. و فيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ما خلقه الله فللابتلاء بما يصح معه التكليف للعمل الذى يوجب الثواب جزاء على الإحسان مع رحمة من تاب بالغفران و شدة الانتقام ممن أقام على معصيته. و فيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ما خلقه الله محكم لا- تفاوت فيه، لأنه على ما تقتضيه الحكمة فى المتعة و العبرة و ما يصح به الزجر من السيئة. و فيها بيان ما يجب اعتقاده مما اقتضت الحكمة فيه التلاؤم من غير فطور، و لا عدول عن الصواب من أمر السموات و الأفلاك و النجوم، و ما خلق فيها من المصابيح زينه لها و رجوماً للشياطين مع ان عاقبتهم إلى عذاب السعير.

قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٦ الى ١١] ص: ٦٠

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَ بُسَّ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ

فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦١ ست آيات.

قرأ أبو جعفر والكسائي (فسحقا) بضم الحاء مثقل. الباقون بالتخفيف، و هما لغتان.

لما ذكر الله تعالى ما أعد للشياطين من عذاب السعير، ذكر عقبيه وعيد الكفار وما أعد لهم لاتصال ذلك بوعيد النار، فقال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى بتوحيد الله وإخلاص عبادته و جحدوا نبوة رسله و ما جاءوا به (عَذَابُ جَهَنَّمَ) ثم قال (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى بئس المآل و المرجع. و إنما وصفه ب (بئس) و هى من صفات الذم، و العقاب حسن، لما فى ذلك من الضرر الذى يجب على كل عاقل أن يتقيه بغاية الجهد و استفراغ الوسع و مع هذا ليس يخفى المراد فى ذلك على أحد. و لا يجوز قياساً على ذلك أن يوصف به الفاعل، لأنه لا يوصف به الفاعل إلا على وجه الذم، لأنه لا يقال: بئس الرجل إلا لمن كان مستحقاً للذم من حيث أن القادر قادر على الضدين.

و وجه الحكمة فى فعل العقاب ما فيه من الزجر المتقدم للمكلف، و لا يمكن ان يكون مزجوراً إلا به و لولاه لكان مغرى بالقيح. ثم قال تعالى (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا) و معناه إذا طرح الكفار فى النار (سَجِعُوا لَهَا) يعنى للنار (شَهيقاً) و صوتاً فظيماً بنفس كالنزع، فإذا اشتد لهيب النار سمع لها ذلك الصوت كأنها تطلب الوقود، قال رؤبه: حشرج فى الجوف سحيلاً او شهق حتى يقال ناهق و ما نهق «١»

(١) مر فى ٦٧/٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٢

و قال ابو العالیه: الشهيق فى الصدر، و الزفير فى الحلق و قوله (وَهِيَ تَفُورٌ) أى ترتفع، فالفور ارتفاع الشىء بالغيان، يقال: فارت القدر تفور فوراً و منه الفوارة لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان. و فار الدم فوراناً، و فار الماء يفور فوراً. و قوله (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ) أى تكاد النار تتفرق و تنقطع من شدتها، و سمي شدتها و التهابها غيظاً لأن المغتاض هو المتقطع بما يجد من الألم الباعث على الإيقاع لغيره، فحال جهنم كحال المغتاض، فالتميز التفرق و التمييز التفريق. و قال ابن عباس (تميز) أى تفرق، و هو قول الضحاك و ابن زيد.

و قوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ) يعنى كلما طرح فى النار فوج من الكفار (سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) يعنى تقول لهم الملائكة الموكلون بالنار على وجه التبكيث لهم فى صيغته الاستفهام: ألم يجئكم مخوف من جهة الله يخوفكم عذاب هذه النار؟! فيقولون فى جوابهم (بلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ) أى مخوف معلم (فَكَذَّبْنَا) و لم نصدقه و لم نقبل منه (وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) مما تدعوننا اليه و تحذروننا منه فتقول لهم الملائكة (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) أى لستم اليوم إلا فى عذاب عظيم. (وَقَالُوا) أيضاً يعنى الكفار (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ) من النذر ما جاءونا به (أَوْ نَعْقِلُ) ما دعونا اليه و عملنا به (مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) فقال الله تعالى (فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) يعنى أقر اهل النار بمعاصيهم فى ذلك الوقت الذى لم ينفعهم الاعتراف.

فالاقرار هو الإقرار بالشىء عن معرفته، و ذلك ان الإقرار مشتق من قر الشىء يقر قرأ إذا ثبت، فالمقر فى المعنى مثبت له و الاعتراف مأخوذ من المعرفة. فقال الله تعالى (فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى بعداً لهم عن الخير و عن ثواب الله و نعمه، فكأنه قال اسحقهم الله سحقاً أو ألزمهم الله سحقاً عن الخير فجاء المصدر على غير التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٣

لفظه، كما قال الله تعالى (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) «١» و تقديره فأسحقهم الله إسحاقاً لأنه مأخوذ منه فأما سحقته سحقاً فمعناه باعدته بالتفريق عن حال اجتماعه بما صار اليه كالغبار. و ليس لأحد أن يقول: ما وجه اعترافهم بالذنب مع ما عليهم من الفضيحة به؟! و ذلك أنهم قد علموا انهم قد حصلوا على الفضيحة اعترفوا او لم يعترفوا و انهم سواء عليهم أجزعوا أم صبروا، فليس يدعوهم إلى أحد الأمرين إلا بمثل ما يدعوهم إلى الآخر في أنه لا فرج فيه، فلا يصلح أن يقال لم جزعوا إلا بمثل ما يصلح أن يقال لم صبروا، و كذلك لم اعترفوا بمنزلة لم لم يعترفوا على ما بيناه. و الذنب مصدر لا يثنى و لا يجمع، و متى جمع فلاختلاف جنسه، كما يقال غطاء الناس و اغطيتمهم.

قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ١٥] ص: ٦٣

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أربع آيات.

لما وصف الله تعالى الكفار و ما أعده لهم من أليم العقاب، ذكر المؤمنين و ما أعده لهم من جزيل الثواب، فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) أى يخافون عذاب ربهم باتقاء معاصيه و فعل طاعاته (بِالْغَيْبِ) أى على وجه الاستسرار بذلك

(١) سورة ١٧ نوح آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٤

لأن الخشية متى كانت بالغيب على ما قلناه كانت بعيدة من النفاق، و خالصة لوجه الله. و خشية الله بالغيب تنفع بأن يستحق عليها الثواب، و الخشية فى الظاهر و ترك المعاصى لا يستحق بها الثواب و إنما لا يستحق عليها العقاب. و إنما الخشية فى الغيب أفضل لا محالة.

و قوله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) أى لمن خشى الله و اتقاه بالغيب ستر الله على معاصيه و لهم ثواب كبير لا- فناء له. و قيل: معنى (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) أى يخافونه، و هم لا- يرونه. و قيل (بالغيب) أى فى سرهم و باطنهم، و من علم ضمائر الصدور علم إسرار القائل إلى غيره. و قال الحسن: معناه يخشون ربهم بالآخرة لأنها غيب يؤمنون به، و كل من خشى ربه بالغيب خشيه بالشهادة، و ليس كل من خشيه بالشهادة يخشى بالغيب.

ثم قال مهدداً للعصاة (وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ) و معناه إن شئتم أظهره و إن شئتم ابطنوه فانه عالم بذلك ل (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) فمن علم ضمائر الصدور علم إسرار القول.

و قوله (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) معناه من خلق الصدور يعلم ما فى الصدور و يجوز ان يكون المراد ألا- يعلم من خلق الأشياء ما فى الصدور. و قيل تقديره ألا يعلم سر العبد من خلقه يعنى من خلق العبد، و يجوز أن يكون المراد ألا يعلم سر من خلق، و حذف المضاف و أقام المضاف اليه مقامه. و لا- يجوز أن يكون المراد ألا- يعلم من خلق أفعال القلوب، لأنه لو أراد ذلك لقال ألا يعلم ما خلق، لأنه لا يعبر عما لا يعقل ب (من) و لا يدل ذلك على أن الواحد منا لا يخلق أفعاله من حيث أنه لا يعلم الضمائر، و إنا بينا أن المراد ألا- يعلم من خلق الصدور أى خلق الأشياء و الواحد منا لا- يخلق ذلك فلا يجب أن يكون عالماً بالضمائر. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٥

و قوله (وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) معناه هو اللطيف بعباده من حيث يدبرهم بلطف التدبير، فلطيف التدبير هو الذى يدبر تدبيراً نافذاً لا يخفو عن شىء يدبره به (الخبير) معناه العالم بهم و بأعمالهم.

ثم قال تعالى ممتناً على خلقه و معدداً لأنواع نعمه عليهم (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا) يعني سهلاً سهلاً لكم تعملون فيها ما تشتهون (فَمَا شُؤُوا فِي مَنَاجِبِهَا) قال مجاهد: مناكبها طرقها و فجاجها. و قال ابن عباس و قتادة: مناكبها جبالها (وَ كَلُّوا مِنْ رِزْقِهِ) صورته صورة الأمر و المراد به الاباحة و الأذن، أذن الله تعالى أن يأكلوا مما خلقه لهم و جعله لهم رزقاً على الوجه الذي أباحه لهم «وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ» أي إلى الله المرجع يوم القيامة و اليه المآل و المصير فيجازى كل واحد حسب عمله. و في ذلك تهديد.

قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ١٦ إلى ٢١] ص: ٦٥

أَمْ مِتُّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَيَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَزُفُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٦

ست آيات.

قرأ ابن كثير (و اليه النشور و أمتهم) بو او في الوصل قلباً لهمزة الاستفهام و اوأ لضم ما قبلها. و قرأ اهل الكوفة و اهل الشام بهمزتين على أصولهم. الباقون بتحقيق الأولى و تخفيف الثانية.

يقول الله تعالى مهدداً للمكلفين و زاجراً لهم عن ارتكاب معاصيه و الجحد لربوبيته على لفظ الاستفهام و المراد به تفخيم الامر و تعظيم التبكيث (أَمْ مِتُّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) فالأمن هو اطمينان النفس إلى السلامة من الخوف، و الأمن علم بسلامة النفس من الضرر يقال أمن يأمن أمناً و أمنه يؤمنه إيماناً و أماناً، و المعنى أ أمن من في السماء سلطانه و أمره و نهيه. كما قال (وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرُكُمْ) «١» أي و هو الله في السموات و في الأرض معلومه، لا- يخفى عليه شيء منه. و قيل: ايضاً يجوز ان يكون المراد (أَمْ مِتُّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) يعني الملك الكائن في السماء (أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) بأمر الله، فإذا هي تمور أي تردد، فالتمور هو التردد في الذهب و المعجى، يقال: مار يثور موراً فهو مائر، و مثله ماج يموج موجاً.

و قوله (أَمْ مِتُّمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) فالحاصب الحجاره التي يرمى بها كالحصباء، حصبه بالحصباء يحصبه حصباً إذا رماه بها. و يقال للذي يرمى به حاصب أي ذو حصب كأن الحجر هو الذي يحصب. و قيل: تقديره آمنوا قبل ان يرسل عليكم حاصباً، كما أرسل على قوم لوط حجاره من السماء.

و قوله (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) فيه تهديد أي ستعرفون كيف تخويفي

(١) سورة ٦ الانعام آية ٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٧

و ترهيبى إن عصيتموني إذا صرتم إلى عذاب النار. ثم قال مقسماً (وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي جحد من قبل هؤلاء الكفار من الأمم و حدانيتي و أشركوا بي غيرى في العبادة و كذبوا رسلى (فأهلكتهم) و استأصلتهم (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أي ألم اهلكهم بضروب النقمات و المثلات.

ثم قال منبهاً لهم على توحيدهم (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ) أي مصطفاه فوق رؤسهم في الجو باسطات أجنحتهم (وَ يَقْبِضْنَ) أي يضربن بها.

أي من الطير ما يضرب بجناحيه فيدف، و منه الصفيف و الدفيف (مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) أي ليس يمنعهن من السقوط إلى الأرض

إلا الرحمن الذي خلق لهم الآلات التي يصفون بها و يدفون، و ما خلق فيها من القدرة على ذلك، و لو لا ذلك لسقطت إلى الأرض. و قيل معنى ما يمسكهن إلا الرحمن بتوطئة الهواء لها، و لو لا ذلك لسقطت، و فى ذلك أكبر دلالة، و أوضح عبرة بأن من سخر الهواء هذا التسخير هو على كل شىء قدير. و الصف وضع الأشياء المتواليه على خط مستقيم، و القبض جمع الشىء من حال البسط. و الإمساك الزوم المانع من السقوط.

و قوله (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) اخبار منه تعالى انه عالم بجميع الأشياء لا يخفى عليه شىء منها (بصير) بما للخلق من النفع و الضر. ثم قال (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ) أى من لكم معاشر الكفار يدفع عنكم عذاب الله إذا حل بكم (إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) معناه ليس الكافرون بالله العابدون للأوثان إلا فى غرور أى يتوهمون أن ذلك أنفع لهم و الأمر على خلاف ذلك من المكروه.

ثم قال (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ اللَّهُ رِزْقَهُ) بأن يزيله و يمنعه منكم، فينزل عليكم رزقه (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ) فاللجاج تقحم الامر التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٨

كثيراً رداً للصارف عنه، يقال لجاج فى الأمر يلج لجاجاً، و قد لاجه ملاحه و لجاج فلان فى الحرب فهو يلج تلجيجاً. و لما كان لهؤلاء المشركين صوارف كثيرة من عبادة الأوثان و هم يتقحمون على ذلك العصيان كانوا قد لجوا فى عتوهم. و العتو الطغيان و هو الخروج الى فاحش الفساد، يقال: عتا يعتو عتواً فهو عات و جمعه عتاءة. و النفور الخروج عن الشىء هرباً من الشعور بضرره، و نقيض النفور القبول و قال الجبائي: قوله (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي) إلى قوله (إِنَّ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) تعريف حجه عرفها الله لعباده فعرفوا و أقروا بها، و لم يردوا لها جواباً فقال الله (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ).

قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٢٦] ص: ٦٨

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)

خمس آيات.

قوله (أَفَمَنْ يَمْشِي ...) مثل ضربه الله قال ابن عباس: هو مثل ضربه الله عز و جل للكافر و شبهه بمن يمشى مكباً على وجهه. و المؤمن شبهه بمن يمشى سويماً على صراط مستقيم. و قال قتادة: الكافر يحشر يوم القيامة يمشى على وجهه مكباً، و المؤمن يمشى على صراط مستقيم. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٦٩

و فى الآية دلالة على وجوب النظر فى الدين، لأنه تعالى ضرب المثل بالناظر فى ما يسلكه حتى خلص إلى الطريق المستقيم فمدحه بهذا و ذم التارك للنظر مكباً على وجهه لا يثق بسلامة طريقه، يقال: اكب يكب اكباباً فهو مكب فى ما لا يتعدى قال الأعشى:

مكباً على روقيه يحفر عرقها على ظهر عريان الطريقة أهيماء (١)

فإذا تعدى قيل: كبيت فلاناً على وجهه، و أكبه الله لوجهه. ثم قال تعالى لنبىه صلى الله عليه و آله (قُلْ) لهؤلاء الكفار إن الله تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود و اخترعكم (وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ) تسمعون بالسمع المسموعات و تبصرون بالبصر المبصرات (وَ الْأَفْئِدَةَ) يعنى القلوب تعقلون فيها أى بما فيها من المعلوم تعلمون بها و تميزون بها، فهذه نعم من الله تعالى يجب عليكم أن تشكروها و تحمدوا الله عليها فأنتم (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) أى قليلاً- شكركم، و يجوز أن يكون المعنى إنكم تشكرون قليلاً.

ثم قال (قُلْ) لهم يا محمد (هُوَ) الله تعالى (الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) أى خلقكم أولاً و أوجدكم (وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أى تبعثون اليه يوم

القيامه فيجازيكم على أعمالكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. ثم حكى تعالى ما كان يقوله الكفار فإنهم كانوا (يَقُولُونَ) مستهزئين مكذابين بأنه من عند الله (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) الذى تعدونا به من العذاب والهلاك (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) معاشر المؤمنين والمسلمين، فقال الله تعالى (قُلْ) لهم يا محمد (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) يعنى علم وقت قيام الساعة على اليقين عند الله لم يطلع عليه احداً من البشر، كما قال (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) «٢» (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ) لكم مخبر مخوف من عقاب الله تعالى

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٨٨

(٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٠

(مُيِّنٌ) ما لكم فيه من الصلاح والنجاة من العقاب. والنذير هو الدال على موضع المخافة فكل من دعا إلى حق إما رغبة أو رهبة فهو نذير إلا انه صار علماً فى صفات الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: [سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٧ الى ٣٠] ص: ٧٠

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيزُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَيَتَعَلَّمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

أربع آيات.

قرأ يعقوب (تدعون) خفيفة. الباقر بالتشديد. وقرأ الكسائي (فسيعلمون من هو) بالياء على الغيبة. الباقر بالتاء على الخطاب، أى قل لهم.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم استبطنوا عذاب الله وإهلاكه لهم مستهزئين بذلك، فقالوا متى هذا الوعد، قال الله تعالى حاكياً عنهم إذا رأوا ما يوعدون به (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً) قال الحسن: معناه معاينة. وقال مجاهد: يعنى قريباً. والزلفة المنزلة القريبة والأصل فيه القرب، يقال: أزدلف اليه ازدلافاً إذا تقرب اليه، ومنه (مزدلفة) لأنها منزلة قريبة من مكة، وجمع زلفة زلف، قال العجاج:

ناج طواه الأين مما وجفا طى الليالى زلفا فرلفا

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧١

سماوة الهلال حتى احقوقفا «١»

وقوله «سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، أى ظهر فيها ما يفهم من الكآبة والحزن تقول: ساء يسوء سوءاً، ومنه السوائى، ومنه أساء يسىء إساءة، فهو مسىء إذا فعل قبيحاً يؤدي إلى الغم «وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ» أى ويقال لهؤلاء الكفار إذا شاهدوا العذاب «هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ» أى تطلبون به خلاف ما وعدتم به على طريق التكذيب بالوعد، كأنه قيل هذا الذى كنتم به تكذبون فى ادعائكم انه باطل. و الادعاء الاخبار بما يوعد اليه القائل دون المعنى، فإذا ظهر دليله خرج من الادعاء لأنه حينئذ يدعو إليه المعنى، و كذلك الاخبار بما يدعو إلى نفسه فى الفعل ليس بدعوى، قال الزجاج: «تدعون» يجوز ان يكون يريد يفعلون من الدعاء، و يجوز أن يكون من الدعوى، قال الفراء: و التشديد و التخفيف واحد مثل تذكرون و تذكرون و تدخرون و تدخرون.

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله «قُلْ» لهم يا محمد «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ» بان يمتتنا «أَوْ رَحِمَنَا» بتأخير آجالنا ما الذى ينفعكم من ذلك فى رفع العذاب الذى استحققتموه من الله فلا تعللوا فى ذلك بما لا يغنى عنكم شيئاً. وقيل إن الكفار كانوا يتمنون موت النبي و موت أصحابه فليل لهم «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ» باماتتى و إماتة اصحابى فما الذى ينفعكم ذلك فى النجاة من عذاب

أليم. و قل لهم «فَمَنْ» الذي «يُجِيزُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» حتى لا يعذبوا و لا يعاقبوا، فلا يمكنهم الاحالة على من يجيرهم من الله و يخلصهم من عذابه.

ثم قال «قُلْ» لهم على وجه الإنكار عليهم و التوبيخ لهم على فعلهم «هُوَ الرَّحْمَنُ» يعنى الله تعالى هو الذى عمت نعمه جميع الخلائق و استحق الوصف بالرحمن

(١) مر فى ٧٩ / ٦ و ٢٩ / ٨ و ٢٨٠ / ٩ ، ٣٧٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٢

«آمَنَّا بِهِ» أى صدقنا بوحدانيته «وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» أى اعتمدنا عليه و فوضنا أمورنا اليه، فالتوكل الاعتماد على تفضل الله و حسن تدبيره و قل لهم «فَسَتَعْلَمُونَ» معاشر الكفار «الرَّحْمَنُ» الذى «هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى بين. و من قرأ بالياء معناه فسيعلم الكفار ذلك. ثم قال «قُلْ» لهم يا محمد «أَرَأَيْتُمْ» معاشر الكفار «إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أى غائراً و وصف الغائر بالغور الذى هو المصدر مبالغه، يقال ماء غور، و ماء ان غور، و مياه غور كما يقال: هؤلاء زور فلان و ضيفه، لأنه مصدر- فى قول الفراء و غيره- «فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ» معناه من الذى يجيئك بماء معين إذا غارت مياهكم. قال قوم:

الماء المعين الذى تراه العيون. و قال قتادة و الضحاك: هو الجارى، فالأول مفعول من العين، كميع من البيع، و الثانى من الإمعان فى الجرى، و وزنه (فعليل) كأنه قال ممعن فى الجرى و الظهور، و قال الحسن أصله من العيون. قال الجبائى قوله «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» تعريف حجة الله لعباده عرفوها و أفروا بها و لم يردوا لها جواباً.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٣

٦٨-سورة القلم ص: ٧٣

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و غيرهما و هى اثنتان و خمسون آية بلا خلاف

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١ الى ١٦] ص: ٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)
 فَسَبِّحْهُ وَ يُبْصِرُونَ (٥) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨)
 وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)
 وَ لَا- تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينٍ (١٤)

إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦)
 ست عشرة آية.

قرأ الكسائى و ابو بكر عن عاصم «ن و القلم» بالإخفاء. الباقون بالإظهار.

و الاظهار أقوى، لان النية بها الوقف إذ هى حرف هجاء. و يجوز ادغام النون الثانية التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٤

في الواو المقارنة على قياس (من واقد) و لم يقرأ به احد. و قرأ «آن كان ذا مال» بهمزة واحدة ممدودة يعقوب و ابو جعفر و ابن عامر- و بهمزتين- حمزة و ابو بكر، الباكون بهمزة واحدة. و اختلفوا في معنى (ن) في هذا الموضع.

فقال قوم: هو اسم من أسماء السورة مثل (حم، و الم و ص، و ق) و ما أشبه ذلك. و هو الذي قلنا إنه أقوى الأقوال. و قال ابن عباس- في رواية عنه- إن النون الحوت الذي عليه الأرضون. و في رواية أخرى عنه إن النون الدواء.

و هو قول الحسن و قتادة، و

روى في خبر عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: (نون) لوح من نور.

و قال قوم: تقديره و رب نون و القلم. و القلم آلة مبرية للكتابة. و المقلمة و عاء القلم، و جمعه أقلام، و منه قلامه الظفر، لأنه يؤخذ منه كالأخذ بالقط. و انجز القلم بالقسم. و قوله «وَمَا يَسْطُرُونَ» (ما) في موضع جر بالعطف على (و القلم) و كان القسم بالقلم و ما يسطر بالقلم، و يجوز ان تكون (ما) مصدرية، و تقديره: ن و القلم و سطر كم، فيكون القسم بالكتابة، و على الأول بالمكتوب و السطر الكتابة، و هو وضع الحروف على خط مستقيم: سطر يسطر سطرًا إذا كتب، و أسطر إذا كتب.

و جمع السطر سطور و اسطار، قال رؤبة:

انى و أسطار سطران سطرًا «١»

و المسطرة آلة التسطير. و قوله «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» هو المحلوف عليه، و هو جواب القسم، و معناه لست يا محمد بمجنون بنعمة ربك، كما تقول ما انت بنعمة ربك بجاهل، و جاز تقديم معمولها بعد الباء، لأنها زائدة مؤكدة في ما أنت بنعمة ربك بمجنون، و تقديره انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، و إنما قال «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» مع ان الجنة قد تكون نعمة، لأن الجنة لا تكون

(١) مر في ١١٠ / ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٥

نعمة من حيث هي جنه، و إنما تكون نعمة من حيث تؤدي إلى مصلحة في الدين.

و العافية تكون نعمة من حيث هي عافية، فلهذا حسن ما أنت بنعمة ربك بمجنون و الجنون غمور العقل بستره عن الإدراك به بما يخرج عن حكم الصحيح، و أصله الستر من قوله «جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» «١» إذا ستره. و قيل إن قوله «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» جواب لقول المشركين حين قالوا «يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون» «٢» فقال الله تعالى «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ». و قوله «و إن لك» خطاب للنبي صلى الله عليه و آله يقول له «و إن لك» يا محمد «لأجرًا» أى ثواباً من الله على قيامك بالنبوة و تحملك بأعبائها «غَيْرَ مَمْنُونٍ» أى غير مقطوع من قولهم منه السير يمنه مناً إذا قطعه، و يقال: ضعفت منى عن السفر، و رجل منين أى ضعيف، و يجوز ان يكون المراد به إنه غير مكدر بالمن الذي يقطع عن لزوم الشكر، من قولهم: المنه تكدر الصنيعة. و قال الحسن: معناه لا- يمن عليك بأجرك. ثم وصف النبي صلى الله عليه و آله فقال «و إنك» يا محمد «لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» قال الحسن: على دين عظيم، و هو الإسلام. و قيل أذب القرآن. و قال المؤرج:

معناه على دين عظيم بلغه قريش. و قالت عائشة: كانت خلق النبي صلى الله عليه و آله ما تضمنه العشر الاول من سورة (المؤمنون)، فالخلق المرور في الفعل على عادة، فالخلق الكريم الصبر على الحق و سعة البذل، و تدبير الأمور على مقتضى العقل. و فى ذلك الرفق و الأناة و الحلم و المداراة. و من وصفه الله بأنه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح. و قيل: و إنك لعلى خلق عظيم بحكم القرآن و كل ذلك عطف على جواب القسم.

و قوله «فَسْتَبْصِرُ وَ وَيَبْصِرُونَ» معناه فستعلم يا محمد يوم القيامة و يعلمون، يعنى هؤلاء الكفار الذين يرمونك بالجنون تارة و بالكهانة

أخرى «بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ»

(١) سورة ٦ الانعام آية ٧٦

(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٦

وقيل في معناه قولان:

أحدهما- باى فرقكم المفتون بما يجرى مجرى الجنون.

والثانى- ان يكون معنى «بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ» كما يقال: ليس له معقول أى عقل و تقديره ستعلم و يعلمون بمن منكم الجنون، وقيل: معنى الباء (فى) و كأنه قال فى أيكم الجنون المفتون المبلى بتخييل الرأى كالمجنون، و ذلك كما يتلى بشدة الهوى المجنون. فيقال: فتن فلان بفلانة، و على هذا المعنى قال ابن عباس: بأىكم المجنون و قال قتادة: معناه أىكم اولى بالشيطان جعل الباء زائدة كما قال الراجز:

نحن بنو جعدة اصحاب الفلج نضرب بالسيف و نرجو بالفرج «١»

ومعناه و نرجو الفرج. و قال مجاهد: معناه أيكم المفتون كأنه قال فى أيكم المفتون. ثم قال «إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» الذى هو سبيل الحق أى بمن عدل عنها و جار عن السلوك فيها «وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» أى بمن اهتدى إليها و عمل بموجبها. ثم نهى النبى صلى الله عليه و آله فقال له «فَلَا تُطِعِ الْمُكذِّبِينَ» بتوحيد الله و الجاحدين لنبوتك و لا توافق ما يريدونه. و قوله «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» قال ابن عباس: معناه ودوا لو تكفر فيكفرون، و هو قول الضحاك، و فى رواية أخرى عن ابن عباس: إن معناه ود هؤلاء الكفار لو تلىن فى دينك، فيلینون فى دينهم، فشبه التلىن فى الدين بتلىن الدهن. و قيل: معناه ودوا لو تركن إلى عبادة الأوثان فيمالونك. و الادهان الجريان فى ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة. و هو مثل النفاق. و رفع «فَيُدْهِنُونَ» بالعطف على قوله «لَوْ تُدْهِنُ» و لم يجعله جواب التمنى.

ثم قال له صلى الله عليه و آله «وَلَا تُطِعْ» يا محمد «كُلَّ خَلَّافٍ» أى من يقسم كثيراً

(١) مر فى ١١٨ / ٧، ٣٥٨ و ٨ / ٨١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٧

بالكذب «مَهِينٍ» يعنى مكثار فى الشر- فى قول الحسن و قتادة- و المهين الوضيع يكثره من القبيح، و من عرف بأنه يحلف على الكذب، فهو مهين. و قال البلخى:

المهين الفاجر- فى هذا الموضع-

و قوله «هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ» أى وقاع فى الناس بما ليس له أن يعيهم به.

و الأصل فيه الدفع بشدة اعتماد، و منه الهمزة حرف من حروف المعجم، و هى همزة تخرج من الصدر بشدة اعتماد، و قال ابن عباس: الهماز المغتاب. و قوله «مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ» فالنميمة التضريب بين الناس بنقل الكلام يغلب لقلوب بعضهم على بعض و منه النمام المشموم، لأنه يجد ريحه كالمخبر عن نفسه، و النميمة مصدران، و هو نقل الأحاديث بالتضريب: نم ينم نميماً و نميمة «مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ» أى يمنع خيره و نفعه، فلا- ينتفع أحد به «مُعْتَدٍ» قال قتادة: معناه متجاوز للحد فى المعاملة «أَثِيمٍ» أى آثم فهو (فعيل) بمعنى (فاعل) و هو الذى فعل ما يآثم به «عُتْلٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ» فالعتل الجافى الغليظ. و منه قوله «خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ» «١» أى اذهبوا به بعنف و غلظة يقال: عتله يعتله و يعتله عتلاً إذا زعزعه بغلظ و جفاء. و قال ذو الإصبع:

و الدهر يغدو معتلاً جذعاً «٢»

و

قيل: العتل الفاحش اللثيم. و روى عن النبي صلى الله عليه وآله ذلك.

و «الزنيمة» الدعوى و هو المصلق بالقوم، و ليس منهم. و أصله الزنمة و هى الهيئة التى تتحرك تحت حلق الجدى و قال حسان: و انت زنيمة نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد «٣»

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٧

(٢) مجاز القرآن ٢/٢٦٤

(٣) ديوانه ١٦٠ اللسان (زنيمة) [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٨

و (بعد) هاهنا معناه (مع) و قال آخر:

زنيمة ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لثيم «١»

و يقال للثيس: زنيمة له زنيمة، و الزنيمة الدعوى - عن ابن عباس - و قيل:

هو الذى يعرف بالشر، كما تعرف الشاة بزنيمة.

و قوله «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَيْنَيْنَ» من قرأ على الاستفهام، و هو حمزة و ابو بكر عن عاصم أراد، ألا ان كان ذا مال و بينين؟! على وجه التوبيخ له «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» و يحتمل ان يكون المراد لأن كان ذا مال و بينين يطاع. و قيل: كان له ألف دينار و عشرة بينين «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أى أحاديث الأولين التى سطرت و كتبت لا أصل لها و واحد الأساطير أسطورة - فى قول الزجاج. و قرأ حمزة و ابو بكر عن عاصم «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَيْنَيْنَ» بهمزتين. و قرأ ابن عامر بهمزة ممدودة. الباقيون بهمزة واحدة. و قد فسرناه. فقال الله تعالى مهدداً له و متوعداً «سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ» أى سنعلم على أنفه علامة يعرف بها الملائكة انه من أهل النار، فالسمة العلامة المفارقة بالرؤية بين الأشياء المختلطة، كسمة الخيل إذا أرسلت فى المروج، و سمة يسمه و سماً و سمة.

فهو موسوم. و الخرطوم الانف، و هو الناتئ فى الوجه الذى يقع به الشم. و منه خرطوم الفيل، و خرطمه إذا قطع أنفه و جعله خراطيم. و قال ابن عباس: معنى «سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ» نحطمه بالسيف فى القتال، كما فعل بهم يوم بدر. و قال قتادة: معناه سنعلمه بشيء يبقى على الأبد. و قال بعضهم معناه: سنسود وجهه فعبع عن الوجه بالخرطوم، لأنه فيه.

و قيل: نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة المخزومى، و قيل: نزلت

(١) تفسير الطبرى ١٤/٢٩ و القرطبي ١٨/٢٣٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٧٩

فى الأحنس بن شريق الثقفى، كانت به زنيمة يعرف بها - ذكره ابن عباس -

قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٢٥] ص: ٧٩

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَ لَا يَسْتَشْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ ائْتِنَا بِآيَاتِنَا إِنَّا نَحْنُ الْمُغْنِيُونَ (٢٢) فَانظُرُوا وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَ غَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ

قَادِرِينَ (٢٥)

تسع آيات.

يقول الله تعالى «إِنَّا بَلَوْنَا هُمْ» يعنى هؤلاء الكفار أى اختبرناهم «كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» يعنى البستان «إِذْ أَقْسَمُوا» أى حين اقساموا فيما بينهم «لَيُضِرْمَنَّهَا مُضِرِّجِينَ» و وجه الكلام إنا بلونا أهل مكة بالجذب و القحط، كما بلونا اصحاب الجنة بهلاك الثمار التى كانت فيها حين

دعا النبى صلى الله عليه و آله عليهم، فقال (اللهم أشدد وطأتك على مضر و اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) فالبلوى المحنة بشدة التعبد على ما يقتضيه الحال فى صحة التكليف. و الصرم قطع ثمر النخل: صرم النخلة يصرمها صرمًا، فهو صارم، و منه الصريمة القطيعة عن حال المودة. و هم عشرة أولاد كانوا لرجل من بنى إسرائيل، و كان يأخذ من بستانه كفاية سنته و يتصدق بالباقي، فقال أولاده: ليس يكفيننا، و حلفوا أنهم يصرمون بستانهم ليلا و ابى عليهم أبوهم، فأقسموا أنهم ليصرمون ثمر نخل البستان إذا أصبحوا، و لم يستثنوا، و معناه لم يقولوا إن شاء الله فقول القائل: لأفعلن كذا إلا- أن يشاء الله استثناء و معناه إن شاء الله منعى او تمكين مانعى، فقال الله تعالى «فَطَافَ عَلَيْهَا» يعنى على التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٠

تلك الجنة «طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ» أى طرفها طارق من أمر الله، فالطائف الطارق ليلا، فإذا قيل أطاف به صلح فى الليل و النهار، و انشد

الفراء:

أطفت به نهاراً غير ليلي و الهى ربها طلب الرخال «١»

الرخال أولاد الضان واحدها رخل و فى الأنثى رخله «وَهُمْ نَائِمُونَ» أى فى حال نومهم «فَأَصْرَبَتْ» يعنى الجنة «كَالصَّرِيمِ» أى كالليل الأسود- فى قول ابن عباس- و انشد ابو عمرو بن العلاء:

ألا بكرت و عاذلنى تلوم تجهلنى و ما انكشف الصريم «٢»

و قال:

تطاول ليلك الجون البهيم فما ينجاب عن صبح صريم

إذا ما قلت اقشع او تناهى جرت من كل ناحية غيوم «٣»

و قال قوم: الصريم هو المصروم، و قال سعيد بن جبير: الصريم أرض معروفة باليمن لا نبات فيها تدعى صروان، و إنما قيل لليل صروم، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف فى الأمور. و قيل: إنما فعل الله بهم ذلك لأنهم منعوا الحقوق اللازمة من ثمار هذه الجنة. و الصرم قطع الثمر. و الصريم المصروم جميع ثماره.

و قوله «فَتَنَادَوْا مُضِرِّجِينَ» اخبار عن حالهم أنهم لما أصبحوا نادى بعضهم بعضاً يا فلان يا فلان، و التنادى دعاء بعض الناس بعضاً بطريقة يا فلان و أصله من الندى بالقصر، لأن النداء الدعاء بندى الصوت الذى يمتد على طريقة يا فلان، لان الصوت إنما يمتد للإنسان بندى حلقه. و النادى مجلس الرفد و هو الندى «أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ» أى نادى بعضهم بعضاً بأن اغدوا، او قالوا: «اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ» و الحرث الزرع الذى قد حرثت له الأرض، حرث يحرث حرثاً و الحرث

(١، ٢، ٣) تفسير الطبرى ١٩/١٧ و اللسان (صرم)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨١

الذى يحرث الأرض، و منه الحارث، و منه الحرث، كناية عن الجماع. و يقال:

احترث لأهله إذا اكتسب بطلب الرزق، كما يطلب الحرث «إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ» أى قاطعين لثماركم، فالصارم قاطع ثمر الشجر على الاستئصال. و اكثر ما يستعمل ذلك فى النخل، و يجوز فى الشجر، و أصله القطع. و قد تصرم النهار إذا مضى قطعة قطعة حتى انقضى.

وقيل: معناه إن كنتم حاصدين زرعكم. ثم قال «فَأَنْطَلَقُوا» أى ذهبوا، وهم «يَتَخَفَتُونَ» فالتخافت التقابل فى إخفاء الحركة، وأصله الخفاء من خفت فلان يخفت إذا أخفى نفسه ومعناه -هاهنا- يتسارون بينهم «ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين» فى -قول قتادة- و قوله (وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ) فالحرد القصد، حرد يحرد حرداً فهو حارد. قال الشاعر:

أقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلّة (١)

أى يقصد، وقال الحسن: معناه على جهة من الفاقة. وقال مجاهد: معناه على جد من أمرهم، وهو قول قتادة وابن زيد. وقال سفيان: معناه على حنق، وذلك من قول الأشهب بن رميلة:

أسود شرى لاقت أسود خفيه فساوقوا على حرد دماء الأسود (٢)

أى على غضب. وقيل: معناه على منع من قولهم حاردت السنة إذا منعت قطرها، و حاردت الناقة إذا منعت لبنها. والأصل القصد. وقوله (قَادِرِينَ) معناه مقدرين انهم يصرمون ثمارهم، ويجوز ان يكون المراد وغدوا على حرد قادرين عند أنفسهم على صرام جنتهم.

(١) مر فى ٢١٧/٦

(٢) اللسان (حرد)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٢

قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٢٦ الى ٣٣] ص: ٨٢

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبِيحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠)

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَخِيرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

ثمان آيات.

يقول الله تعالى مخبراً إن أولئك الكفار بنعم الله لما نادى بعضهم بعضاً و انطلقوا إلى صرم ثمارهم و تساروا ألا يدخل عليهم مسكين يطلب منهم (فَلَمَّا رَأَوْهَا) أى حين جاءوا وجدوا البستان كالليل الأسود قالوا أهلكه الله و طرقة طارق من أمر الله فأهلكه، فلما رأوا تلك الجنة على تلك الصورة (قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ) أى اعترفوا بأنهم قد عدلوا عن طريق الحق و جازوا عن سبيل الواجب و ذهبوا عن طريق الرشاد. ثم استدركوا فقالوا (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) ما كان لنا فى جنتنا، و تقديره إنا لضالون عن الحق فى أمرنا فلذلك عوقبنا بذهاب ثمرها، و الضلال الذهاب عن طريق الرشاد إلى طريق الهلاك بالفساد. و الحرمان منع الخير الذى كان ينال لولا ما حدث من سبب الانقطاع، يقال: حرمه يحرمه حرماناً فهو محروم فى خلاف المرزوق. و قال قتادة: معنى قوله (إِنَّا لَضَالُّونَ) أى اخطأنا الطريق ما هذه جنتنا، فقال بعضهم لبعض (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) و قوله (قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ) معناه قال أعدلهم قولاً- فى قول ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاك- و الأوسط التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٣

الكائن بين الأكبر و الأصغر. و المراد هاهنا بين الأكبر و الأصغر فى الخروج عن القصد (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ) على وجه التهجين لهم أما قلت لكم (لَوْ لَا تَسْبِيحُونَ) أى هلا تستنون، و التسييح التنزيه لله عما لا يجوز عليه من صفه، و هو التنزيه عن كل صفه ذم و نقص، فلذلك جاز أن يسمى الاستثناء بأن يشاء الله تسيحاً. و قيل معناه لولا لا تصلون.

ثم حكى انهم (قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) و معناه إنهم اعترفوا أن الله لم يظلمهم و انهم ظلموا أنفسهم فى عزمهم على حرمان

المساكين من حصتهم عند الصرام من غير استثناء، فحرموا قطعها والانتفاع بها.

ثم قال (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَؤْمُونَ) أى يلوم بعضهم بعضاً و يذم بعضهم بعضاً. ثم (قَالُوا يَا وَيْلَنَا) و الويل غلظ المكروه الشاق على النفس، و الويس دونه، و الويح وسط بينهما، و إنما نودى بالويل بياناً عن حال الشدة، كأنه يقول يا ويل تعال فانه من أحيانك (إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) أى علونا فى الظلم و تجاوزنا الحد فيه، فالطغيان العلو فى الظلم و الداعى اليه طلب الارتفاع بغير استحقاق بالقهر و الاعتصاب. و قيل: الطاغى المتجاوز للحد فى الفساد. و قال عمرو بن عبيد: يجوز أن يكون ذلك منهم توبة و إيماناً، و يجوز أن يكون ذلك على حد ما يقول الكافر إذا وقع فى الشدة. ثم قالوا (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا) أى لما تابوا و رجعوا إلى الله قالوا لعل الله تعالى يخلف علينا و يولينا خيراً من الجنة التى هلكت (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ) أى نرغب اليه و نسأله و نتوب اليه مما فعلناه. فالتبديل تثبيت شىء مكان غيره مما ينافيه، بـدله تبديلاً فهو مبدل. و مثله التغير إلا أن التبديل لا يكون إلا فى شئيين و التغير قد يكون للشىء الواحد.

و قرئ بالتشديد و التخفيف، فالتخفيف من الابدال، و التشديد من التبديل التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٤ و معناهما واحد.

و قوله (كَذَلِكَ الْعَذَابُ) معناه مثل ما فعلنا بهؤلاء هذا العذاب عاجلاً فى دار الدنيا. ثم قال (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) إن هناك عقاباً و عذاباً. و خير من كذا أى أعظم نفعاً منه و أحسن فى العقل، و مثله الأصلاح و الاولى و الأجل، و الأكبر هو الذى يصغر مقدار غير عنه بالاضافة اليه. و قد يكون أكبر شأناً و اكبر شخصاً.

قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٤٠] ص: ٨٤

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)

سبع آيات لما اخبر الله تعالى ما حل بالكفار، و ما هو معد لهم فى الآخرة أخبر بما للمؤمنين من أهل الطاعات، فقال (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ) يعنى للذين آمنوا عقاب الله باتقاء معاصيه و فعل طاعاته (عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) أى بساتين يتنعمون فيها و يتلذذون بها. ثم قال على وجه الإنكار على الكفار و انه لا يسوى بينهم و بين المؤمنين فقال (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ) الذين أسلموا لله و انقادوا لطاعته و امتثلوا ما أمرهم به (كَالْمُجْرِمِينَ) أى مثل من عصاه و خرج عن طاعته و ارتكب ما نهاه عنه؟! فهذا لا يكون أبداً.

و قوله (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) تهجين لهم و تويخ. و معناه أعلى حال الصواب أم التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٥ على حال الخطاء؟ و على حال الرشاد أم الغى، فعلى أى حال تحكمون فى الأحوال التى تدعون إلى الفعل أحوال الباطل أم حال الحق؟ و قوله (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) معناه أ لكم كتاب تدرسون فيه خلاف ما قد قامت عليكم الحجة به فأنتم متمسكون به و لا تلتفتون إلى خلافه؟! و ليس الأمر على ذلك فإذ قد عدتم الثقة بما أنتم عليه، و فى هذا عليكم أكبر الحجة و أوكد الموعظة، لأن الكتاب الذى تقوم به الحجة حتى لا يجوز خلافه إلى أن تقوم الساعة هو الذى تشهد له المعجزة من غير اجازة نسخ له فى حال ثانية، و هو القرآن الذى فيه معنى الاعجاز من غير نسخ له فيما بعد فى باقى الزمان.

و قوله (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) يحتمل أمرين:

أحدهما- أن يكون تقديره أم لكم كتاب فيه تدرسون بأن لكم ما تخيرون إلا انه حذفت الباء و كسرت (إن) لدخول اللام فى الخبر. الثانى- أن يكون ذلك خرج مخرج التويخ، و تقديره و إن لكم لما تخيرون عند أنفسكم، و الأمر بخلاف ظنكم، لأنه لا يجوز ان يكون ذلك خبراً مطلقاً.

وقوله (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) كسرت (إن) لدخول اللام في الخبر، والحكم خبر بمعنى يفصل الأمر على جهة القهر والمنع وأصله المنع من قول الشاعر:
ابنى حنيفه احكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم ان اغضبا «١»
أى امنعوهم. ومنه الحكمة، لأنها معرفة تمنع الفساد لصفها عنه بما يدم به.
والحكمة فى الفعل المنع من الفساد منه، ومنه حكمة الدابة لمنعها إياها من الفساد.
وقوله (سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ) قال ابن عباس و قتادة: زعيم أى كفيل

(١) مر تخريجه فى ١٨٨ / ٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٦

و الزعيم و الكفيل و الضمين و القبيل نظائر. و المعنى سلّمهم أيهم زعيم ضامن يدعى علينا ان لهم علينا أيماناً بالغه؟ فلا يمكنهم ادعاء ذلك.

قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٤١ الى ٤٥] ص: ٨٦

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَتِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأَنْزَلْنَاهُمْ إِنْ كُنَّا مِنْكُمْ مِثْرًا (٤٥)
خمس آيات.

قوله (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) توييح لهؤلاء الكفار و إنكار عليهم اتخاذ إله مع الله و توجيه عبادتهم اليه، فقال (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) فى العبادة مع الله (فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) أى شركاؤهم الذين تقوم بهم الحجّة، فلا سبيل لهم إلى ذلك فالحجّة لازمة عليهم لأن كل دعوى لم يمكن صاحبها أن يقيم البيّنة عليها فيلزمه أن يقيمها بغيره. و الشريك عبارة عن يختص بمعنى هو له و لغيره من غير انفراد به.

و إنما قلنا من غير انفراد به لنفرق بين ما هو له و لغيره و هو له ايضاً كالغفران هو لهذا التائب و لتائب آخر، و لهذا التائب مطلقاً، فليس فيه شريك، و كذلك هذا العبد هو ملك لله تعالى، و لهذا المولى، و هو لله على الإطلاق، فليس فى هذا شركة و إنما قيل الشركاء فى الدعوى، لأنها مما لو انفراد بعضهم عن ان يديها لم يدعها الآخر، كأنهم تعاونوا عليها، فعلى هذا يحتمل أن يكون المعنى فى الآية أم لهم التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٧

شركاء يدعون مثل ما يدعيه هؤلاء الكفار، فلأيتوا بهم إن كانوا صادقين أى شركاءهم الذين تقوم بهم الحجّة، و لا سبيل لهم إلى ذلك فهو لازم عليهم.

وقوله (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) قال الزجاج: هو متعلق بقوله «فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ... يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» و قال ابن عباس و الحسن و مجاهد و سعيد بن جبير و قتادة و الضحاك: معنا يوم يبدو عن الامر الشديد كالقطيع من هول يوم القيامة.

و الساق ساق الإنسان و ساق الشجرة لما يقوم عليه بدنها و كل نبت له ساق فهو شجر قال الشاعر:

للفتى عقل يعيش به حيث يهدى ساقه قدمه «١»

فالمعنى يوم يشتد الامر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى ان يقوم على ساق، و قد كثر فى كلام العرب حتى صار كالمثل فيقولون: قامت الحرب على ساق و كشفت عن ساق قال [زهير بن جذيمة].

فإذا شممت لك عن ساقها فويهاً ربيع ولا تسأم «٢»

و قال جدّ أبي طرفه:

كشفت لهم عن ساقها و بدا من الشر الصراح «٣»

و قال آخر:

قد شممت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

و القوس فيها وتر غرد «٤»

و قوله (وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) قيل: معناه إنه يقال لهم على وجه التوبيخ:

اسجدوا (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) و قيل: معناه إن شدة الامر و صعوبة الحال تدعوهم

(١) اللسان (سوق)

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٦

(٣) اللسان (سوق) و القرطبي ١٨/ ٢٤٨

(٤) القرطبي ١٨/ ٤٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٨

إلى السجود، و إن كانوا لا- ينتفعون به. ثم قال (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) أى ذليله أبصارهم لا- يرفعون نظرهم عن الأرض ذلة و مهانة

(تَرَهَّقْتُهُمْ ذِلَّةً) معناه تغشاهم ذلة يقال: رهقه يرهقه رهقاً، فهو راهق إذا غشيه، و رهقه الفارس إذا أدركه، و راهق الغلام إذا أدرك.

و قوله (وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ) يعنى دعاهم الله تعالى إلى السجود و الخضوع له فى دار الدنيا و زمان

التكليف، فلم يفعلوا، فلا ينفعهم السجود فى ذلك الوقت.

و قوله (فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ) تهديد، و معناه ذرنى و المكذبين أى أوكل أمرهم إلى كما يقول القائل: دعنى و إياه.

و قوله (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) معناه سأخذهم إلى العقاب حالا بعد حال.

و قوله (وَ أَمْلَى لَهُمْ) أى و أطيل آجالهم و أواخرها (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) أى قوى، فكأنه قال سنستدرج أعمالهم إلى عقابهم و إن أطلناها

لهم نستخرج ما عندهم قليلا قليلا. و أصله من الدرجة، لان الراقى ينزل منها مرقاة مرقاة فأشبهه هذا.

و وجه الحكمة فى ذلك أنهم لو عرفوا الوقت الذى يؤخذون فيه لكانوا آمنين إلى ذلك الوقت، و صاروا مغربين بالتقيح، و الله تعالى

لا يفعل ذلك.

قوله تعالى: [سورة القلم (٦٨): الآيات ٤٦ الى ٥٢] ص: ٨٨

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَثَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى

وَ هُوَ مَكْطُومٌ (٤٨) لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنَدَبَا بِالْعُرَاءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)

وَ إِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٨٩

ست آيات.

قرأ نافع وحده (ليزلقونك) بفتح الياء من زلقت. الباقون بضمها من أزلفت، و هما لغتان: زلقت، و أزلفت. قال الفراء: يقولون: زلقت

شعره و أزلقته إذا حلقته. و المعنى ليرمون بك و يلقونك.

يقول الله تعالى لنيبه محمد صلى الله عليه وآله على وجه التوبيخ للكفار (أَمْ تَسْئَلُهُمْ) أي هل تسألهم (أَجْرًا) يعني ثواباً وجزاء على دعائك إياهم إلى الله و تخويفك إياهم من المعاصي و أمرك إياهم بطاعة الله (فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ) أي هم من لزوم ذلك (مُثْقَلُونَ) أي محمولون، فالأجر القسط من الخير الذي يستحق بالعمل. و المغموم ما يلزم من الدين الذي يلج في اقتضائه. و أصله اللزوم بالالاحاح، و منه قوله (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) «١» أي لازماً ملحقاً قال الشاعر:

يوم الجفار و يوم النصار كانا عذاباً و كانا غراماً «٢»

و قولهم دفع مغموم أي دفع الاقتضاء بالالاحاح، و الغرم ما يلزم بالاقتضاء على وجه الإلحاح فقط. و المثلث المحمل للثقل و هو ما فيه مشقة على النفس كالمشقة بالحمل الثقيل على الظهر، يقال: هو مثلث بالدين، و مثلث بالعيال و مثلث بما عليه من

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥

(٢) مر في ٥٠٥ / ٧ و ٥٠٥ / ٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٠

الحقوق اللازمة و الأمور الواجبة.

و قوله (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ) معناه هل عندهم علم اختصوا به لا- يعلمه غيرهم، فهم يكتبونه و يتوارثونه بصحة ما يدعونه فينبغي ان يبرزوه.

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) الذي حكم عليك بالصبر و أمهلهم إلى وقت آجالهم (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) يعني و لا تكن في استعجال عقابهم مثل يونس حين طلب من الله تقديم عقاب قومه و إهلاكهم، و لا تخرج من بين ظهراني قومك قبل ان يأذن الله لك في ذلك كما فعل يونس (إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) قال ابن عباس و مجاهد: معناه مغموم، كأن الغم قد حبسه عن الانبساط في أمره، و المكظوم المحبوس عن التصرف في الأمور، و منه كظمت رأس القربة إذا شددت رأسها، و كظم غيظه إذا حبسه بقطعه عما يدعو اليه. و قال قتادة: لا تكن مثله في العجلة و المغاضبة، حتى نادى يونس و هو ممنوع بقطعه عن شفاء غيظه، و الذي نادى به (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فجعله الله من الصالحين، بما بين لعباده من صلاحه، و يجوز بما لطف له حتى صلح في كل ما أمره الله به. و في الكلام حذف، و تقديره: و لا تكن كصاحب الحوت في استعجاله الخروج من بين قومه انتظاراً لنزول العذاب بهم، فلما رفع الله عنهم العذاب مضى على وجهه، فعاتبه على ذلك و حبسه في بطن الحوت، فلجأ إلى الله تعالى. و قوله (إِذْ نَادَى) متعلق بتقدير: اذكر يا محمد حاله إذ نادى. و لا يجوز ان يكون متعلقاً بقوله (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) حين نادى، لان الله لا ينهى نبيه أن يقول مثل ما قال يونس من الدعاء.

و قوله (لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي) معناه لو لا أن الله رحم يونس و لحقته نعمة من جهته (لَنَبَذَ بِالْعُرَاءِ) أي ل طرح بالصحراء الواسعة (وَهُوَ مَذْمُومٌ) قالوا التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩١

هي الأرض العارية من النبات و الأبنية و كل حال سائرة. و قال الفراء: الفضاء من الأرض العارى، قال الشاعر و هو قيس بن جعدة:

و رفعت رجلاً لا أخاف عثارها و نبذت بالبلد العراء ثيابي «١»

و قوله (وَهُوَ مَذْمُومٌ) قال ابن عباس: و هو ملوم أي أتى بما يلام عليه، و لكن الله تعالى تداركه برحمته من عنده، فطرح بالعراء و هو غير مذموم. و قوله (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) معناه اختار الله يونساً فجعله من جملة الصالحين المطيعين لله التاركين لمعاصيه.

و قوله (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال النحويون: (إِنْ) هذه المخففة عن الثقيلة، لأنها لو كانت للشرط لجزم (يكاد) و تقديره، و إن يكاد الذين كفروا أي قارب الذين كفروا (لَيَرْفُقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) أي يرمون بك عند نظرهم غيظاً عليك قال الشاعر:

يتلاحظون إذا التقوا في محفل نظراً يزيل مواقع الأقدام «٢»

و يكاد يصصره بحدته نظره. و قيل كان الرجل إذا أراد ان يصيب صاحبه بالعين تجوع ثلاثة أيام ثم نظره فيصرعه بذلك، و المفسرون كلهم على ان المراد بالزلايقهم له بأبصارهم من الاصابة بالعين. و قال الجبائي منكرًا لذلك: إن هذا ليس بصحيح، لان هذا من نظر العداوة و ذلك عندهم من نظر المحبة على أن إصابة العين ليس بصحيح. قال الرماني: و هذا الذي ذكره ليس بصحيح، لأنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحة ذلك لضرب من المصلحة، فلا وجه للامتناع من ذلك، و عليه اجماع المفسرين، و هو المعروف بين العقلاء و المسلمين و غيرهم، فينبغي ان يكون مجوزًا. و روى أن اسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله صلى الله عليه و آله

(١) مر في ٨ / ٥٣٠

(٢) القرطبي ٢٥٦ / ١٨ و هو مروى مع اختلاف.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٢

إن بنى جعفر يصيبهم العين، فأسترقى لهم، قال: نعم، فلو كان شيء سابق القدر سبقه العين.

وقيل: إنهم كانوا يقولون ما اظهر حججه، و ما افصح كلامه، و ما ابلغ خطابه، يريدون بذلك ان يعينوه به، قال البلخي: المعنى إنهم كانوا ينظرون اليه نظر عداوة و توعده، و نظر من بهم به، كما يقول القائل: يكاد يصصرني بشدة نظره قال الشاعر:

يتعارضون إذا التقوا في موطن نظراً يزيل مواضع الاقدام (١)

أى ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالبغضاء و العداوة، و نظر يزيل الاقدام عن مواضعها أى يكاد يزيل.

و قوله (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) يعنى القرآن (وَيَقُولُونَ) مع ذلك (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) قد غلب على عقله، قالوا ذلك فيه مع علمهم بوقاره عقله تكذباً عليه و معاندة له، فقال الله تعالى رداً عليهم (وَمَا هُوَ) أى ليس هذا القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) أى شرف إلى ان تقوم الساعة.

(١) مر في الصفحة التي قبلها. و قد روى في غير هذا الكتاب مع هذا الاختلاف في الكلمات. [...]

بيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٣

٦٩-سورة الحاقة: ص: ٩٣

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاك و غيرهما و هي اثنتان و خمسون آية في الكوفى و المدنيين. و احدى و خمسون في البصرى.

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادُ بِالْقَارِعَةِ (٤)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَ أَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَوَّيرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا

صَرَعى كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٌ خَاطِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَ جَاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِيَةِ (٩)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠)

عشر آيات.

قرأ أهل البصرة والكسائي (و من قبله) بكسر القاف. الباقون بفتحها.

قال ابن عباس و قتادة و الضحاك و ابن زيد و غيرهم: إن الحاقه اسم من اسماء القيامة و سميت بذلك لأنها الساعة التي يحق فيها الجزاء على الاعمال: الضلال و الهدى.

و قال الفراء: تقول العرب الحقه متى هربت و الحقه و الحاقه، كل ذلك بمعنى واحد.

و العامل في (الحاقه) أحد شيئين: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٤

أحدهما- الابتداء، و الخبر (مَا الْحَاقَةُ) كأنه قال: الحاقه أى شىء هى.

الثانى- أن يكون خبر ابتداء محذوف، كأنه قيل هذه الحاقه، ثم قيل أى شىء الحاقه، تفخيماً لشأنها، و تقديره هذه سورة الحاقه و قوله (ما أدراك ما الحاقه) قال سفيان: يقال للمعلوم ما أدراك، و لما ليس بمعلوم: و ما يدريك فى جميع القرآن.

و إنما قال لمن يعلمها: ما أدراك لأنه إنما يعلمها بالصفه، فعلى ذلك قال تفخيماً لشأنها أى كأنك لست تعلمها إذا لم تعينها و ترى ما فيها من الأهوال.

و قوله (كَذَبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) اخبار من الله تعالى أن ثمود- و هم قوم صالح- و عاد- و هم قوم هود- كذبوا بيوم القيامة فأنكروا البعث و النشور و الثواب و العقاب. قال ابن عباس و قتادة: القارعه اسم من اسماء القيامة، و سميت القارعه، لأنها تفرع قلوب العباد بالمخافه إلى أن يصير المؤمنون إلى الأمن. و إنما حسن أن يوضع القارعه موضع الكنايه لتذكر بهذه الصفه الهائله بعد ذكرها بأنها الحاقه، و إلا كان يكفى ان يقول: كذبت ثمود و عاد بها. و قوله الحاقه، و الطامه «١» و الصاخه «٢»، اسماء يوم القيامة. و الوقف على الحاقه حسن و أتم منه (ما الحاقه) و (ما أدراك) كل ما فى القرآن بلفظ الماضى، فقد أدراه صلى الله عليه و آله، و ما كان بلفظ يدرية، فلم يعلمه، يقال: دريت الشىء درايه أى علمته، و دريت الصيد أى ختلته و درأته دفعته.

ثم اخبر تعالى عن كيفيه إهلاكهم، فقال (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) فالطاغيه مصدر مثل العاقبه، و المعنى فأهلكوا بطغيانهم- فى قول أبى عبيده- و قيل:

معناه أهلكوا بالخصله المتجاوزة لحال غيرها فى الشده، أهلك الله تعالى بها اهل الفساد. و قد مضى فيما تقدم أن الله أهلك ثمود بالصيحه العظيمة التى أصبحوا بها

(١) سورة ٧٩ النازعات آيه ٣٤

(٢) سورة ٨٠ عبس آيه ٣٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٥

جاثمين «١» أى ميتين هالكين. قال الزجاج: تقديره فأهلكوا بالرجفه الطاغيه.

ثم اخبر تعالى عن كيفيه هلاك عاد، فقال «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصِيرٍ» فالريح عبارة عن الهواء إذا كانت فيها حركه باعتماد ظاهره فإذا سكن لا يسمى ريحاً و اشتقاقه من راح يروح روحاً إذا رجع إلى منزله. و الصرصر الريح الشديده الصوت بما يسمع لها من الصرير فى شده حركتها، يقال: صر و صرصر، كأنه مضاعف منه فالصرصر الشديده العصف المجرى لحدّها المعروف و قال قتادة: صرصر بارده فكأنه يصطل الأسنان بما يسمع من صوتها لشده بردها، و يقال: صرصر و صلصل إذا تكرر الصوت، و هو مضاعف صر و صل- فى قول الزجاج-.

و قوله (عَاتِيَةٌ) قيل عتت تلك الرياح على خزائنها فى شده الهبوب. و العاتى الخارج الى غلظ الأمر الذى يدعو اليه قساوة القلب، يقال: عتا يعتو عتواً فهو عات و الريح عاتيه تشبيهاً بحال العاتى فى الشده.

و قوله (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ) اخبار منه تعالى انه أهلكهم بهذه الريح فى مده سبع ليال، و ثمانيه أيام، لما فى ذلك من

الإرهاب و التخويف، و ما يتعلق به من المصلحة لغيرهم في التكليف.

و قوله (حُسُومًا) أى قاطعة قطع عذاب الاستئصال، و أصله القطع حسم طمعه من كذا إذا قطعه، حسم يحسم حسمًا إذا قطع، و انحسم الشر إذا انقطع.

و قال عبد الله بن مسعود و ابن عباس و مجاهد و قتادة: معنى (حسوماً) تبعاً متواليه مأخوذاً من حسم الداء بمتابعه الكى عليه، فكأنه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم. و قيل (حسوماً) قطعاً لم يبق منهم أحد، و نصب (حسوماً) على المصدر أى يحسمهم حسوماً.

(١) انظر ٢٢ / ٦ و ٤٨٥ / ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٦

ثم قال (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا) أى تشاهد القوم الهلكى فى تلك الأيام و الليالى صرعى مطرحين (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أى كأنهم أصول نخل نخرة- فى قول قتادة- و قال السدى: الخاوى الفارغ.

و قوله (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ) أى من نفس باقية، و قيل: معناه فهل ترى لهم من بقاء، فالباقية بمعنى المصدر مثل العافية و الطاغية. و معناه فهل ترى لهم من بقية.

و قوله (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ) أى جاء فرعون و من معه من قومه، على قراءة من قرأ (قبله) بكسر القاف و فتح الباء، و من قرأ بفتح القاف و سكون الباء أراد و الذين قبله من الكفار (وَالْمُؤْتَفِكَاتُ) يعنى و جاء اهل القرى المؤتفكات أى المنقلبات بأهلها- فى قول قتادة- و هى قرى قوم لوط (بِالْخَاطِئَةِ) أى بالافعال الخاطئة أو بالنفس الخاطئة، و قيل بالخطئة أى اخطأت الحق إلى الباطل و الفساد (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ) (أَخَذَهُ رَابِعَةً) أى زائده فى الشدة من ربا يربو إذا زاد، و قرأ ابو عمرو، و الكسائى، و ابو بكر عن عاصم (و من قبله) بكسر القاف و فتح الباء. الباقون بفتح القاف و سكون الباء. و حجة أبى عمرو أن فى قراءة أبى (جاء فرعون و من معه). و قرأ ابو موسى (و من تلقاه). و أراد الباقون انه جاء فرعون و من قبل فرعون من الكفار.

قوله تعالى: [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١١ الى ١٨] ص: ٩٦

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَ تَعْيِبَهَا أَدْنًا وَاعْيِبَهُ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَ حَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَ الْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَ يُحْمَلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٧

ثمان آيات.

قرأ (لا يخفى) بالياء أهل الكوفة، لان تأنيث (خافية) ليس بحقيقى.

و قد فصل بينها و بين الفعل فاصل. الباقون بالتاء على لفظ التأنيث. و التقدير لا يخفى عليه شىء منكم نفس خافية.

يقول الله تعالى مخبراً عما فعل بقوم نوح و فرعون و قومه على وجه الامتتان على خلقه بما فعل بهم من الهلاك الذى فيه زجر لغيرهم عن الكفر و ارتكاب المعاصى (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ) و معناه لما تجاوز الماء الحد المعروف فى العظم حتى غرقت الأرض بمن عليها إلا من شاء الله نجاته، و ذلك فى زمن نوح عليه السلام و غرق فرعون و قومه بانطباع البحر عليهم، و قال ابن عباس و مجاهد: معنى طغى الماء كثر، و غرق الله- عز و جل- قوم نوح. و قال قتادة: ارتفع على كل شىء خمس عشرة ذراعاً. و قوله (حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) أى

حملنا أباكم نوحاً و من كان معه من ولده المؤمنين في السفينة، فالجارية السفينة التي من شأنها أن تجرى على الماء، و منه قوله (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) «١» و الجارية المرأة الشابة تسمى بذلك، لأنها يجرى فيها ماء الشباب. و الحمل إمساك الشيء بالوضع على غيره، تقول حملته حملاً، و الحمل - بفتح الحاء - ما كان في البطن او الشجر - و بكسر الحاء - ما كان على الظهر.

(١) سورة ٥، الرحمن آية ٢٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٩٨

و وجه التذكرة بذلك أن نجاه من فيها و تغريق من سواهم يقتضى أنه من مدبر مختار و في امر لم تجر به عادة، فيلتبس انه من فعل الطبيعة. ثم بين تعالى الغرض بما فعله فقال (لِنَجْعَلَهَا)

يعنى السفينة (لَكُمْ تَذِكْرَةً)

تذكرون بها أنعم الله و تشكرونه عليها و تتفكرون فيها «وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاَعِيَةٌ»

أى و تحفظها اذن حافظه، يقال: وعيت العلم، و أوعيت المتاع فى الوعاء، و يقال: وعى قلبه العلم يعيه وعياً، و قال الشاعر إذا لم تكن واعياً حافظاً فجمعك للكتب لا ينفع

فمعنى «واعية» ممسكة ما يحصل فيها. و قال ابن عباس: حافظه. و قيل قابله سامعة. و

قيل: إنه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه و آله (اللهم اجعلها اذن على عليه السلام) و رواه الطبرى بإسناده عن مكحول. ثم قال على عليه السلام (فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه و آله شيئاً فنسيته)

و روى الحلوانى عن ابن كثير «و تعيها» بسكون العين جعله مثل فخذ و فخذ. الباكون بكسرهما، لأنه مضارع و عى يعى. و أصله يوعى فحذفت الواو لوقوعها بين فتحه و كسره، و معنى الآية تحفظها كل أذن ليكون عظة لمن يأتى بعدهم.

روى الطبرى بإسناده عن عكرمة عن بريده قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول لعلى عليه السلام (يا على ان الله أمرنى ان أدنيك و لا أقصيك و أن أعلمك)

و قوله «فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاِحْدَةٌ» فهى النفخة الأولى التى يصعق لها من فى السموات و من فى الأرض «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاِحْدَةً» قال: ابن زيد: ضرب بعضها على بعض حتى صارتا غباراً. و قيل: معناه بسطتا بسطة واحدة، و منه الدكان، و يقال: اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره.

و قيل: المعنى حملت الأرض و الجبال فصك بعضها على بعض حتى تندك، و إنما قيل:

فدكتا لأنه جعل الجبال جملة و الأرض جملة. و مثله «أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا التَّبِيانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ١٠، ص: ٩٩ رَتَقًا»

«١» لان السموات جملة واحدة.

ثم قال «فيومئذ» أى يوم تدك السموات و الأرض و تنفخ النفخة الواحدة «وَوَقَعَتِ الْوَأَقِعَةُ» يعنى القيامة و سميت واقعة لشدة وقعها بما ليس لغيرها مثل تلك الشدة.

ثم قال «وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ» أى انفرج بعضها عن بعض، يقال: انشق الشيء ينشق انشقاقاً، و تشقق تشققاً إذا تفرط و اشتق منه كذا اشتقاقاً، و منه اشتقاق الصفة من المصدر، لان معناه و حروفه فيها دون صورته، فهى مأخوذة منه على هذا الوجه.

و قوله «فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاِهِيَةٌ» أى شديدة الضعف بانتقاض بنيتها و لا ينظر أهول من رؤية السماء فى هذه الهياة، يقال: و هى الشيء يهى و هياً، فهو واه أى لا يستمسك لضعفه بنقض بنيته. و قيل: هو تغير السماء بعد صلابتها بمنزلة الصوف فى الوهى و الضعف، و قيل:

السماء مكان الملائكة، فإذا وهت صارت فى نواحيها.

وقوله «وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا» فالارجاء النواحي واحدها رجا، مقصور و تنى رجوان بالواو، و الرجا جانب البئر قال الشاعر:

فلا ترمى بى الرجوان انى أقل القوم من يفنى مكاني «٢»

و هو من رجوت، لان الجانب يرجى فيه السلامة مع خوف السقوط، و الملائكة ذلك اليوم على جوانب السماء تنتظر ما تؤمر به فى اهل النار من السوق اليها، و فى اهل الجنة من التحية و التكرمة فيها.

وقوله «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً» يعنى فوق الخلائق «يَوْمَئِذٍ» يعنى يوم القيامة «ثَمَانِيَةً» من الملائكة. و قيل: على أرجائها، لأن الناس إذا رأوا

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٠

(٢) تفسير القرطبي ٢٦٦ / ١٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٠

جهنم بدروا هاربين فتردهم الملائكة- فى قول الضحاك- و قال الحسن و قتادة و سفيان «على أَرْجَائِهَا» يعنى نواحيها. و قال ابن عباس «يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً» صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. و

روى فى خبر مرفوع عن النبى صلى الله عليه و آله أنه يحمل العرش ثمانية أملاك

، و هو قول ابن زيد، و المعنى فى حمل العرش بثمانية أملاك. هو الاخبار بأنه عظيم محتاج أن يحمله من كل زاوية ملكان، لا يفى به لعظمه أقل من ذلك، و بهذا يتصور عظمه فى النفس.

وقوله «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ» يعنى يوم القيامة تعرضون معاشر المكلفين «لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ» فروى فى خبر مرفوع- ذكره ابن مسعود و قتادة- ان الخلق يعرضون ثلاث عرضات اثنتان فيها معاذير و جدال، و الثالثة تطاير الصحف فى الايدي فأخذ بيمينه و أخذ بشماله، و ليس يعرض الله الخلق ليعلم من حالهم ما لم يعلمه بل هو عالم بجميع ما كان منهم، لأنه عالم لنفسه لكن ليظهر ذلك لخلق.

قوله تعالى: [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٩ الى ٢٤] ص: ١٠٠

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُومٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَهٗ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَهٗ (٢٢) قُطُوفُهَآ دَآئِيَهٗ (٢٣)

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَهٗ (٢٤)

ست آيات قال الفراء: نزلت هذه الآية فى أبى سلمة بن عبد الأسود، و كان مؤمناً، و كان أخوه الأسود بن عبد الأسود كافراً، نزلت فيه الآية التى بعدها.

قسم الله تعالى حال المكلفين يوم القيامة، فقال «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ» أى اعطى التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠١

«كِتَابِيَهٗ» الذى فيه أعماله «بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُومٌ أَقْرَأُوا» قال ابن زيد: يقول المكلف تعالوا اقروا «كِتَابِيَهٗ» ليعلمهم انه ليس فيه إلا الطاعات. فلا يستحيون أن ينظر فيها غيرهم، و اهل الحجاز يقولون: ها يا رجل، و للاثنين هاؤما، و للجمع هاءموا، و للمرأة هاء- بهمزة- و ليس بعدها ياء، و للمراتين هاؤما، و للجماعة هاؤن يا نسوة. و تميم و قيس يقولون: ها يا رجل مثل قول أهل الحجاز، و للاثنين هاء، و للثلاثة هاءوا، و للمرأة هائى، و ربما قالوا: هاء يا هذه، و للثلاثة هان.

و بعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً، فيقول: هاك بغير همزة، و يؤمر بها و لا ينهى و (هاء) بمنزلة خذ و تناول. و وقف الكسائى على «هاؤم» و ابتداء «أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ» و يقول أيضاً «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ» قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: معناه إني علمت، و إنما حسن هذا فيما يلزم العمل به لتأكد أمره بالظن، كما يلزم بالعلم مع مقاومة الظن للعلم بالقوة فى النفس إلا أن العلم معه قوة ينتهى إلى

الثقة الثابتة بسكون النفس. و المعنى انى كنت متيقناً فى دار الدنيا بأنى ألقى حسابى يوم القيامة، و اعلم أنى أجازى على الطاعة بالثواب و على المعاصى بالعقاب، و أعمل بما يجب على من الطاعات و اجتناب المعاصى.
ثم اخبر تعالى عن حال من أعطى كتابه بيمينه فقال «فَهُوَ فِي عَيْشِهِ رَاضِيٌّ» أى فى عيشه مرضية تقول: عاش يعيش عيشاً و عيشه، و هى الحالة التى تستمر بها الحياة و منه المعاش الذى يطلب التصرف له بعائد النفع عليه، و راضية معناه مرضية.
ف (فاعلة) بمعنى (مفعولة) لأنه فى معنى ذات رضاء، كما قيل: لابن و تامر، أى ذو لبن و ذو تمر. قال النابغة:
كلينى لهم يا أيممة ناصب و ليل اقاسيه بطيء الكواكب (١)

(١) مر فى ٣٦٨ / ٥ و ٩٠ / ٦ و ٣٢٩ و ١٢٢ / ٨ و ٥٦٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٢

أى ذو نصب، فكأن العيشة أعطيت حتى رضيت، لأنها بمنزلة الطالبة كما أن الشهوة بمنزلة الطالبة للمشتهى. و قيل: هو كقولهم: ليل نائم و سر كاتم و ماء دافق، على وجه المبالغة فى الصفة من غير التباس فى المعنى: فعلى هذا جاء عيشه راضية و لا يجوز على هذا القياس زيد ضارب بمعنى مضروب لأنه يلتبس به.

و قوله «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» أى بستان أجنه الشجر مرتفعة، فالعلو الجهة المقابلة لجهة السفلى. و العلو و السفلى متضمن بالاضافة. فيكون العلو سفلاً إذا أضفته إلى ما فوقة، و يكون علواً إذا أضيف إلى ما تحته، و قوله «قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» أى أخذ ثمرها، فالقطف أخذ الثمرة بسرعة من موضعها من الشجر، و هو قطفها، كأنه قال دانية المتناول، قطف يقطف قطفاً فهو قاطف، و قطف تقطيفاً. و الدنو القرب، دنا يدنو دنواً فهو دان، و تدانيا تدانياً و أحدهما أدنى إلينا من الآخر. و قال قتادة: معناه قطفها دانية لا يرد أيديهم عن ثمرها بُعداً و لا شوك.
ثم حكى تعالى ما يقال لهم فانه يقال لهم «كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ» و صورته صورة الأمر و المراد به الاباحة، كما قال «وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» (١) و قال قوم: انه أمر على الحقيقة، لان الله يريد من أهل الجنة الأكل و الشرب لما لهم فى ذلك من زيادة السرور إذا علموا ذلك. و إنما لا يريد ذلك فى الدنيا، لأنه عبث لا فائدة فيه.

و قوله «هَنِيئًا» معناه مريئاً ليس فيه ما يؤذى، فليس يحتاج فيه الى إخراج فضل لغائط و لا بول.

و قوله «بِمَا أَسْلَفْتُمْ» أى جزاء على ما عملتموه من الطاعة «فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ»

(١) سورة ٥ المائدة آية ٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٣

أى الماضية فى دار التكليف.

قوله تعالى: [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٢٥ الى ٣٧] ص: ١٠٣

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَ لَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩)

حُدُودُهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ -لَا- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَ لَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤)

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَ لَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينِ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُنَ (٣٧)

ثلاث عشرة آية.

لما حكى الله تعالى قصة أهل الجنة وشرح أحوالهم، حكى - هاهنا - قصة أهل النار وشرح أحوالهم، فقال «وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ»
يعنى من أعطى كتابه الذى فيه أعماله مثبتة «بشماله» وإنما يعطى الله هؤلاء كتابهم بشمالهم، لأنه جعل ذلك إماراً للملائكة و
الخلائق على أن صاحبه من أهل النار، فهو إذا أعطى كتابه فى شماله يقول عند ذلك متمنياً متحسراً على ما فرط «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ
كِتَابِيهِ...»

أى ليتنى لم أعط هذا الكتاب، و التمنى هو قول القائل لما كان: ليته لم يكن، و لما لم يكن: ليته كان، فهو من صفات الكلام. و قال
قوم: هو معنى فى النفس فهؤلاء الذين يعطون كتابهم بشمالهم يتمنون أن لم يعطوا كتابهم أصلاً، و لم يعلموا التبيان فى تفسير القرآن،
ج ١٠، ص: ١٠٤

ما لهم و ما عليهم، لان أعمالهم كلها معاصى، و هم يستحقون العقاب لا غير فلذلك يتمنون أن لا يعرفوا حسابهم، و الحساب إخراج
الكثير مما تضمن معنى العدة، و هو محتمل الزيادة و النقصان. و التمنى فى قول الكفار معناه التحسر و التندم و إن خرج مخرج التمنى.
ثم حكى تعالى أنهم لعظم ما دفعوا اليه من العقاب و الأهوال يتندمون و يتحسرون و يتمنون أن لو كانت القاضية بدلا مما هم فيه. قال
الفراء: معناه ليت الموتة الأولى التى متناها لم نجئ بعدها. و القاضية الفاصلة بالاماتة، يقال: قضى فلان إذا مات، و أصله فصل الأمر، و
منه قضيه الحاكم، و جمعها قضايا، و منه قضاء الله و هو الاخبار بأنه يكون على القطع، و الهاء فى «يا ليتها» كناية عن الحالة التى هم
فيها، و قيل كناية عن الموتة. قال قتادة: يعنى الموت و لم يكن عنده فى الدنيا شىء اكره منه.

ثم حكى انه يقول «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ» و معناه ما كفانى فى صرف المكروه و لا صرف عنى شيئاً من عقاب الله تعالى يقال: أغنى
يعنى غنى و إغناء، قال ابن زيد: معناه ما نفعنى ملكى الذى كان لى فى الدنيا.

و قوله «هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ» قال ابن عباس و مجاهد و الضحاك: هلك عنى حجتى. و قال الحسن: قد جعل الله لكل إنسان سلطاناً
على نفسه و دينه و عيشه.

و قال قوم: معناه هلك عنى تسلطى و أمرى و نهى فى دار الدنيا على ما كنت مسلطاً عليه لا أمر لى و لا نهى، فالهلاك ذهاب الشىء
بحيث لا- يقع عليه احساس، هلك يهلك هلو كاً، فهو هالك، قال الزجاج: و الوجه أن يوقف على هذه الهاءات، و لا توصل، لأنها
ادخلت للوقف، و قد حذفها قوم. و فى ذلك مخالفة المصحف، فلا أحب حذفها. قال: و لا أحب ان اصل و أثبت الهاء، فان هذه
رؤوس الآى فالوجه التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٥

الوقف عندها. و كذلك قوله «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ» و قد وصل بلا هاء الكسائى.

الباقون بالهاء فى الحالين.

ثم حكى ما يقول الله تعالى للملائكة و يأمرهم به، فانه يقول لهم «خذوه» يعنى الكافر الذى أعطى كتابه بشماله «فغلوه» أى أو ثقوه
بالغل، و هو أن يشد احدى يديه او رجله إلى عنقه بجماعة «ثُمَّ الْجَحِيمِ صِلُوهُ» فالجحيم هى النار الغليظة لأن النار قد تكون ضعيفة
كنار السراج و نار القدح، و قد تكون قوية كنار الحريق فلا يقال لنار السراج: جحيم، و هو اسم علم على نار جهنم التى أعدها الله
للكفار و العصاة، و التصليية إزام النار، و منه الاصطلاء و هو القعود عند النار للدفا، و أصله لزوم الأمر، فمنه المصلى الذى فى أثر
السابق و منه قول الشاعر:

و صلى على دنها و ارتسم «١»

أى لزم الدعاء لهاء. و قوله «ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» تقديره: ثم اسلكوه فى سلسله طولها سبعون ذراعاً فاسلكوه
فيها، فالسلسله حلق منتظمة كل واحدة منها فى الأخرى، و منه يقال: سلسل كلامه إذا عقده شيئاً بعد شىء، و تسلسل إذا استمر شيئاً
قبل شىء على الولاء و الانتظام. و الذرع أخذ قدر الذراع مرة أو أكثر، ذرع الرجل الثوب يذرعه ذرعاً، فهو ذراع، و الثوب مذروع،
مأخوذ من الذراع و هو العضو الذى يكون فى طرف الكف من الإنسان.

وقيل: اسلكوه في السلسلة، لأنه يأخذ عنقه فيها، ثم يجزّ بها. وقال الضحاك:

إنها تدخل في فيه وتخرج من دبره. وقيل: المعنى ثم اسلكك السلسلة فيه فقلب كما يقال: ادخلت القلنسوة في رأسى، وإنما أدخل رأسه فيها، وكما قال الأعشى:

(١) مر تخريجه في ٢ / ٤١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٦

[غضوب من السوط زياًفة] إذا ما ارتدى بالسراة الاكم «١»

و إنما السراة ترتدى بالاكم، ولكنه قلب، فهو يجرى مجرى التقديم والتأخير اتساعاً في اللغة من غير إخلال بالمعنى. ويقولون أيضاً: ادخلت الخاتم في يدي، والخف في رجلى، وإنما تدخل اليد والرجل في الخاتم والخف، فقلب.

ثم بين تعالى لم فعل به ذلك؟ وعلى أى شىء استحقه، فقال «إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» أى لم يكن يوحد الله فى دار التكليف و لم يصدق بالله «العظيم» فى صفاته التى لا يشاركه فيها غيره «وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ» أى لا يحث على ذلك مما يجب عليه من الزكاة والكفارات والندور.

ثم قال تعالى «فَلَيْسَ لَهُ» يعنى للكافر «الْيَوْمَ هَاهُنَا» يعنى يوم القيامة «حَمِيمٌ» و هو القريب الذى يحمى لغضب صاحبه «وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ» يعنى من صديد أهل النار و ما يجرى منهم، فالطعام هو ما هبى للأكل، فلذلك لا يسمى التراب طعاماً للإنسان، والخشب طعام الأرضة، و ليس من طعام أكثر الحيوان.

فلما هبى الصديد لأكل أهل النار كان ذلك طعاماً لهم. والغسلين هو الصديد الذى يتغسل بسيلانه من أبدان أهل النار. و وزنه (فعلين) من الغسل. و قال ابن عباس:

هو صديد أهل النار. وقيل: أهل النار طبقات منهم من طعامه الضريع، و منهم من طعامه الغسلين، لأنه قال فى موضع آخر «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ» «٢» و قال قطرب: يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، فعبّر عنه بعبارتين، و قال قوم: يجوز ان يكون المراد ليس لهم طعام إلا من ضريع و لا شراب الا من غسلين، فسماه طعاماً كما قال الشاعر:

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٩٧

(٢) سورة ٨٨ الغاشية آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٧

علفتها بتنا و ماء بارداً «١»

ثم قال تعالى «لَا يَأْكُلُهُ» أى لا- يأكل هذا الغسلين «إِلَّا الْخَاطِئُونَ» و هم الجائرون عن طريق الحق عامدين، و الفرق بين الخاطى و المخطى أن المخطى قد يكون من غير تعمد لما وقع به من ترك اصابه المطلوب، و خطى يخطى خطأ فهو خاطى قال امرؤ القيس:

يا لهف نفسي إذ خطئن كاهلا القائلين الملك الحلا حلا «٢»

فهؤلاء الكفار قد جاروا عن طريق الحق و ضلوا عن الصراط المستقيم و تبعوا الضلال فى الدين.

قوله تعالى: [سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢] ص: ١٠٧

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَ لَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ (٤٢)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)
وَإِنَّهُ لَتِيدُّ كِرَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسِيرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحِقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

(١) مر في ١/ ٦٥ و ٣/ ٤٥٦ و ٥/ ٤٦٩ و عجزه: حتى شئت هماله عيناها

(٢) ديوانه ١٧٦ و اللسان (حلل)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٨

خمس عشرة آية.

قرأ «قليلًا ما يؤمنون، و يذكرون» بالياء فيهما مكي شامى و يعقوب، و سهل على الخبر عن الكفار. الباقون بالتاء على الخطاب لهم أى قل لهم.

و قيل فى قوله «فَلَا أَقْسِمُ» ثلاثة اقوال:

أحدها- قال الفراء: انه رد لكلام قائل، فكأنه قال: ليس الأمر على ما يقال أقسم إنه «لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

و الثانى- قال قوم (لا) صلة مؤكدة و تقديره فأقسم.

الثالث- قال قوم: إنها نفى للقسم، و معناه لا يحتاج إلى القسم لوضوح الحق فى انه «لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» و فى هذا الوجه يقع جوابه كجواب غيره من القسم.

و قيل: هو كقول القائل: لا و الله لأفعل ذاك، و لا و الله لأفعلن ذاك. و قال قتادة:

أقسم تعالى بالأشياء كلها ما يرى و ما لا يرى، و قال الجبائى: إنما أراد انه لا يقسم بالأشياء المخلوقات ما يرى و ما لا يرى، و إنما يقسم بربها، لأن القسم لا يجوز إلا بالله. و قوله «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» جواب القسم، قال الجبائى: هو قول الله على الحقيقة، و إنما الملك و جبرائيل و الرسول يحكون ذلك، و إنما أسنده إليهم من حيث أن ما يسمع منهم كلامهم و لما كان حكاية كلام الله قيل: هو كلام الله على الحقيقة فى العرف، و قرئ «إنه من قول رسول كريم» جواب القسم. و قال الحسن: فالرسول الكريم محمد صلى الله عليه و آله الذى أتى بهذا القرآن. و قال غيره: هو جبرائيل عليه السلام و الاول اظهر، و الكريم الخلق بالخير الواسع من قبله، يقال: كرم يكرم كرمًا فهو كريم، و ضده لؤم يلؤم لؤمًا، فهو لئيم.

و لما اقسام تعالى أن هذا القرآن هو قول رسول كريم نفى بعده أن يكون التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٠٩

قول شاعر فقال «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ» فالشاعر هو المبتدئ بإنشاء الشعر، و لا يكون حاكى الشعر شاعرًا، كما يكون حاكى الكلام متكلمًا، لأنه يحكى شعراً انشأه غيره، و إنما نزه الله تعالى نبيه عن الشعر و منعه منه، لان الغالب من حال الشاعر أنه يدعو إلى الهوى، و الرسول يأتى بالحكمة التى يدعو إليها العقل للحاجة إلى العمل عليها و الاهتداء بها، مع انه بين أن القرآن صنف من الكلام خارج عن الأنواع المعتادة، و ذلك أدل على إعجازه لبعده عما جرت به العادة فى تأليف الكلام، قال قتادة: طهر الله نبيه من الشعر و الكهانة و عصمه منهما.

و قوله تعالى «قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ» معناه قليلا بما ذكرناه إيمانكم (و ما) مصدرية و قال قوم (ما) صلة، و تقديره قليلا تؤمنون بما ذكرناه أى لستم تؤمنون به.

و قوله «وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ» فالكاهن هو الذى يسجع فى كلامه على ضرب من التكلف لتشاكل المقاطع، و هو ضد ما توجه الحكمة فى الكلام، لأنها تقتضى أن يتبع اللفظ المعنى، لأنه إنما يحتاج إلى الكلام للبيان به عن المعنى، و إنما البلاغة فى الفواصل التى يتبع

اللفظ فيها المعنى، فتشاكل المقاطع على ثلاثة أضرب: فواصل بلاغة، و سجع كهانة، و قواف تتبع الزنة، و الكاهن الذى يزعم ان له خدمه من الجن تأتيه بضرب من الوحى. و قوله «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» أى تتفكرون قليلا فيما ذكرناه، فلذلك لا تعلمون صحة ما قلناه، و لو انعمتم النظر لعلمتم صحته.

ثم قال «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى هو تنزيل نزله الله رب العالمين على رسوله.

و قوله «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ» اخبار من الله تعالى على وجه القسم أن هذا الرسول الذى حكى بأن القرآن نزل عليه من عند الله و هو محمد صلى الله عليه و آله لو تقول على الله فى بعض كلامه، و معناه لو كذب علينا فى بعض ما لم يؤمر به، التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٠

فالتقول تكلف القول من غير رجوع إلى حق، و التقول و التكذب و التزويد بمعنى واحد «لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» جواب القسم، و معناه أحد وجهين:

أحدهما- لأخذنا بيده التى هى اليمين على وجه الاذلال، كما يقول السلطان يا غلام خذ بيده فانه على وجه الاهانة، قال الحسن: معناه لقطعنا يده اليمين.

و الثانى- لأخذنا منه بالقوة كما قال الشاعر:

إذا ما رايه رفعت لمجد تلقاها عرابه باليمين (١)

و قوله «لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» قال ابن عباس و سعيد بن جبیر: الوتين نياط القلب. و قال مجاهد و قتادة و الضحاک: هو عرق فى القلب متصل بالظهر إذا قطع مات الإنسان، قال الشماخ بن ضرار الثعلبى:

إذا بلغتنى و حملت رحلى عرابه فأشر فى ندم الوتين (٢)

و قوله «فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» معناه ليس أحد يمنع غيره من عقاب الله بأن يكون حائلا بينه و بينه، فالحاجز هو الحائل بين الشئين. و إنما قال «حاجزين» بلفظ الجمع، لان (أحداً) يراد به الجمع و إن كان بصيغة الواحد.

ثم قال «وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ» قسم من الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة و عظة للمتقين، و هو قول قتادة، و إنما اضافه إلى المتقين، لأنهم المنتفعون به، فالتذكرة العلامة التى يذكر بها المعنى، ذكره تذكرة، فهو مذكر، كقولك جزاه تجزیه و جزاه تجزیه، فالمتقى يتذكر القرآن بأن يعمل عليه فى أمر دينه فى اعتقاد او عمل به فيتميز الجائر مما لا يجوز، و الواجب مما ليس بواجب، و الصحيح مما لا يصح.

و قوله «وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ» عطف على جواب القسم، و معناه

(١) مر فى ٨/ ٥١٢ و ٩/ ٤٦ و قائله الشماخ [.....]

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٦٨ و الطبرى ٢٩/ ٣٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١١

التحذير من التكذيب بالحق و أنه ينبغى أن يتذكر أن الله تعالى يعلمه و يجازى عليه.

و قوله «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» معناه إن هذا القرآن حسرة على الكافرين يوم القيامة حيث لم يعملوا به فى الدنيا، فالحسرة الغم من أجل ما انحسر وقته كيف فات العمل الذى كان ينبغى فيه أن يفعل، فيحسر السرور عن النفس إلى الغم بانحساره. و قيل: إن التكذيب به حسرة على الكافرين.

ثم اقسام تعالى فقال «وَإِنَّهُ» يعنى القرآن الذى أنزله و الاخبار بما اخبر به و ذكره «لَحَقُّ الْيَقِينِ» و معناه الحق اليقين، و إنما اضافه إلى نفسه، و الحق هو اليقين، كما قيل مسجد الجامع و دار الآخرة و بارحة الاولى و يوم الخميس و ما أشبه ذلك، فيضاف الشئ إلى

نفسه إذا اختلف لفظه كما اختلف الحق واليقين. والحق هو الذي معتقده على ما اعتقده، واليقين هو الذي لا شبهة فيه. ثم قال لنبيه «فَسَبِّحْ» يا محمد والمراد به جميع المكلفين ومعناه نزه الله تعالى «بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» ومعناه نزهه عما لا يجوز عليه من صفات خلقه و (العظيم) هو الجليل الذي يصغر شأن غيره في شأنه بما يستحق من أوصافه. و روى انه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله: اجعلوها في ركوعكم.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٢

٧٠- سورة المعارج: ص: ١١٢

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي أربع وأربعون آية بلا خلاف.

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مَنِ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)
عشر آية.

قرأ أهل المدينة وأهل الشام (سال) بغير همز وهو يحتمل أمرين:

أحدهما- ان يكون من السيل تقول: سال يسيل سيلا فهو سائل، و سائل واد في جهنم، كما قال (أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و الفلق جب في جهنم. و اجمعوا على همزة (سائل) لأنه لو كان من (سال) بغير همز، فالياء تبدل همزة إذا وقعت بعد الالف مثل البائع و السائر من (باع، و سار).

و الثاني- بمعنى سأل بالهمزة، لأنها لغة يقولون سلت أسال، و هما يتسالان التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٣
قال الشاعر:

سالت هذيل رسول الله فاحشته ضلت هذيل بما سالت و لم تصب «١»

فهى لغة أخرى، و ليست مخففة من الهمزة الباقون بالهمز من السؤال الذى هو الطلب. و قرأ الكسائى وحده (يعرج) بالياء، لان تأنيث الملائكة ليس بحقيقى، الباقون- بالتاء. و قرأ ابن كثير- فى رواية البزى- و عاصم فى رواية البرجمى عن أبى بكر (ولا يسأل) بضم الياء. الباقون بفتح الياء اسندوا السؤال إلى الحميم.

حكى الله تعالى انه (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) قال الفراء: الداعى بالعذاب هو النضر بن كلدة أسر يوم بدر و قتل صبراً، هو و عقبه بن أبى معيط. و قال:

تقديره سأل سائل بعذاب (واقع للكافرين) قال ابن: خالويه قال النحويون:

إن الباء بمعنى (عن) و تقديره: سأل سائل عن عذاب واقع و انشد:

دع المعمر لا تسأل بمصرعه و أسأل بمصقله البكرى ما فعلا «٢»

أى لا تسأل عن مصرعه، وهذا الذى سأل العذاب الواقع إنما تجاسر عليه لما كذب بالحق ليوهم أنه ليس فيه ضرر، ولم يعلم انه لازم له من الله. وقال مجاهد:

سؤاله فى قوله (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ) «٣» وقال الحسن: سأل المشركون، فقالوا: لمن هذا العذاب الذى يذكره محمد؟ فجاء جوابهم بأنه (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ) وقيل: معناه دعا داع بعذاب للكافرين، وذلك الداعى هو النبى صلى الله عليه وآله، واللام فى قوله (للكافرين) قيل فى

(١) تفسير القرطبي ٢٨٠ / ١٨

(٢) قائله الأخطل اللسان (صقل)

(٣) سورة ٨ الانفال آية ٣٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٤

معناها قولان:

أحدهما- إنها بمعنى (على) وتقديره سأل سائل بعذاب واقع على الكافرين، ذهب اليه الضحاك.

والثانى- إنها بمعنى (عن) أى ليس له دافع عن الكافرين، وإنما ذكر وعيد الكافر- هاهنا- مع ذكره فى غير هذا الموضع، لأن فيه معنى الجواب لمن سأل العذاب الواقع، فقيل له: ليس لعذاب الكافرين دافع، فاعمل على هذا، و تقدم نظيره و تأخر، و الدافع هو الصارف للشئ عن غيره باعتماد يزيله، عنه دفعه عن كذا يدفعه دفعاً، فهو دافع و ذاك مدفوع.

وقوله (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) يعنى مصاعد الملائكة. وقيل: معناه ذى الفواضل العالیه، فيكون وصفاً لله تعالى، وتقديره من الله ذى المعالى التى هى الدرجات التى يعطيها أولياءه من الأنبياء و المؤمنين فى الجنة، لأنه يعطيهم درجات رفيعة و منازل شريفة، و المعارج مواضع العروج، واحدها معرج، عرج يعرج عروجاً و العروج الصعود مرتبة بعد مرتبة، و منه الأعرج لارتفاع احدى رجليه عن الأخرى و قال قتادة: معنى ذى المعارج ذى الفواضل و النعم، لأنها على مراتب. و قال مجاهد: هى معارج السماء. وقيل: هى معالى الدرجات التى يعطيها الله تعالى أولياءه فى الجنة. و قال الحسن: معناه ذى المراقى إلى السماء. و الذى اقتضى ذكر المعارج البيان عن العقاب الذى يجب ان يخافه، على خلاف هذا الجاهل الذى سأل العذاب الواقع على من كفر نعمته.

وقوله (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ) معناه تصعد الملائكة (وَالرُّوحُ) أى يصعد الروح أيضاً معهم (إِلَيْهِ) و المعنى تعرج الملائكة و الروح الذى هو جبرائيل إلى الموضع الذى يعطيهم الله فيه الثواب فى الآخرة (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) لعلو التبيان فى تفسير القرآن،

ج ١٠، ص: ١١٥

درجاتهم، و إنما قال (إِلَيْهِ) لأنه هناك يعطيهم الثواب، كما قال فى قصة إبراهيم (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) «١» أى الموضع الذى وعدنى ربي، و كذلك الموضع الذى وعدهم الله بالثواب فيه. وقيل: تعرج الملائكة و الروح إليه فى يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين الف سنة، و ذلك من أسفل الأرضين السبع الى فوق السماوات السبع- ذكره مجاهد- وقوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) «٢» فهو لما بين السماء الدنيا و الأرض فى الصعود و النزول الف سنة: خمسمائة صعوداً و خمسمائة نزولاً- ذكره مجاهد- أيضاً. وقيل: المعنى ان يوم القيامة يفعل فيه من الأمور ما لو فعل فى الدنيا كان مقداره خمسين الف سنة.

و قال قوم: المعنى إنه من شدته و هو له و عظم العذاب فيه على الكافرين كأنه خمسون الف سنة، كما يقول القائل: ما يومنا إلا شهر أى فى شدته، و على هذا قول امرئ القيس:

ألا ايها الليل الطويل ألا انجل بصبح و ما الإصباح منك بأمثل

و يا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يبدل «٣»

و يؤكد هذا ما

روى عن النبي صلى الله عليه و آله أنه لما نزلت هذه الآية قيل له ما أطول هذا اليوم؟! فقال رسول الله صلى الله عليه و آله (و الذى بعثنى بالحق نبياً إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها فى الدنيا) وقال الضحاك و قتادة:

هو يوم القيامة. و قال الزجاج: يجوز أن يكون (يوماً) من صلة (واقع) فيكون المعنى سأل سائل بعذاب واقع فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة و ذلك العذاب يقع يوم القيامة. و قال الحسن: تعرج الملائكة بأعمال بنى آدم فى الغمام، كما قال

(١) سورة ٣٧ ص آية ٩٩

(٢) سورة ٣٢ ألم السجدة آية ٥

(٣) ديوانه ١٥٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٦

(وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ) «١» و قال الزجاج: سماه يوماً، لأن الملائكة تعرجه فى مقدار يوم واحد. ثم أمر نبيه فقال (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) أى لا شكوى فيه على ما تقاسيه من أذى قومك، و تكذيبهم إياك فيما تخبر به من أمر الآخرة. قال الزجاج: ذلك قبل أن يؤمر بالقتال.

و قوله تعالى (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَ نَرَاهُ قَرِيبًا) اخبار من الله تعالى أنه يعلم مجيء يوم القيامة و حلول العقاب بالكفار قريباً، و يراه أى يظنه الكفار بعيداً، لأنهم لا يعتقدون صحته، و كل ما هو آت قريب، و هذا على وجه الإنكار عليهم استبعادهم يوم الجزاء، و توهمهم أنه بعيد. و بين أنه تعالى يراه قريباً بما يعلمه من حصوله، و إنما جاز أن يقال فى توهمهم: يرونه لأنهم يتوهمونه، و هم عند أنفسهم يرونه، فجاء على مزوجة الكلام الذى ينبئ عن المعنى من غير إخلال. و قيل: معنى إنهم يرون العذاب الذى سألوا عنه بعيداً، لأنهم لا يؤمنون به، و نراه قريباً لأن كل ما هو آت قريب.

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة فقال (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) قال الزجاج:

المهل دردى الزيت، و قال مجاهد: هو عكر الزيت. و قال قوم: هو الصفر المذاب.

و قال قوم: المهل هو الجارى بغلظة و عكرة على رفق: من أمهله إمهالا، و تمهل تمهالا- (وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) فالعهن الصوف المنفوش، و ذلك ان الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة، كما أن السماء تشقق بالغمام و تكون كالمهل.

و قوله (وَ لَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) فالحميم القريب النسب إلى صاحبه الذى يحمى لغضبه و أصله القرب قال الشاعر:

أحم الله ذلك من لقاء أحاد أحاد فى الشهر الحلال «٢»

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٥

(٢) مر ٨ / ٥٠٣، ٥٧٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٧

و قال مجاهد: لا يسأل حميم حميماً لشغل كل إنسان بنفسه عن غيره. و قال الحسن: لا يسأله ان يحمل عنه من أوزاره ليأسه من ذلك فى الآخرة. و قيل (لَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) لأنه (يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّمَاهُمْ) «١» و من ضم الياء أراد لا يطالب قريب بأن يحضر قريبه كما يفعل أهل الدنيا بأن يؤخذ الحميم بحميمه و الجار بجاره، لأنه لا جور هناك، و يجوز أن يكون المراد لا يسأل حميم عن حميمه

ليعرف شأنه من جهته، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه، و القريب من قريبه. ثم يحذف الجار و يوصل الفعل إلى المفعول به، و يقوى ذلك قوله (يُبَصِّرُونَهُمْ) أى يبصر الحميم حميمه. و الفعل فيه قبل تضعيف العين بصرت به، كما قال حكاية عن السامري (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) «٢».

قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١١٧

يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنَا بَيْنِيهِ (١١) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (١٢) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى (١٥)
نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠)
وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صِيَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (٢٥)

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٤١

(٢) سورة ٢٠ طه آية ٩٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٨

خمس عشرة آية.

قرأ (نزاعة) - بالنصب - حفص عن عاصم على الحال. الباقون بالضم جعلوه بدلا من (لظى) و (لظى) اسم من اسماء جهنم معرفة، و (نزاعة) نكرة فلذلك نصبه حفص على الحال و من جعلها بدلا من (لظى) و تقديره كلا إنها لظى، كلا إنها نزاعة للشوى، و ضعف أبو على نصبه على الحال، قال: لأنه ليس فى الكلام ما يعمل فى الحال، و لظى اسم معرفة لا يمكن أن يكون بمعنى التلظى، فلا يعمل فيه الأعلى وجه ضعيف بأن يقال: مع انها معرفة فمعناها بمعنى التلظى. قال و الأجود أن ينصب بفعل آخر، و تقديره أعنى نزاعة. لما وصف الله تعالى القيامة و أهوالها، و اخبر أن الحميم لا يسأل حمياً لشغله بنفسه، قال (يبصرونهم) قال ابن عباس و قتادة: يعرف الكفار بعضهم بعضاً، ثم يفر بعضهم عن بعض، و قال مجاهد: يعرفهم المؤمنون، و قال قوم: يعرف اتباع الضلال رؤساءهم، و قول ابن عباس أظهر، لأنه عقيب ذكر الكفار. و قال هو كناية ينبغى ان يرجع اليهم.

و قوله (يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنَا بَيْنِيهِ) أى يتمنى العاصى، فالمودة مشتركة بين التمنى و بين المحبة تقول: وددت الشىء إذا تمنيته و وددته إذا أحببته أود فيهما جميعاً، و صفه وود من المحبة. و قوله (لَوْ يَفْتَدِي)، فالافتداء افتداء الضرر عن الشىء يبدل منه، فهؤلاء تمنوا سلامتهم من العذاب النازل بهم بإسلام كل كريم عليهم. و الفرق بين (يود لو يفتدى) و (يود أن يفتدى) أن (لو) تدل على التمنى من جهة أنها لتقدير المعنى، و ليس كذلك (أن) لأنها لاستقبال الفعل و (لو) للماضى، فلما كان الاعتماد على تصور المعنى صار فى حكم التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١١٩

الواقع، فلو قال قائل: حسبت أن يقوم زيد، لما دل على التمنى، و لو قال حسبت لو يقوم زيد لدل على التمنى فبان الفرق بينهما. و قوله (بَيْنِيهِ) يعنى بأولاده الذكور (وَ صَاحِبَتِهِ) يعنى زوجته (وَ أَخِيهِ) يعنى ابن أبيه و أمه (وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ) فالفصيلاء هى المنقطعة عن جملة القبيلة يرجوعها إلى ابوة خاصة، و هى الجماعة التى ترجع إلى أبوة خاصة عن ابوة عامة (وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ) أى يتمنى هذا الكافر بان يتخلص من بعذاب الله بأن يفتدى بهؤلاء كلهم، فقال الله تعالى (كَلَّا) أى ليس ينجيه من عقاب الله شىء و قال الزجاج (كلا) ردع و تنبيه أى لا ينجيه احد من هؤلاء فارتدعوا.

و قوله (إِنَّهَا لَلظَى) فلظى اسم من اسماء جهنم مأخوذ من التوقد، و منه قوله (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى) «١» و موضع (لظى) رفع، لأنها خبر

(ان) و (نَزَاعَةً لِلشَّوَى) خبر آخر- على قول من رفع- و من نصب جعله حالاً، و يجوز أن تكون الهاء في (إنها) عماداً، و (لظى) ابتداء و خبرها (نزاعة) إذا رفع. قال الزجاج:

و يجوز أن يكون كقولهم: هذا حلو حامض، و تقديره النار لظى، و هى نزاعة ايضاً.

و معنى نزاعة كثيرة النزع و هو اقتلاع عن شدة. و الاقتلاع أخذ بشدة اعتماد، و الشوى جلدة الرأس. و الشوى الكوارع و الاطراف، و الشوى ما عدا المقتل من كل حيوان، يقال: رمى فأشوى إذا أصاب غير المقتل، و رمى فأصمى إذا أصاب المقتل، و منه الشوى، لان النار تأخذ الجلدة و الاطراف بالتغير. و الشوى الخسيس من المال. و قيل: ان جهنم تنزع جلدة الرأس و اطراف البدن، و الشوى جمع شواة قال الأعشى:

قالت قتيلة ماله قد حلت شيباً شواته «٢»

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١٤

(٢) اللسان (شوا)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٠

و قال ابن عباس: نَزَاعِيَةٌ لِلشَّوَى للجلد و أم الراس. و قال ابو صالح: لحم الساق، و قال قتادة: الهام و الاطراف. و قال الفراء: كل ما كان غير مقتل فهو شوى. و قال ابو عمر الدورى: كان الكسائي لا يقف على (كلا) فى شىء من القرآن إلا على هذين فى هذه السورة. و قال ابن خالويه: أعلم أن فى القرآن ثلاثاً و ثلاثين موضعاً (كلا) فليس فى النصف الأول منه شىء، فمن وقف عليه جعله رد للكلام. و من لم يقف جعله بمعنى حقاً، قال الشاعر:

يقلن لقد بكيت فقلت كلا و هل تبكى من الطرب الجليد «١»

فالطرب خفة تصيب الإنسان لشدة الخوف قال الشاعر:

و أرانى طرباً فى أثرهم طرب الواله أو كالمختبل «٢»

و قال فى السرور:

اطربا و أنت قسرى و الدهر بالإنسان دوارى «٣»

يقول أطربا و أنت شيخ. و قوله تعالى (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- إنه لا يفوت هذه النار كافر، فكأنها تدعوه فيجيبها كرها.

و الثانى- ان يخرج لسان من النار فيتناوله كأنها داعية بأخذها، و هو كقوله (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الغَيْظِ) «٤» و قال الفراء: و غيره: إن النار تدعو الكافر و الفاسق، فتقول إلتى إلتى، و هذا يجوز إذا فعل الله تعالى فيها الكلام، و يضاف إليها مجازاً.

و قال قتادة: تدعو من أدبر و تولى عن طاعة الله. و قال مجاهد: من تولى عن الحق و قيل: معناه تدعو زبانيتهما من أدبر و تولى عن طاعة الله. و قوله (وَ جَمَعَ فَأَوْعَى)

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤٥٤ [.....]

(٢) مر فى ٣/ ٢١ و ٥/ ٢٤٧

(٣) مر فى ٤/ ٣٧٧، ٥/ ٥٠٥ و ٨/ ٦٣

(٤) سورة ٦٧ الملك آية ٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢١

معناه عمل فجمع المال في الدنيا و أدبر عن الحق و تولى، فالنار تدعوه بما يظهر فيها من انه أولى بها. و قال مجاهد (جمع) المال (فأوعى) و لم يخرج حق الله منه، فكأنه جعله في وعاء على منع الحقوق منه.

و قوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) اخبار منه تعالى بان الإنسان خلق هلوعاً و الهلوع هو الشديد الحرص، الشديد الجزع من الضجر- في قول ابن عباس و عكرمة- و قيل: معناه خلق ضعيفاً عن الصبر على الجزع و الهلع، لأنه لم يكن في ابتداء خلقه بهلع و لا يجزع و لا يشعر بذلك حال الطفوليته، و إنما جاز ان يخلق الإنسان على هذه الصفة المذمومة، لأنها تجرى مجرى خلق سهوه القبيح ليجتنب المشتبهى، لان المحنة في التكليف لا- تتم إلا بمنزعة النفس إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح في العقل ليجتنب أحدهما و يفعل الآخر (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا) لو كان منقطعاً عن الاول لكان مرفوعاً، و الجزع ظهور الفرع بحال تنبئ عنه (وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) معناه إذا نال الإنسان الخير و السعة في الدنيا منع حق الله فيه من الزكاة و غيرها مما فرض الله عليه، فالمس الملاقاة من غير فعل، و يقال: مسه يمسه، و تماسا إذا التقيا من غير فعل، و ماسه مماسه. و المنع هو القطع عن الفعل بما لا- يمكن وقوعه معه، و هو على وجهين: أحدهما- منع القادر ان يفعل. و الآخر- منع صاحب الحق أن يعطى حقه. و البخل منع الحق صاحبه.

و لما وصف الله تعالى الإنسان بالصفات المذمومة استثنى من جملتهم من لا يستحق الذم، لان الإنسان عبر به عن الناس، فهو لعموم الجنس، كما قال (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ) «١» و كذلك- هاهنا- قال (إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٢

و معناه الذين يستمرون على أداء الصلاة التي أوجبها الله عليهم لا يخلون بها و لا يتركونها. و

روى عن أبي جعفر عليه السلام أن ذلك في النوافل يديمون عليها

و قوله (وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) «١» في الفرائض و الواجبات (وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ) فالحق وضع الشيء في موضعه على ما يقتضيه العقل و الشرع من قولهم: حق الشيء يحق حقاً، و حقه كقولك تحققه. و المال عبارة في الشرع عن مقدار معين من العين أو الورق يتعلق به وجوب الزكاة و اكثر ما يستعمل في اللغة في المواشى من الإبل و البقر و الغنم. و قال ابن عباس: الحق المعلوم هو البر الذي يخرج في صدقة أو صلوة رحم. و قال قتادة: هو الزكاة المفروضة (لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ) و السائل هو الذي يسأل و يطلب. و الْمَحْرُوم، قال ابن عباس: هو المحارف و قال الحسن: هو الذي حرم أن يعطى الصدقة بتركه المسألة. و قيل: هو الذي قد حرم الرزق و هو لا يسأل الناس.

و قوله (عِيَذَابٍ يُؤْمِتُّ) قرئ بالفتح و الكسر من «يُؤْمِتُّ» فمن كسر الميم فعلى أصل الاضافة، لان الذي أضيف إليه الاول مخفوض أيضاً بالاضافة فهذا مضاف إلى مضاف. و من فتح فلائنه مضاف إلى غير متمكن مضاف إلى (إذ) و (إذ) مبهمه و معناه يوم إذ يكون كذا و يكون كذا فلما كانت مبهمه و أضيف إليها بنى المضاف إليها على الفتح و انشد:

لم يمنع الشرب منها غير ان نطقت حمامة في غصون ذات او قال «٢»

لما أضاف (غير) إلى (ان) بناها على الفتح، و هي في موضع رفع، و روى (غير أن) نطقت بالرفع.

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٩

(٢) مر في ٤/٤٧٩ و ٨/٥١ و ٩/٣٨٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٣

قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ٢٦ الى ٣٥] ص: ١٢٣

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَوُلائِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) عشر آيات.

قرأ (شهاداتهم) على الجمع حفص و يعقوب و عياش و سهل، لاختلاف الشهادات. الباقون (بشهادتهم) على التوحيد، لأنه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. وقرأ ابن كثير وحده (لامانتهم) على التوحيد، لأنه اسم جنس. الباقون على الجمع لاختلاف الأمانات. عطف الله تعالى على صفات المؤمنين وزاد في مدحهم، فقال (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) أى يؤمنون بأن يوم الجزاء والحساب يوم القيامة حق، ولا يشكون في ذلك، والتصديق الإقرار بأن الخبر صادق، فلما كان المؤمنون قد أقرؤا ان كل من اخبر بصحة يوم الدين فهو صادق، كانوا مصدقين به، فأما المصدق بيوم الدين تقليداً، فمن الناس من قال: هو ناج. ومنهم من قال: لا يطلق عليه مصدق بيوم الدين، لأنها صفة مدح، وذلك أنه من أخلص هذا المعنى على جهة الطاعة لله تعالى التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٤

به استحق المدح والثواب، والمقلد عاص بتقليده، لأنه لا يرجع فيه إلى حجة.

وقوله (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) فالاشفاق رقة القلب عن تحمل ما يخاف من الأمر، فإذا قسا قلب الإنسان بطل الإشفاق، وكذلك إذا أمن كحال أهل الجنة إذ قد صاروا إلى غاية الصفة بحصول المعارف الضرورية. وقيل: من اشفق من عذاب الله لم يتعد له حداً ولم يضيع له فرضاً.

وقوله (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) اخبار منه تعالى بأن عذاب الله لا يوثق بأنه لا يكون، بل المعلوم أنه كائن لا محالة. والمعنى إن عذاب الله غير مأمون على العصاة، يقال: فلان مأمون على النفس والسر والمال، وكل ما يخاف انه لا يكون، ونقيضه غير مأمون. وقوله (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) ومعناه إنهم يمنعون فروجهم على كل وجه و سبب إلا على الأزواج و ملك الايمان فكأنه قال: لا يبذلون الفروج إلا على الأزواج أو ملك الايمان، فلذلك جاز ان يقول (حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ) و هم حافظون لها على الأزواج، وإنما دخلت (إلا) للمعنى الذى قلناه. وقال الزجاج تقديره: إلا من أزواجهم ف (على) بمعنى (من) او تحمله على المعنى، و تقديره فإنهم غير ملومين على أزواجهم و يلامون على غير أزواجهم، وقال الفراء: لا يجوز أن تقول: ضربت من القوم إلا زيدا، وانت تريد إلا أنى لم اضرب زيدا. و الوجه فى الآية أن نحملها على المعنى، و تقديره و الذين هم لفروجهم حافظون، فلا يلامون إلا على غير أزواجهم. و مثله أن يقول القائل:

أصنع ما شئت إلا على قتل النفس، فإنك غير معذب، فمعناه إلا إنك معذب فى قتل النفس.

وقوله (فَأِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) أى لا يلامون هؤلاء إذا لم يحفظوا فروجهم التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٥

من الأزواج، و ما ملكت أيمانهم من الإماء على ما أباحه الله لهم.

ثم قال (فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ) ومعناه فمن طلب وراء ما أباحه الله له من الفروج إما بعقد الزوجية أو بملك اليمين (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) الذين تعدوا حدود الله و خرجوا عما أباحه الله لهم فالابتغاء الطلب و معنى (وَرَاءَ ذَلِكَ) ما خرج عن حده من أى جهة كان، وقد يكون وراءه بمعنى خلفه نقيض أمامه إلا أنه- هاهنا- الخارج عن حده كخروج ما كان خلفه. و العادى الخارج عن الحق، يقال: عدا فلان فهو عاد إذا اعتدى، و عدا فى مشيه يعدو عدواً إذا أسرع فيه، و هو الأصل. و العادى الظالم بالاسراع إلى الظلم.

وقوله (وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) فالأمانة المعقده بالطمأنينة على حفظ ما تدعو اليه الحكمة. وقيل: الأمانة معقده بالثقة على ما تدعو اليه الحكمة.

وقد عظم الله أمر الأمانة بقوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) «١» ومن وحد لفظ الأمانة، فلأنها للجنس تقع على القليل والكثير، ومن جمع أراد اختلاف ضرورها. وقال قوم: المراد بالأمانة الايمان وما أخذه الله على عباده من التصديق بما أوجب عليهم والعمل بما يجب عليهم العمل به، ويدخل في ذلك الايمان وغيره، وقوله (رَاعُونَ) معناه حافظون.

وقوله (وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ فَائِمُونَ) مدح للمؤمنين بأنهم يقيمون الشهادة التي يلزمهم إقامتها. ومن وحد لفظ الشهادة، فكما قلناه في الأمانة سواء، والشهادة الاخبار بالشىء على أنه على ما شاهده، وذلك أنه يكون عن مشاهدة للخبر به، وقد يكون عن مشاهدة ما يدعو اليه.

وقوله (وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) وصف لهم بأنهم يحافظون على

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٦

صلاتهم فلا- يضعونها وقيل إنهم يحافظون على مواقيتها فلا يتركونها حتى تفوت ثم قال «أُولَئِكَ» يعنى المؤمنين الذين وصفهم بالصفات المتقدمة «فِي جَنَاتٍ» أى بساتين يجنهما الشجر (مكرمون) أى معظمون مبجلون بما يفعل بهم من الثواب والإكرام وهو الإعظام على الإحسان، والإكرام قد يكون بالإحسان، وقد يكون بكبر الشأن فى صفة العالم القادر الغنى الذى لا يجوز عليه صفات النقص، فالاعظام بالإحسان وبكبر الشأن فى أعلى المراتب لله تعالى لا يستحقه سواه.

قوله تعالى: [سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤] ص: ١٢٦

فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيْطَمُّعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْرِ بُوْقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) تسع آيات.

قرأ (نصب) بضمين أهل الشام، وحفص عن عاصم، وسهل، على انه جمع (نصب) مثل رهن و رهن- فى قول أبى عبيدة- وقال غيره: هما لغتان، مثل ضعف و ضعف. الباقون بفتح النون خفيفة. والنصب الصنم الذى كانوا يعبدونه، التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٧

سمى بذلك. وقيل: النصب نصب الصنم الذى كانوا يعبدونه. وقيل: معناه إلى علم يسبقون اليه قد نصب لهم. وقرأ الأعشى (يخرجون) بضم الياء. الباقون بفتحها أضافوا الخروج اليهم.

يقول الله تعالى على وجه الإنكار على الكفار (فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا) ومعناه أى شىء للذين كفروا بتوحيد الله و جحدوا نبوتك (قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ) أى نحوك مسرعين- فى قول أبى عبيدة- وقال الحسن: معناه منطلقين. وقال قتادة: عامدين وقال ابن زيد: معناه لا يطرقون أى شاخصون. وجميع ذلك بمعنى الاسراع الى الشىء، فمرة بتشوقه و مرة بقصده و مرة بشخصه. وقال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشىء لا يزايله، وذلك من نظر العدو، وإنما أنكر عليهم الاسراع اليه لأنهم أسرعوا اليه ليأخذوا الحديث منه ثم

يتفرقون عزيزين بالتكذيب عليه - ذكره الحسن - وقيل: أسرعوا اليه شخوص المتعجب منه. وقيل: أسرعوا اليه لطلب عيب له. وقيل: معناه فما للذين كفروا مسرعين في نيل الجنة مع الإقامة على الكفر والاشراك بالله في العبادة. وقوله (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ) قال ابن عباس: عن اليمين والشمال معرضين يستهزؤون، ومعنى (عزيزين) جماعات في تفرقة نحو الكراريس واحدهم عزة، وجمع بالواو والنون، لأنه عوض مما حذف منه، ومثله سنة و سنون. وأصل عزة عزوة من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره، وكل واحدة من هذه الجماعة مضافة إلى الأخرى، وقال الراعي: أ خليفَةَ الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزيزين فلو لا (١) وقوله (أ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ) فمن ضم الياء،

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٠ و الطبرى ٢٩ / ٤٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٨

و هم أكثر القراء جعل الفعل لما لم يسم فاعله. و فتح الحسن الياء لأنهم إذا أدخلوا فقد دخلوا. ومعنى الآية الإنكار عليهم قولهم: إن دخل أصحاب محمد الجنة، فانا ندخلها قبلهم لا محالة، فقيل و أى شىء لكم عند الله يوجب هذا؟ و لم تحتقرون هؤلاء؟ و قد خلقناهم جميعاً مما يعلمون أى من تراب.

وقوله (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ) قال الحسن: خلقناهم من النطفة، وقال قتادة: إنما خلقت من قدر يا بن آدم فاتق الله. وقال الزجاج: أى من تراب، ثم من نطفة، فأى شىء لهم يدخلون به الجنة، و هم لك على العداوة، و هذا حجاج لأن خلقهم من ماء مهين يقتضى أنهم خلقوا للعبادة، فجعل فى خلقهم من هذا عبرة، و لو لا- ذلك لابتدأهم فى نعيم الجنة، و لم يكن لتنقلهم فى الصور والأحوال معنى فى الحكمة، و قال بعضهم: المعنى خلقناهم من الذين يعلمون أو من الخلق أو الجنس الذى يعلمون و يفقهون، و تلمهم الحجة، و لم يخلقهم من الجنس الذى لا يفقه كالبهائم و الطير، و إنما قال (مِمَّا يَعْلَمُونَ) فجمع، لأنه قال قبل ذلك (خلقناهم) فجمع (يعلمون) و وجه آخر و هو أنه خلقهم من أجل ما يعلمون من الثواب و العقاب و التكليف للطاعات تعريضاً للثواب، كما يقول القائل: غضبت عليك مما تعلم أى من أجل ما تعلم قال الأعشى:

أ أزمعت من آل ليلي ابتكاراً و شطت على ذى هوى أن تراوا (١)

على انه لم يزمع من عندهم، و إنما أزمع من أجلهم للمصير اليهم.

وقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) قسم من الله تعالى برب المطالع و المغرب، و (لا) مفخمة و قد بينا القول فى ذلك. و قال ابن عباس: الشمس لها ثلاثمائة و ستون مطلعاً كل يوم مطلع لا تعود اليه إلا إلى قابل. و قوله (إِنَّا لَقَادِرُونَ)

(١) ديوانه ٨٠ و اللسان (زمع)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٢٩

جواب القسم و فيه إخبار من الله تعالى بأنه قاد (على أن يُبدلَ) بالكفار (خَيْراً مِنْهُمْ) فالتبديل تصيير الشىء موضع غيره، بدله تبديلاً و أبدله إبدالاً. و البديل الكائن فى موضع غيره. و قوله (وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) عطف على جواب القسم، و معناه إن هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم فلم يكونوا سابقين، و لا العقاب مسبوقةً منهم، فالسبق تقدم الشىء فى وقت قبل وقت غيره. و التقدير و ما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم، و كأنه لو فاتهم عقابنا لكنا قد سبقنا، و ما نحن بمسبوقين. و قيل: معناه و ما أهل سلطاننا بمسبوقين. و قيل:

و ما نحن بمغلوبين بالفوت. ثم قال على وجه التهديد لهم بلفظ الامر للنبي صلى الله عليه و آله (فَدَرَهُمْ) أى اتركهم (يُخَوِّضُوا و

يَلْعَبُوا) فان وبال ذلك عائد عليهم والعقاب المستحق على كفرهم حال بهم، و اللعب عمل للترويح عن النفس بما هو حقير في العقل، كلعب الصبيان و من جرى مجراهم من ناقصى العقل، و لا يجوز من الحكيم أن يفعل اللعب لغيره، لأنه عمل وضيع في الحكمة (حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) و معناه حتى يروا اليوم الذى يوعدون فيه بالعقاب على المعاصى و الثواب على الطاعات ثم بين صفة ذلك اليوم، فقال (يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ) يعنى من القبور و أحدها جدث و جدث. و نصب (سراعاً) على الحال، و معناه مسرعين (كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) شبههم فى إسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون اليه، و الايفاض الاسراع أو فض يوفض ايفاضاً إذا أسرع قال رؤبه. يمشى بنا الجد على أوافاض «١»

(١) اللسان (و فض)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٠

أى على عجلته. و النصب نصب الصنم الذى كانوا يعبدونه. و قيل اسم الصنم نصب و جمعه نصب مثل رهن و رهن- فى قول أبى عبيدة- و أنشد الفراء فى الايفاض:

لأنتن نعامه ميفاضا خرجاء ظلت تطلب الافاضا «١»

فخرجاء ذات لونين، و يقال للقميص المرقع برقعته حمراء أخرج، لأنه خرج عن لونه، و الافاض طلب ملجأ يلجأ اليه، و قال بشر بن أبى حازم:

أهاجك نصب أم بعينك منصب

و قال الأعشى:

و ذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافيه و الله ربك فاعبدا «٢»

و قوله (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) أى ذليلة خاضعة (تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى يغشاهم و يركبهم ذل و صغار و خزى لما يرون نفوسهم مستحقة للعقاب و اللعن من الله.

ثم قال تعالى (ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) به فى دار التكليف فلا يصدقون به و يجحدونه، و قد شاهدوه فى تلك الحال. و قوله (إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ) لا يدل على أنه تعالى قادر على ان يبدل بالكفار من هو خيراً منه و لم يخلقهم، فيكون قد أخل بالأصلح لأنه اخبر عن انه قادر على خير منهم و قد خلق قوماً آمنوا بالنبي صلى الله عليه و آله و بذلوا نفوسهم و أموالهم.

(١) اللسان (و فض)

(٢) مر فى ١/ ٤٦٥ و ١٨/ ٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣١

٧١-سورة نوح: ص: ١٣١

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و غيرهما. و هى ثمان و عشرون آية فى الكوفى، و تسع و عشرون فى البصرى، و ثلاثون فى المدنيين

[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٦] ص: ١٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَ
 أَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)
 قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦)
 ست آيات.

قرأ «ان اعبدوا الله» بكسر النون عاصم و حمزة و ابو عمرو، على اصل التقاء الساكنين. الباقون بالضم اتباعاً للضمه على الباء في (اعبدوا الله) و قرأ الفراء «دعائي» ممدوداً إلا شبلا عن ابن كثير، فانه قصر، و فتح الياء مثل عصاى.

قال ابو على: فتح الياء و إسكانها حسان، فاما قصر الكلمه فلم أسمعها، و يجوز أن التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٢ تكون لغه.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا» أى بعثنا نوحاً نبياً «إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ» أى بأن انذر قومك، فموضع (أن) نصب بسقوط الباء.

و قال قوم: موضعه الجر لقوة حذفها مع (أن). و قال آخرون: يجوز أن تكون (أن) بمعنى أى المفسره، فلا يكون لها موضع من الاعراب. و قرأ ابن مسعود «أرسلنا نوحاً إلى قومه أنذر» بلا- (أن) لأن معنى الإرسال معنى القول فكأنه قال: قلنا له: أنذر قومك. و الانذار التخويف بالاعلام بموضع المخافه ليتقى.

و نوح عليه السلام قد انذر قومه بموضع المخافه و هى عباده غير الله، و انتهاك محارمه، و أعلمهم وجوب طاعته و إخلاص عبادته. و قوله «مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» معناه أعلمهم وجوب عباده الله و خوفهم خلافه من قبل أن ينزل عليهم العذاب المؤلم، فانه إذا نزل بهم العذاب لم ينتفعوا بالإنذار و لا- تنفعهم عباده الله حينئذ، لأنهم يكونون ملجئين إلى ذلك. و قال الحسن: أمره بأن ينذرهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

ثم حكى أن نوحاً عليه السلام امثل ما أمره الله به و (قال) لقومه «يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ» أى مخوفكم عباده غير الله او أحذركم معصية الله مظهر ذلك لكم (وَ اتَّقُوهُ) بترك معاصيه «وَ أَطِيعُوا» فيما أمركم به لأن طاعتي مقرونه بطاعه الله، و تمسككم بطاعتي لطف لكم فى التمسك بعباده الله، و اتقاء معاصيه، فلذلك وجب عليكم ما أدعوكم اليه على وجه الطاعه، و طاعه الله واجبه عليكم لمكان النعمه السابغه عليكم التى لا يوازها نعمه منعم.

ثم بين لهم ما يستحقون على طاعه الله و طاعه رسوله فقال متى فعلتم ذلك «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» و دخلت (من) زائده و قيل (من) معناها (عن) التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٣

و التقدير يصفح لكم عن ذنوبكم، و تكون عامه. و قيل: إنها دخلت للتبعيض، و معناها يغفر لكم ذنوبكم السالفه، و هى بعض الذنوب التى تضاف اليهم، فلما كانت ذنوبهم التى يستأنفونها لا يجوز الوعد بغفرانها مطلقاً- لما فى ذلك من الإغراء بالقبيح- قيدت هذا التقييد. و قيل: معناها «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» بحسب ما تكون التوبه متعلقه بها، فهذا على التبعيض إن لم يقلعوا إلا عن البعض. و هذا على مذهب من يقول: تصح التوبه من قبيح مع المقام على قبيح آخر يعلم قبحه. و قال الزجاج:

دخلت (من) لتخص الذنوب من سائر الأشياء، لا لتبعيض الذنوب.

و أكثر النحويين و أكثر القراء على إظهار الراء عند اللام فى (يَغْفِرْ لَكُمْ) و اختار ابو عمرو الإدغام، لان إذهاب التكرير لا يخل، لان الثانى مثل الأول.

و إنما يخل إذهاب ما له حس فى المسموع، كالذى لحروف الصفير و بحروف المدّ و اللين و قوله «وَ يُؤَخَّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى»

عطف على الجزاء فلذلك جزمه، والمعنى إنكم إن أطعتم الله ورسوله غفر لكم ذنوبكم وأخركم إلى الأجل المسمى عنده. وفي الآية دليل على الأجلين، لأن الوعد بالأجل المسمى مشروط بالعبادة والتقوى، فلما لم يقع اقتطعوا بعذاب الاستئصال قبل الأجل الأقصى بأجل أدنى. وكل ذلك مفهوم هذا الكلام. وقيل تقديره إن الأجل الأقصى لهم إن آمنوا، وليس لهم إن لم يؤمنوا، كما أن الجنة لهم إن آمنوا وليست لهم إن لم يؤمنوا.

ثم اخبر «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ» الأقصى إذا جاء لا يؤخر «لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» صحه ذلك و تؤمنون به، ويجوز ذلك أن يكون اخباراً من الله عن نفسه، ويجوز أن يكون حكاية عن نوح أنه قال ذلك لقومه.

ثم حكى تعالى ما قال نوح لله تعالى فإنه قال يا «رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا» الى عبادتك و خلع الأنداد من دونك و الى الإقرار بنبوتى «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي التَّيْبَانَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ١٠، ص: ١٣٤
إِلَّا فِرَارًا»

أى لم يزدادوا بدعائى الا فراراً عن قبوله و بعداً عن استماعه، و انما سمي كفرهم عند دعائه زيادةً فى الكفر، لأنهم كانوا على كفر بالله و ضلال عن حقه، ثم دعاهم نوح إلى الإقرار به و حثهم على الاقلاع عن الشرك، فلم يقبلوا، فكفروا بذلك، فكان ذلك زيادةً فى الكفر، لأن الزيادة اضافةً شىء إلى مقدار بعد حصوله منفرداً، و لو حصل ابتداءً فى وقت واحد لم يكن أحدهما زيادةً على الآخر، و لكن قد يكون زيادةً على العطف. قيل: و إنما جاز أن يكون الدعاء الى الحق يزيد الناس فراراً منه للجهد الغالب على النفس، فتارة يدعو الى الفرار مما نافرته، و تارة يدعو الى الفساد الذى يلائمه و يشاكلة فمن هاهنا لم يمتنع وقوع مثل هذا، و الفرار ابتعاد عن الشىء رغبةً عنه او خوفاً منه، فلما كانوا يتباعدون عن سماع دعائه رغبةً عنه كانوا قد فروا منه.

قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ٧ الى ١٤] ص: ١٣٤

وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)
ثمان آيات. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٥

لما حكى الله تعالى عن نوح أنه قال يا رب انى دعوت قومي الى طاعتك ليلا و نهاراً فلم يزدادوا عند دعائى إلا بعداً عن القبول قال «وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ» إلى اخلاص عبادتك «لَتَغْفِرَ لَهُمْ» معاصيهم جزاء على ذلك «جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ» لئلا يسمعو كلامى و دعائى «وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ» أى طلبوا ما يستترون به من الثياب و يختفون به لئلا يرونه. و قال الزجاج: معناه إنهم كانوا يسدون آذانهم و يغطون وجوههم لئلا يسمعو كلامه. فالاستغشاء طلب الغشى، فلما طلبوا التغشى بثيابهم فراراً من الداعى لهم، كانوا قد استغشوا «و أصروا» أى أقاموا على كفرهم و معاصيهم عازمين على فعل مثله، فالإصرار الإقامة على الأمر بالعزيمة عليه فلما كانوا مقيمين على الكفر بالعزم عليه كانوا مصرين. وقيل إن الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينك، فان أبى قد ذهب بي اليه و أنا مثلك، فحذرنى كما حذرتك، ذكره قتادة. و قوله «وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» أى طلبوا بامتناعهم من القبول منى و اخلاص عبادتك تجبراً فى الأرض و علواً فيها.

ثم حكى أنه قال «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا» أى اعلانياً «ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ» أى أظهرت الدعاء لهم الى عبادتك تارة «وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ» أى و أخفيت لهم الدعاء الى مثل ذلك مرة أخرى «فَقُلْتُ» لهم «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» أى اطلبوا المغفرة على كفركم و معاصيكم من الله تعالى «إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» لكل من طلب منه المغفرة و يغفر فيما بعد لمن يطلب منه ذلك و متى فعلتم ذلك و اطعتموه و رجعتم عن كفركم و معاصيكم «يُرْسِلِ» الله تعالى «السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» أى كثيرة الدور بالغيث و المطر، و قيل: إنهم كانوا قحطوا و أجدبوا و

هلكت أولادهم و مواشيهم، فلذلك رغبهم في ترك ذلك بالرجوع الى الله، و الدورور تجلب الشيء حالا بعد حال على الاتصال يقال: درّ درّاً و دروراً فهو دار، و المطر الكثير الدورور مدارراً. و قيل: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٦ ان عمر لما خرج يستسقى لم يزد على الاستغفار و تلا هذه الآية. و قوله «وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ» عطف على الجزاء. و تقديره إنكم متى أطعتموه و عبدتموه مخلصين أرسل عليكم المطر مدارراً و أمداكم بأموال و بنين، فالامداد إلحاق الثاني بالأول على النظام حالا بعد حال، يقال: أمده بكذا يمده امداداً، و مد النهر و أمده نهر آخر. و الأموال جمع المال، و هو عند العرب النعم. و البنون جمع ابن، و هو الذكر من الولد «وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ» أى بساتين تجنّها الأشجار «وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَاراً» و هو جمع نهر و هو المجرى الواسع للماء دون سعة البحر و فوق الجدول فى الاتساع لان الجدول النهر الصغير يرى شدة جريه لضيقه و يخفى فى النهر ضرباً من الخفاء لسعته ثم قال لهم على وجه التبكيت «ما لَكُمْ» معاشر الكفار «لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً» أى عظمتهم- فى قول ابن عباس و مجاهد و الضحاك- و المراد- هاهنا- سعة مقدوراته تعالى، و أصل الوقار ثبوت ما به يكون الشيء عظيماً من الحكم و العلم الذى يمتنع معه الخرق. و منه قرّه فى السمع و وعاه فى القلب إذا ثبت فى السمع و حفظه القلب. و قيل: معنى ترجون تخافون. قال أبو ذؤيب:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها و خالفها فى بيت نوب عوامل «١»

أى لم يخف، و كأنه قال: ما لكم لا ترجون لله عاقبة عظيمة من الثواب بالخلود فى النعيم أو تخافون عاقبة عصيانه بالدخول فى عذاب النار «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً» فالأطوار انتقال الأحوال حالا بعد حال. و قيل: معناه صبياً ثم شاباً ثم شيخاً ثم غير عاقل ثم عاقلاً و ضعيفاً ثم قوياً. و قال: ابن عباس و قتادة و مجاهد و الضحاك و ابن زيد: نطفة ثم علقه ثم مضغه. و قيل: معناه على ألوان مختلفة بيضاء و سوداء و شقراء و صفراء.

(١) مر فى ٢/ ٢١٠ و ٣/ ٣١٥ و ٧/ ٤٩١ و ٨/ ١٨٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٧

قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ١٥ الى ٢٠] ص: ١٣٧

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَ اللَّهُ أَنْتَبَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

ست آيات.

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه المكلفين، و منبهاً لهم على توحيده و إخلاص عبادته «أَلَمْ تَرَوْا» و معناه أ لم تعلموا «كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» أى اخترع سبع سموات «طِبَاقًا» أى واحدة فوق الأخرى فالطباق مصدر طابقت مطابقة و طباقاً.

و الطباق منزلة فوق منزلة. و نصب (طِبَاقًا) على احد وجهين:

أحدهما- على الفعل و تقديره و جعلهن طباقاً.

و الآخر- جعله نعتاً ل (سَبْعَ). و جعل «الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا»

روى أن الشمس يضىء ظهرها لما يليها من السموات، و يضىء وجهها لأهل الأرض، و كذلك القمر.

و المعنى و جعل الشمس و القمر نوراً فى السموات و الأرض. و قال قوم: معنى «فِيهِنَّ» معهن، و حروف الصفات بعضها يقوم مقام بعض. و قال قوم: معناه فى حيزهن، و إن كان فى واحدة منها، كما يقول القائل: إن فى هذه الدور لبثراً و إن كان فى واحدة منها، و كذلك يقولون: هذا المسجد فى سبع قبائل و إن كان فى إحداها. و جعل حصول الشيء على المعنى بقادر عليه. و قد يكون التبيان

في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٨

ذلك بحدوث نفسه. وقد يكون بحدوث غيره له. و جعل على أربعة أوجه:

أولها- أحداث النفس، كجعل البناء و النساجه و غير ذلك.

و الثاني- بقلبه، كجعل الطين خزفاً.

و الثالث- بالحكم كجعله كافراً أو مؤمناً.

و الرابع- بالدعاء إلى الفعل كجعله صادقاً و داعياً.

و النور جسم شعاعى فيه ضياء كنور الشمس، و نور القمر، و نور النار، و نور النجوم، و شبه بذلك نور الهدى الى الحق. فالله تعالى جعل القمر ضياء فى السموات السبع- فى قول عبد الله بن عمر- و قيل: جعله نوراً فى ناحيتهن «وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا» فالسراج جسم يركبه النور للاستصباح به، فلما كانت الشمس قد جعل فيها النور للاستضاءة به كانت سراجاً، و هى سراج العالم كما أن المصباح سراج هذا الإنسان.

و قوله «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» فالنبات إخراج النبات من الأرض حالاً بعد حال. و النبات هو الخارج بالنمو حالاً بعد حال، و التقدير فى «أنبتكم نباتاً» أى فنبتم نباتاً، لان أنبت يدل على نبت، من جهه انه متضمن به.

و قوله «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا» فالاعادة النشأة الثانية، فالقادر على النشأة الأولى قادر على الثانية، لأنه باق قادر على اختراعه من غير سبب يولده. و المعنى إن الله يردكم فى الأرض بأن يميتمكم فتصيروا تراباً كما كنتم أول مرة «وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا» منها يوم القيامة كما قال «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (١) ثم قال «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا» أى مبسوطه يمكنكم المشى عليها و الاستقرار فيها. و بين أنه إنما جعلها، كذلك «لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا» فالفجاج

(١) سورة ٢٠ طه آية ٥٥ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٣٩

جمع (فج) و هى الطريقة المتسعة المتفرقة، و قيل: طرقاً مختلفة- ذكره ابن عباس- و الفج المسلك بين جبلين، و منه الفج الذى لم يستحكم أمره، كالطريق بين جبلين.

و إنما عدد تعالى هذه الضروب من النعم امتناناً على خلقه و تنبيهاً لهم على استحقاقه للعبادة الخالصة من كل شرك، و دلالة لهم على انه عالم بمصالح خلقه، و مدبر لهم على ما تقتضيه الحكمة، فيجب أن يشكروه على هذه النعمة و لا يقابلونها بالكفر و الجحود.

قوله تعالى: [سورة نوح (٧١): الآيات ٢١ الى ٢٨] ص: ١٣٩

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَّلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَ قَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَدْرُنَّ وُدًّا وَ لَا سَوَاعًا وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥)

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِيَوْمِ الدِّينِ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

قرأ «ماله و ولده» بالفتح نافع و عاصم و ابن عامر. و الباقون بضم الواو و سكون اللام، و هما لغتان مثل حزن و نخل و نخل و عدم و عدم. و قال قوم:

الولد- بالضم- جمع ولد مثل رهن و رهن و عرب و عرب و عجم و عجم. و قرأ نافع التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٠

«وَدًّا» بضم الواو. الباقون بفتحها، و هما لغتان، و هو اسم الصنم. و قال قوم:

بالضم المحبة، و بالفتح الصنم. و السواع- هاهنا- صنم، و فى غير هذا الساعة من الليل. و مثله السعواء. و قرأ ابو عمرو «خطاياهم» على جمع التكسير. الباقون «خطيئاتهم» على جمع السلامة.

حكى الله تعالى عن نوح أنه «قال» داعيا الله «يا رَبِّ إِنَّهُمْ» يعنى قومه «عَصَوْنِي» فيما أمرهم به و أنهاهم عنه، فالمعصية مخالفة المراد إلى المكروه المزجور عنه.

و مخالفة ما أراد الحكيم تكون على وجهين:

أحدهما- على المأذون فيه من غير أن يريد.

و الآخر- إلى المكروه المزجور عنه، فهو بالأول مقصر عن ما هو الأولى فعلة.

و بالتانى عاص.

و قوله «وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا» تمام الحكاية عن نوح أنه وصف به قومه بأنهم عصوه فيما دعاهم اليه و اتبعوا الذى لم يزد ماله و ولده إلا- خساراً يعنى هلاكاً، فالخسار الهلاك بذهاب رأس المال ففيه معنى الهلاك و ليس كذلك الخسران، لأنه محتمل للقليل الذى لا يحجفه ذهابه و الكثير الذى يحجف و أما الخسار ففيه معنى ذهاب الكثير، و لهذا بنى على صفة الهلاك.

و قوله «وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا» فالمكر القتل بالحيلة الخفية إلى خلاف الجهة الموافقة بما فيها من المضرة، مكر يمكر مكرًا، فهو ماكر، و الشيء ممكور به، قال ذو الرمة:

عجاء ممكورة خمصانة قلق عنها الوشاح و تم الجسم و القصب (١)

أى ملتفة مفتولة. و الكبار الكبير- فى قول مجاهد و ابن زيد- يقولون عجيب

(١) مر فى ٥١٣/٤، ٥٤١ و ١٢٨/٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤١

و عجاب بالتخفيف و التشديد. و مثله جميل و جمال و جمال و حسن و حسان. «وَقَالُوا» يعنى الكفار بعضهم لبعض «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» أى لا تتركوا عبادة أصنامكم «وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَ لَا سُوعًا» و هما صنمان لهم كانوا يعبدونهما، فكانت (ود) لكلب (و سواع) لهمدان (و يغوث) لمذحج (و يعوق) لكنانة «و نسرا» لحمير- فى قول قتادة-.

و قوله «قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا» معناه ضل بهم خلق كثير. و قيل: معناه إن عبادتهم أضلت خلقاً عن الثواب لمن استحق العقاب، و أضلهم بالذم و التحسر عن حال أهل الفلاح، و إنما جمع الأصنام بالواو لما أسند إليها ما يسند إلى العالم من استحقاق العبادة، و لم يصرفوا (يعوق) (و يعوق) لأنه على لفظ المضارع من الأفعال، و هى معرفة، و قد نونهما الأعمش، و أخرجهما مخرج النكرات أى صنماً من الأصنام.

ثم قال نوح «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا» و معناه إلا عذاباً و سمي العذاب ضلالاً كقوله «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ» (١) و قيل: كانت هذه الأصنام المذكورة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب فيما بعد- فى قول ابن عباس و قتادة و الضحاك و ابن زيد- و لا يجوز فى صفة الحكيم الإضلال عن الايمان.

و قوله «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ» (ما) صلته و تقديره من خطاياهم بمعنى من أجل ما ارتكبه من الخطايا و الكفر «أغرقوا» على وجه العقوبة «فادخلوا» بعد ذلك «ناراً» ليعاقبوا فيها «فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» أى من يدفع عنهم ما نزل بهم من العقاب المستحق على كفرهم.

ثم حكى ما قال نوح أيضاً فانه قال «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا»

(١) سورة ٥٤ القمر آية ٤٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٢

قال قتادة: ما دعا عليهم إلا بعد ما أنزل عليه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» «١» فلذلك قال (إِنَّكَ) يا رب (إِنْ تَذَرَهُمْ) يعنى تتركهم ولا- تهلكهم (يُضِعُّ لُؤْلُؤًا عِبَادَكَ) عن الدين بالإغواء عنه و الدعاء إلى خلافه (وَلَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا) و إلا فلم يعلم نوح الغيب، و إنما قال ذلك بعد أن اعلمه الله ذلك و إنما جاز أن يقول (وَلَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا) فيسيمهم بالكفر و الفجور قبل أن يعملوه، لأنه على وجه الحكاية و الاخبار بما يكون منهم لو وجدوا لا على وجه الذم لهم، لاقتضاء العقل على أنه لا يذم على الكفر من لم يكن منه كفر، فكأنه قال و لا يلدوا إلا من إذا بلغ كفر، و (الديار) فيعال من الدوران، أى و لا تذر على الأرض منهم أحداً يدور فى الأرض بالذهاب و المجيء قال الشاعر:

و ما نبالى إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلا ك ديار «٢»

أى إلا- إياك، فجعل المتصل موضع المنفصل ضرورة. و قال الزجاج: تقول ما فى الدار أحد، و لا بها ديار، و أصله ديوار (فيعال) فقلت الواو ياء. و أدغمت إحداها فى الأخرى. و الفاجر من فعل الفجور، و هى الكبيرة التى يستحق بها الذم. و (الكفار) من أكثر من فعل الكفر لأنه لفظ مبالغه. و كافر يحتمل القليل و الكثير.

ثم حكى ان نوحاً سأل الله تعالى فقال (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِرِجَالِي وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ) قيل المراد بالبيت مسجده. و قيل أراد سفينته.

و ذلك على وجه الانقطاع اليه تعالى، لأنه لا يفعل معصية يستحق بها العقاب.

فأما والداه و المؤمنون و المؤمنات الذين استغفر لهم فيجوز أن يكون منهم معاص يحتاج أن يستغفرها لهم.

(١) سورة ١١ هود آية ٣٦

(٢) أوضح المسالك ١/ ٦٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٣

وقوله (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) فالتبار الهلاك و العقاب، و كل من أهلك فقد تبر، و لذلك سمي كل شىء مكسر تبراً، و يجوز أن يكون معناه لا تزدحم إلا ضلالاً أى عذاباً على كفرهم. و قال البلخى: لا تزدحم إلا منعاً من الطاعات عقوبه لهم على كفرهم، فإنهم إذا ضلوا استحقوا منع الألفاظ التى يفعل بالمؤمنين فيطيعون عندها، و يمثلون أمر الله، و لا يجوز أن يفعل بهم الضلال عن الحق، لأنه سفه فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٤

٧٢- سورة الجن ص: ١٤٤

إشارة

مكية فى قول قتادة و ابن عباس و الضحاك و غيرهم و هى ثمان و عشرون آية ليس فيها اختلاف. قال الحسن: نزلت هذه السورة فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله على نفر من الجن فآمنوا به فأتوا قومهم فقالوا «إِنَّا سَيِّمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا» و كان يقول بعث الله محمداً إلى الجن و الانس و قال غيره من المفسرين: لما رميت الشياطين بالشهب و منعوا من صعود السماء، قال لهم إبليس ما هذا

الحادث؟ فبث شياطينه في الأرض فبعث قوماً من جن اليمن فلقوا النبي صلى الله عليه وآله بمكة يصلى بأصحابه و يقرأ القرآن فأعجبهم ذلك و آمنوا به، و أخبروا قومهم فقال إبليس لهذا رجتمم.

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤)
 وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشَا فَخَشَا شَدِيدًا وَ شُهَبًا (٨) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)
 وَ أَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٥

عشر آيات.

قال الفراء: قرأ حوبه بن عابد (قل أوحى إلى) أراد وحي إلى مثل وعد فقلبت الواو همزة، كما قلبها في قوله (وَ إِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ) «١» و أصله وقتت.

و العرب تقول: وحيته إليه، و أوحيت بمعنى واحد و ومأت إليه و أوامته، قال الراجز:

وحي لها القرار فاستقرت «٢»

و قرأ ابن كثير و ابو عمرو (قل أوحى إلى أنه استمع) و (أن لو استقاموا) و (أن المساجد لله) و (أنه لما قام عبد الله) أربعة أحرف- بفتح الالف- و الباقي من أول السورة إلى هاهنا بكسر الالف. و قرأ نافع و عاصم في رواية أبي بكر كذلك، إلا قوله (و انه لما قام عبد الله) فانه قرأ بالكسر. الباقي بفتح جميع ذلك إلا ما جاء بعد (قول) او (فاء جزاء) فإنهم يكسرونه. من فتح جميع ذلك جعله عطفاً على (أوحى إلى انه) و أنه. و من كسر عطف على قوله (إنا) و إنا. قال

(١) سورة ٧٧ المرسلات آية ١١

(٢) مر في ٢/٤٥٩ و ٣/٨٤ و ٤/٦١ و ٦/٤٠٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٦

قوم: و من نصب فعلى تقدير آمنا به و بكذا فعطف عليه. قال الزجاج: إن عطف على الهاء كان ضعيفاً، لأن عطف المظهر على المضمرة ضعيف، و من جعله مفعول (آمنا) فنصبه به كأنه قال: آمنا بكذا و كذا، و أسقط الباء فنصب على المعنى، لأن معنى (آمن) صدق، فكأنه قال: صدقنا بكذا و كذا، و حذف الجار. و من كسر من هؤلاء بعد القول أو فاء الجزاء، فلأنه لا يقع بعد القول و الفاء إلا ما هو ابتداء، أو ما هو في حكم الابتداء. و من كسر جميع ذلك جعله مستأنفاً، و لم يوقع (آمنا) عليه، و ما نصب من ذلك جعله مفعولاً بإيقاع فعل عليه. فأما قوله (أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ) فمفعول (أُوْحِيَ) لا غير بلا خلاف. و قرأ ابو جعفر (أن لن تقول الانس) على معنى تكذب. الباقي بتخفيف الواو من القول.

يقول الله تعالى آمراً لمحمد نبيه صلى الله عليه وآله (قُلْ) يا محمد لقومك و من بعثت إليه (أُوْحِيَ إِلَيَّ) فالإيحاء المعنى إلى النفس خفياً كالإلهام، و انزال الملائكة به لخفائه عن الناس إلا على النبي الذي انزل إليه كالإيحاء الذي يفهم به المعنى. و المراد-

هاهنا- انزال الملك به عليه. ثم بين ما أوحى اليه فقال (أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) فالاستماع طلب سماع الصوت بالاصغاء اليه، و هو تطلب لفهم المعنى، و تطلب ليستدل به على صاحبه. وقيل: ان الجن لما منعوا من استراق السمع طافوا فى الأرض، فاستمعوا القرآن، فأمنوا به، فانزل بذلك الوحي على النبي صلى الله عليه وآله ذكره ابن عباس و مجاهد و الضحاك و غيرهم. و النفر الجماعة. و الجن جيل رفاق الأجسام خفية على صور مخصوصه بخلاف صورة الملائكة و الناس. وقيل: العقلاء من الحيوان ثلاثة اصناف: الملائكة، و الناس، و الجن. و الملك مخلوق من النور، و الانس من الطين و الجن من النار.

ثم ذكر انه قالت الجن بعضها لبعض (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) و العجب هو التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٧ كل شىء لا- يعرف سببه. وقيل: هو ما يدعو إلى التعجب منه لخفاء سببه و خروجه عن العادة فى مثله، فلما كان القرآن قد خرج بتأليفه عن العادة فى الكلام، و خفى سببه عن الأنام كان عجباً.

و قوله (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) حكاية ما قالت الجن و وصفت به القرآن، فإنهم قالوا: هذا القرآن يهدى إلى ما فيه الرشاد و الحق (فَأَمَّا بِهِ) أى صدقنا بأنه من عند الله (وَلَنْ نُشْرِكَ) فيما بعد (بِرَبِّنَا أَحَدًا) فنوجه العبادة اليه بل نخلص العبادة له تعالى (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا) من كسر الهمزة عطفه على قوله (إِنَّا سَمِعْنَا) و حكى أنهم قالوا (أَنَّهُ) و يجوز أن يكون استأنف الاخبار عنهم. و من فتح فعلى تقدير فآمنا بأنه تعالى جدُّ ربنا، و معناه تعالى عظمه ربنا، لانقطاع كل شىء عظمه عنها لعلوها عليه. و منه الجد ابو الأب، و الجد الحظ لانقطاعه بعلو شأنه. و الجد ضد الهزل لانقطاعه عن السخف، و منه الجديد لأنه حديث عهد بالقطع فى غالب الأمر. و قال الحسن- فى رواية- و مجاهد و قتادة: معناه تعالى جلالته و عظمته، و فى رواية اخرى عن الحسن: تعالى غنى ربنا، و كل ذلك يرجع الى معنى وصفه بأنه عظيم غنى. و يقال: جد فلان فى قومه إذا عظم فيهم. و

روى عن أحدهما عليهم السلام انه قال: ليس لله جد و إنما قالت ذلك الجن بجهلها فحكاها كما قالت.

و قال الحسن:

ان الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الانس و الجن، و انه لم يرسل رسولا قط من الجن و لا من أهل البادية، و لا من النساء، لقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) «١».

و قوله (مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) على ما قال قوم من الكفار.

و قوله (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا) من كسر استأنف. و من

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٨

نصب عطف على قوله (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا) و نصب ذلك بتقدير آمنا، و قدر للباقي فعلا يليق به، و يمكن أن يعمل فيه، كما قال الشاعر:

إذا ما الغايات برزن يوماً و زججن الحواجب و العيونا «١»

على تقدير: و كحلن العيون، و قال مجاهد و قتادة: أرادوا ب (سفيهم) إبليس و (الشطط) السرف فى ظلم النفس و الخروج عن الحق، فاعترفوا بأن إبليس كان يخرج عن الحد بما يغرى به الخلق و يدعوهم إلى الضلال.

و قوله (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) اخبار عن اعترافهم بأنهم ظنوا أن لا يقول أحد من الجن و الانس كذباً على الله فى اتخاذ الشريك معه و صاحبه و الولد، و أن ما يقولونه من ذلك صدق حتى سمعنا القرآن و تبينا الحق به.

و قوله (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) قال البلخي:

قال قوم: المعنى إنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن، لأن الرجال لا يكون إلا فى الناس دون الجن. و

من قال بالأول قال في الجن رجال مثل ما في الانس. وقال الحسن و قتاده و مجاهد: كان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره قال: أعوذ بعزير هذا الوادي من شر سفهاء قومه. ومعنى (يَعُوذُونَ) يستجرون، وهذا اخبار من الله تعالى عن نفسه دون الحكاية عن الجن. والعياذ الاعتصام وهو الامتناع بالشىء من لحاق الشر. والرجال جمع رجل وهو الذكر البالغ من الذكران. والإنسان يقع على الذكر والمرأة، والصغير والكبير ثم يفصل كل واحد بصفه تخصه و تميزه من غيره.

وقوله (فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) أى ائماً الى ائمتهم الذى كانوا عليه من الكفر والمعاصى - فى قول ابن عباس و قتاده- وقال مجاهد: يعنى طغياناً. وقال الربيع و ابن زيد:

(١) مر فى ٩ / ٤٩٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٤٩

يعنى فرقاً. وقيل سفهاً. قال الزجاج: يجوز ان يكون الجن زادوا الانس، و يجوز أن يكون الانس زادوا الجن رهقاً. و الرهق لحاق الإثم، و أصله اللحوق. و منه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال قال الأعشى:

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشفى وامق ما لم يصب رهقاً «١»

أى لم يعش ائماً. ثم حكى تعالى (وَأَنَّهُمْ ظُنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ) معاشر الانس (أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا) أى لا- يحشره يوم القيامة و لا يحاسبه. و قال الحسن:

ظن المشركون من الجن، كما ظن المشركون من الانس (أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا) لجحدهم بالبعث و النشور، و استبعدوا ذلك مع اعترافهم بالنشأة الأولى، لأنهم رأوا إمارة مستمرة فى النشأة الأولى، و لم يروها فى النشأة الثانية، و لم ينعموا النظر فيعلموا أن من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الاخرى.

و قال قتاده: ظنوا أن لا يبعث الله احداً رسولا.

ثم حكى ان الجن قالت (أَنَا لَمَشِينَا السَّمَاءَ) أى مسسناها بأيدينا. و قال الجبائي: معناه إنا طلبنا الصعود الى السماء، فعبر عن ذلك باللمس مجازاً، و انما جاز من الجن تطلب الصعود مع علمهم بأنهم يرمون بالشهب لتجوزهم أن يصادفوا موضعاً يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشهب، او اعتقدوا أن ذلك غير صحيح، و لم يصدقوا من أخبرهم بأنهم رموا حين أرادوا الصعود (فَوَجَدْنَا مُلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهَبًا) نصب (حرساً) على التمييز و (شديداً) نعته و (شهباً) عطف على (حرساً) فهو نصب ايضاً على التمييز. و تقديره ملئت من الحرس.

و الشهب جمع شهاب، و هو نور يمتد من السماء من النجم كالنار. قال الله تعالى (وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ جَعَلْنَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) «٢» و الحرس جمع

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٢٤

(٢) سورة ٦٧ الملك آية ٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٠

حارس. و قيل: إن السماء لم تحرس قط إلا لنبوة أو عقوبة عاجله عامه.

ثم حكى أنهم قالوا ايضاً (أَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصِيدًا) أى لم يكن فيما مضى منع من الصعود فى المواضع التى يسمع منها صوت الملائكة و كلامهم، و يسمع ذلك، فالآن من يستمع منا ذلك يجد له شهاباً يرمى به و يرصد و (شهاباً) نصب على أنه مفعول به و (رصيداً) نعته.

ثم حكى انهم قالوا (وَ أَنَا لَا نَدْرِي) بما ظهر من هذه الآية العجيبه (أَشَرُّ أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ) من الخلق أى اهلاًكاً لهم بكفرهم و عقوبة على معاصيهم (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) و هداية إلى الحق بأن بعث نبياً، فإن ذلك خاف عنا و قال قوم: إن الشهب لم تكن قبل النبي صلى الله عليه و آله و إنما رموا به عند بعثه صلى الله عليه و آله و قال آخرون: الشهب معلوم أنها كانت فيما مضى من الزمان، و لكن كثرت فى زمن النبي صلى الله عليه و آله و عمت لا أنها لم تكن أصلاً. قال البلخى: الشهب كانت لا محالة غير انه لم تكن تمتنع بها الجن عن صعود السماء، فلما بعث النبي صلى الله عليه و آله منع الجن من الصعود

قوله تعالى: [سورة الجن (٧٢): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ١٥٠

وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْمَأْرُضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَ لَا رَهَقًا (١٣) وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)

وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥١

عشر آيات.

قرأ اهل الكوفة و يعقوب و سهل (يسلكه) بالياء بمعنى يسلكه الله. الباقر بالنون على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه بنون العظمة. وقرأ ابو جعفر و عاصم و حمزة (قل إنما ادعوا ربى) بلفظ الامر. الباقر (قال) على فعل ماض. وقرأ هشام بن عماد عن ابن عامر (لبداً) بضم اللام. الباقر بكسر اللام. و اللبد و اللبد بمعنى واحد، و جمع اللبد لبد، مثل ظلمة و ظلم. و يقال: لا بد و لبد، مثل راع و ركع. يقول الله تعالى فى تمام الحكايه عما قالته الجن الذين آمنوا عند سماع القرآن فإنهم قالوا (وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ) و هم الذين عملوا الصالحات و سمي صالحاً، لأنه عمل ما يصلح به حاله فى دينه. و أما المصلح فهو فاعل الصلاح الذى يقوم به أمر من الأمور، و لهذا وصف تعالى بأنه مصلح، و لم يجز وصفه بأنه صالح. و الصلاح يتعاطم استحقاق المدح عليه و الثواب كما يختلف استحقاق الشكر بالنعم، ففى النعم ما يستحق به العبادة و فيها ما لا يستحق به ذلك و إن استحق به الشكر، فلذلك قال (وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ) و المعنى ان منا الصالحين فى مراتب عالية و منا دون ذلك فى الرتبة.

و قوله (كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: يعنى على مذاهب مختلفة: مسلم، و كافر، و صالح، و دون الصالح. و الطرائق جمع طريقه و هى الجهة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٢

المستمرة مرتبة بعد مرتبة. و المعنى فيها إنا كنا فى طرق مختلفة. و القدد جمع قده.

و هى المستمرة بالقد فى جهة واحدة. و القدد مضمن بجعل جاعل، و هو القاد، و ليس كذلك الطريقة فى تضمن الصفة، و إنما هى كالمذهب الذى يمكن فيه على استمرار الى حيث انتهى اليه. و المعنى إنا كنا على طرائق متباينة كل فرقة يتباين صاحبها كما بين المقدود بعضه من بعض.

و قوله (وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْمَأْرُضِ) فالظن - هاهنا - بمعنى العلم و المعنى اعترافهم بأن علموا أنه لا يفوت الله شىء يذهب فى الأرض، و لا إذا هرب منه بسائر ضروب الهرب، و اعترفوا ايضاً فقالوا (وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى) يعنون القرآن الذى فيه هدى كل حى (آمناً به) أى صدقناه. ثم قالوا (فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ) أى من يصدق بتوحيد الله و عرفه على صفاته (فَلَا يَخَافُ بَخْسًا) أى نقصاناً فيما يستحقه من الثواب (وَ لَا رَهَقًا) أى و لا - يخاف ظلماً، فالرهق لحاق السرف فى الامر، و كأنه قال لا يخاف نقصاً قليلاً و لا كثيراً، و

ذلك أن أجره و ثوابه موفر على أتم ما يكون فيه. و قال ابن عباس: معناه لا يخاف نقصاً من حسناته و لا زيادة في سيئاته، و هو قول الحسن و قتادة و ابن زيد، و التقدير فمن يؤمن بربه فانه لا يخاف ثم قالوا ايضاً (وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ) يعنى الذين استسلموا لما أمرهم الله به، و انقادوا له (وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ) يعنى الجاثرون عن طريق الحق. و القاسط الجائر عن طريق الحق (فَمَنْ أَسْلَمَ) أى استسلم لأمر الله (فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى طلبوا الهدى إلى الحق، أَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا

أى استحقوا بذلك أن يكونوا و قود النار يوم القيامة يحرقون بها. و قوله (وَ أَن لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ) اخبار من الله تعالى عن نفسه. و قيل (ان) يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، فيكون محمولاً على الوحى، فكأنه قال (اوحى الى أن لو استقاموا) و فصل لو بينها و بين التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٣

الفاعل، كما فصل (السين) و (لا) فى قوله (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى) «١» و قوله (أَلَّا يَزُجِعَ إِلَيْهِمْ) «٢» و يحتمل أن تكون (لو) بمنزلة اللام فى قوله (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُزْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ) «٣» فيسقط مره و يلحق أخرى، لان (لو) بمنزلة فعل الشرط، فكما لحقت اللام زائدة قبل (إن) الداخلة على الشرط قبل فعل الشرط، كذلك لحقت (أن) هذه قبل (لو) و معنى «وَ أَن لَوْ اسْتَقَامُوا» أحد أمرين:

أحدهما- لو استقاموا على طريقه الهدى بدلالة قوله (وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) «٤» و قوله (وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا) «٥».

الثانى- لو استقاموا على طريقه الكفر بدلالة قوله (وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُفْهًا مِنْ فَضَّةٍ) «٦» و قيل: انه دخلت (ان) فى (وَ أَن لَوْ اسْتَقَامُوا) لأنه جواب القسم. و يجوز أن يحذف، كما قال الشاعر:

فأقسم لو شىء أتانا رسوله سواك و لكن لم نجد لك مدفعا «٧»

و قال آخر:

(١) سورة ٧٣ المزملة آية ٢٠

(٢) سورة ٢٠ طه آية ٨٩

(٣) سورة ٣٣ الأحزاب ٦٠

(٤) سورة ٥ المائدة آية ٦٩ [.....]

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ٩٥

(٦) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٣

(٧) مر فى ٥/ ٥٢٩ و ٦/ ٢٥٣ و ٧/ ٣٤١ و ٩/ ١٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٤

اما و الله إن لو كنت حراً و ما بالحر أنت و لا العتيق «١»

و الاستقامة الاستمرار فى جهة العلو. و المستقيم من الكلام المستمر على طريقه الصواب. و هو نقيض المحال. و الاستقامة على طريق الحق التى يدعو اليها العقل طاعة الله. و المعنى- هاهنا- فى قول أكثر المفسرين: إنه لو استقام العقلاء على طريقه الهدى و استمروا عليها و عملوا بموجبها لجازاهم على ذلك بأن اسقاهم ماء غدقاً، يعنى كثيراً. و الغدق بفتح الدال للمصدر، و بكسرهما اسم الفاعل، و فى ذلك ترغيب فى الهدى. قال الفراء: معناه و أن لو استقاموا على طريقه الكفر لفعلنا بهم ما ذكرناه تغليظاً للمحنة فى التكليف، و لذلك قال (لِنُقْتِلَهُمْ فِيهِ) أى نخبرهم بذلك و نبلوهم به. و غدق المكان يغدق غدقاً إذا كثر فيه الماء و الندى، و هو غدق- فى قول الزجاج- و قوله (لِنُقْتِلَهُمْ فِيهِ) معناه لنخبرهم و نعاملهم معاملة المختبر فى شدة التعب بتكليف الانصراف عما تدعو شهواتهم اليه، على

ما تقتضيه الحكمة في ذلك و الفتنة المحنة الشديدة، و المثوبة على قدر المشقة في الصبر عما تدعو اليه الشهوة. ثم قال تعالى مهتداً لهم و متوعداً (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ) و المعنى من يعدل عن الفكر فيما يؤديه الى معرفة الله و توحيده و اخلاص عبادته، فالذكر حضور المعنى الدال على المذكور للنفس، و ضده السهو، و مثله حضور المعنى بالقلب. و الفكر في وجوه السؤال عن المعنى طلب للذكر له. و الفكر في البرهان طلب للعلم بصحة المعنى المذكور و أنه حق و نقيضه باطل. و قوله «يَسْئَلُكَ عَذَاباً صِغَيراً» اي متصعداً في العظم. و قيل: متصعداً قد غمره و أطبق عليه. و معناه عذاباً أشهد العذاب من قوله «سَأْزُهِقُهُ صِغَيراً» «٢» فاما قول العرب: تنفس الصعداء على وزن (فعلاء) أكثر كلامهم، و منه قيل تنفس صعداً على وزن غرب و الصعود العقبة الشاقة. و قال الفراء:

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٨

(٢) سورة ٧٤ المذثر آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٥

الصعود صخرة ملساء في النار و يكلف الصعود عليها، فكلما بلغ رأسها أحد هوى الى أسفلها وقوعاً. و قوله «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» عطف عند جميع المفسرين على قوله «أوحى» كأنه قال: أوحى الى أن المساجد لله، و قال الخليل: التقدير، و لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً مثل قوله «وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ» و تقديره: و لأن هذه أمتكم «أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» «١» و المعنى الاخبار منه تعالى بأن لا يذكر مع الله في المساجد- و هي المواضع التي وضعت للصلاة- أحد على وجه الاشتراك في عبادته، كما يدعوا النصراني في بيعهم و المشركون في الكعبة. و قال الحسن: من السنة إذا دخل المسجد أن يقول: لا-إله الا-الله، لا-أدعو مع الله أحداً. و قيل: معناه إنه يجب أن يدعوه بالوحدانية. و قال الفراء و الزجاج: المساجد مواضع السجود من الإنسان: الجبهة، و اليدين، و الرجلان. و زاد أصحابنا عيني الركبتين. و المعنى إنه لا ينبغي أن يسجد بهذه الأعضاء لأحد سوى الله تعالى.

و قوله «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبِيدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يُكْفُتُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا» معناه إنه لما قام محمد صلى الله عليه و آله يدعو الله، فيقول: لا إله الا الله كادوا يكونون عليه جماعات متكاثفات بعضها فوق بعض ليزيلوه بذلك عن دعوته بإخلاص الالهية. و قال ابن عباس و الضحاك: معناه إن الجن كادوا يركبونه حرصاً على سماع القرآن منه.

و قال الحسن و قتادة: معناه تلبت الانس و الجن على هذا الامر ليطفئوه فأبى الله الا- أن ينصره و يظهره على من ناواه، كما قال «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» «٢» و قال ابن عباس: هذا من قول الجن، لما رجعوا الى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله و ائتمامهم به في الركوع

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٩٢

(٢) سورة ٦١ الصف آية ٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٦

و السجود، و هو قول سعيد بن جبير. و اللبد القطع المتكاثفة على الشيء واحداً لبد، و منه اللبد لتكاثف صفوفه بعضه على بعض. و لبد رأسه إذا ألصق بعض شعره ببعض قال عبد مناف بن ربيع: صابوا بستة أبيات و اربعة حتى كأن عليهم جابياً لبدًا. «١» فالجابي الجراد الذي يجبي كل شيء يأكله.

ثم

حكى ان النبي صلى الله عليه وآله قال «إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي»

و من قرأ (قل) فمعناه إن الله أمره بأن يقول: إنما أدعو ربي وحده ولا أشرك به أحداً من الأصنام والأوثان.
و المعنيان متقاربات، لأن الله تعالى إذا أمره بأن يقول فانه يقول لا محالة فقد حصل الأمران.

قوله تعالى: [سورة الجن (٧٢): الآيات ٢١ الى ٢٨] ص: ١٥٦

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَقْلُمُونَ مَنْ أضعفُ ناصرًا وَأَقْلُ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)
عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمِعُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

(١) اللسان (لبد)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٧

ثمان آيات.

قرأ «ليعلم» بضم الياء يعقوب. الباقون بفتح الياء. أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وآله أن يقول للمكلفين «إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» ومعناه إنى لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم، و إنما يقدر على ذلك الله تعالى.
و إنما أقدر على أن أدعوكم الى الخير و أهدىكم الى طريق الرشاد، فان قبلتم نلتم الثواب و النفع، و ان رددتموه نالكم العقاب و أليم العذاب. ثم قال ايضاً «قُلْ» لهم يا محمد «إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ» أى لا يقدر أن يجير على الله حتى يدفع عنه ما يريد به من العقاب «وَلَنْ أَجِدَ» ايضاً انا «مِنْ دُونِهِ» أى من دون الله «مُلْتَحِدًا» يعنى ملتجئاً ألباً اليه أطلب به السلامة مما يريد الله تعالى فعله من العذاب و الألم. و أضافه الى نفسه، و المراد به أمته، لأنه لا يفعل قبيحاً فيخاف العقاب. و المعنى ليس من دون الله ملتحد أى ملجأ.
و قوله «إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ» معناه لكن املك البلاغ من الله الذى هو بلاغ الحق لكل من ذهب عنه و أعرض عن اتباعه بأن أرشده الى الأدلة التى نصبها الله له و أمر بالدعاء إليها سائر عباد المكلفين، كما أمر أنبياءه بتبليغ رسالاته، فيكون التقدير لا املك إلا بلاغاً من الله و رسالاته. و قيل يجوز ان يكون المراد لن يجيرنى من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته، فيكون نصب البلاغ على إضمار فعل من الجزاء، كقولك إن لا قياماً ففعوداً و ان لا عطاء فرداً جميلاً فتكون (لا) منفصلة من (إن) و تقديره إن لا أبلغ بلاغاً من الله و رسالاته.

ثم قال «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» بأن خالف ما أمراه به و ارتكب ما نهىه التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٨

عنه «فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ» جزاء على ذلك «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» أى مقيمين فيها على وجه التأييد. و القراء على كسر (فان) على الابتداء. و روى عن طلحة بن مصروف انه فتح على تقدير فجزاؤه أن له. و قال ابن خالويه: سألت ابن مجاهد عن ذلك، فقال: هو لحن. و قال بعض أهل النظر: زعم ابو عبيدة: ان ما كان من قول الجن فهو مكسور نسقاً على قوله «إِنَّا سَمِعْنَا» و من فتح فعلى قوله «قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ» و هو اختيار ابن خالويه.

و قوله «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» يعنى ما يوعدون به من العقاب على المعاصى «فَسَيَقْلُمُونَ» عند ذلك «مَنْ أضعفُ ناصرًا» يدفع عنه عقاب الله و من «أَقْلُ عَدَدًا» يستنصر بهم الكفار أم المؤمنون؟. و قيل معناه أجدد الله أم الذين عبده المشركون؟ و إنما قال «مَنْ

أَضْعَفُ نَاصِرًا» و لا ناصر لهم في الآخرة، لأنه جاء على جواب من توهم انه إن كانت لهم أخوة فناصرهم أقوى و عددهم أكثر. ثم قال لنبه صلى الله عليه وآله «قُلْ إِنْ أَدْرِي» أى قل لهم لست اعلم «أَقْرَبُ مَا تُوعِدُونَ» به من العقاب «أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا» أى غاية ينتهى إليها بعينها أم يؤخره الله تعالى إلى مدة لا يعلمها بعينها إلا الله تعالى الذى هو «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا» ثم قال «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» فانه ربما أطلعه على ما غاب عن غيره من الخلائق بأن يوحى اليهم بما شاء من الغيب - ذكره قتادة - «فَإِنَّهُ يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا» ومعناه إن الله إذا نزل الملك بالوحى أرسل معه رصداً يحفظون الملك من أن يأتى احد من الجن و يسمع الوحى، و نصب «رصدًا» على المفعول، كأنه قال يجعل رصداً يسلك من بين يديه و من خلفه «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا» معناه ليظهر المعلوم من التبليغ. و قال قتادة: معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد ابغوا رسالات ربهم. و قال سعيد بن جبيرة: ليعلم الرسل أن قد ابغوا رسالات التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٥٩

ربهم على احاطة بهم و تحصيل لما بلغوا من رسالاته. و قال الزجاج: ليعلم الله أن قد ابغوا. و قوله «وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» معناه انه يعلم ما عندهم فيحيط بما لديهم فيصير فى معلومه بمنزلة ما احيط به «وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» معناه انه يعلم الأشياء مفصلة بمنزلة من يحصيهما كذا. و قال الزجاج: نصب «عدداً» يحتمل شيئين: أحدهما - و احصى كل شىء فى حال العدد، فيكون العدد بمعنى المعدود، كما يقال: للمنقوص نقص، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء، لا سقوط ورقة، و لا حبة فى ظلمات الأرض.

و الثانى - ان يكون بمعنى المصدر، و تقديره و أحصى كل شىء احصاء. و قال الجبائى معنى «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا» أى ليبلغوا (رسالات ربهم) فعبّر عن المعلوم بالعلم كما يقال: ما علم الله منى ذلك أى ما فعلته، لأنه لو فعله لعلم الله ذلك (وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) معناه انه لا شىء يعلمه عالم او يذكره ذاكراً إلا و هو تعالى عالم به و محص له. و الإحصاء فعل، و ليس هو بمنزلة العلم، فلا يجوز ان يقال احصى ما لا - يتناهى كما يجوز ان يقال: علم ما لا يتناهى، لان الإحصاء مثل المحصى لا يكون إلا فعلاً متناهِياً، فإذا لم يجز ان يفعل ما لا يتناهى لم يجز ان يقال يحصى ما لا يتناهى. و الفرق بينهما واضح.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٠

٧٣- سورة المزمل: ص: ١٦٠

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و هى عشرون آية فى الكوفى و المدنى الاول و تسع عشرة فى البصرى و ثمانى عشرة فى المدنى الأخير

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الْمُرْتَلُّ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)
إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)
وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)

عشر آيات.

قرأ ابن عامر و ابو عمرو «و طاء» بكسر الواو و المدّ جعله مصدرأ ل (واطأ) يواطئ مواطأة، و وطاء. و معناه إن ناشئ الليل و عمل ناشئ الليل يواطئ لسمع القلب اكثر مما يواطئ ساعات النهار، لأن البال افرغ للانقطاع عن كثير مما يشغل التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦١

بالنهار. الباقون- بفتح الواو- مقصورة، و روى عن الزهري- بكسر الواو- مقصورة، و منه قوله صلى الله عليه و آله: اللهم اشدد و طاء ك على مضر، و قرأ «رب المشرق» بالجر كوفي غير حفص و يعقوب بدلا من (ربك). الباقون بالرفع على الاستئناف، فيكون رفعا بالابتداء و خبره (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) و يجوز أن يكون خبر الابتداء بتقدير هو رب المشرق.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه و آله و قيل: إن المؤمنين داخلون فيه على وجه التبعية. يقول الله له «يا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ» و معناه الملتف في ثيابه، يقال ترمّل في ثيابه، فهو مترمل إذا التف. و الأصل «مترمل» فأدغم التاء في الزاي، لان الزاي قريبة المخرج من التاء، و هو أبدى في المسموع من التاء. و قال قتادة: معناه المترمل بثيابه، و قال عكرمة: المترمل بعباء النبوة، و كل شيء لفف، فقد ترمّل، قال امرؤ القيس:

كأن ابانا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل «١»

يعنى كبير أناس مزمل في بجاد و هو الكساء، و جره على المجاورة للجباد.

و قوله «قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا» أمر من الله تعالى للنبي صلى الله عليه و آله بقيام الليل إلا القليل منه، و قال الحسن: إن الله فرض على النبي و المؤمنين أن يقوموا ثلث الليل فما زاد، فقاموه حتى تورمت أقدامهم، ثم نسخ تخفيفاً عنهم. و قال غيره: هو نفل لم ينسخ، لأنه لو كان فرضاً لما كان مخيراً في مقداره- ذكره الجبائي- و إنما بين تخفيف النفل. و قال قوم: المرغب فيه قيام ثلث الليل او نصف الليل او الليل كله إلا القليل. و لم يرغب بالآية في قيام جميعه لأنه تعالى قال

(١) ديوانه (السندوي) ١٥٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٢

«إِلَّا قَلِيلًا نَضِيفُهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ» يعنى على النصف. و قال الزجاج (نصفه) بدل من (الليل) كقولك ضربت زيداً رأسه. و المعنى: قم نصف الليل إلا قليلا او انقص منه قليلا. و المعنى قم نصف الليل او انقص من نصف الليل أو زد على نصف الليل، و ذلك قبل ان يتعبد بالخمسة صلوات. و قال ابن عباس و الحسن و قتادة:

كان بين أول السورة و آخرها- الذى نزل فيه التخفيف- سنة. و قال سعيد بن جبير:

عشر سنين. و قال الحسن و عكرمة: نسخت الثانية بالأولى. و الأولى أن يكون على ظاهره، و يكون جميع ذلك على ظاهره مرغبا في جميع ذلك إلا أنه ليس بفرض و إن كانت سنة مؤكدة. و النصف أحد قسمي الشيء المساوي للآخر في المقدار.

و القليل من الشيء الناقص عن قسمه الآخر، و كلما كان أنقص كان أحق بإطلاق الصفة، و ما لا يعتد به من النقصان لا يطلق عليه.

«وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» أمر من الله تعالى له بأن يرتل القرآن و الترتيل ترتيب الحروف على حقها في تلاوتها، و تثبت فيها، و الحدر هو الاسراع فيها و كلاهما حسنان إلا أن الترتيل- هاهنا- هو المرغب فيه. و قال مجاهد: معناه ترسل فيه ترسلا. و قال الزجاج: معناه بينه تبيناً أى بين جميع الحروف، و ذلك لا يتم بأن يعجل في القراءة.

و قوله «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» اخبار من الله تعالى لنبيه أنه سيرطح عليه قولاً ثقيلاً. و قال الحسن و قتادة: إنه يثقل العمل به لمشقة فيه. و قال ابن زيد: معناه العمل به ثقيل في الميزان و الأجر، ليس بشاق. و قيل: معناه قول عظيم الشأن، كما تقول هذا الكلام رزين، و هذا قول له وزن إذا كان واقعاً موقعه.

وقوله «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا» قال مجاهد: ناشئة الليل التهجد في الليل. وقال الحسن و قتادة: هو ما كان بعد العشاء الآخرة. و
عن أبي جعفر التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٣
و أبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: هو القيام آخر الليل إلى صلاة الليل.
وقال قوم:

ناشئة الليل ابتداء عمل الليل شيئاً بعد شيء إلى آخره. و الناشئة الظاهرة بحدوث شيء بعد شيء، و اضافته إلى الليل توجب انه من
عمل الليل الذي يصلح أن ينشأ فيه.

وقوله «هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا» من قرأ- بالفتح- مقصوداً، قال معناه: لقوة الفكر فيه أمكن موقعاً. و قيل: هو أشد من عمل النهار، و قال مجاهد:
معناه واطأ اللسان القلب مواطأة و وطاء و الوطاء المهاد المذل للقلب عليه، فكذلك عمل الليل الذي هو أصلح له فيه تمهيد للتصرف
في الدلائل و ضروب الحكم و وجوه المعاني.

وقوله «وَ أَقْوَمُ قِيلاً» أى أشد استقامة و صواباً لفراغ البال، و انقطاع ما يشغل القلب. و المعنى إن عمل الليل أشد ثباتاً من عمل النهار، و
أثبت في القلب من عمل النهار. و الأقوم الأخلص استقامة، لأنه القول يشمل المعنى على ما فيه استقامة و فيه اضطراب. و قد يقل
ذلك و يكثر، و هو في القول ظاهر كما هو في الخط، ففيه الحرف المقوم و فيه الحرف المضطرب. و قال ابن زيد: معناه أقوم قراءة
لفراغه من شغل الدنيا، و قال أنس: معناه أصوب. و قال مجاهد: معناه اثبت.

وقوله «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا» قال قتادة: معناه إن لك يا محمد في النهار متصرفاً و منقلباً أى ما تقضى فيه حوائجك. و قرأ
يحيى ابن معمر بالخاء، و كذلك الضحاك، و معناه التوسعة. يقال اسبخت القطن إذا وسعته للندف، و يقال لما تطاير من القطن و
تفرق عند الندف سبائح، و السبح المر السهل في الشيء، كالمر في الماء، و السبح في عمل النهار هو المر في العمل الذي يحتاج فيه
إلى الضياء. و أما عمل الليل فلا يحتاج فيه إلى ضياء لتمكن ذلك العمل كالفكر في وجوه البرهان و تلاوة القرآن. و قال الجبائي في
نوادره «لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا» أى نوماً، و قال الزجاج: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٤
معناه إن فاتك شيء بالليل فلك في النهار فراغ تقضيه.

ثم قال لنبه صلى الله عليه و آله «وَ أَذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ» يعنى اسماء الله الحسنى التي تعبد بالدعاء بها «وَ تَبْتَلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» أى انقطع اليه
انقطاعاً، فالتبتل الانقطاع إلى عبادة الله، و منه مريم البتول و فاطمة البتول، لانقطاع مريم الى عبادة الله، و انقطاع فاطمة عن القرين، و
منه قول الشاعر:

كأن لها في الأرض نسياً تقصه إذا ما غدت و إن تكلمك تبتل (١)

أى بقطع كلامها رويداً رويداً، و قيل: الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره، و جاء المصدر على غير الفعل، كما قال
(أَبْتَبْتُكُمْ مِنَ الْبَارِضِ نَبَاتًا) (٢) و قيل: تقديره تبتل نفسك اليه تبتيلاً، فوقع المصدر موقع مقاربه. و قوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) من
رفع فعلى انه خبر مبتدأ محذوف، و تقديره: هو رب المشرق، و من جر جعله بدلا من قوله (ربك) و تقديره اذكر اسم رب المشرق و
هو مطلع الشمس موضع طلوعها و رب المغرب، يعنى موضع غروبها، و هو المتصرف فيها و المدبر لما بينهما (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أى لا
احد تحق له العبادة سواه (فَاتَّخِذْهُ وَكَيْلًا) أى حفيظاً للقيام بأمرك فالوكيل الحفيظ بأمر غيره. و قيل:
معناه اتخذه كافلاً لما وعدك به.

ثم قال (وَ أَصْبِرْ) يا محمد (على ما يقول) هؤلاء الكفار من أذاك و ما يشغل قلبك (وَ أَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) فالهجر الجميل اظهار
الجفوة من غير ترك الدعاء إلى الحق على وجه المناصحة.

(٢) سورة ٧١ نوح آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٥

قوله تعالى: [سورة المزمل (٧٣): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ١٦٥

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيْلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

تسع آيات.

لما امر الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله بالصبر على أذى قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا قال على وجه التهديد للكفار (وَذَرْنِي) يا محمد (وَالْمُكَذِّبِينَ) الذين يكذبونك فيما تدعوهم اليه من التوحيد وإخلاص العبادة والاعتراف بالبعث والنشور، والثواب الجزاء، كما يقول القائل: دعني وإياه إذا أراد أن يهدده، يقال: يذر بمعنى يترك، ويدع، ولا يستعمل ماضيه، ولا ماضى (يدع) ولا يقال: وذر، ولا-ودع، استغناء بقولهم ترك عن ذلك، لأن الابتداء بالواو عندهم مكروه، ولذلك أبدلوا منها الهمزة في قولهم (أقتت) والأصل (وقتت)، وقالوا (تخمة) والأصل (وخمة) وكذلك كل ما يصرف منه مما في أوله واو إلا قولهم: وادع من الدعء فلم يستغنوا عنه بتارك. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٦

وقوله (أُولَى النَّعْمَةِ) معناه ذوى النعمة أى اصحاب النعمة، والنعمه- بفتح النون- لين الملمس وصددها الخشونة، ومعناه (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) أى ارض بعقاب المكذبين لست تحتاج إلى اكثر من ذلك كما يقال: دعني وإياه، فانه يكفيه ما ينزل به من غير تقصير مما يقع به، وهذا تهديد شديد.

وقوله (وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا) أى اخرهم فى المدة قليلا- فالتمهيل التأخير فى المدة، وقد يكون التأخير فى المكان، فلا يسمى تمهيلة، فإذا كان فى المدة فهو تمهيل كما ان التأخير فى الأجل تأجيل آخر.

وقوله (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا) أى قيوداً- فى قول مجاهد وقادة- واحدها نكل (وَجَحِيمًا) أى ناراً عظيمة، وجحيم اسم من اسماء جهنم (و) طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ) قال ابن عباس: معناه ذا غصه بشوك يأخذ الحلق، فلا يدخل ولا يخرج. وقيل: معناه يأخذ بالحلقوم لخشونته وشدة تكرهه (وَعَذَابًا أَلِيمًا) أى عقاباً موجعاً مؤلماً.

ثم بين متى يكون ذلك فقال (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ) أى اعتدنا هذه الأنواع من العذاب فى يوم ترجف الأرض أى تتحرك باضطراب شديد (وَالْجِبَالُ) أى و ترجف الجبال معها أيضاً (وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا) قال ابن عباس: تصير الجبال رملا سائلا متناثراً، فالكثيب الرمل المجتمع الكثير، ومهيل مفعول من هلت الرمل اهيله وذلك إذا حرك أسفله فسال أعلاه، ويقال: مهبول كما يقال مكيل ومكيول، وانهاى الرمل انهيلًا و (الغصة) تردد اللقمة فى الفم لا يسبغها الذى يروم أكلها قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى «١»

(١) مر فى ١/ ١٣٠، ٤٢١ و ١٥١ / ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٧

يقال غص بريقه يغص غصصاً، وفى قلبه غصه من كذا، وهى كاللذغة التى لا يسبغ معها الطعام ولا الشراب.

وقوله (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ) اخبار من الله تعالى و خطاب للمكلفين فى عصر النبي صلى الله عليه وآله و من بعده

بأنه أرسل اليهم رسولا يدعوهم إلى عبادته وإخلاص توحيدهِ (شاهداً عَلَيْكُمْ) بقبولهم إن قبلوا وعلينهم إن لم يقبلوا (كما أَرْسَلْنَا) أى أرسلناه إليكم مثل ما أرسلنا (إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا) يعنى موسى ابن عمران عليه السلام. ثم اخبر عن فرعون فقال (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) يعنى موسى، فلم يقبل منه ما أمره به ودعاه اليه (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيًّا) أى اخذاً ثقيلاً شديداً عقوبته له على عصيانه موسى رسول الله، و كل ثقل وويل، ومنه: كلاً مستوبل أى متوخم لا يستمرء لثقله، ومنه الوبل، والوابل، وهو المطر العظيم القطر، ومنه الوبال وهو ما يغلظ على النفس وأصله الغلظ قال طرفة:

فمرت كهاء ذات خيف جلاله عقيلة شيخ كالويل يلدند «١»

الويل - هاهنا - الغليظ من العصي و (كهاء) ناقه مسنه و (الخيف) جلد الضرع و (يلندد) شديد الخصومة.
قوله (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) أى إن كفرتم بالله و جحدتم نعمه، و كذبتم رسوله، و إنما يجعل الولدان، و هم الأولاد الصغار شيباً لشده، و عظم أهواله، كما يقال: قد حدث أمر تشيب منه النواصي. و قيل:
(يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) على وجه المثل، و الشيب جمع أشيب، يقال: شاب الإنسان يشيب شيباً إذا ابيض شعره. ثم زاد فى صفه شدة ذلك اليوم أيضاً فقال (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) أى متصدع بشدة ذلك اليوم، و إنما لم يقل منفطراً، لأنه جرى

(١) ديوانه ٣٨ و تفسير القرطبي ١٨ / ٤٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٨

على طريق النسبة أى ذات انفطار، و لم يجر على طريق (فاعله) كما قالوا للمرأة:

مطفل أى ذات طفل. و قال الزجاج: تقديره السماء منفطر باليوم مثقلة به. و قال الحسن: معناه السماء مثقل به. و قال غيره: السماء مثقلة بذلك اليوم من شدته.

و قال قوم: معناه متشقق بالأمر الذى يجعل الولدان شيباً. و السماء يؤنث و يذكر، فمن ذكر أراد السقف.

و قوله (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) معناه إن ما وعد الله به فلا بد من كونه، فلذلك عبر عنه بلفظ الماضى فكأنه قد وجد. ثم قال (إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ) أى هذه القصة التى ذكرناها و بينهاها (تَذَكُّرَةٌ) أى عظة لمن أنصف من نفسه و فكر فيها، فالتذكرة التبصرة، و هى الموعظة التى يذكر بها ما يعمل عليه.

و قوله (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) معناه إن من شاء من المكلفين اتخذ إلى ثواب ربه سبيلاً، لأنه قادر على الطاعة التى لو فعلها وصل الى الثواب. و الله تعالى قد دعاه إلى ما يوصله اليه و رغبه فيه، و بعث رسولا- يدعوهم أيضاً اليه. و إن لم يفعل فسوء اختياره انصرف عنه.

قوله تعالى: [سورة المزمّل (٧٣): آية ٢٠] ص: ١٦٨

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نَصِيفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أقيموا الصلوةَ وَ آتوا الزكاةَ وَ أفرضوا الله قرضاً حسناً و ما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً و أعظم أجراً وَ اسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٦٩

آية واحدة.

قرأ نافع و ابو عمرو و ابن عامر (و نصفه و ثلثه) بكسر الفاء و الثاء بمعنى إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل و من نصفه و

من ثلثة أى و ادنى من نصفه و أدنى من ثلثة. الباكون بالنصب بمعنى أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل و تقوم نصفه و ثلثة. و الثلث يخفف و يثقل، لغتان، و مثله ربع و عشر. و قال ابو عبيدة:

الاختيار الخفض فى (ثلثة و نصفه) لأنه قال (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصُوهُ) و كيف يقدررون على أن يقوموا نصفه أو ثلثه، و هم لا يحصونه، و قال غيره: ليس المعنى على ما قال و إنما المعنى علم أن لن يطيقوه، يعنى قيام الليل، فخفف الله ذلك، قال و الاختيار النصب، لأنها أوضح فى النظر، لأنه قال لنبه صلى الله عليه و آله (قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) ثم نقله عن الليل كله إلا شيئاً يسيراً ينام فيه، و هو الثلث. و الثلث يسير عند الثلثين.

ثم قال (نِصْفَهُ) أى قم نصفه (أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا) أى قم نصفه، و اكتفى بالفعل الأول من الثانى، لأنه دليل عليه أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث (أو زد) هكذا إلى الثلثين جعله موسعاً عليه. و فى الناس من قال: هذه الآية ناسخة لما ذكره فى أول السورة من الأمر الحتم بقيام الليل إلا قليلاً أو نصفه أو انقص منه. و قال آخرون: إنما نسخ ما كان فرضاً إلى ان صار نفلاً، و قد قلنا: ان الأمر فى أول السورة على وجه الندب، فكذلك- هاهنا- فلا وجه للتنافى حتى ينسخ بعضها ببعض يقول الله تعالى لنبه ان ربك يا محمد ليعلم انك التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٠

تقوم اقل من ثلثى الليل و اقل من نصفه و من ثلثة فيمن جرّ ذلك، و من نصب فمعناه إنك تقوم أقل من ثلثى الليل و تقوم نصفه و ثلثة و تقوم طائفة من الذين معك على الايمان (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ) لتعملوا فيه بالصواب على ما يأمركم به (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصُوهُ) قال الحسن: معناه علم أن لن تطيقوه (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى لم يلزمكم إثمًا كما لا يلزم التائب أى رفع التبعة فيه كرفع التبعة عن التائب. و قوله (فَأَقْرُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِي) فتاب عليكم بما رغبتم فيه و ذلك يقتضى التخفيف عنكم (وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) أى و منكم قوم آخرون يضربون أى يسافرون فى الأرض و منكم قوم (آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) و كل ذلك يقتضى التخفيف عنكم (فَأَقْرُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ) و معناه أقيموا الصلاة بحدودها التى أوجهاها الله عليكم و استمروا عليها و أعطوا ما وجب عليكم من الزكاة المفروضة (وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) أى و أنفقوا فى سبيل الله و الجهات التى أمركم بها و ندبكم إلى النفقة فيها، و سمي ذلك (قرضاً) تالطفاً فى القول، لان الله تعالى من حيث أنه يجازيهم على ذلك بالثواب، فكأنه استقرض منهم ليرد عوضه و إنما قال (حَسَنًا) أى على وجه لا يكون فيه وجه من وجوه القبح.

ثم قال (وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ) أى ما فعلتم من الطاعات (تَجِدُوهُ) أى تجدوا ثوابه و جزاءه (عِنْدَ اللَّهِ) و قوله (هُوَ خَيْرٌ وَ أَكْبَرُ أَجْرًا) أى تجدوه خيراً لكم، و هو أفضل و أعظم ثواباً، و هو عطف على (خَيْرٍ). ثم قال (وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) على معاصيكم معاشر المكلفين (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) أى ستار لذنوبكم صفوح لاجرامكم إذا تبتم و أقلعتم و رجعتم اليه (رَحِيمٌ) بكم منعم عليكم. و قال ابن زيد: القرض فى الآية النوافل سوى الزكاة.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧١

٧٤- سورة المدثر: ص: ١٧١

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و قال الضحاك هى مدنية و هى خمسون و ست آيات فى الكوفى و البصرى و المدنى الأول، و خمس فى المدنى الأخير. و قال ابو سلمة ابن عبد الرحمن أول ما نزل من القرآن (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) و

حكى ذلك ابو سلمة عن جابر بن عبد الله. قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله جاوزت بحراء فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً فنظرت عن شمالى فلم أر شيئاً فنظرت أمامى فلم أر شيئاً فنظرت خلفى فلم أر شيئاً، فرفعت رأسى فلم أر شيئاً، فأتيت خديجة

فقلت دثروني و صبوا على ماء بارداً قال فدثروني فصبوا على ماء بارداً فنزلت (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) و قال الزهري: أول ما نزل قوله (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)
وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَ لَا تَمَنَّئَنَّ تَسْتَكْبِرُ (٦) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

عشر آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٢

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه و آله يقول له (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) و أصله المتدثر بثيابه، فأدغمت التاء في الدال، لأنها من مخرجها مع أن الدال أقوى بالجهر فيها، يقال: تدثر تدثراً و دثره تدثيراً، و دثر الرسم يدثر دثوراً إذا محى أثره، فكأنه قال: يا ايها الطالب صرف الأذى بالدثار اطلبه بالإنذار.

و قوله (قُمْ فَأَنْذِرْ) أمر من الله تعالى له أن يقوم و ينذر قومه، و الإنذار الاعلام بموضع المخافة ليتقى، فلما كان لا مخافة أشد من الخوف من عقاب الله كان الإنذار منه اجل الإنذار، و تقديره قم إلى الكفار فأنذر من النار.

و قوله «وَ رَبَّكَ» منصوب ب «كبر» و التكبير وصف الأكبر على اعتقاد معناه كتكبير المكبر في الصلاة بقوله الله اكبر، و التكبير نقيض التصغير، و مثله التعظيم. و الكبير الشأن هو المختص باتساع المقدور و المعلوم من غير مانع من الجود.

فالله تعالى قادر لا يعجزه شيء، و عالم لا يخفى عليه شيء لا يمنعه من الجود على عباده شيء، فهو اكبر من كل كبير بما لا يساويه شيء، و اختصاصه بالمقدور و المعلوم بأنه ما صح من مقدور او معلوم فهو قادر عليه عالم به فهو لنفسه كبير و اكبر من كل كبير سواه.

و قوله «وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى و طهر ثيابك فهو منصوب به. و الطهارة النظافة بانتفاء النجاسة، لأن النظافة قد تكون بانتفاء الوسخ من غير نجاسة، و قد تكون بانتفاء النجاسة. فالطهارة في الآية هو القسم الأخير. و قال ابن عباس «وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» معناه من لبسها على معصيته، كما قال سلامة بن غيلان الثقفي - أنشده ابن عباس:

و إني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست و لا من غده أتقع (١)

(١) مر في ٤٨٩ / ٦ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٣

و قال الزجاج: معناه لم أكن غادراً، قال يقال: للغادر دنس الثياب أى لم أعص قط و قيل: معناه شمر ثيابك - و فى رواية عن ابن عباس و إبراهيم و قتادة - ان معناه و ثيابك فطهر من الذنوب. و قال ابن سيرين و ابن زيد: اغسلها بالماء.

و قيل معناه شمر ثيابك، و قيل: معناه و ثيابك فطهر للصلاة فيها.

و قوله «وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ» منصوب بقوله «فاهجُرْ» و قال الحسن: كل معصية رجز و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الزهري: معناه فاهجر الأصنام. و قال إبراهيم و الضحاك: الرجز الإثم. و قال الكسائي: الرجز - بكسر الراء - العذاب، و بفتحها الصنم و الوثن. و قالوا: المعنى اهجر ما يؤدى إلى العذاب، و لم يفرق احد بينهما.

و بالضم قرأ حفص و يعقوب و سهل. الباقر بالكسر إما لأنهما لغتان مثل الذكر و الذكر او بما قاله الكسائي. و قال قوم: الرجز بالضم

الصنم. وقال: كان الرجز صنمين: أساف و نائلة، نهى الله تعالى عن تعظيمهما.

وقوله «وَلَا تَمُنُّنَّ تَشِيئَاتِكُمْ» قال ابن عباس و ابراهيم و الضحاك و قتادة و مجاهد: معناه لا تعط عطية لتعطى أكثر منها، و قال الحسن و الربيع و انس: معناه لا تمنن حسناتك على الله مستكثراً لها، فينفصل ذلك عند الله. و قال ابن زيد:

معناه لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة و القرآن مستكثراً به الأجر من الناس، و قال ابن مجاهد: معناه لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعتك، و قال قوم: معناه لا تمنن على الناس بما تنعم به عليهم على سبيل الاستكثار لذلك. و قال جماعة من النحويين:

إن (تستكثر) في موضع الحال و لذلك رفع. و أجاز الفراء الجزم على أن يكون جواباً للنهي، و الرفع هو الوجه. و المن ذكر النعمة بما يكدرها، و يقطع حق الشكر بها، يقال: من ببطائه يمنّ منّا إذا فعل ذلك، فأما من على الأسير إذا أطلقه، فهو قطع أسباب الاعتقال عنه.

و يقال: لمن أنعم على وجه المن، لأنه بهذه المنزلة. و أصله التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٤

القطع من قوله «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» «١» أى غير مقطوع. و الاستكثار طلب الكثرة يقال: استكثر فلان من المال و العلم، و المراد- هاهنا- هو طلب ذكر الاستكثار للعطية.

وقوله «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ» قال ابراهيم: من أجل ربك فاصبر على عطيتك.

و قال مجاهد: لأجل الله فاصبر على أذى المشركين. و قيل: معناه «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ» على ما أمرك به من أداء الرسالة و تعليم الدين، و ما ينالك من الأذى و التكذيب، فاحتمله لتنال الفوز من الله بالنعيم و الصبر الذى هو طاعة الله هو الصبر على الضرر الذى يدعو اليه العقل، لان ما يدعو اليه العقل فخالق العقل يريد، لأنه بمنزلة دعاء الأمر الى الفعل، و السبب الذى يتقوى به على الصبر هو التمسك بداعى العقل دون داعى الطبع، لان العقل يدعو بالترغيب فيما ينبغى أن يرغب فيه. و الطبع داعى الهوى يدعو إلى خلاف ما فى العقل.

وقوله «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ» معناه إذا نفخ فى الصور، و هو كهياًه البوق- فى قول مجاهد- و قيل: ان ذلك فى أول النفختين، و هو أول الشدة الهائلة العامة، و الناكور على وزن (فاعول) من النقر، كقولك: هاضوم من الهضم و حاطوم من الحطم، و هو الذى من شأنه أن ينقر فيه للتصويت به.

وقوله «فَبَذَلْنَاكَ يَوْمَئِذٍ» يعنى اليوم الذى ينفر فيه فى الناكور (يَوْمٌ عَسِيرٌ) أى يوم شديد عسر «عَلَى الْكَافِرِينَ» لنعم الله الجاحدين لآياته «غَيْرٌ يَسِيرٌ» فليسير القليل الكلفة، و منه اليسار و هو كثرة المال لقله الكلفة به فى الإنفاق، و منه تيسر الامر لسهولته و قلّه الكلفة فيه. و

قال الزجاج: قوله «يَوْمٌ عَسِيرٌ» مرتفع بقوله «فَبَذَلْنَاكَ» و المعنى فذلك يوم عسير يوم النفخ فى الصور، و يومئذ يجوز أن يكون

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٥

نصباً على معنى فذلك يوم عسير فى يوم ينفخ فى الصور، و يجوز الرفع، و إنما بنى على الفتح لاضافته إلى (إذ) لأن (إذ) غير متمكنة.

قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١٧٥

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيَّنَّ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥)

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠)

ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)

خمس عشرة آية.

يقول الله تعالى لنبهه صلى الله عليه و آله على وجه التهديد للكافر الذى وصفه «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا» و معناه دعنى و إياه فانى

كاف في عقابه كما تقول العرب: دعنى و إياه لا أن الله تعالى يجوز عليه المنع حتى يقول: ذرنى و إياه، و لكن المعنى ما قلناه. و قوله «وحيداً» قال الزجاج: يحتمل ان يكون من صفة الخالق، و يحتمل أن يكون من صفة المخلوق، فإذا حملناه على صفة الخالق كان معناه دعنى و من خلقته متوحداً بخلقه لا- شريك لى فى خلقه و جعلته على الأوصاف التى ذكرتها، و إذا حمل على صفة المخلوق، كان معناه و من خلقته فى بطن أمه وحده لا شىء له ثم جعلت له كذا و كذا- ذكره مجاهد و قتادة- و قوله «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا» أى مالا كثيراً له مدد يأتى شيئاً بعد شىء، فوصفه بأنه ممدود يقتضى هذا المعنى. و قال مجاهد التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٦

و سعيد بن جبیر: نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة المخزومى. و قالوا: كان ماله الف دينار. و قال سفيان: كان ماله أربعة آلاف دينار. و قال النعمان بن سالم: كان أبرص. و قال عطاء عن عمر: كان غله شهر شهر. و قال مجاهد: كان بنوه عشرة «وَبَيْنَ شُهُودًا» أى و اولاداً ذكوراً معه يستمتع بمشاهدتهم، و ينتفع بحضورهم. و قيل كان بنوه لا يغيبون عنه لغنائهم عن ركوب السفر فى التجارة بخلاف من هو غائب عنهم.

و قوله «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا» أى سهلت له التصرف فى الأمور تسهيلاً و قد يكون التسهيل من المصيبة ليخف الحزن بها، و قد يكون لما يتصرف فيه من المبالغة. و قوله «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ» أى لم يشكرنى على هذه النعم، و هو مع ذلك يطمع أن أزيد فى إنعامه. و التمهيد و التوطئة و التذليل و التسهيل نظائر.

ثم قال تعالى على وجه الردع و الزجر «كَلَّا» كأنه قال: ارتدع عن هذا و انزجر كما ان (صه) بمنزلة اسكت (و مه) بمنزلة اكفف. و إنما هى أصوات سمى الفعل بها، فكأنه قال: انزجر، فليس الأمر على ما تتوهم.

ثم بين لم كان كذلك فقال «إِنَّهُ كَانَ لَيَاتِنًا» أى إنما لم أفعل به ذلك، لأنه لحجتنا و أدلتنا «عَيْنِدًا» أى معانداً، فالعنيد الذهاب عن الشىء على طريق العداوة له، يقال عند العرق يعند عنوداً، فهو عاند إذا نفر، و هو من هذا، و المعاندة منفرة المضادة، و كذلك العناد، و هذا الكافر يذهب عن آيات الله ذهاب نافر عنها. و قيل معنى «عنيد» عنود أى جحود بتكذيب المعاندة- فى قول ابن عباس و قتادة- و قيل: معناه معاند، و بعير عنود أى نافر قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلونى وسطاً إنى كبير لا أطيق العندا (١)

(١) مر فى ١٤/٦، ٢٨٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٧

أى نفرأ، و قوله «سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا» فالارهاق الاعجال بالعنف و الصعود العقبة التى يصعب صعودها، و هى الكتود و الكدود فى ارتقائها و نقيض الصعود الهبوط، و قيل: صعود جبل من نار فى جهنم يؤخذون بارتقائه، فإذا وضع يديه ذابت، فإذا رفعها عادت و كذلك رجلاه، فى خبر مرفوع. و قيل: صعود جبل فى جهنم من نار يضرب بالمقامع حتى يصعد عليه، ثم يضرب حتى ينزل ذلك دأبه ابداً. ثم قال «إِنَّهُ فَكَّرَ» أى فكر فكراً يحتال به للباطل، لأنه لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموماً بل كان ممدوحاً، و لذلك مدح الله قوماً فقال «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١) أى على وجه طلب الحق. و قوله «وَقَدَّرَ» أى قدر فقال: إن قلنا شاعر كذبتنا العرب باعتبار ما أتى به، و إن قلنا كاهن لم يصدقونا، لان كلامه لا- يشبه كلام الكهان، فنقول ساحر يأثر ما أتى به عن غيره من السحرة. فقال الله تعالى «فَقُتِلَ» أى لعن «كَيْفَ قَدَّرَ» هذا. ثم كرر تعالى فقال «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ» أى عوقب بعقاب آخر كيف قدر من إبطال الحق تقديراً آخر. و قيل: لعن بما يجرى مجرى القتل، و مثله «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ» (٢) و قال الحسن: هو شتم من الله لهذا الكافر. و قوله «ثُمَّ نَظَرَ» نظر من ينكر الحق و يدفعه، و لو نظر طلباً للحق كان ممدوحاً و كان نظره صحيحاً. و قوله «ثُمَّ عَبَسَ» أى قبض وجهه

تكرها للحق، يقال: عبس يعبس عبوساً، فهو عابس وعباس فالعبوس والتكليح والتقطيب نظائر

(١) سورة الرعد آية ٣ و سورة الروم آية ٢١ و سورة الزمر آية ٤٢ و سورة الجاثية آية ١٢

(٢) سورة الذاريات آية ١٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٨

في اللغة، و ضده الطلاقة و البشاشة. و قوله «وَبَسَّرَ» فالبسور بدو التكره الذي يظهر في الوجه و أصله من قولهم: بسر بالأمر إذا عجل به قبل حينه، و منه بسر لتعجيل حاله قبل الارطاب قال توبه:

و قد رابني منها صدود رأيتة و إعراضها عن حاجتي و بسورها «١»

فكأنه قيل: قبض وجهه و بدى التكره فيه. و قوله «ثُمَّ أَذْبَرَ» فالادبار الأخذ في جهة الدبر خلاف جهة الإقبال، فذلك ادبار و هذا إقبال، يقال: دبر يدبر دبوراً و أدبر إدباراً و تدبر نظر في عاقبه الأمر، و دبره أى عمله على إحكام العاقبه و كل مأخوذ من جهة الخلف مدبر. و قوله «وَأَسْتَكْبِرَ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» أى طلب كبيراً ليس له، و لو طلب كبيراً هو له لم يكن مذموماً، و في صفات الله تعالى «الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» «٢» لان له الكبرياء، و هو كبير الشأن في أعلى المراتب لاختصاصه باتساع مقدوراته و المعلوم في أعلى المراتب. و قيل: ان الوليد قال في القرآن: و الله ليعلو و ما يعلى و ما هو بشعر و لا كهانه، و لكنه سحر يؤثر من قول البشر، و السحر حيلة يخفى سببها فيوهم الشيء على خلاف ما هو به و ذلك منفي عن كل ما يشاهد و يعلم انه قد خرج عن العادة مما لا يمكن عليه معارضه، و لو كان القرآن من قول البشر لأمكنهم أن يأتوا بمثله، كما لو كان قلب العصا حيه من فعل ساحر لأمكن السحرة أن يأتوا بمثله. ثم قال يعنى الوليد «إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» أى ليس هذا إلا قول البشر و ليس من كلام الله عناداً منه و بهتاناً.

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٥ و القرطبي ١٩/ ٧٤

(٢) سورة الحشر آية ٢٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٧٩

قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٢٦ الى ٣٥] ص: ١٧٩

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوْ آخِذَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْنَا تِسْعَةُ عَشْرَ (٣٠)

وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَ لَا يَزِيدَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا- وَ الْقَمَرِ (٣٢) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)

عشر آيات.

قرأ نافع و حمزة و حفص عن عاصم «إذ أدبر» بإسكان الذال و قطع الهمزة من (أدبر) الباقون بفتح الذال و الالف معها «دبر» بغير الف. و قرأ ابن مسعود بزيادة الف، و من قال (دبر، و أدبر) فهما لغتان. قيل: هو مثل قبل و اقبل و الاختيار عندهم (أدبر) لقوله «إِذَا أَسْفَرَ» و

لم يقل إذا سفر، لان ابن عباس، قال لعكرمة: حين دبر الليل، لان العرب تقول: دبر فهو دابر، و حجة نافع و حمزة

قول النبي صلى الله عليه و آله (إذا اقبل الليل من هاهنا و أدبر النهار من هاهنا فقد أفر الصيام)

ثم قال ابو عبيدة: أدبر ولى، و دبرتى جاء خلفى.

لما حكى الله تعالى صفات الكافر الذي ذكره وهو الوليد بن المغيرة، وانه التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٠
فكر وقد ر إلى ان قال: هذا القرآن سحر مأثور، وهو قول البشر، قال الله تعالى مهدداً له و متوعداً «سَأْصِلِيهِ سِقْرًا» أى ألزمه جهنم، و
الاصلاء إلزام موضع النار أصلاه يصلية إصلاء و اصطلى فهو يصطلى اصطلاء، و صلاه يصلية، و أصله اللزوم.
و سقر اسم من اسماء جهنم، و لم يصرف للتعريف و التأنيث و أصله من سقرته الشمس تستقره سقراً إذا آلمت دماغه. و قد سميت
النار سقر لشدة إيلامها، و منه الصقر بالسين و الصاد، لأن شدته فى نفسه كشدة الألم فى أذى صيده.
و قوله «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ» إعظماً للنار و تهويلاً لها أى و لم يعلمك الله سقر على كنهها و صفتها، ثم وصف بعض صفاتها فقال «لَا
تُبْقَى وَلَا تَذَرُ» و قال مجاهد: معناه لا تبقى من فيها حياً، و لا تذر ميتاً. و قال غيره: لا تبقى احداً من أهلها إلا تناولته، و لا تذر من
العذاب. و الإبقاء ترك شىء مما أخذ، يقال أبقي شيئاً ببقية إبقاء، و أبقاها الله أى أطال مدته. و الباقي هو المستمر الوجود.
و قوله «لَوْ آخِزَةٌ لِلْبَشَرِ» أى مغيرة لجلد الإنسان الذى هو البشرة- فى قول مجاهد- و قال المؤرج: لواحة بمعنى حرّاقه، و به قال الفراء. و
قال غيرهما: معناه تلوح لجميع الخلق حتى يروها، كما قال «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى» (١) لأنه لا يجوز أن يصفها بأنها تسود البشرة
مع قوله «إِنهَا لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ» و التلويح تغير اللون إلى الأحمر و التلويح بالنار تغير بشره أهلها إلى الاحمرار، يقال: لوحته الشمس
تلوحه تلويحاً فهى لواحة على المبالغة فى كثرة التلويح، و البشر جمع بشره، و هى ظاهر الجلدة، و منه سمي الإنسان بشراً، لأنه ظاهر
الجلدة، بتعريه من الوبر و الريش و الشعر الذى يكون فى غيره من الحيوان فى غالب أمره.
و قوله «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» أى على سقر تسعة عشر من الملائكة. و إنما خص بهذه العدة لتوافق صحه الخبر لما جاء به الأنبياء قبله صلى
الله عليه و آله، و يكون فى

(١) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨١

ذلك مصلحة للمكلفين. و قد بين ذلك بقوله «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ» أى لم نجعل من يتولى تدبير
النار إلا من الملائكة و لم نجعلهم على هذه العدة «إِلَّا فِتْنَةً» و محنة و تشديداً فى التكليف «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» نعم الله و جحدوا ربوبيته
ليزيمهم النظر فى ذلك، فلما كانت هذه العدة التى جعلت عليها الملائكة يظهر عندها ما كان فى نفس الكافر مما يقتضيه كفره، كان
فتنة له، لان الفتنة هى المحنة التى تخرج ما فى النفس من خير او شر بإظهار حاله كإظهار الحكاية للمحكى. و الملك عبارة عما كان
على خلاف صورة الجن و الانس من المكلفين. و قال قوم: لا يكون ملكاً إلا رسولا لأنه من الرسالة، كما قال الهذلي:
الكنى اليها و خير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر (١)
و أصله ملائكة بالهمز كما قال الشاعر:

فلست لانسى و لكن بملائك تنزل من جو السماء يصبوب (٢)

و الملك عظيم الخلق شديد البطش كريم النفس. و الأصل نفسه منشرحة بالطاعة انشراح الكريم بالجدود، و أصله من النور. و وجه
دلالة هذه العدة من الملائكة على نبوة النبي صلى الله عليه و آله هو انه إذا كان الله - عز و جل - قد اخبر به فى الكتب المتقدمة و لم
يكن محمد صلى الله عليه و آله ممن قرأها و لا تعلمها من أحد من الناس دل على أن الله أعلمه و انزل عليه به و حياً أبانه به من جميع
الخلق ليدل على صدقه مع انه احد الأشياء التى اخبر بها على هذه الصفة «لِيُشَيِّقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» و التقدير ليعلم أهل الكتاب
يقيناً ان محمداً صادق من حيث اخبر بما هو فى كتبهم من غير قراءة لكتبهم و لا تعلم منهم «وَيُزَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا» أى و يزداد
بذلك ايضاً المؤمنون الذين عرفوا الله إيماناً مضافاً الى إيمانهم. و وجه المحنة على الكفار بتكليفهم ان يستدلوا حتى

(١) مر في ٨ / ١١، ٢٩٩

(٢) اللسان (ملك)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٢

يعرفوا ان الله تعالى قادر ان يقوى هذه العدة من الملائكة بما يفى بتعذيب أهل النار على ما هم عليه من الكثرة «وَلَا يَزْتَابُ» أى لا يشك «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» فى خبره و لا يرتاب أيضاً «الْمُؤْمِنُونَ» فى خبره.

وقوله «وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ» و معناه لئلا يقول الذين فى قلوبهم شك و نفاق (ما ذا أراد الله بهذا مثلاً) أى أى شىء أراد الله بهذا مثلاً، و قيل اللام فى قوله (وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) لام العاقبة كما قال (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» فقال الله تعالى (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أى مثل ما فضح الله هؤلاء الكفار و ذمهم مثل ذلك يضل من يشاء من الكفار. و الإضلال- هاهنا- اظهار فضيحة الكفار بما يوجب الذم، و معناه الحكم عليهم بالضلال عن الحق، و الاخبار بأنهم يستحقون اللعن بتكذيبهم النبى صلى الله عليه و آله، و ما انزل عليه. و نقيضه الهداية أى و يحكم بهداية المؤمنين إلى الحق و مصيرهم الى الطاعة، و تصديقهم بالحق عند نزوله و قبولهم له و قال ابن عباس و قتادة و الضحاك: عدة الملائكة الموكلين بالنار فى التوراة و الإنجيل تسعة عشر.

ثم اخبر تعالى فقال (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى لا يعلم جنود الله إلا الله. ثم قال (وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ) قيل معناه إن النار فى الدنيا تذكير بالنار فى الآخرة. و قال قتادة و مجاهد: النار الموصوفة بهذه الصفة ذكرى للبشر و عظة لهم. و قال البلخى: إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ أى الجنود ذكرى أى عظة للبشر، لان الله تعالى لا يحتاج الى ناصر و معين.

ثم قال (كَلَّا وَ الْقَمَرِ) أى حقاً ثم اقسام بالقمر (وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) قيل معناه إذا ولى يقال: دبر و أدبر، و قد قرئ بهما. و قيل: إنما دبر الليل بان جاء

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٣

بعده النهار و آخره. و تقول العرب: قبح الله ما قبل منك و ما دبر (وَ الصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ) أى أضاء و أثار- فى قول قتادة- و هو قسم آخر. و قال قوم: التقدير و رب هذه الأشياء، لان اليمين لا يكون إلا بالله. و قال قوم: معنى قوله (وَ الصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ) أى كشف عن الظلام و أثار الاشخاص. و قوله (إِنَّهَا لِأَخِيذَى الْكَبْرِ) جواب القسم، و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك: معناه إن النار لإحدى الكبر. و قال قوم: ان هذه الآية لِأَخِيذَى الْكَبْرِ. و الكبر جمع الكبرى، و هى العظمى و روى عن ابن كثير أنه (قرأ إنها لحدى الكبر) لا يهمزه و لا يكسر يسقط الهمزة تخفيفاً، كقولهم فى زيد الأحمر زيد لحمر. و فى أصحاب الايكة اصحاب ليكة. و الاختيار قطع الألف، لأن العرب إذا حذف مثل هذا نقلت حركة الهمزة إلى ما قبلها، و اللام قبل هذه الهمزة متحركة، و اللام فى الأحمر لام التعريف ساكنة.

قوله تعالى: [سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٦ الى ٥٦] ص: ١٨٣

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيئَةً (٣٨) إِلَّا- أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠)

عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)

وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَنَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفَرَةٌ (٥٠)

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥)

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٤

احدى وعشرون آية قرأ نافع و ابن عامر و ابو جعفر (مستنفره) بفتح الفاء. الباقون بكسرهما و معناهما متقارب، لان من فتح الفاء أراد أنه نفرها غيرها، و من كسر الفاء أراد أنها نافرة، و انشد الفراء:

امسك حمارك إنه مستنفر في أثر أحمره عمدن لغرب «١»

و النفور الذهاب عن المخوف بانزعاج، نفر عن الشيء ينفر نفوراً فهو نافر، و التنافر خلاف التلاؤم، و استنفر طلب النفور (و مستنفره) طالبة للنفور. و قرأ نافع و يعقوب (و ما تذكرون) بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر لما اخبر الله تعالى ان الآية التي ذكرها لإحدى الكبر، بين أنه بعث النبي (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ) أى منذراً مخوفاً معلماً مواضع المخافة، و النذير الحكيم بالتحذير عما ينبغى ان يحذر منه، فكل نبي نذير، لأنه حكيم بتحذيره عقاب الله تعالى على معاصيه (و نذيراً) نصب على الحال. و قال الحسن: إنه وصف النار و قال ابن زيد: هو وصف النبي. و قال أبو رزين: هو من صفه الله تعالى، فمن قال: هو للنبي قال كأنه قيل: قم نذيراً. و قوله (لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِدَّمَ أَوْ يَتَّخِرَ) معناه إن هذا الانذار متوجه إلى من يمكنه ان يتقى عذاب النار بأن يجتنب معاصيه و يفعل طاعاته، فيقدر

(١) اللسان (نفر)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٥

على التقدم و التأخر في أمره بخلاف ما يقوله المجبرة الذين يقولون بتكليف ما لا يطاق لمنع القدرة. و قال قتادة: معناه لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عنها بمعصيته. و المشيئة هي الارادة.

و قوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) معناه إن كل نفس مكلفه مطالبة بما عملته و كسبته من طاعة او معصية، فالرهن أخذ الشيء بأمر على أن لا يرد إلا بالخروج منه رهنه يرهنه رهناً قال زهير:

و فارقتك برهن لافكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا «١»

و كذلك هؤلاء الضلال قد أخذوا برهن لافكاك له. قال الرماني: في ذلك دلالة على القائلين باستحقاق الدم، لأنه عم الارتهان بالكسب في هذا الموضوع، و هم يزعمون انه يرتهن بأن لم يفعل ما وجب عليه من غير كسب شيء منه، فكانت الآية حجة على فساد مذهبهم. و هذا الذى ذكره ليس بصحيح، لان الذى فى الظاهر ان الإنسان رهن بما كسبت يده. و لم يقل: و لا يرهن إلا بما كسب له إلا من جهة دليل الخطاب الذى هو فاسد عند اكثر الأصوليين، على ان الكسب هو ما يجتلب به نفع او يدفع به ضرر، و يدخل فى ذلك الفعل، و ألا يفعل، فلا تعلق فى الآية.

و لما ذكر تعالى أن (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) استثنى من جملة النفوس فقال (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) و الاستثناء منقطع، لان اصحاب اليمين ليسوا من الضلال الذين هم رهن بما كسبوه، و تقديره لكن أصحاب اليمين (فى جَنَاتٍ) أى بساتين أجنها الشجر، و اصحاب اليمين هم كل من لم يكن من الضالين. و قال الحسن:

هم اصحاب الجنة. و قال قوم: هم الذين ليس لهم شيء من الذنوب. و قال قوم:

(١) ديوانه ٣٩ (دار بيروت)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٦

هم أطفال المؤمنين. وقوله (يَتَسَاءَلُونَ) أى يسأل بعضهم بعضاً (عَنِ الْمُجْرِمِينَ) العصاة فى طاعة الله، فيقولون لهم (ما سَيَلَكُمُ فِي سَقَرٍ) أى ما أدخلكم فى جهنم فالمجرم هو القاطع بالخروج عن أمر الله ونهيه الى ارتكاب الكبائر من القبيح، و الجارم القاطع. والسلوك الدخول. و سقر اسم من اسماء جهنم. ثم حكى ما يجيبهم به اصحاب النار فإنهم يقولون لهم: أدخلنا فى النار لأننا (لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) أى لم نك نصلى ما أوجب علينا من الصلاة المفروضة على ما قررها الشرع، و فى ذلك دلالة على ان الإخلال بالواجب يستحق به الذم والعقاب، لأنهم لم يقولوا انا فعلنا تركاً للصلاة بل علقوا استحقاتهم للعقاب بالإخلال بالصلاة و فيها دلالة على أن الكفار مخاطبون بالعبادة لان ذلك حكاية عن الكفار بدلالة قوله فى آخر الآية (وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ).

وقوله (وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أى لم نكن نخرج الزكوات التى وجبت علينا، و الكفارات التى يلزمنا دفعها الى المساكين. و هم الفقراء، فالمسكين الذى سكتته الحاجة الى ما فى ايدى الناس عن حال النشط. و حال الفقير أشد من حال المسكين. قال الله تعالى (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) «١» فسامهم الله مساكين مع أن لهم مركباً فى البحر قال الشاعر:

أنا الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد «٢»

(وَ كُنَّا نَحْوُ نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ) قال قتادة: معناه كلما غوى غاويًا لدخول فى الباطل غويًا معه أى كنا نلوث أنفسنا بالمرور فى الباطل كتلوث الرجل بالخوض فلما كان هؤلاء يخرجون مع من يكذب بالحق مشيعين لهم فى القول كانوا خائضين معهم (وَ كُنَّا) مع ذلك (نُكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ) أى كنا نجحد يوم الجزاء و هو يوم القيامة، فالتكذيب تنزيل الخبر على انه كذب باعتقاد ذلك فيه أو الحكم به،

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠

(٢) مر تخريجه فى ٢٨٣ / ٥ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٧

فهؤلاء اعتقدوا ان الخبر يكون يوم الدين كذب. و الدين الجزاء، و هو الإيصال إلى كل من له شىء او عليه شىء ما يستحقه، فلذلك يوم الدين، و هو يوم الجزاء و هو يوم أخذ المستحق بالعدل. وقوله (حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ) معناه حتى جاءنا العلم و اليقين الذى يوجد برد الثقة به فى الصدر أو دليله، يقال: وجد فلان برد اليقين و ثلج فى صدره، و لذلك لا يوصف الله تعالى بأنه متيقن، فقال الله تعالى لهم «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» الذين يشفعون لهم، لأن عذاب الكفر لا يسقطه الله بالشفاعة، بالإجماع. ثم قال «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ» أى أى شىء لهم؟ و لم أعرضوا و تولوا عن النبوة و الرشد؟! و لم يتعظوا به إلى ان صاروا الى جهة الضلال على وجه الإنكار عليهم. ثم شبههم، فقال «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ» أى مثلهم فى النفور عما تدعوهم اليه من الحق و اعراضهم، مثل الحمر إذا نفرت و مرت على وجهها إذا «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» و هو السبع يعنى الأسد، يقال نفر، و استنفر، مثل علامته و استعلاه و سمع إعرابى رجلا يقرأ «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ» فقال: طلبها قسورة، فقيل له:

ويحك إن فى القرآن «فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» قال (مستنفرة) إذا، فالفرار الذهاب عن الشىء خوفاً منه، فر يفر فرأ و فراراً، فهو فر إذا هرب و الفار الهارب.

و الهرب نقيض الطلب، و اصل الفرار الانكشاف عن الشىء، و منه فر الفرس يفره فرأ إذا كشف عن سنه. و القسورة الأسد. و قيل: هو الرامى للصيد. و أصله الأخذ بالشدّة من قسره يقسره قسراً أى قهره. و قال ابن عباس: القسورة الرماة و قال سعيد بن جبير: هم القناص. و فى رواية أخرى عن ابن عباس: جماعة الرجال و قال ابو هريرة: هو الأسد. و هو قول زيد بن اسلم، و فى رواية عن ابن عباس و أبى زيد: القسور بغير هاء تأنيث.

وقوله (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً) اخبار من الله التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٨

تعالى بأنهم ليسوا كالحمر المستنفره الفاره من القسوره، بل لأن كل رجل منهم يريد أن يعطى صحفًا منشرة. قال الحسن و قتاده و مجاهد: انهم يريدون صحفًا منشرة أى كتبًا تنزل من السماء كتابًا إلى فلان و كتابًا الى فلان: أن آمنوا بمحمد صلى الله عليه و آله. و قيل: إنهم قالوا كانت بنو إسرائيل إذا أذنب منهم مذنب أنزل الله كتابًا أن فلانًا أذنب فما بالنال ينزل علينا مثل ذلك إن كنت صادقًا به؟ و الصحف جمع صحيفه، و هى الورقة التى من شأنها ان تقلب من جهه إلى جهه، لما فيها من الكتابه، و تجمع الصحيفه صحفًا و صحائف، و منه مصحف و مصاحف. و النشر بسط ما كان مطويًا او ملتفًا من غير التحام. و قيل: معناه إنهم يريدون صحفًا من الله. تعالى بالبراءة من العقوبة و إسباغ النعمة حتى يؤمنوا و إلا أقاموا على أمرهم. و قيل: تفسيره ما ذكره الله تعالى فى قوله (وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ) «١» فقال الله تعالى (كلا) أى حقًا ليس الأمر على ما قالوه (بَلْ لَا يَخَافُونَ) هؤلاء الكفار (الْآخِرَةَ) بجحدهم صحته. ثم قال (إِنَّهُ تَذَكُّرٌ) يعنى القرآن تبصره و موعظه لمن عمل به و اتعظ بما فيه، و هو قول قتاده. ثم قال (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ) أى من شاء أن يتعظ بما فيه و هو يتذكر به، فعل، لأنه قادر عليه. ثم قال (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) من قرأ بالتاء، فعلى الخطاب، و من قرأ بالياء، فعلى الاخبار عنهم. و معناه ليس يتذكرون و لا يتعظون بالقرآن إلا ان يشاء الله، و معناه إلا و الله شاء له، لأنه طاعة و الله يريد الطاعات من خلقه. و قوله (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) معناه هو اهل ان يتقى عقابه، و اهل ان يعمل بما يؤدى الى مغفرته. و قيل: معناه هو اهل ان يغفر المعاصي إذا تاب المذنب من معاصيه.

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ٩٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٨٩

٧٥-سورة القيامة: ص: ١٨٩

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و هى أربعون آية فى الكوفى و تسع و ثلاثون فى البصرى و المدنيين

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ١٠] ص: ١٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)
بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ (٧) وَحَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩)
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠)

عشر آيات.

قرأ (برق) بفتح الراء اهل المدينة و أبان عن عاصم، الباقون بكسر الراء و قرأ القواس عن ابن كثير (لأقسم) بإثبات القسم جعل اللام لام تأكيد، و اقسام، و الاختيار لمن قصد هذا (لأقسمن) و قد روى ذلك عن الحسن، قال: لان الله تعالى اقسام بيوم القيامة، و لم يقسم بالنفس اللوامة. و قال مقاتل: لم يقسم الله تعالى التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٠

بالقيامة إلا- فى هذه السورة فقط. الباقون (لا-اقسم) التقدير بنفى اليمين فى اللفظ و اختلف فى ذلك النحويون فقال ابو عبيدة و الكسائى (لا) صلة و التقدير اقسام.

و قال قوم (لا) تزيدها العرب لا ابتداء، لكن (لا) هاهنا رد لقوم أنكروا البعث و كفروا بالتنزيل. فقال الله (لا) أى ليس كما تقولون. ثم قال (أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) قال ابن خالويه: (لا) تنقسم أربعين قسما ذكرته فى كل مفرد.

قوله (لا أُقْسِمُ) معناه اقسام و (لا) صلة فى قول سعيد بن جبير. و قال ابن عباس (لا) تأكيد كقولك: لا والله. بلى والله ما كان كذا، فكأنه قال لا، اقسام بيوم القيامة ما الأمر على ما توهموه. و القسم تأكيد الخبر بما جعله فى حيز المتحقق. و المعنى اقسام بيوم القيامة و يوم القيامة هو النشأة الاخيرة التى تقوم فيها الناس من قبورهم للمجازاة، و بذلك سميت القيامة، و يومها يوم عظيم، على خطر عظيم جسيم.

و قوله (وَ لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَّةِ) قسم ثان، و معناه معنى الاول. و قال الحسن: أقسم تعالى بيوم القيامة و لم يقسم بالنفس اللوامة، بل نفى ان يقسم بها.

قال الرماني: و هذا يضعف، لأنه يخرج عن تشاكل الكلام. و قيل: ان جواب القسم محذوف، و تقديره ما الامر على ما تتوهمون. و قال قوم: جواب القسم قوله (بلى قادرين).

و اللوامة الكثيرة اللوم لقله رضاها بالأمر و تمييز ما يرضى مما لا يرضى، و ما يلام عليه مما لا يلام عليه. و قال ابن عباس: اللوامة من اللوم.

و قال مجاهد: تلوم على ما مضى وفات. و قال قتادة: اللوامة الفاجرة، كأنه قال ذات اللوام الكثير. و قال سعيد بن جبير: هى التى تلوم على الخير و الشر و قيل: معناه لا صبر لها على محن الدنيا و شدائدها، فهى كثيرة اللوم فيها. و قال التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص:

١٩١

الحسن: اللوامة هى التى تلوم نفسها على ما ضيعت من حق الله يوم القيامة، و هى نفس الكافر. و قيل: معناها أنها تلوم نفسها فى الآخرة على الشر لم عملته و على الخير هلا استكثرت منه.

و قوله (أَيَّحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ) صورته صورة الاستفهام و معناه الإنكار على من أنكروا البعث و النشور، فقال الله له ا يظن الإنسان الكافر أن لن نجتمع عظامه و نعيده إلى ما كان أولا عليه. ثم قال: ليس الأمر على ما ظنه (بلى قادرين على أن نسوي بنائه) قال ابن عباس: يجعل بنانه كالخف و الحافر فيتناول المأكول بفيه، و لكننا مننا عليه. و قال قتادة كخف البعير او حافر الدابة. و نصب (قادرين) على أحد وجهين:

أحدهما- على تقدير بلى نجتمعها قادرين.

و الآخر- بلى نقدر قادرين إلا أنه لم يظهر (نقدر) لدلالة (قادرين) عليه، فاستغنى به. و قيل: معناه بلى قادرين على ان نسوي بنانه حتى نعيده على ما كان عليه خلقاً سوياً.

و قوله (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) اخبار منه ان الإنسان يفجر أمامه و معناه يمضى أمامه ركباً رأسه فى هواه- فى قول مجاهد- أى فهذا الذى يحمله على الاعراض عن مقدرات ربه، فلذلك لا يقر بالبعث و النشور. و قال الزجاج:

إنه يسوف بالتوبة و يقدم الاعمال السيئة. قال: و يجوز أن يكون المراد ليكفر بما قدمه من البعث بدلالة قوله (يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) فهو يفجر أمامه بأن يكذب بما قدمه من البعث. و قوله (يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) معناه ان الذى يفجر أمامه يسأل متى يكون يوم القيامة؟ فمعنى (أيان) (متى) إلا أن السؤال ب (متى) اكثر من السؤال ب (أيان)، فلذلك حسن ان يفسر بها لما دخلها من الإبهام الذى يحتاج التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٢

فيه الى بيان ما يتصل بها من الكلام. و السؤال على ضربين: سؤال تعجيز، و سؤال طلب للتبيين.

و قوله (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ) فالبرق اللمعان بالشعاع الذى لا يلبث، لأنه مأخوذ من البرق، يقال: برق يبرق برقاً، و إنما قيل (برق البصر) لان ذلك يلحقه عند شدة الأمر، و البارقة الذين تلمع سيوفهم إذا جردوها كالبرق، و انشد ابو عبيدة للكلابى:

لما اتانى ابن عمير راغباً أعطيته عيساً صهاًباً فبرق «١»

بكسر الراء و انشد الفراء:

نعانى حنائه طوباً له يسف يبساً من العشرق

ففسك قانع ولا تنعى ودا والكوم ولا تبرق «٢»

بالفتح، أى لا- تفرع من هول الجراح، و (حنائه) اسم رجل و (طوبا) له نعجته، و قال ابن خالويه: من كسر قال: لان (برق) بالفتح لا يكون إلا فى الضوء يقال برق البرق إذا لمع، و برق الحنظل، فاما برق بالكسر، فمعناه تحير، و الذى قاله اهل اللغة إنهما لغتان، و تقول العرب، لكل داخل: برقه أى دهشه. و قال الزجاج: برق إذا فزع و برق إذا حار.

و قوله (وَ حَسَفَ الْقَمَرُ) أى ذهب نوره بغيته النور عن البصر، و خسف و كسف بمعنى كأنه يذهب نوره فى خسف من الأرض فلا يرى.

و قوله (وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ) أى جمعا فى ذهاب نورهما بما يراه الإنسان و الجمع جعل احد الشيتين مع الآخر. و الجمع على ثلاثة اقسام: جمع فى المكان، و جمع

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧ و القرطبي ١٩/ ٩٤

(٢) قائله طرفه بن العبد ديوانه ٧٠ (دار بيروت) البيت الثانى فقط

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٣

فى الزمان، و جمع الاعراض فى المحل. و جمع الشيتين فى حكم او صفة مجاز.

و قوله (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ) اخبار من الله تعالى بأن الإنسان يقول فى ذلك الوقت: اين المهرب؟ و الفرار بفتح الفاء. و روى عن ابن عباس (أين المفر) بكسر الفاء، قال الزجاج: المفر بفتح الفاء مصدر، و بالكسر مكان الفرار. و هذا سؤال تعجيز عن وجود مفر يهرب اليه من عذاب الله فى ذلك اليوم.

و قيل فيه معنى جواب هذا السائل، كأنه قيل يوم القيامة إذا برق البصر و خسف القمر و جمع الشمس و القمر. و المفر مصدر. و يجوز فيه الكسر، و مثله مدب و مدب و قال البصريون: الكسر لمكان الفرار. و قال الفراء الفتح و الكسر لغتان.

قوله تعالى: [سورة القيامة (٧٥): الآيات ١١ الى ٢٥] ص: ١٩٣

كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)

لا- تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)

وَ تَدْرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)

خمس عشرة آية قرأ (كلا بل يحبون العاجلة و يذرون الآخرة) بالياء فيهما ابن كثير التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٤

و ابو عمرو و ابن عامر على وجه الاخبار عنهم. الباكون بالثناء على وجه الخطاب لهم، لما حكى الله تعالى عن الكافر انه يقول يوم القيامة (اين المفر) و المهرب حكى ما يقال له، فانه يقال له (كلا لا وزر) أى لا ملجأ. و الوزر الملجأ من جبل يتحصن به او غيره من الحصون المنيعه. و منه الوزير المعين الذى يلجأ اليه فى الأمور، يقال وزرت الحائط إذا قويته بأساس يعتمد عليه. و قال ابن عباس و مجاهد: لا وَزَرَ، معناه لا ملجأ. و قال الحسن: لا جبل، لان العرب إذا دهمتهم الخيل بغته، قالوا: الوزر، يعنون الجبل، قال ابن الدمينه:

لعمر ك ما للفتى من وزر من الموت ينجو به و الكبير «١»

و قال الضحاك: معناه لا حصن. و قيل معناه لا منجا ينجو اليه، و هو مثل الملجأ. ثم قال تعالى (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

أى المرجع الذى يقر فيه. و مثله المأوى و المثوى، و خلافه المرتحل. و المستقر على وجهين: مستقر إلى أمد، و مستقر على الأبد. و قوله (يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَاخَّرَ)

أى يخبر بجميع ما عمله، و ما تركه من الطاعات و المعاصى، فالنبا الخبر بما يعظم شأنه، و حسن فى هذا الموضع لان ما جرى مجرى اللغو و المباح لا يعتد به فى هذا الباب. و إنما الذى يعظم شأنه من عمل الطاعة و المعصية هو ما يستحق عليه الجزاء. فأما ما وجوده كعدمه، فلا اعتبار به. و التقديم ترتيب الشىء قبل غيره، و ضده التأخير و هو ترتيب الشىء بعد غيره، و يكون التقديم و التأخير فى الزمان، و فى المكان، و فى المرتبة، كتقديم المخبر عنه فى المرتبة، و هو مؤخر فى الذكر، كقولك: فى الدار زيد، و كذلك الضمير فى (غلامه ضرب زيد) و هو مقدم فى اللفظ و مؤخر فى المرتبة. و قال ابن عباس: ينبأ بما قدم

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧ و القرطبي ١٩/ ٩٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٥

من المعصية و آخر من الطاعة. و قال مجاهد: يعنى بأول عمله و آخره. و قال ابن زيد: ما أخذ و ترك. و فى رواية عن ابن عباس، و هو قول ابن مسعود: بما قدم قبل موته، و ما اخر من سنه يعمل بها بعد موته، و قيل ما قدم و آخر جميع أعماله التى يستحق بها الجزاء. و قوله «بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»

أى شاهد على نفسه بما تقوم به الحجة - ذكره ابن عباس - كما يقال: فلان حجة على نفسه. و قد قال تعالى «أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» «١» و قال الزجاج: معناه بل الإنسان تشهد عليه جوارحه كما قال «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ» «٢» و الهاء فى (بصيرة) مثل الهاء فى (علامة) للمبالغة. و قيل شهادة نفسه عليه أولى من اعتذاره. و قيل تقديره بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة: جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة و لو اعتذر كان شاهداً عليه من يكذب عذره. و قوله «وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ»

معناه و لو اقام الاعتذار عند الناس، و فى دار التكليف و استسر بالمعاصى بإرخاء الستر. و قال ابن عباس: معناه و لو اعتذر. و قال السدى: معناه و لو ارحى الستور و أغلق الأبواب. و قال الزجاج:

معناه لو أتى بكل حجة عنده. و المعاذير التنصل من الذنوب بذكر العذر، واحدا معذرة من قوله «لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ» «٣» و قيل: المعاذير ذكر مواقع تقطع عن الفعل المطلوب. و العذر منع يقطع عن الفعل بالأمر الذى يشق، و الاعتذار الاجتهاد فى تثبيت العذر.

و قوله «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»

قال ابن عباس و سعيد بن جبير و الضحاك: كان النبى صلى الله عليه و آله إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لجهه إياه،

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ١٤

(٢) سورة ٢٤ النور آية ٢٤

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٥٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٦

فنهاه الله عن ذلك.

و التحريك تغيير الشىء من مكان إلى مكان او من جهة الى جهة بفعل الحركة فيه، و الحركة ما به يتحرك المتحرك. و المتحرك

هو المنتقل من جهة الى غيرها. و اللسان آله الكلام. و العجلة طلب عمل الشيء قبل وقته الذي ينبغي أن يعمل فيه، و نقيضه الإبطاء، و السرعة عمل الشيء في أول وقته الذي هو له، و ضده الاناة.

و قوله «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»

قال ابن عباس و الضحاك: معناه ان علينا جمعه في صدرك، و قراءته عليك حتى يمكنك تلاوته. و قال قتادة: معناه إن علينا جمعه في صدرك و تأليفه على ما نزل عليك. و قال ابن عباس- في رواية أخرى- إن معناه إن علينا بيانه من حلاله و حرامه بذكره لك. و قال قتادة: معناه نذكر أحكامه و نبين لك معناه إذا حفظته. و قال البلخي: الذي أختاره انه لم يرد القرآن و إنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، لان ما قبله و بعده يدل على ذلك، و ليس فيه شيء يدل على انه القرآن، و لا على شيء من أحكام الدنيا، و في ذلك تفرغ للعبد و توبيخ له حين لا تنفعه العجلة. و القرآن من الضم و التأليف، قال عمرو بن كلثوم:

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا «١»

أى لم تضم رحماً على ولد. و قوله «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»

قال ابن عباس:

معناه إذا قرأناه أى تلواناه فاتبع قراءته بقرائتك، و قال قتادة و الضحاك: معناه بأن يعمل بما فيه من الأحكام و الحلال و الحرام. و قيل: معناه فإذا قرأه جبرائيل عليك فاتبع قراءته. و الاتباع مراجعة الثاني للأول فى ما يقتضيه، و مثله الاقتداء و الاحتذاء و الائتمام، و نقيضه الخلاف. و البيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به من غيره بان الشيء يبين إذا ظهر و أبانه غيره أى أظهره بياناً و إبانة، و نقيض البيان

(١) مر تخريجه فى ٢ / ٢٣٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٧

الإخفاء و الإغماض. و قال قتادة «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» معناه إنا نبين لك معناه إذا حفظته.

و قوله «كَلَّا لَيَلَّ تَجِبُونَ الْعَاجِلَةَ» معناه الاخبار من الله تعالى أن الكفار يريدون المنافع العاجلة و يركنون اليها و يريدونها «وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ» أى و تتركون عمل الآخرة الذى يستحق به الثواب، و تفعلون ما يستحق به العقاب من المعاصى و المحارم.

ثم قسم تعالى اهل الآخرة فقال «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» أى مشرقة مضيئة، فالنصرة الصورة الحسنه التى تملأ القلب سروراً عند الرؤية نضر وجهه ينضر نضرة و نضارة فهو ناضر. و النضرة مثل البهجة و الطلاقة، و ضده العبوس و البسور، فوجه المؤمنين المستحقين للثواب بهذه الصفة بما جعل الله عليها من النور علامة للخلق، و الملائكة على انهم مؤمنون مستحقون الثواب. و قوله «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» معناه منتظرة نعمه ربها و ثوابه ان يصل اليهم. و قيل «ناضرة» أى مشرقة «الى» ثواب ربها «ناظرة» و ليس فى ذلك تنغيص لان الانتظار إنما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله الى المنتظر أو هو محتاج اليه فى الحال.

و المؤمنون بخلاف ذلك، لأنهم فى الحال مستغنون منعمون، و هم أيضاً واثقون انهم يصلون الى الثواب المنتظر. و النظر هو تقليب الحدقة الصحية نحو المرئى طلباً للرؤية و يكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ» «١» أى منتظرة و قال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمن تأتى بالفلاح «٢»

أى منتظرة للرحمة التى تنزل عليهم، و قد يقول القائل: انما عيني ممدودة

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٣٥

(٢) مر فى ١ / ٢٢٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٨

الى الله، و الى فلان، و انظر اليه أى انتظر خيره و نفعه و أومل ذلك من جهته، و قوله «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) معناه لا ينيلهم رحمته. و يكون النظر بمعنى المقابلة، و منه المناظرة فى الجدل، و منه نظر الرحمة أى قابله بالرحمة، و يقال: دور بنى فلان تتناظر أى تتقابل، و هو ينظر الى فلان أى يؤمله و ينتظر خيره، و ليس النظر بمعنى الرؤية أصلاً، بدلالة أنهم يقولون: نظرت الى الهلال فلم أراه فلو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضاً، و لأنهم يجعلون الرؤية غاية للنظر يقولون: ما زلت أنظر اليه حتى رأيت، و لا يجعل الشئ غاية لنفسه لا يقال: ما زلت أراه حتى رأيت، و يعلم الناظر ناظراً ضرورة، و لا يعلم كونه رائياً بل يسأل بعد ذلك هل رأيت أم لا؟ و دخول «الى» فى الآية لا يدل على ان المراد بالنظر الرؤية، و لا تعليقه بالوجه يدل على ذلك، لأننا أنشدنا البيت، و فيه تعليق النظر بالوجه و تعديه بحرف (الى) و المراد به الانتظار، و قال جميل بن معمر:

و إذا نظرت اليك من ملك و البحر دونك جرتنى نعماء «٢»

و المراد به الانتظار و التأميل، و ايضاً، فانه فى مقابلة قوله فى صفة اهل النار «تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» فالمؤمنون يؤمنون بتجديد الكرامة و ينتظرون الثواب، و الكفار يظنون الفاقة، و كله راجع الى فعل القلب، و لو سلمنا أن النظر يعد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنها رؤية ثواب ربها، لأن الثواب الذى هو انواع اللذات من المأكول و المشروب و المنكوح تصح رؤيته، و يجوز ايضاً أن يكون إلى واحد إلالاء و فى واحدها لغات (ألا) مثل قفا، و (ألى) مثل معى و (إلى) مثل حدى و (ألى) مثل حسى، فإذا أضيف الى غيره سقط التنوين، و لا يكون (الى) حرفاً فى الآية و كل ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى.

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٧٧

(٢) مر فى ١/ ٢٢٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ١٩٩

و ليس لأحد ان يقول: إن الوجه الأخير يخالف الإجماع، أعنى اجماع المفسرين، و ذلك لأننا لا نسلم لهم ذلك، بل قد قال مجاهد و ابو صالح و الحسن و سعيد بن جبير و الضحاك:

إن المراد نظر الثواب. و روى مثله عن على عليه السلام،

و قد فرق اهل اللغة بين نظر الغضبان و نظر الراضى، يقولون: نظر غضبان، و نظر راض، و نظر عداوة، و نظر مؤدء، قال الشاعر:

تخبرنى العينان ما الصدر كاتم و لا حن بالبغضاء و النظر الشزر

و الرؤية ليست كذلك فإنهم لا يضيفونها، فدل على أن النظر غير الرؤية، و المرئى هو المدرك، و الرؤية هى الإدراك بالبصر، و الرائى هو المدرك، و لا تصح الرؤية و هى الإدراك إلا على الأجسام او الجوهر او الألوان. و من شرط المرئى أن يكون هو او محله مقابلاً او فى حكم المقابل، و ذلك يستحيل عليه تعالى، فكيف تجيز الرؤية عليه تعالى!!! ثم ذكر القسم الآخر فقال «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ بِاسْرَةٍ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» يعنى وجوه اهل الكفر. و بسور ظهور حال الغم فى الوجه معجلاً قبل الاخبار عنه و مثله العبوس إلا انه ليس فيه معنى التعجيل. و الفاقة الكاسرة لفقار الظهر بشدة و مثل الفاقة الداهية و الأبدء. و قال الحسن: ناظرة بهجة حسنة. و قال مجاهد:

مسرورة. و قال ابن زيد: ناعمة. و قال مجاهد و قتادة: معنى باسرة كاشرة كالحة.

و قال مجاهد: الفاقة الداهية. و قال ابن زيد الأبدء بدخول النار.

قوله تعالى: [سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٦ الى ٤٠] ص: ١٩٩

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)
فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَ لَكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٤) ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٥)
أَ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ
الْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٠

خمس عشرة آية.

قرأ ابن عامر و حفص و رويس «من منى يمى» بالياء على التذكير رده إلى المنى. الباقون بالتاء حملا على النطفة.
يقول الله تعالى «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ» يعنى النفس أو الروح، و لم يذكر لدلالة الكلام عليه كما قال «ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا» «١» يعنى على
ظهر الأرض. و إنما لم يذكر لعلم المخاطب به، و «التَّرَاقِي» جمع ترقوة، و هى مقدم الحلق من أعلى الصدر، تترقى إليه النفس عند
الموت، و إليها يترقى البخار من الجوف، و هناك تقع الحشرجة، و قوله «وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ»
فالراق طالب الشفاء يقال: رفاه يرقيه رقيه إذا طلب له شفاء بأسماء الله الجليلة و آيات كتابه العظيمة، و أما العوذة فهى رفع البلية
بكلمات الله تعالى. و قال ابو قلابه و الضحاك و ابن زيد و قتادة: معنى «راقٍ»

طبيب شاف.

أى اهله يطلبون له من يطبه و يشفيه و يداويه فلا- يجدونه. و قال ابن عباس و ابو الجوزاء: معناه قالت الملائكة: من يرقا بروحه أ
ملائكة الرحمة أم ملائكة العقاب.

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠١

و قال الضحاك: أهل الدنيا يجهزون البدن، و أهل الآخرة يجهزون الروح.

و قوله «وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ» معناه علم عند ذلك انه فراق الدنيا و الأهل و المال و الولد. و الفراق بعاد الالاف و هو ضد الوصال يقال:
فارقه يفارقه فراقاً.

و قد صار علماً على تفرق الأحباب و تشتت الالاف.

و قوله «وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» قال ابن عباس و مجاهد: معناه التفت شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا. و قال الحسن: التفت حال الموت
بحال الحياة. و قال الشعبي و ابو مالك: التفت ساقا الإنسان عند الموت- و فى رواية أخرى عن الحسن- انه قال: التفت الساقين فى
الكفن. و قيل: ساق الدنيا بساق الآخرة و هو شدة كرب الموت بشدة هول المطع. و قال الحسن: معناه التفت شدة أمر الدنيا بشدة أمر
الآخرة. و قيل: معناه اشتداد الأمر عند نزع النفس حتى التفت ساق على ساق عند تلك الحال، يقولون: قامت الحرب على ساق عند
شدة الأمر قال الشاعر:

فإذا شممت لك عن ساقها فويهاً ربيع ولا تسأم «١»

و قوله «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ» معناه إن الخلائق يساقون إلى المحشر الذى لا يملك فيه الأمر و النهى غير الله. و المساق مصدر
مثل السوق.

و قوله «فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى» قال الحسن: معناه لم يتصدق و لم يصل «وَلَكِنْ كَذَّبَ» بالله «وَوَتَوَلَّى» عن طاعته. و قال قوم «فَلَا صَدَقَ»
بربه «وَلَا صَلَّى» و قال قتادة: معناه فلا صدق بكتاب الله و لا صلى لله «وَلَكِنْ كَذَّبَ» به «وَوَتَوَلَّى» عن طاعته. و قال قوم: معناه «فَلَا
صَدَقَ» بتوحيد الله، و لا نبه بل كذب به.

و الصدقة العطيّة للفقراء و الزكاة الصدقة الواجبة على المال المعلق بنصاب مخصوص.

(١) تفسير الطبري ١٠٧/٢٩ و قد مر في ٨٧/١٠ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٢

و الصلاة عبادة أولها التكبير و آخرها التسليم، و فيها قراءة و أركان مخصوصة. و التولى هو الاعراض عن الشيء، فلما كان هذا الجاهل معرضاً عن الحق بتركه الى خلافه من الباطل لزمه الذم بهذا الوصف.

و قوله «ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى» فالتمطى تمدد البدن من الكسل إما كسل مرض او كسل تثاقل عن الامر. و الذم بكسل التثاقل عن الداعي الى الحق. و قال مجاهد و قتادة: معنى يتمطى يتختر. و قيل: الأصل في يتمطى يلوى مطاه، و المطا الظهر، و نهى عن مشية المطيطيا، و ذلك ان يلقي الرجل بدنه مع التكفي في مشيه.

و قيل: نزلت الآية في أبي جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي.

و قوله «أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى» قال قتادة: هو وعيد على وعيد. و قيل معنى «أُولَى لَكَ» وليك الشريا أبا جهل، و قيل: معناه الذم اولى لك من تركه إلا انه حذف، و كثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك. و صار من المتروك المحذوف الذي لا يجوز إظهاره. و قيل أولى لك، فأولى لك على الاول و الذم لك على الثاني و الثالث. و الأولى في العقل هو الاحق بالقرب من داعي العقل، كأنه أحق بوليّه.

ثم قال على وجه الوعيد و التهديد للكفار «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ» و معناه أ يظن الإنسان الكافر بالبعث و النشور الجاحد لنعم الله «أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» و معناه أن يترك مهملاً عن الأمر و النهي، فالسدى همل من غير أمر يؤخذ به، و يكون فيه تقويم له، و إصلاح لما هو أعود عليه في عاقبة أمره و أجمل به في دنياه و آخرته.

و قال ابن عباس و مجاهد: معنى «أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» أى هملاً لا يؤمر و لا ينهى.

و قيل: أ يحسب الإنسان أن يترك مهملاً فلا يؤمر و لا ينهى مع كمال عقله و قدرته.

ثم قال على وجه التنبيه على أن الله خلقه للتكليف و العبادة، و على انه قادر التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٣

على إعادته و احيائه بعد موته «أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنِي» فالمنى نطفة الذكر التي يجيئ منها الولد «ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً» أى قطعة من الدم المنعقد جامدة لا تجرى فخلق الله منها هذا الإنسان الذي هو في احسن تقويم، فسبحان من قدر على ذلك. و قوله «فَخَلَقَ فَسَوَّى» أى خلق من العلقه خلق سويًا شق له السمع و البصر. و قال الفراء:

معنى «فسوى» فسواه «فَجَعَلَ مِنْهُ» من ذلك المنى «الرَّؤُوجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى» فمن قدر على ذلك لا يقدر على ان يحيى الموتى بعد ان كانوا أحياء؟! بلى و الله قادر على ذلك، لان جعل النطفة علقه و خلق العلقه مضغة و خلق المضغة عظماً و كسو العظم لحماً ثم إنشاؤه خلقاً آخر حياً سليماً مركباً فيه الحواس الخمس كل واحدة منها يصلح لما لا يصلح له الاخرى، و خلق الذكر و الأنثى اللذين يصح منهما التناسل على ما قدره الله أعجب و أبداع من اعادة الميت الى ما كان من كونه حياً، فمن قدر على الأول أولى بأن يكون قادراً على الثاني، فالاحياء إيجاد الحياء، و الاماتة إيجاد الموت عند من قال أن الموت معنى، و من قال: ليس بمعنى، قال: هو نقض بنية الحى على وجه الاختراع.

و قوله «فَجَعَلَ مِنْهُ» قيل يعنى من الإنسان «الرَّؤُوجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى» و قيل من المنى «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» و قال قتادة:

كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا ختم السورة، يقول: سبحانك الله بلى، و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما

السلام

وفي الآية دلالة على صحة القياس العقلي، وهو أن من قدر على احياء الإنسان قادر على احيائه بعد الاماتة، وقال الفراء: يجوز في العربية يحيى الموتى بالإدغام: بأن ينقل الحركة الى الحاء و تدغم احدى الياءين في الاخرى و انشد:

و كأنها بين النساء سبيكة تمشى بسدة بيتها بتعى «١»

(١) مر في ١٤٧/٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٤

٧٦-سورة الدهر: ص: ٢٠٤

إشارة

و تسمى سورة الإنسان، و تسمى سورة الأبرار، و هي مكية في قول ابن عباس و الضحاك و غيرهما. و قال قوم: هي مدنية و هي احدى و ثلاثون آية بلا خلاف

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٢٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَ أَغْلَالاً وَ سَعِيراً (٤)
إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِيناً وَ يَتِيمًا وَ أَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُوراً (٩)
إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً (١٠)
عشر آيات.

قرأ «سلاسل» منوناً نافع و الكسائي و ابو بكر عن عاصم اتباعاً للمصحف التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٥
و لتشاكل ما جاوره من رأس الآية. الباقون بغير تنوين، لان مثل هذا الجمع لا ينصرف في معرفة و لا في نكرة، لأنه على (فعائل) بعد الفه حرفان.

يقول الله تعالى «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ» قال الزجاج: معناه أ لم يأت على الإنسان «حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً» يعنى قد كان شيئاً إلا- انه لم يكن مذكوراً، لأنه كان تراباً و طيناً الى أن نفخ فيه الروح. و قال قوم (هل) يحتمل معناه أمرين: أحدهما- أن يكون بمعنى (قد أتى) و الثانى أن يكون معناها اتى على الإنسان، و الأغلب عليها الاستفهام و الأصل فيها معنى (قد) لتجرى على نظائرها بمعنى ضمن معنى الالف و أصله من ذلك قول الشاعر:

أم هل كبير بكى لم تقض عبرته أثر الأجابة يوم البين مشكوم

و المعنى بالإنسان- هاهنا- آدم- فى قول الحسن- و المعنى قد أتى على آدم «حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ» و به قال قتادة و سفيان. و قيل: ان آدم لما خلق الله جثته بقى أربعين سنة لم تلج فيه الروح كان شيئاً، و لم يكن مذكوراً، فلما نفخ فيه الروح و بلغ إلى ساقه كاد ينهض للقيام، فلما بلغ عينيه و رأى ثمار الجنة بادر إليها ليأخذها فلذلك قال الله تعالى (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) «١» و قال غيره: هو واقع على كل إنسان، و الإنسان فى اللغة حيوان على صورة الانسانية، و قد تكون الصورة الانسانية، و لا إنسان، و قد يكون حيوان و لا إنسان،

فإذا حصل المعنيان صح إنسان لا محالة. والإنسان حيوان منتصب القامة على صورة تنفصل من كل بهيمة. و (الحين) مدة من الزمان، وقد يقع على القليل والكثير. قال الله سبحانه «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» (٢) أى وقت تمسون و وقت تصبحون. و قال (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ) يعنى كل ستة أشهر، و قال قوم: كل سنة. و قال- هاهنا

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٧

(٢) سورة ٣٠ الروم آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٦

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ) أى مدة طويلة. و الدهر مرور الليل و النهار و جمعه أدهر و دهور، و الفرق بين الدهر و الوقت أن الوقت مضمن بجعل جاعل، لان الله جعل لكل صلاة مفروضة وقتاً، و جعل للصيام وقتاً معيناً، و قد يجعل الإنسان لنفسه وقتاً يدرس فيه ما يحتاج إلى درسه و وقتاً مخصوصاً لغذائه.

و قوله (لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) أى لم يكن ممن ذكره ذاكر، لأنه كان معدوماً غير موجود. و فى الآية دلالة على أن المعدوم لا يسمى شيئاً، و إنما سمي زلزله الساعة شيئاً مجازاً. و المعنى إنها إذا وجدت كانت شيئاً عظيماً.

و قوله (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ) اخبار من الله تعالى أنه خلق الإنسان سوى آدم و حواء من نطفة، و هو ماء الرجل و المرأة الذى يخلق منهما الولد، فالنطفة الماء القليل فى أناء كان او غير إناء قال الشاعر:

و ما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر صار صفواً غدورها

و قوله (أَمْشِج) قال ابن عباس أخلاط من ماء الرجل و ماء المرأة. و قال الحسن و الربيع بن أنس و مجاهد مثل ذلك. و قال قتادة: معنى أمشاج أطوار طوراً نطفة و طوراً مضغعة و طوراً عظماً إلى أن صار إنساناً ليختبره بهذه الصفات. و قال مجاهد: معناه ألوان النطفة. و قال عبد الله: عروق النطفة و واحد الأمشاج مشيج، و هو الخلط، و سمي النطفة بذلك، لأنه جعل فيها اخلاطاً من الطبائع التى تكون فى الإنسان من الحرارة و البرودة و البيوسة و الرطوبة. ثم عداها له، ثم بناه البنية الحيوانية المعدلة الاخلاط. ثم جعل فيها الحياة ثم شق له السمع و البصر فتبارك الله رب العالمين، و ذلك قوله (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً).

و قوله (نَبْتَلِيهِ) أى نختبره بما نكلفه من الافعال الشاقة لننظر ما طاعته و ما عصيانه فجازيه بحسب ذلك، و يقال مشجت هذا بهذا إذا اخلطته به، و هو ممشوج به التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٧

و مشيج أى مخلوط به قال رؤبة:

يطرحن كل معجل نشاج لم تكس جلداً فى دم أمشاج (١)

و قال ابو ذؤيب:

كأن الريش و الفوقين منه خلاف النصل سيط به مشيج (٢)

و قوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) معناه انا أرشدناه إلى سبيل الحق و بيناه له و دللناه عليه. و قال الفراء: معناه هديناه إلى السبيل أو للسبيل. و المعنى واحد.

و قوله (إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا) قال الفراء: معناه إن شكر و إن كفر على الجزاء و يجوز أن يكون مثل قوله (إِنَّمَا يُعِدُّبُهُمْ وَإِنَّمَا يُتُوبُ عَلَيْهِمْ) (٣) و المعنى اما يختار بحسن اختياره الشكر لله تعالى و الاعتراف بنعمه فيصيب الحق، و اما أن يكفر بنعمه و يجحد إحسانه فيكون ضالاً- عن الصواب، و ليس المعنى انه مخير فى ذلك، و إنما خرج ذلك مخرج التهديد، كما قال (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (٤) بدلالة قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا) و إنما المراد البيان عن انه قادر عليهما فأيهما اختار جوزى بحسبه.

و فى الآية دلالة على انه تعالى قد هدى جميع خلقه المكلفين، لأن قوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) عام فى جملتهم و ذلك يبطل قول

المجبرة: إن الله لم يهد الكافر بنصب الدلالة له على طريق الحق و اجتناب الباطل، و ليس كل من ترك الشكر كان كافراً، لأنه قد يترك في بعض الأحوال على سبيل التطوع، لان الشكر قد يكون تطوعاً كما يكون واجباً، و إنما لم يذكر الله الفاسق، لأنه اقتصر على أعظم الحالين

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩ و الطبرى ٢٩/ ١٠٩

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩ و القرطبي ١٩/ ١١٩

(٣) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧

(٤) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٨

و ألحق الأدون على التبوع، و يجوز أن يدخل في الجملة، و لا يفرد، فليس للخوارج أن يتعلقوا بذلك فى انه ليس بين الكفر و الايمان واسطة. ثم بين انه تعالى إنما ذكره على وجه التهديد بقوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ) أى ادخرنا لهم جزاء على كفرهم و معاصيهم و عقوبته لهم (سَيَلْسِلُ وَأَغْلِقُهَا وَ سَيَعِيرُ) يعذبهم بها و يعاقبهم فيها، و السلاسل جمع سلسله و الاغلال جمع غل، و السعير هى النار المسعرة الملهبة.

و لما اخبر بما للكافرين من العقوبات على كفرهم، ذكر أيضاً ما للمؤمنين على إيمانهم فقال (إِنَّ الْأَبْرَارَ) و هو جمع البر، و هو المطيع لله المحسن فى أفعاله (يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) و الكأس إناء الشراب إذا كان فيه، و لا يسمى كأساً إذا لم يكن فيه شراب- ذكره الزجاج- قال الشاعر:

صدت الكأس عنا أم عمرو و كان الكأس مجراها اليمينا «١»

و قوله (كَانَ مِزَاجُهَا كَأْفُورًا) قيل ما يشم من ريحها لا من جهة طعمها.

و قوله (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) قوله (عَيْنًا) نصب على البدل من (كأفوراً) و يجوز أن يكون على تقدير و يشربون عيناً، و يجوز أن يكون نصباً على الحال من (مِزَاجُهَا) و قال الزجاج: معناه من عين. و قال الفراء: شربها و شرب منها سواء فى المعنى كما يقولون: تكلمت بكلام حسن و كلاماً حسناً. و قيل: يمزج بالكافور، و يختم بالمسك و قيل: تقديره يشربون بها و أنشد الفراء:

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نثيج «٢»

متى لجج. أى من لجج. و عين الماء حفيرة فى الأرض ينبع منها، و هذه العين المذكورة فى أرض الجنة فى كونها فواره بالماء متعة لأهلها. ثم يفجر فيجرى لهم

(١) القرطبي ١٩/ ١٢٣ و الشوكاني ٥/ ٣٣٦

(٢) الطبرى ٢٩/ ١١٢ و القرطبي ١٩/ ١٢٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٩

إلى حيث شاءوا منها. قال مجاهد: معناه إنهم يقودونها حيث شاءوا و التفجير تشقيق الأرض يجرى الماء و منه انفجار الصبح، و هو انشقاقه من الضوء، و منه الفجور، و هو الخروج من شق الالتئام إلى الفساد. و عباد الله المراد به المؤمنون المستحقون للثواب ثم وصف هؤلاء المؤمنين فقال (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ) و يجوز أن يكون ذلك فى موضع الحال، فكأنه قال يشرب بها عباد الله الموفون بالنذر الخائفون (يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) فالمستطير الظاهر. و التقدير القائلون إنما نطعمكم القائلون إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا، و يجوز ان يكون على الاستئناف، و تقديره هم الذين يوفون بالنذر و كذلك فى ما بعد، فالوفاء بالنذر هو أن يفعل ما

نذر عليه فالوفاء إمضاء العقد على الأمر الذي يدعو اليه العقل، و منه قوله (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) «١» أى الصحيحة، لأنه لا يلزم أحداً أن يفى بعقد فاسد، و كل عقد صحيح يجب الوفاء به، يقال أوفى بالعقد، و وفى به، فأوفى لغته أهل الحجاز و هى لغة القرآن، و (وفى) لغته أهل تميم و اهل نجد. و قد بينا فيما مضى شواهد.

و النذر عقد على فعل على وجه البر بوقوع أمر يخاف ألا يقع، نذر ينذر نذراً فهو ناذر، و قال عنترة:

الشاتمي عرضي و لم أشتمهما و الناشرين إذا لم ألقهما دمي «٢»

أى يقولان: لئن لقينا عنترة لنقتلنه، و منه الانذار و هو الاعلام بموضع المخافة ليعقد على التحرز منها. و

روى عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال (لا نذر فى معصية)

و عند الفقهاء إن كفارة النذر مثل كفارة اليمين. و الذى

رواه أصحابنا إن كفارة النذر مثل كفارة الظهار

، فان لم يقدر عليه كان عليه كفارة اليمين. و المعنى انه إذا

(١) سورة ٥ المائدة آية ١

(٢) مر فى ٥٢٦ / ٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٠

فات الوقت الذى نذر فيه صار بمنزلة الحنث.

و قوله (وَيَخَافُونَ يَوْمًا) من صفته المؤمنين (كَانَ سُرَّةُ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) أى منتشرراً فاشياً ذاهباً فى الجهات بلغ أقصى المبالغ، قال الأعشى:

فبانت و قد أورت فى الفؤاد صدعاً على نأيها مستطيراً «١»

و المراد بالشر- هاهنا- أهوال القيامة و شدائدها.

و قوله (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) قال مجاهد: معناه على شهوتهم له، و يحتمل أن يكون المراد على محبتهم لله (مِسْكِينًا) أى

يطعمونه فقيراً (وَيَتِيمًا) و هو الذى لا والد له من الأطفال (وَأَسِيرًا) و الأسير هو المأخوذ من أهل دار الحرب- فى قول قتادة- و قال

مجاهد: و هو المحبوس. و قوله (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) اخبار عما يقوله المؤمنون بأننا إنما نطعمكم معاشر الفقراء و اليتامى و الأسرى

لوجه الله، و معناه لله، و ذكر الوجه لذكره بأشرف الذكر تعظيماً له، و منه قوله (فَأَيُّمًا تُولُؤُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) و قيل: معناه فتم وجه الله

التي ولاكم اليها و منه قوله (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) «٢» أى و يبقى الله. و قال مجاهد و سعيد بن جبير: علم الله ما فى قلوبهم فأثنى عليهم

من غير أن يتكلموا به (لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً) أى لا نطلب بهذا الإطعام مكافأة عاجلة (وَلَا شُكُورًا) أى لا نطلب أن تشكرونا عليه عند

الخلايق بل فعلناه لله (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا) أى من عقابه (يَوْمًا عَبُوسًا) أى مكفهراً عابساً (قَمَطَرِيرًا) أى شديداً، و القمطيرير الشديد فى

الشر. و قد اقمطر اليوم اقمطراراً، و ذلك أشد الأيام و أطوله فى البلاء و الشر، و يوم قمطيرير و قماطيرير كأنه قد التف شر بعضه على

بعض، قال الشاعر:

(١) ديوانه ٨٥ (دار بيروت)

(٢) سورة ٥٥ الرحمن آية ٢٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١١

بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر «١»

قد روت الخاصة و العامة أن هذه الآيات نزلت في على عليه السلام و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام، فإنهم آثروا المسكين و اليتيم و الأسير ثلاث ليال على إفطارهم و طووا عليهم السلام، و لم يفتروا على شيء من الطعام فأثنى الله عليهم هذا الثناء الحسن، و أنزل فيهم هذه السورة و كفاك بذلك فضيلة جزيلة تتلى الى يوم القيامة، و هذا يدل على أن السورة مدنية.

قوله تعالى: [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٢١١

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ فَطُوفُوا فِيهَا تَذَلُّلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عشر آيات.

قرأ الشعبي و عبيد بن عمير (قدروها) بضم القاف. الباقون بفتحها. من فتح القاف قال معناه قدروها في أنفسهم، فجاءت كما قدروا، و من ضم أراد أن

(١) الشوكاني ٣٣٨ / ٥ و القرطبي ١٣٣ / ١٩ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٢

ذلك قدر لهم أي قدره الله لهم كذلك. وقرأ نافع و الكسائي و ابو بكر عن عاصم (قواريراً قواريراً) بالتنوين فيهما. وقرأ بغير تنوين و لا الف في الوقف حمزة و ابن عامر، وقرأ الاولى بالتنوين و الثانية بغير تنوين ابن كثير. وقرأ ابو عمرو فيهما بغير تنوين إلا انه يقف عليه بالألف. من نون الأولى اتبع المصحف، و لأنه رأس آية، ثم كرهوا أن يخالفوا بينهما فنونوا الثانية، و كذلك قرأ الكسائي (ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) «١» صرفهما لئلا يخالف بينهما مع قريهما، و من لم يصرفهما فعلى موجب العربية، لأنه جمع على (فواعيل) بعد ألفه حرفان. و من صرف الاولى فلأنها رأس آية و لم يصرف الثانية على أصل العربية.

لما اخبر الله تعالى عن المؤمنين الذين وصفهم في الآيات الأولى و ما أوفوا به من النذر في إطعامهم لوجه الله ما أطعموه و إيتارهم على نفوسهم المسكين و اليتيم و الأسير و إنهم فعلوا ذلك لوجه الله خالصاً، و مخافة من عذاب يوم القيامة، اخبر بما أعد لهم من الجزاء على ذلك، فقال (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أي كفاهم الله و منع عنهم أهوال يوم القيامة و شدائده، فالوقاء المنع من الأذى يقال: وقاه يقيه وقاء، فهو واق، و وقاه توقيه قال رؤبة:

إن الموقى مثل ما وقيت «٢»

و منه اتقاه اتقاء و توقاه توقياً، و الشر ظهور الضر، و أصله الظهور من قولهم:

و حتى أشرت بالأكف المصاحف «٣»

أي أظهرت، و منه شررت الثوب إذا أظهرته للشمس او الريح، و منه شرار

(١) سورة ١١ هود آية ٦٨

(٢) اللسان (وقى)

(٣) قائله كعب بن جعيل، مقاييس اللغة ٣ / ١٨١ و صدره:

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٣

النار لظهوره بتطاييره و انتشاره، و قيل: الشر الضر و القبيح، و يستعار في غيره، و ليس ما يوجب هذا. و المراد- هاهنا- أهوال يوم القيامة و شدائده فالوقاء المنع من الأذى يقال: وقاه يقيه و قاء فهو واق و وقاه توقيه و قوله (وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) معنى لقاهاهم استقبلهم به، و النضرة حسن الألوان، و منه نبت نضر و ناضر و ناضر و نضر و النضار الذهب. و قيل: ناضرة ناعمة. و قيل: حسنة الصورة. و السرور اعتقاد وصول المنافع اليه في المستقبل. و قال قوم: هو لذة في القلب بحسب متعلقه بما فيه النفع، سره يسره سروراً و كل سرور فلا بدله من متعلق، كالسرور بالمال و الولد و السرور بالإكرام و الإجلال، و السرور بالشكر و الحمد، و السرور بالثواب.

و قوله (وَ جَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) أى كافهم و أثابهم على صبرهم على محن الدنيا و شدائدها و تحمل مشاق التكليف (جَنَّةً) أى بستاناً أجنة الشجر (وَ حَرِيرًا) يلبسونه. و قوله (مُتَّكِنِينَ) نصب على الحال (فيها) يعنى فى الجنة (عَلَى الْأَرَائِكِ) و هى الحجال فيها الاسرة- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة- واحدا اريكه و هى الحجلة سرير عليه شبه القبة. و قال الزجاج: الاريكه كل ما يتكأ عليه من مسورة أو غيرها، و قد شوق الله تعالى إلى تلك الحال و هى غاية الرفاهية و الامتاع (لا يَزُونَ فِيهَا) يعنى فى الجنة (شَمْسًا) يتأذون بحرّها (وَ لا زَمَهْرِيرًا) يتأذون ببرده، فالزمهرير أشد ما يكون من البرد، و قال مجاهد: الزمهير البرد الشديد و قوله (وَ دائِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) يعنى أفياء أشجار تلك الجنة قريبة منهم، و نصب (دَائِيَةً) بالعطف على (مُتَّكِنِينَ) و يجوز ان يكون عطفاً على موضع (لا يَزُونَ فِيهَا شَمْسًا) فان موضعها نصب على الحال، و يجوز على المدح كقولهم عند فلان جارية جميلة و شابة طرية. و قوله (وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَدْلِيلًا) معناه إن قام ارتفعت بقدره الله و إن قعد نزلت حتى ينالها و إن اضطجع نزلت حتى ينالها- ذكره مجاهد- و قيل: معناه لا يرد التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٤

أيديهم عنها بعد و لا شوكة.

و قوله (وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ) يعنى على هؤلاء المؤمنين الذين وصفهم الله (بِآيَاتِهِ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) و هو جمع كوب و هو إناء الشراب من غير عروة. و قال مجاهد: الأكواب الأقداح. و قال ابن عباس و مجاهد: هى صغار القوارير و هى فضة، فلذلك قال (كَانَتْ قَوَارِيرًا) و قيل: الأكواب الأباريق التى ليس لها خراطيم. و قيل: الأكواب من فضة فى صفاء القوارير لا تمنع الرؤية. و قوله (قَوَارِيرًا مِنْ فَضَّةٍ) أى هى من فضة. و قوله (فَمَدَرُوهَا تَقْدِيرًا) معناه إنها على قدر ما يشتهون من غير زيادة و لا نقصان حتى تستوفى الكمال، و يجوز ان يكونوا قدروها قبل مجيئها على صفة فجاءت على ما قدروا جنسه لشبه التمنى، و قال الحسن: على قدرهم، و التقدير وضع المعنى على المقدار الذى يتخيل فيه المساواة للاعتبار بالمعانى العقلية بقدر عرف التقدير على طريقة لو كان كذا لكان كذا، و إذا كان كذا كان كذا، و بهذا يظهر القياس يميز به ما يلزم على الأصل مما لا يلزم، و الطوف الدور بالنقل من واحد إلى واحد. و قد يكون الدور بالطبع من غير تنقل من واحد إلى آخر، فلا يكون طوفاً، طاف يطوف طوفاً، و أطاف بها إطافة و تطوف تطوفاً و اطوف اطوفاً و قوله (وَ يُشِيقُونَ فِيهَا) يعنى فى الجنة (كَأَسًا) و هى الآنية إذا كان فيها شراب (كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا) فالزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعام يلذع اللسان يربى بالعسل يستدفع به المضار إذا مزج به الشراب فاق فى الالذاذ. و العرب تستطيب الزنجبيل جداً قال الشاعر:

كأن القرنفل و الزنجبيل باتا بفيها و اريا مشورا «١»

و قيل: إن هذا الشراب فى برد الكافور و ذكاء المسك و لذع الزنجبيل، كما

(١) قائله الأعشى ديوانه ٨٥ و اللسان (شور) و فيه اختلاف فى الرواية

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٥

قال فى صفة القوارير إنها فى صفاء الفضة و جوهرها يرى ما وراءها كالقوارير.

وقيل: الكافور والزنجبيل من اسماء العين التي يسقون منها وقوله «عيناً» نصب على انه بدل من الزنجبيل «فيها تُسَيِّمِي سَلْسِيلاً» فالسلسيل الشراب السهل اللذيذ، وقيل: سلسيل معناه منقاد ماؤها حيث شاءوا- عن قتادة- وقيل شديد الحره.

وقيل: يتسلسله. وقيل: سمى سلسيلاً من لزوم الطيب والالذاذ بها، وانشد يونس:

صفراء من نبع يسمى سهمها من طول ما صرع الصيود الصيب (١)

فرغ الصيب على صفة السهم. وقيل: اسم العين معرفة إلا أنه نون لأنه رأس آية. ثم قال «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ» قال قتادة: لا يموتون. وقال الحسن: خلدوا على هيئة الوصفاء، فلا يشبون أبداً. وقيل: مخلدون مستورون بلغه حمير قال بعض شعرائهم:

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن اقاوز الكثبان (٢)

و كأنه يرجع الى بقاء الحسن «إِذَا رَأَيْتَهُمْ» يعني إذا رأيت هؤلاء الولدان «حَسْبَ بَنَاتِهِمْ لَوْلُؤًا مَّنْثُورًا» أي من كثرتهم وحسنهم، فكأنهم اللؤلؤ المنثور- ذكره قتادة- وقوله «وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا» تقديره وإذا رأيت الأشياء ثم رأيت نعيماً لأهل الجنة عظيماً وملكاً كبيراً. قال سفيان: من الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم واستقبالهم لهم بالتحية. وقوله «وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ» ف «ثم» يريد به الجنة. والعامل فيه معنى «رَأَيْتَ» وتقديره وإذا رأيت ببصرك ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. وقال الفراء: وإذا رأيت ما ثم رأيت نعيماً. وأنكره الزجاج وقال (ما) موصولة يتم على تفسيره، ولا يجوز إسقاط الموصول مع بقاء الصلة، ولكن (رأيت) متعد في المعنى إلى (ثم).

(١) تفسير الطبري ٢٩ / ١١٨

(٢) مقاييس اللغة ٢ / ٢٠٨ و اللسان (خلد، قوز)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٦

قوله تعالى: [سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢١ الى ٣١] ص: ٢١٦

عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

احدى عشرة آية.

قرأ (عليهم) بإسكان الياء أهل المدينة و حمزة و عاصم- فى رواية حفص و أبان و المفضل- جعلوه اسماً لا ظرفاً كما تقول: فوقك واسع و منزلك باب البرد، بأن يجعل الباب هو المنزل، و كذلك يجعل الثياب هى العالى. الباقون بالنصب على الظرف، لأنه ظرف مكان. و هو الأ-حسن، لان الثانى غير الأول. وإنما يجوز فى مثل ما كان آخر الكلام هو الأول كقولهم: أمامك صدرك، و فوقك

رأسك، التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٧

فان قلت فوقك السقف و أمامك الأسد بالنصب لا غير. و قرأ نافع و حفص عن عاصم (خضر و إستبرق) بالرفع فيهما. و قرأ حمزة و الكسائى بالجر فيهما. و قرأ ابن كثير و عاصم- فى رواية أبى بكر «خضر» جراً «و إستبرق» رفعاً. و قرأ ابن عامر و ابو عمرو «خضر» رفعاً

و «إستبرق» جراً. من رفعهما جعل «خضر» نعتاً للثياب، و عطف عليه «و إستبرق» و من جرهما جعل «خضر» من نعت «سندس» و عطف عليه «إستبرق» و تقديره عاليهم ثياب إستبرق. و من رفع الأول جعله من نعت الثياب و جر الثاني على انه عطف على «سندس» كأن عليهم ثياب سندس. و من جعل «خضر» نعتاً ل «سندس»، فلانه اسم جنس يقع على الجميع، فلذلك قال «خضر» و من جعله نعتاً للثياب فعلى اللفظ. و قرأ ابن كثير و ابو عمرو «و ما يشاؤون» بالياء على الخبر عن الغائب. الباقيون بالتاء على الخطاب.

لما قال الله تعالى على وجه التعظيم لشأن المؤمنين الذين وصفهم و عظم ما اعطوا من أنواع النعيم و الولدان و أنواع الشراب و غير ذلك مما وصف، و وصف ذلك بأنه ملك كبير قال «عَالِيَهُمْ» و قيل معناه عالي حجالهم السندس. و في نصب «عاليهم» قولان: قال الفراء: هو نصب على الظرف كقولك: فوقهم، و حكى إن العرب تقول: قومك داخل الدار. و أنكر الزجاج ذلك، و قال نصبه لا يجوز إلا- على الحال من الضمير في «عاليهم» أو من ضمير الولدان في «رأيتهم» و إنما أنكر ذلك لأنه ليس باسم مكان كقولك هو خارج الدار و داخل الدار، و هذا لا يجوز على الظرف عند سيوييه، و ما حكاه الفراء شاذ لا يعول عليه. و من أسكن الياء أراد رفعه على الابتداء و خبره «ثيابُ سُندسٍ» و السندس الديق الرقيق الفاخر الحسن التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٨

و هو (فعل) مثل برثن. و قوله «خُضْرٌ» فمن جر جعله صفة ل (سندس) خضر و وصف (سندس) بخضر و هو لفظ جمع، لان سندساً اسم جنس يقع على الكثير و القليل. و من رفعه جعله نعتاً ل (ثياب) كأنه قال: ثياب خضر من سندس.

و قوله «و إستبرق» من رفعه عطفه على «ثياب سندس» فكأنه قال عاليهم ثياب سندس، و عاليهم إستبرق. و من جر عطفه على (سندس) فكأنه قال: عاليهم ثياب سندس و ثياب إستبرق.

و الإستبرق الديق الغليظ الذي له بريق، فهم يتصرفون في فاخر اللباس كما يتصرفون في لذيذ الطعام و الشراب. و قيل الإستبرق له غلظ الصفاقة لا غلظ السلوك كغلظ الديقى، و إن كان رقيق السلوك.

و قوله «و حُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ» فالتحلية الزينة بما كان من الذهب و الفضة و التحلية تكون للإنسان و غير الإنسان كحلية السيف و حلية المركب و الفضاضة الشفافة هي التي يرى ما وراءها كما يرى البلورة، و هي أفضل من الدرّ و الياقوت، و هما أفضل من الذهب فتلك الفضة أفضل من الذهب، و الفضة و الذهب في الدنيا هما أثمان الأشياء، و إن كان قد ثمن بغيرهما شاذاً. و قيل: يحلون الذهب تارة و تارة الفضة ليجمعوا محاسن الحلية، كما قال تعالى «يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» (١) و الفضة و إن كانت دنية في الدنيا، فهي في غاية الحسن خاصة إذا كانت بالصفة التي ذكرها و الغرض في الآخرة ما يكثر الالتذاد و السرور به لا بأكثر الثمن، لأنه ليست هناك أثمان. و في الناس من ترك صرف (إستبرق) و هو غلظ، لأن الاعجمى إذا عرب في حال تنكيره انصرف، و دليله الإستبرق و هما مما يحكى عن ابن محيص.

و قوله «و سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» قيل معناه يسقون شراباً طهوراً ليس

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣١ و سورة ٢٢ الحج آية ٢٣ و سورة ٣٥ فاطر آية ٣٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢١٩

كالذي يخالطه الانجاس من أنهار الدنيا. و إن قل ذلك و كان مغموراً. و قيل انه ليس كشراب الدنيا الذي قد نجسه الفساد الذي فيه، و هو السكر الداعي إلى القبائح، فقد طهره الله في الجنة من ذلك لتخلص به اللذة، كما قال «مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» (١) و قيل: شراباً طهوراً لا ينقلب إلى البول بل يفيض من أعراضهم كرشح المسك ذكره ابراهيم التيمى.

و قوله «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا» اخبار من الله تعالى انه يقال للمؤمنين إذا فعل بهم ما تقدم من انواع اللذات و فنون الثواب: إن هذا كان لكم جزاء على طاعاتكم و اجتناب معاصيكم في دار التكليف، و إن سعيكم في مرضات الله و قيامكم بما أمركم الله به كان مشكوراً أى جوزيتم عليه، فكأنه شكر لكم فعلكم.

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَیْكَ» يا محمد «الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا» فيه شرف و تعظیم لك. ثم أمره بالصبر على ما أمره من تحمل أعباء الرسالة فقال «فَاصْبِرْ» يا محمد «لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ» يعنى من قومه الذين بعث اليهم «آثِمًا أَوْ كَفُورًا» و هو نهى عن الجمع و التفريق أى لا تطع آثمًا و لا كفورًا، كما يقول القائل: لا تفعل معصية صغيرة او كبيرة أى لا تفعلها و لا واحدة منهما. ثم أمره بان يذكر الله بما يستحقه من الصفات و الأسماء الحسنی، فقال «وَ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ آصِيلاً» و البكرة الغداة و الأصيل العشى، و هو اصل الليل و جمعه آصال.

و قوله «وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ» دخلت (من) للتبعيض بمعنى فاسجد له فى بعض الليل، لأنه لم يأمره بقيام جميع الليل، كما قال

(١) سورة ٤٧ محمد آية ١٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٠

«إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» (١) و السجود وضع الجبهة على الأرض على وجه الخضوع و أصله الانخفاض كما قال الشاعر:

ترى الاكم فيها سجداً للحوافر (٢)

و السجود من العبادة التى أكد الله الأمر بها لما فيها من صلاح العباد. ثم قال «وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا» أى نزهه عما لا يليق به فى الليل الطويل. ثم قال «إِنَّ هَؤُلَاءِ» يعنى الكفار و الذين يجحدون نبوتك «يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ» أى يؤثرون اللذات و المنافع العاجلة فى دار الدنيا من ارتكاب شهواتهم. و العاجلة المقدمة قبل الكرة الثانية «وَ يَذَرُونَ» أى و يتركون (وراءهم) أى خلفهم «يَوْمًا ثَقِيلًا» أى هو ثقيل على اهل النار أمره، و إن خف على اهل الجنة للبشارة التى لهم فيه. و الثقيل ما فيه اعتمادات لازمة إلى جهة السفلى على جهة يشق حمله. و قد يكون ثقيلًا على انسان خفيفًا على غيره بحسب قدرته، فيوم القيامة مشبه بهذا. و قيل: معنى (وراءهم) أى خلف ظهورهم العمل للاخرة. و قيل (وراءهم) أمامهم الآخرة، و كلاهما محتمل، و الاول أظهر.

ثم قال تعالى (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ) أى نحن الذين اخترعنا هؤلاء الخلائق (وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) قال ابن عباس الأسر الخلق، و هو من قولهم: أسر هذا الرجل فأحسن اسره أى خلق فأحسن خلقه أى شد بعضه إلى بعض أحسن الشد، و قال ابو هريرة: الأسر المفاصل. و قال ابن زيد: الأسر القوة. و قولهم: خذ بأسره أى بشده قبل ان يحل، ثم كثر حتى جاء بمعنى خذ جميعه قال الأخطل:

(١) سورة ٧٣ المزملة آية ٢٠

(٢) مر فى ١/١٤٨، ٢٤٣، ٣١١ و ٤/٢٣٣، ٣٨٣ و ٦/٩٥ و غيرها

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢١

من كل مجتلب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا (١)

و اصل الأسر الشد، و منه قتب مأسور أى مشدود، و منه الأسير، لأنهم كانوا يشدونهم بالقيد، و جاء فى التفسير و شددنا مفاصلهم. ثم قال (وَ إِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) معناه إذا شئنا أهلكنا هؤلاء و أمثالهم و جئنا بقوم آخرين بدلهم نخلفهم و نوجدهم.

و قوله (إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ) قال قتادة: معناه إن هذه السورة تذكرة، و التذكرة دلالة تخص بها المعانى الحكيمية، و كل موعظة تدعو إلى مكارم الأخلاق و محاسن الافعال تذكرة (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) أى اتخذ إلى رضا ربه طريقاً بأن يعمل بطاعته و ينتهى عن معصيته، و ذلك يدل على انه قادر على ذلك قبل ان يفعله بخلاف ما يقوله المجبرة.

و قوله (وَ مَا تَسْأُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أى و ليس تسأون شيئاً من العمل بطاعته و بما يرضاه و يوصلكم الى ثوابه إلا و الله يشاؤه و يريد

لأنه يريد من عباده أن يطيعوه، وليس المراد أن يشاء كل ما يشاؤه العبد من المعاصي والمباحات، لأن الحكيم لا يجوز أن يريد القبائح ولا المباح، لأن ذلك صفة نقص و يتعالى الله عن ذلك. وقد قال الله تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ) «٢» و المعصية والكفر من أعظم العسر فكيف يكون الله تعالى مشيئاً له و هل ذلك إلا تناقض ظاهر؟! وقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) اخبار بأنه- عز و جل - كان عالماً بجميع المعلومات و بما يفعله عباده من الطاعة و المعصية (حكيماً) في جميع ما يفعله و يأمر به. ثم قال (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) من الجنة و ثوابها إذا أطاعوه في عمل ما رغبتهم

(١) القرطبي ١٤٩ / ١٩ و الطبري ١٢٢ / ٢٩

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٢

فيه (وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) نصب (الظالمين) على تقدير و عاقب الظالمين باعداد العذاب الأليم أى أعد للظالمين أعد لهم، و حذف لدلالة الثاني عليه و لا يظهر ذلك، لأن تفسيره يغنى عن إظهاره.

٧٧-سورة المرسلات: ص: ٢٢٢

إشارة

مكية في قول ابن عباس و هي خمسون آية بلا خلاف

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ١٥] ص: ٢٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤)
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)
وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَ إِذَا الرُّسُلُ أَقْتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفُضْلِ (١٣) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ (١٤)
وَ يَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)
خمس عشرة آية.

قرأ «عُدْرًا» مثقل ابو جعفر و البرجمي و قرأ «او نذراً» خفيف أهل الكوفة غير أبى بكر و ابو عمرو. من ثقل الأول فلأن الثاني مثقل، و من خفف الثاني فلأن التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٣

الأول مخفف. و العذر بالتخفيف و النذر بمعنى الاعذار و الانذار. و من ثقل «نذراً» أراد جمع نذير. و العذر و المعذرة و التعذير بمعنى. قال ابو على النحوى: النذر بالثقل و النذير مثل النكر و النكير جميعاً مصدران، و يجوز في النذر أمران: أحدهما- ان يكون معناه المنذر. و الثاني- أن يكون مصدرًا. و قرأ ابو عمرو وحده «وقتت» بالواو على الأصل، وافقه ابو جعفر في ذلك إلا انه خفف الواو. الباقون «أقتت» بالهمزة أبدلوا من الواو كراهة الضمة على الواو، كما قالوا في (وحد) و قال الشاعر:

يحل أخيه و يقال ثعل بمثل تمول منه افتقار «١»

هذا قسم من الله تعالى بالمرسلات، كما اقسام بصاد و قاف و يس و غير ذلك و قال قوم: تقديره و رب المرسلات، لأنه لا يجوز القسم إلا- بالله. و قال ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابو صالح: المرسلات- هاهنا- الرياح، و في رواية اخرى عن ابن

مسعود و أبو صالح إنها الملائكة. و قال قوم «المُرْسَلَاتِ عُرْفًا» الأنبياء جاءت بالمعروف. و الإرسال نقيض الإمساك و مثله الإطلاق و نقيضه التقييد و الإرسال أيضاً إنفاذ الرسول. و قوله «عرفاً» أى متتابعة كعرف الفرس. و قيل: معروفاً إرسالها. و إرسال الرياح اجراء بعضها فى أثر بعض «فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا» يعنى الرياح الهابئة بشدة. و العصفوف مرور الرياح بشدة، عصفت الرياح تعصف عصفاً و عصفواً إذا اشتدت هبوبها، فعصفوف الرياح شدة هبوبها. و قوله «وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا» قال ابن مسعود و مجاهد و قتادة و أبو صالح: هى الرياح، لأنها تنشر السحاب للغيث، كما تلحقه للمطر. و قال أبو صالح- فى رواية- هى الملائكة تنشر الكتب عن الله. و فى رواية اخرى عن أبى صالح إنها الأمطار لأنها تنشر النبات. و قيل الرياح تنشر السحاب فى الهواء.

(١) الطبرى ٢٩ / ١٢٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٤

و قوله «فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا» قال ابن عباس و أبو صالح: هى التى تفرق بين الحق و الباطل، و هى الملائكة و قال قتادة: هى آيات القرآن. و قال الحسن: هى آى القرآن تفرق بين الهدى و الضلال (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) قال ابن عباس و قتادة هم الملائكة. و الإلقاء طرح الشىء على غيره، و الإلقاء إيقاع الشىء على غيره، فالذكر يلقي بالبيان و الأفهام و هو من صفه الملائكة فيما تلقيه إلى الأنبياء، و من صفه الأنبياء فيما تلقيه إلى الأمم، و من صفه العلماء فيما تلقيه الى المتعلمين و قيل لما جمعت الأوصاف للرياح لاختلاف فوائدها. و قال بعضهم (المُرْسَلَاتِ عُرْفًا) الأنبياء جاءت بالمعروف (فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) الرياح «وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا» الأمطار نشرت النبات «فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا» آى القرآن (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) الملائكة تلقي كتاب الله تعالى إلى الأنبياء.

و قوله «عُذْرًا أَوْ نَذْرًا» يحتمل نصبه وجهين:

أحدهما- على انه مفعول له أى للاعذار و الانذار.

و الثانى- مفعول به أى ذكرت العذر و النذر. و اختار أبو على أن يكون بدلاً من قوله «ذكرًا» و قيل معناه اعذاراً من الله و إنذاراً الى خلقه ما ألقته الملائكة من الذكر إلى أنبيائه و العذر أمر فى امر ظهوره دفع اللوم بأنه لم يكن يستحق لأجل تلك الحال مع وقوع خلاف المراد. فالعقاب على القبيح بعد الانذار يوجب العذر فى وقوعه. و إن كان بخلاف مراد العبد الذى استحقه. قال الحسن «عذراً» معناه يعتذر به الى عباده فى العقاب أنه لم يكن الا على وجه الحكمة. و النذر و الانذار و هو الاعلام بموضع المخافة ليتقى. و من خفف «عذراً» كره توالى الضميتين.

و قوله «إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَوَاقِعٍ» جواب القسم و معناه إن الذى وعدكم الله به من البعث و النشور و الثواب و العقاب: كائن لا محالة. و قيل: الفرق بين الواقع التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٥

و الكائن أن الواقع لا يكون إلا حادثاً تشبيهاً بالحائظ الواقع، لأنه من أبين الأشياء فى الحدوث، و الكائن أعم منه لأنه بمنزلة الموجود الثابت يكون حادثاً و غير حادث.

و قوله «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» معناه محيت آثارها و ذهب نورها. و الطمس محو الأثر الدال على الشىء فالطمس على النجوم كالطمس على الكتاب، لأنه يذهب نورها و العلامات التى كانت تعرف بها (وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ) أى شققت و صدعت (وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) نسف الجبال إذهابها حتى لا يبقى لها فى الأرض أثر، و النسف تحريك الشىء بما يخرج ترابه و ما اختلط به مما ليس منه، و منه سمي المنسف و نسف الجيوب كلها تجرى على هذا الوجه، و قوله «نُسِفَتْ» من قولهم: أنسفت الشىء إذا أخذته بسرعة.

و قوله (وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ) أى أعلمت وقت الثواب و وقت العقاب، فالتوقيت تقدير الوقت لوقوع الفعل، و لما كانت الرسل عليهم السلام قد قدر إرسالها لاوقات معلومة بحسب صلاح العباد فيها كانت قد وقتت لتلك الأوقات بمعنى أعلمت وقت الثواب و وقت العقاب. و قال مجاهد و ابراهيم و ابن زيد: أقتت بالاجتماع لوقتها يوم القيامة قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ) «١» و المواقيت الآجال

ومثله (يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) «٢» وقيل: معنى اقلت لوقت ثوابها، و هو يوم الفصل. وقيل: معناه اقلت فيما بينها وبين أمتها (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) ثم بين تعالى فقال (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) أى أخرت إلى اجل فالتأجيل التأخير الى أجل، فالرسل قد اقلت بموعودها الى يوم الفصل، و هو يوم القيامة و سمي يوم الفصل، لأنه يفصل فيه بين حال المهتدى و الضال بما يعلم الله لأحدهما من

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٢ [.....]

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٦

حال الثواب بالإجلال و الإكرام، و للآخر من حال العقاب بالاستخفاف و الهوان بما لا يخفى على انسان. وقيل: الوجه فى تأجيل الموعود إلى يوم الفصل تحديد الامر للجزاء على جميع العباد فيه بوقوع اليأس من الرد إلى دار التكليف، لان فى تصور هذا ما يتأكد به الدعاء الى الطاعة و الانزجار عن المعصية.

وقوله (وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تهديد و وعيد لمن جحد يوم القيامة و كذب بالثواب و العقاب، و إنما خص الوعيد فى الذكر بالمكذبين لأن التكذيب بالحق يتبعه كل شىء، فخصال المعاصى تابعة له و إن لم يذكر معه، مع أن التكذيب قد يكون فى القول و الفعل المخالف للحق، و منه قولهم: حمل فما كذب حتى لقي العدو فهزمه.

قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٢٨] ص: ٢٢٦

أَلَمْ نُهْلِكِكَ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠)

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَ أَمْواتًا (٢٦) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَ أَشْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ثلاث عشرة آية.

قرأ أهل المدينة و الكسائى «فقدرونا» مشددة. الباقون بالتخفيف و هما لغتان. و من اختار التخفيف فلقوله «فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ».

يقول الله تعالى على وجه التهديد للكفار «أَلَمْ نُهْلِكِكَ الْأَوَّلِينَ» يعنى قوم نوح التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٧

و عاد و ثمود، و الآخرون قوم لوط و ابراهيم إلى فرعون و من معه من الجنود أهلكتهم الله تعالى بأنواع الهلاك جزاء على كفرهم نعم الله و جحدهم لتوحيده و اخلاص عبادته و قوله «ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ» إنما رفعه عطفاً على موضع «ألم» كأنه قال:

لكننا نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخريين. و قال المبرد تقديره ثم نحن نتبعهم لا يجوز غيره. لان قوله (أَلَمْ نُهْلِكِكَ) ماض، و قوله (ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ) مستقبل فلا يكون عطفاً على الاول و لا على موضعه. و الإهلاك إبطل الشىء بتصويره الى حيث لا يدري اين هو إما باعدامه او بإخفاء مكانه، و قد يكون الإهلاك بالاماتة، و قد يكون بالنقل إلى حال الجمادية. و الاول هو الكائن قبل غيره. و الثانى هو الكائن بعد غيره.

و الاول قبل كل شىء هو الله تعالى الذى لم يزل. (وَالأَوَّلِينَ) فى الآية هم الذين تقدموا على أهل العصر الثانى، و الآخر الكائن بعد الاول من غير بقيه منه، و بهذا يفصل عن الثانى، لأن الثانى قد يكون بعد بقيه من الشىء ثالثاً و رابعاً و خامساً إلى حيث انتهى، فإذا صار الى الآخر فليس بعده شىء كالكتاب الذى هو أجزاء كثيرة و قوله (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) أى مثل ما فعلنا بأولئك نفعل مثله بالعصاة ثم قال (وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ) يعنى يوم الجزاء و الثواب و العقاب (لِلْمُكَذِّبِينَ) فإنهم يجازون بأليم العقاب. و الاتباع الحاق الثانى بالاول

بدعائه اليه، و التبع الحاق الثانى بالأول باقتضائه له، تبع تبعاً فهو تابع و أتبع اتباعاً.

و قوله (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ) و المهين القليل الغناء، و مثله الحقير الذليل و فى خلق الإنسان على هذا الكمال من الحواس الصحيحة و العقل و التميز من ماء مهين أعظم الاعتبار و أبين الحجة على ان له مدبراً و صانعاً و خالقاً خلقه و صنعه فمن جحدته كان كالمكابرة لما هو من دلائل العقول.

ثم قال الله تعالى مبيناً انه جعل ذلك الماء المهين الحقير (فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٨ فالقرار المكان الذى يمكن أن يطول فيه مكث الشيء، و منه قولهم: قر فى المكان إذا ثبت على طول المكث فيه يقر قراراً، و لا قرار لفلان فى هذا المكان أى لا ثبات له.

و قوله (إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) فالقدر المقدر المعلوم الذى لا زيادة فيه و لا نقصان و كأنه قال إلى مقدار من الوقت المعلوم، و القدر مصدر من قولهم: قدر يقدر قدراً و قدر يقدر- بالتخفيف، و التشديد- إلا أن التشديد للتكثير. و قوله (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) معناه فى قول من خفف فقدرونا من القدرة، فنعمة القادرون على تدبيره. و من شدد أراد فقدرونا، فنعمة المقدرين لحوال النطفة و نقلها من حال الى حال حتى صارت إلى حال الإنسان. و العرب تقول: قدر عليه الموت و قدر: بالتخفيف و التشديد. و من شدد و قرأ القادرون جمع بين اللغتين كما قال الأعشى:

و انكرتنى و ما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب و الصلعا «١»

و قوله (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا) نصب (كفاتاً) على الحال، و تقديره أ لم نجعل الأرض لكم و لهم كفاتاً، و الكفات الضمام فقد جعل الله الأرض للعباد تكفتهم (أَحْيَاءَ وَ أَمْواتاً) أى تضمهم فى الحالين كفت الشيء يكفته كفتاً و كفاتاً إذا ضمه و قيل (كفاتاً) وعاء و هذا كفته أى وعاءه، و يقال كفيته أيضاً، و قال الشعبي و مجاهد: فظهرها للأحياء و بطنها للأموات، و هو قول قتادة و نصب أحياء و أمواتاً على الحال، و يجوز على المفعول به، قال ابو عبيدة و غيره (كفاتاً) أى اوعيه يقال:

هذا النحي كفت هذا و كفيته.

و قوله (أَحْيَاءَ وَ أَمْواتاً) أى منه ما ينبت، و منه ما لا ينبت.

و قوله (وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَواسِيَ شَامِخَاتٍ) أى و جعلنا فى الأرض جبالاً ثابتة

(١) مر فى ٢٨ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢٩

عالية، فالشامخات العاليات، شمش يشمخ شمخاً، فهو شامخ، و منه شمش بأنفه إذا رفعه كبيراً، و جبل شامخ و شاهق و بازخ كله بمعنى واحد و الرواسى الثوابت.

و قوله (وَ أَشَقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) أى و جعلنا لكم شرباً من الماء الفرات، و هو العذب و هو صفة يقال: ماء فرات و ماء زلال و ماء غدق و ماء نمير كله من العذوبة و الطيب، و به سمي النهر العظيم المعروف بالفرات قال الشاعر:

إذا غاب عنا غاب عنا فراتنا و إن شهد أجدى فضله و جداوله «١»

و قال ابن عباس أصول الأنهار العذبة أربعة: جيحان و منه دجلة، و سيحان نهر بلخ، و فرات الكوفة، و نيل مصر. و قوله (وَ يُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) قد فرسناه.

قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٩ الى ٤٠] ص: ٢٢٩

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا- ظَلِيلٍ وَلَا- يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)
 وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا- يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا- يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفُضَيْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى (٣٨)
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)
 اثنتا عشرة آية.

(١) مر في ١٩٤/٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٠

قرأ رويس (انطلقوا إلى ظل) على فتح اللام بلفظ الماضي. وقرأ أهل الكوفة إلا- أبا بكر (جمالة) وضم الجيم يعقوب، الباقون (جمالات) من قرأ (جمالة) على لفظ الواحد قال معناه الجمع لقوله (صفر) و من قرأ (جمالات) بكسر الجيم قال: جمالة و جمالات جميعاً جمعان، كأنه جمع الجمع مثل: رجال و رجالات، و بيوت و بيوتات، و الهاء في قوله (كأنه) كناية عن الشر. و هذا حكاية ما يقول الله تعالى للكفار المكذبين بيوم الدين يوم القيامة فانه يقول لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العقاب على الكفر و دخول النار جزاء على المعاصي، فكنتم تجحدون ذلك و تكذبون به و لا تعترفون بصحته، فامضوا اليوم اليه. فالانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث الاعتقال، و هو من الإطلاق خلاف التقييد، و الانتقال من حال إلى حال، و من اعتقاد إلى اعتقاد لا يسمى انطلافاً. ثم ذكر الموضوع الذي أمرهم بالانطلاق اليه، فقال (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) قيل: معناه يتشعب من النار ثلاث شعب: شعبة فوقه، و شعبة عن يمينه و شعبة عن شماله فيحيط بالكافر. و قال مجاهد و قتادة (ظل) دخان من جهنم ينقسم ثلاث شعب كما قال تعالى (أحاط بهم سرادقها) «١» أي من الدخان الآخذ بالانفاس (لا- ظليل) معناه غير مانع من الأذى يستر عنه، فالظليل المانع من الأذى بستره عنه، و مثله الكنين، فالظليل من الظلة، و هي السترة، و الكنين من الكن، فظل هذا الدخان لا- يغني الكفار من حر النار شيئاً. و بين ذلك بقوله «و لا يغني من اللهب» و الإغناء إيجاد الكفاية بما يكون وجود غيره و عدمه سواء يقال: أغنى عنه أي كفى في الدفع عنه. و اللهب ارتفاع الشرر، و هو اضطرام النار، التهب يلتهب التهاباً و ألهبها إلهاباً و لهباً.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣١

و قوله «إنها» يعني النار «ترمي بشرر» و هي قطع تطاير من النار في الجهات و أصله الظهور من شررت الثوب إذا أظهرته للشمس و الشرر يظهر متبدداً من النار. و قوله «كالقصر» أي ذلك الشرر كالقصر أي مثله في عظمه، و هو يتطاير على الكافرين من كل جهة- نعوذ بالله منه- و القصر واحد القصور من البنيان- في قول ابن عباس و مجاهد- و في رواية أخرى عن ابن عباس و قتادة و الضحاك: القصر أصول الشجر واحده قصره مثل جمرة و جمر، و العرب تشبه الإبل بالقصور، قال الأخطل:

كأنه برج رومي يشيده لُرُّ بجص و آجر و أحجار «١»

و القصر في معنى الجمع إلا انه على طريق الجنس. ثم شبه القصر بالجمال، فقال «كأنه جمالت صيفر» قال الحسن و قتادة: كأنها أنيق سود، لما يعترى سوادها من الصفرة. و قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبیر: قلوس السفن، و في رواية أخرى عن ابن عباس: هي قطع النحاس. قال الزجاج «جمالات» بالضم جمع جمالة و هو القلس من قلوس البحر، و يجوز أن يكون جمع (جمل) و جمالات، كما قيل (رحال) جمع (رحل) و من كسر فعلى انه جمع جمالة، و جمالة جمع جمل مثل حجر و حجارة، و ذكر و ذكارة. و قرئ في الشواذ

«كالقصر» بفتح الصاد جمع كأنها أعناق الإبل «وجمالات» جمع جمل كرجل ورجالات، وبيت وبيوتات، ويجوز أن يكون جمع جماله. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «جملة» بغير الألف على التوحيد لأنه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. الباقون جمالات بألف، مكسور الجيم.
وقوله «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» قد فسرناه ثم قال تعالى «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ

(١) مر في ٥٣/٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٢
وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» اخبار من الله تعالى أن ذلك اليوم لا ينطق الكفار.
وقيل في معناه قولان:

أحدهما - ص: ٢٣٢

ان ذلك اليوم مواطن، فمواطن لا- ينطقون، لأنهم ملبسون من هول ما يرونه، و موطن يطلق فيه عن ألسنتهم فينطقون، فلذلك حكى عنهم أنهم «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخِيَّتْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» (١) وقد يقال هذا يوم لا ينطقون إذا لم ينطقوا في بعضه كما يقال: كان كذا يوم قدم فلان و إن كان قدم في بعضه، لان المعنى مفهوم.

و الثاني - ص: ٢٣٢

انهم ينطقون بنطق لا- ينتفعون به، و كأنهم لم ينطقوا، و أضاف الزمان إلى الأفعال كقولك أتيتك يوم قدم زيد، و آتيتك يوم يخرج عمرو، و أجاز النحويون هذا يوم لا ينطقون بالنصب على انه يشير إلى الجزء، و لا يشير إلى اليوم
وقوله «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ» فالاذن الإطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالاذن فهذا أصله و قد كثر استعماله حتى صار كل دليل ظهر به أن للقادر أن يفعل كذا فهو أذن له، و كل ما اطلق الله فيه بأى دليل كان، فقد أذن فيه.
وقوله تعالى «فَيَعْتَذِرُونَ» فالاعتذار الانتفاء من خلاف المراد بالمانع من المراد، و ليس لاحد عذر في معصية الله، لأنه تعالى لا يكلف نفساً ما لا يطاق. و قد يكون له عذر في معصية غيره، لأنه قد يكلف خلاف الصواب و قد يكلف ما لا يمكن لعارض من الأسباب.
وقوله «فيعتذرون» رفع عطفاً على قوله «لا يؤذن» قال الفراء: تقديره لا ينطقون و لا يعتذرون، و قد يجوز في مثله النصب على جواب النفي، و معنى الآية لا يؤذن لهم في الاعتذار فكيف يعتذرون.

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ١١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٣

وقوله (هذا يَوْمُ الْفَضْلِ) يعنى يفصل بين الخلائق بالحكم لكل أحد بما له و عليه. و الفصل قطع علق الأمور بتوفية الحقوق، و هذا الفصل الذى هو فصل القضاء يكون ذلك فى الآخرة على ظاهر الأمر و باطنه، و أما فى الدنيا، فهو على ظاهر الأمر، لان الحاكم لا يعرف البواطن.

وقوله «جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَئِينَ» معناه إن الله يجمع فيه الخلائق فى يوم واحد فى صعيد واحد، و الجمع جعل الشئ مع غيره إما فى مكان واحد أو محل واحد أو فى يوم واحد أو وقت واحد، أو يجعل مع غيره فى حكم واحد أو معنى واحد كجمع الجماد و الحيوان فى

معنى الحدوث.

وقوله «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ» معناه تويخ من الله تعالى و تفریح للكفار و اظهار عجزهم عن الدفع عن أنفسهم فضلاً عن أن يكيدوا غيرهم، و إنما هو على أنكم كنتم في دار الدنيا تعملون ما يغضبني، فالان عجزتم عن ذلك و حصلتكم على وبال ما عملتم. و قيل: المعنى إن كان لكم حيلة تحتالونها في التخلص فاحتالوا. و الكيد الحيلة و «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» قد مضى تفسيره.

قوله تعالى: [سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٤١ الى ٥٠] ص: ٢٣٣

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)
كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)
فَبَأَىٰ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٤

عشر آيات.

لما ذكر الله تعالى الكفار و ما أعد لهم من ضروب العقاب و انواع العذاب ترهيباً و ترهيداً في مثله، ذكر المؤمنين المتقين للمعاصي و بين ما أعد له من أنواع النعيم و ضروب اللذات، فقال «إِنَّ الْمُتَّقِينَ» و معناه الذين اتقوا عقاب الله باجتناح معاصيه و طلبوا ثوابه بفعل طاعاته «فِي ظِلَالٍ» و هو جمع ظل، و هو الحجاب العالى المانع من كل أذى، فلأهل الجنة حجاب من كل أذى لان هواء الجنة مناف لكل أذى، فهم من طيبه على خلاصه. و قيل في ظلال من قصور الجنة و أشجارها «وَعُيُونٍ» و هى ينابيع الماء التى تجرى في ظل الأشجار. و قيل: ان تلك العيون جارية في غير أخدود، لأن ذلك أمتع بما يرى من حسنه و صفائه على كنهه من غير ملابسه شىء له، و ليس هناك شىء إلا على أحسن صفاته، لان الله تعالى قد شوق اليه أشد التشويق و رغب فيه أتم الترغيب «وَفَوَاكِهِ» و هى جمع فاكهه، و هى ثمار الأشجار التى من شأنها أن تؤكل، و قد يكون من الثمر ما ليس كذلك كالثمر المر، فانه ليس من الفاكهه. و قوله «مِمَّا يَشْتَهُونَ» يعنى لهم فاكهه من جنس ما يشتهونه.

ثم قال تعالى «كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» صورته صورة الأمر و المراد به الاباحه. و قال قوم: هو أمر على الحقيقه، لان الله تعالى يريد منهم الأكل و الشرب في الجنة، و إنهم إذا علموا ذلك زاد في سرورهم، فلا تكون إرادته لذلك عبثاً، و الهنىء هو الذى لا أذى فيه فيما بعد. و قيل: الهنىء النفع الخالص من شائب الأذى، و الشهوه معنى في القلب إذا صادفت المشتهى كان لذه، و ضده النفار إذا التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٥

صادفه كان الماء، و جاء الكلام على التقابل للكافرين من قوله «إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» مقابل أهل الجنة في ظلال قصور الجنة و أشجارها و قوله «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» اخبار منه تعالى أنه كما جازى هؤلاء المتقين بما ذكره من النعيم مثل ذلك يجازى كل محسن عامل بطاعة الله. و في ذلك دلالة على أن كل احسان خالص للعبد فله به الثواب و الحمد، و انه طاعة لله، و إن ما ليس باحسان من فعل خارج عن هذا الحكم. و قوله «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» قد مضى تفسيره.

ثم عاد الى خطاب الكفار فقال لهم على وجه التهديد و الوعيد «كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا» في دار الدنيا و تلذذوا بما تريدون و انتفعوا بما تشتتهون «قَلِيلًا» لان أيام الدنيا قليلة، فالتمتع الحصول في أحوال تلذذ، تمتع تمتعاً و استمتع استمتعاً و أمتعته غير امتاعاً و التمتع و التلذذ واحد و نقيضه التألم.

وقوله «إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ» اخبار منه تعالى للكفار بأنكم و إن تمتعتم قليلا في الدنيا فإنكم عصاء و كفار و مآلكم الى النار و عذابها، و الاجرام فعل ما يقطع المدح و يحصل بدله الذم، يقال: أجرم إجراماً و اجترم اجتراماً و تجرم عليه أى تطلب له الجرم «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكْذِبِينَ» بينا معناه.

وقوله «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَزُكُّعُونَ» فالركوع هو الانخفاض على وجه الخضوع، ويعبر به عن نفس الصلاة و يقال: قد ركعت و بقى على ركوع أى صلاة و المراد به- هاهنا- الصلاة، و المعنى إن هؤلاء الكفار إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون لجهلهم بما فى الصلاة من الخير و البركة. و قيل: انه يقال لهم ذلك فى الآخرة كما قال «يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَبِيعُونَ» ذكره ابن عباس. و قال قتادة، يقال لهم ذلك فى الدنيا، فان الصلاة من الله بمكان. و قال مجاهد: عنى بالركوع- هنا- الصلاة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٦

و قوله «وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ» قد فسرناه، فكأنه قيل لهم يجب عليكم الركوع بالخضوع لله فاركعوا فأخبر عنهم أنهم لا يركعون تكديباً بهذا الخبر، فلذلك قال عقيب ذلك «وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ» و إلا فقوله «ارْكَعُوا» أمر من الله تعالى، و لا يقال فيمن أمر بالشىء فلم يفعل انه كذب، و قيل: إن ما تكرر فى هذه السورة من قول «وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ» ليس على وجه التكرار فى المعنى، لان معناه ويل للمكذبين بما ذكره قبله من الاخبار، و قيل يريد أنه كذب بالمخبر الذى يليه، و هو وجه القول الثانى و الثالث و الرابع إلى آخر السورة، على هذا المنهاج من أنه يلزمه الويل بالتكذيب بالذى يليه و الذى قبله على التفصيل لا على الإجمال فى أنه لا يلزمه حتى يكذب بالجميع. و قوله «فَبِأَى حِدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» معناه إنه إذا أتى القرآن بأظهر البرهان و كفروا به فليس ممن يفلح بالايمان بكلام غيره، لان من لم يؤمن بما فيه المعجزة الظاهرة و الآية الباهرة لا يؤمن بغيره.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٧

٧٨-سورة النبأ: ص: ٢٣٧

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و هى أربعون آية فى الكوفى و المدنيين و احدى و أربعون فى البصرى

[سورة النبأ (٧٨): الآيات ١ إلى ١٦] ص: ٢٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَبَّاجًا (١٤)
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)
ست عشرة آية.

وقف يعقوب على «عم» بالهاء، الباقون بلا هاء.

و قرأ ابن عامر «كلا ستعلمون» بالتاء على الخطاب فيهما أى قل لهم ستعلمون عاقبه أمركم. الباقون- بالياء- على الغيبة، و هو الأقوى لقوله «عَمَّ التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٨

يَتَسَاءَلُونَ»

و قوله «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» و لم يقل أنتم، و إن كانت التاء جائزة لان العرب تنتقل من غيبة إلى خطاب، و من خطاب إلى غيبة.

قيل في سبب نزول هذه الآية: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حدث قريشاً وعرفهم أخبار الأمم السالفة وعظهم كانوا يهزون بذلك، فنهاه الله تعالى أن يحدثهم فقال «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ» إلى قوله «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» (١) فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدث أصحابه فإذا أقبل واحد من المشركين أمسك فاجتمعوا على بكرة أبيهم وقالوا: والله يا محمد إن حديثك عجب، وكنا نشتهي أن نسمع كلامك وحديثك، فقال إن ربي نهاني أن أحدثكم، فأنزل الله تعالى «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ»

وقوله «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» أصله عن ما، فحذفت الألف لاتصالها بحرف الجر حتى صارت كالجزء منه لتدل على شدة الاتصال مع تخفيف المركب في الكلام، فحذف حرف الاعتلال وأدغمت النون في الميم لقربها منها من غير إخلال، وصورته صورة الاستفهام والمراد تفخيم القصة والإنكار والتهديد. وقوله «يَتَسَاءَلُونَ» معناه عن ما ذا يسأل بعضهم بعضاً، فالتساؤل سؤال احد النفيسين للآخر، تساءلا تساؤلا وسأله مسأله، والسؤال طلب الاخبار بصيغة مخصوصة في الكلام، وكل ما يزرع العقل عنه بما فيه من الداعي الى الفساد لا يجوز السؤال عنه كسؤال الجدل لدفع الحق ونصرة الباطل، وكالسؤال الذي يقتضى فاحش الجواب، لأنه كالامر بالقيح. والنبأ معناه الخبر العظيم الشأن كمعنى الخبر عن التوحيد في صفة الاله وصفة الرسول، والخبر عما يجوز عليه وما لا يجوز. وقال مجاهد: النبأ العظيم الشأن القرآن، وقال قتادة وابن زيد:

هو السؤال عن البعث بعد الموت، لأنهم كانوا يجمعون على التكذيب بالقرآن

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ وقريب منه في سورة ٦ الانعام آية ٦٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٣٩

«الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» قال قتادة: معناه الذي هم فيه بين مصدق ومكذب، فقال الله سبحانه مهدداً لهم ومتوعداً «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ومعنى (كلا) ردع وزجر، كأنه قال ارتدعوا وانزجروا ليس الأمر كما ظننتم. وقال قوم: معناه حقاً سيعلمون عاقبة أمرهم وعائد الوبال عليهم. وقال الضحاك: معناه كلا سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وقال قوم: كلا سيعلمون ما ينالهم يوم القيامة من العذاب، ثم كلا سيعلمون ما ينالهم في جهنم من العذاب، فلا يكون تكراراً. والاختلاف ذهاب كل واحد من النفيسين إلى نقيض ما ذهب اليه الآخر، يقال:

اختلفا في المعنى فذهب أحدهما إلى كذا، وذهب الآخر إلى كذا.

ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحة ذلك فقال «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً» أى وطاء، وهو القرار المهيأ للتصرف فيه من غير أذية. وقال قتادة: المهاد البساط ومهد الأرض تمهيداً مثل وطأه توطئه، لأن ذلك لا يقدر عليه غير الله، لأنه الذي يسكن الأرض حالاً بعد حال حتى يمكن الاستقرار عليها والتصرف فيها «وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً» أى وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض لئلا تميد بهم، فالجبال جمع جبل، وهو بغلظه وثقله يبلغ أن يكون ممسكاً للأرض عن أن تميد بثقله، فعلى ذلك دبره الله، وذكر العباد به وما فيه من العبرة بعظمته من يقدر عليه. والوتد المسمار إلا أنه اغلظ منه، لذلك يقال: مسامير العناء إذا دقت كالمسمار من الحديد في القوة والدقة، ولو غلظت صارت أوتاداً وكذلك وصفت الجبال بأنها أوتاد للأرض إذ جعلت بغلظها ممسكة لها عن أن تميد باهلها.

وقوله «وَوَخَّلْنَاكُمْ أَزْوَاجاً» أى اشكالاً كل واحد يشاكل الآخر. وقيل:

معناه ذكراً وأنثى حتى يصح منكم التناسل.

وقوله «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً» أى نعاساً في أوله تطلب النفس الراحة به. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٠

وقيل: معناه جعلنا نومكم راحة. وقيل: معناه جعلنا نومكم طويلاً ممتداً تعظم به راحة أبدانكم ويكثر به انتفاعكم، ومنه سبت من الدهر أى مدة طويلة منه، وقال ابو عبيدة: معناه جعلنا نومكم سباتاً ليس بموت، ورجل مسبوت فيه روح، والسبات قطع العمل

للراحة، و منه سبت أنفه إذا قطعه، و منه يوم السبت أى يوم قطع العمل للراحة على ما جرت به العادة فى شرع موسى، و صار علماً على اليوم الذى بعد الجمعة بلا فصل.

و قوله «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا» فاللباس غطاء ساتر مماس لما ستر، فالليل ساتر للاشخاص بظلمته مماس لها بجسمه الذى فيه الظلمة قال الشاعر:

فلما لبس الليل أو جن نصبت له من هذا آذانها و هى جنح «١»

«وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» أى متصرفاً للعيش و العيش الانعاش الذى تبقى معه الحياة على حال الصحة عاش يعيش عيشاً و النهار اتساع الضياء المنبث فى الآفاق و أصله من انهر الدم إذا وسع مجراه، و منه النهر و هو المجرى الواسع من مجارى الماء، و منه الانتهار الاتساع فى الاغلاظ، و فى خلق النهار تمكين من التصرف للمعاش و فى ذلك أعظم النعمة و اكبر الإحسان.

و قوله «وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا» يعنى سبع سموات. و البناء جعل الطاق الأعلى على الأدنى، فالسما مبنية كهيئة القبّة مزينة بالكواكب المضيئة، فسبحان الذى زينها و خلقها و بناها على هذه الصفة لعباده. و إنما جعلها سبع سموات لما فى ذلك من الاعتبار للملائكة، و لما فى تصور الطبقات من عظم القدرة، و هول تلك الأمور، و ما فيه من تمكين البناء حتى وقفت سماء فوق سماء، فسبحان من يمسكها بما هو قادر عليها و مدبر لها.

(١) الطبرى ٣٠/٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤١

و قوله «وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا» يعنى الشمس جعلها الله سراجاً للعالم يستضيئون به، فالنعمه عامه لجميع الخلق. و الوهاج الوقاد، و هو المشتعل بالنور العظيم و قال مجاهد و قتاده: يعنى وهاجاً متلاًئلاً.

و قوله «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ» قال ابن عباس و مجاهد و قتاده: يعنى الرياح، كأنها تعصر السحاب. و قيل هى السحاب تتحلب بالمطر. و قوله «مَاءٌ ثَجَّاجٌ» فالثجاج الدفاع فى انصبابه كتحج دمء البدن، يقال ثججت دمه أثجه ثجاً، و قد ثج الدم يشج ثجوجاً «لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتًا» أى نخرج بذلك الماء حباً و هو كل ما تضمنه الزرع الذى يحصد. و النبات الكلا من الحشيش و الزرع «وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا» أى بساتين ملتفة بالشجر يخرجها الله تعالى لعباده بالمطر. و إنما قال «جَنَّاتٍ» لأن الشجر يجنّها أى يسترها و «الالفاف» الاخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض واحدها (لف) يقال: شجر ملتف و أشجار ملتفة. و المعانى الملففة المتداخلة باستتار بعضها ببعض حتى لا تبين إلا فى خفى. و قيل: واحده لف و لفف. و قيل: فى واحده شجرة لفا، و شجر لف. و قال مجاهد و قتاده و ابن عباس: ألفافاً ملتفة. و التقدير فيه و يخرج به شجر جنات الفافاً ملتفة إلا انه حذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: [سورة النبا (٧٨): الآيات ١٧ الى ٣٠] ص: ٢٤١

إِنَّ يَوْمَ الْفُضَيْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)

لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَ لَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَ عَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦)

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّابًا (٢٨) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٢

اربع عشرة آية.

قرأ «و فتحت» بالتخفيف أهل الكوفة إلا الأعشى و البرجمى. الباقون بالتشديد. و قرأ حمزة و روح «البشير فيها» بغير الف مثل (مزجين،

و فرهين) الباقون «لايبين» بألف على اسم الفاعل، و هو الأجود، لأنه من (لبث) فهو (لابث) و حجة حمزة أنه مثل (طمع) و (طامع). و اللبث البطيء. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً عن المفضل «غساقاً» مشددة. الباقون بالتخفيف، و هما لغتان.

فالغساق صديد أهل النار- في قول ابراهيم و قتادة و عكرمة و عطية- و قال أبو عبيدة:

الغساق ماء و هو من الغسل أى سيال. و قال غيره: هو البارد. و قيل: الممتن.

يقول الله تعالى «إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ» يعنى يوم الدين و هو يوم القيامة الذى يفصل الله فيه بالحكم بين الخلائق «كَانَ مِيقَاتًا» أى جعله الله وقتاً للحساب و الجزاء فالميقات منتهى المقدار المضروب لوقت حدوث أمر من الأمور، و هو مأخوذ من الوقت، كما أن الميعاد من الوعد، و الميزان من الوزن و المقدار من القدر. و المفتاح من الفتح.

و قوله «يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» فالنْفَخُ إخراج ريح الجوف من الفم، و منه نَفَخَ الزق، و النْفَخُ فى البوق، و نَفَخَ الروح فى البدن يشبه بذلك، لأنها تجرى فيه كما تجرى الريح، يجرى مجرى الريح فى الشئ، و الصور قرن ينْفَخُ فيه فى حديث مرفوع عن النبى صلى الله عليه و آله التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٣

و قال الحسن: هو جمع صورة. و به قال قتادة. و معناه: اذكر يوم ينْفَخُ فى الصور «فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» فالفوج جماعة من جماعة. و الأفواج جماعات من جماعات، فالناس يأتون على تلك الصفة الى أن يتكاملوا فى أرض القيامة. و كل فريق يأتى مع شكله. و قيل تأتى كل أمه مع نبيها، فلذلك جاءوا أفواجا أى زمراً.

و قوله «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا» معناه و شققت السماء، فكانت كقطع الأبواب. و قيل: صار فيها طرق و لم يكن كذلك قبل.

و قوله «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» معناه زيلت الجبال عن أماكنها و أذهب بها حتى صارت كالسراب.

و قوله «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا» إخبار منه تعالى بأن جهنم تكون يومئذ مرصاداً. و المرصاد هو المعد لأمر على ارتقابه الوقوع فيه، و هو مفعال من الرصد.

و قيل: المعنى ذات ارتقاب لأهلها تراصدهم بنكالها. و الرصد عمل ما يترقب به الاختطاف.

و قوله «لِلطَّاغِينَ» يعنى جهنم للذين طغوا فى معصية الله و تجاوزوا الحد «مآباً» أى مرجعاً، و هو الموضوع الذى يرجع اليه، فكأن المجرم قد كان باجرامه فيها ثم رجع اليها، و يجوز أن يكون كالمنزل الذى يرجع اليه.

و قوله «لَايِبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا» أى ماكنين فيها أزماناً كثيرة، و واحد الاحقاب حقب من قوله «أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا» «١» أى دهرًا طويلا. و قيل واحده حقب، و واحد الحقب حقبه، كما قال الشاعر:

و كنا كندمانى جذيمة حقبه من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

و إنما قال «لَايِبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا» مع انهم مخلدون مؤبدون: لا انقضاء لها

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٦١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٤

إلا انه حذف للعلم بحال أهل النار من الكفار بإجماع الأمة عليه «لَايِبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا» ثم يعذبون بعد ذلك بضرب آخر كالزقوم و الزمهير و نحوه من أصناف العذاب. و من قرأ «لبيّن» بلا الف استشهد فى تعدى (فعل) بقول الشاعر:

و مسحل سح عضاده سحج بسراتها ندب له و كلوم «١»

و قال ابن عباس: الحقب ثمانون سنة. و قال الحسن: سبعون سنة. و قال قوم: هو أكثر من ذلك.

و قوله «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا» قال أبو عبيدة: البرد هاهنا النوم قال الكندى:

فيصدني عنها و عن قبلتها البرد
 أى النوم، فكأنهم لا- ينامون من شدة ما هم فيه من العذاب، ولا يجدون شراباً يشربوه «إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا» فالحميم الحار الشديد الحرارة والغساق صديد أهل النار- فى قول إبراهيم و قتادة و عطية و عكرمة- يقال: غسقت القرحة غسقا إذا سال صديدها، و كذلك الجروح، و منه قوله «وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ» (٢) و الغاسق الليل إذا لبس الأشياء بظلمته، كأنه يسيل عليه بظلامه. و قال الحسن:
 الجنة و النار مخلوقتان فى الأيام الستة الأول، و هى الجنة التى سكنها آدم، و هى الجنة التى يسكنها المتقون فى الآخرة. ثم يفنيها الله لهلاك الخلائق. ثم يعيدها، فلا يفنيها أبداً. و قال قوم: هما مخلوقتان، و لا يفنيهما الله. و قال آخرون: هما غير مخلوقتين و الجنة التى كان فيها آدم جنة أخرى ليست جنة الخلد.
 و قوله «جَزَاءً وَفَاءً» قال ابن عباس و مجاهد و الربيع و قتادة: معناه وافق

(١) تفسير الطبرى ٧/٣٠

(٢) سورة ١١٣ الفلق آية ٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٥

الجزء أعمالهم، فالوفاق الجارى على المقدار، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقدار الاعمال فى الاستحقاق، و ذلك أنه يستحق على الكفر أعظم مما يستحق على الفسق الذى ليس بكفر، و يستحق على الفسق أعظم مما يستحق على الذنب الصغير.
 و قوله «إِنَّهُمْ كَانُوا إِلا- يَرْجُونَ حِسَابًا» أى لا يرجون المجازاة على الأعمال و لا يتوقعونه- و هو قول الحسن و قتادة- و قيل: معناه إنهم كانوا: لا- يرجون حسن الجزاء فى الحساب لتكذيبهم. فالرجاء التوقع لوقوع أمر يخاف ألا يكون، فهؤلاء كان يجب عليهم أن يتوقعوا الحساب على يقين أنه يكون، فلم يفعلوا الواجب فى هذا، و لا- قاربوه لاعتقادهم أنه لا يكون فاللوم أعظم لهم و التقرير لهم أشد. و قيل:

معنى لا يرجون لا يخافون كما قال الهذلى:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها و حالفها فى بيت نوب عوامل «١»

و قوله «وَكَاذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا» معناه جحدوا بآيات الله و حججه، و لم يصدقوا بها. و إنما جاء المصدر على فعال للمبالغة مع اجرائه على نظيره الذى يطرد قبل آخره الف نحو الانطلاق و الاقتدار و الاستخراج و القتال و الكرام، و المصدر الجارى على فعل التفعيل نحو التكذيب و التحسين و التقديم، و قد خرج التفعيل عن النظر لما تضمن من معنى الكثير، كما خرج التفاعل و المفاعلة للزيادة على أقل الفعل، فانه من اثنين. و مثل كذاب، حملته حمالا و حرقة حرقاً.
 و قوله «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا» معناه و أحصينا كل شىء أحصيناه فى كتاب، فلما حذف حرف الجر نصبه، و قيل: إنما نصبه لان فى أحصيناه معنى كتبناه، فكأنه قال كتبناه كتاباً، و مثل كذبت كذاباً قصيته قضاء قال الشاعر:

(١) مر فى ٢/ ٢١٠ و ٣/ ٥/ ٣ و ٧/ ٤٩١ و ٨/ ١٨٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٦

لقد طال ما ثبطني عن صحابتي و عن جوح قصاؤها من شقائيا «١»

و الوجه فى إحصاء الأشياء فى الكتاب ما فيه من الاعتبار للملائكة بموافقة ما يحدث لما تقدم به الإثبات مع أن تصور ذلك يقتضى الاستكثار من الخير و الاجتهاد فيه، كما يقتضى إذا قيل للإنسان ما تعمله فانه يكتب لك و عليك.
 و قوله «فَذُوقُوا» أى يقال لهؤلاء الكفار ذوقوا ما كنتم فيه من العذاب «فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا» لان كل عذاب يأتى بعد الوقت الاول فهو

زائد عليه.

قوله تعالى: [سورة النبا (٧٨): الآيات ٣١ الى ٤٠] ص: ٢٤٦

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَأْ (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

أحدى عشرة آية في البصرى و عشر آيات عند الباين قرأ «و لا كذاباً» خفيفاً الكسائى «رب السموات» بالرفع محارب و ابو بكر، و «الرحمن» جراً عن عاصم و ابن عامر و يعقوب و سهل.

(١) القرطبي ١٧٩ / ١٩ و الطبرى ١٠ / ٣٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٧

لما ذكر الله تعالى حال الكفار و ما أعد له من أنواع العقاب ذكر ما للمؤمنين المتقين لمعاصى الله تعالى، فقال «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ» الذين يتقون عقاب الله باجتناح معاصيه و فعل طاعته «مَفَازًا»، و هو موضع الفوز بخلوص الملاذ. و أصل الفوز النجاة إلى حال السلامة و السرور، و منه قيل للمهلكة مَفَازَةٌ على وجه التفاؤل، لأنه قيل منجاة و قيل مَفَازًا منجى إلى مبرة. ثم بين ذلك فقال «حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا» فالحدائق جمع حديقة، و هى البستان المحوط، و منه أحدق به حائطه. و الحديقة الجنة المحوطة.

و منه أحدق القوم بفلان إذا أطافوا به، و سميت الحدقة حدقة لما يحيط بها من جفنها و الأعناب جمع عنب، و هو ثمر الكرم قبل أن يجف فإذا جف فهو الزبيب، و نظيره الرطب ثمر النخل قبل أن يصير تمراً فإذا صار تمراً زال عنه اسم الرطب.

و قوله «و كَوَاعِبَ أَتْرَابًا» قال ابن عباس: الكواعب النواهد، و الكاعب الجارية قد نهت ثديها، يقال: كعب ثدى الجارية و نهت إذا ابتدأ بخروج حسن.

و الا-تراب جمع ترب، و هى التى تنشأ مع لدتها على سن الصبى الذى يلعب بالتراب فكأنه قيل هم على سنّ واحدة. قال قتادة: أَتْرَابًا يعنى فى سن واحدة.

و قوله «و كَأْسًا دِهَاقًا» فالكأس الإناء إذا كان فيه شراب. و قيل الكأس أثناء الخمر الذى يشرب منه، قال الشاعر:

يلذه بكأسه الدهاق «١»

فان لم يكن فيه الخمر لم يسم كأساً، و الدهاق ملأى بشدة الضغط، و الدهق شدة الضغط فى الكأس ملأى مترعة ليس فيها فرجة ليستوفى حال اللذة. و قال قتادة:

دهاقاً مترعة، و قال مجاهد: معناه متتابعة على شاربها مأخوذ من متابعة الشد فى الدهن.

(١) القرطبي ١٨١ / ١٩ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٨

و قوله «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» أى لا يسمعون فى الجنة كلاماً لا فائدة فيه «و لا كِذَابًا» أى و لا تكذيب بعضهم لبعض. و من قرأ «كذاباً» بالتخفيف أراد مصدر كاذبه مكاذبة، و كذاباً قال الشاعر:

فصدقتنى و كذبتنى و المرء ينفعه كذابه «١»

وقال الفراء: قال اعرابي في طريق مكة: يا رب القصار أحب اليك أم الحلق يريد أقصر شعري أم احلق.
 وقوله «جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا» أى فعلنا بالمؤمنين المتقين ما فعلنا جزاء على تصديقهم بالله و نبيه، فالجزاء إعطاء المستحق بعمل الطاعة أو المعصية.
 وقوله «عَطَاءً حِسَابًا» أى بحساب العمل كل إنسان على قدر عمله من النبين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، ثم سائر أختيار المؤمنين، و عند الله المزيد.
 وقيل: معناه عطاء كافياً من قولهم: أعطاني ما أحسبني أى كفاني، و حسبك أى اكتف، و حسبى الله أى كفاني الله. و قال الحسن: معناه إنه أعطاهم ذلك محاسبة.
 وقوله «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من رفع استأنف الكلام و جعله مبتدأ.
 وقوله «الرَّحْمَنِ» خبره، و من جره رده على قوله «مِنْ رَبِّكَ» رب السموات، و جعل «الرَّحْمَنِ» جراً بأنه نعته. و من رفع الرحمن و جر الأول قطعه عن الاول و تقديره: هو الرحمن. و المعنى إن الذى يفعل بالمؤمنين ما تقدم ذكره هو الله رب السموات و الأرض و مدبرهما، و مدبر ما بينهما، و المصرف لهما على ما يريد «لَا يَمْلِكُونَ مِثَّهُ خِطَابًا» و معناه لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه، كما قال «لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى» (٢) و فى ذلك أتم التحذير من الاتكال. و الخطاب توجيه الكلام إلى مدرك بصيغته مبينة كاشفة عن المراد بخلاف صيغة الغائب عن الإدراك

(١) مر فى ٣٩٠ / ٨ و ٩ / ٢٢٥

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ٢٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٤٩

على طريقة أنت و بك. و الإضمار على ثلاثة أضرب: إضمار المتكلم، و إضمار المخاطب و إضمار الغائب.
 وقوله «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ» معناه اذكر يوم يقوم الروح، قال الضحاك و الشعبي: الروح هو جبرائيل عليه السلام و قال ابن مسعود و ابن عباس:
 هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، و هو المروى فى أخبارنا.

وقال الحسن و قتادة: الروح بنو آدم. و قال ابن عباس: أرواح بنى آدم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل رد الأرواح إلى الأجساد.
 وقوله «وَالْمَلَائِكَةُ صَيِّفًا لَّا يَتَكَلَّمُونَ» أى مصطفين لا يتكلم احد بشىء «إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ» أى أذن الله له فى الكلام «وَقَالَ صَوَابًا» و الصواب موافقة الغرض الحكيم كأنه إصابته ذلك الغرض الذى تدعو اليه الحكمة. و نقيضه الخطأ، و هو مخالفة الغرض الحكيم و لما كانت الحكمة قد تدعو إلى أمر بأوكد مما تدعو إلى أمر، كدعائها إلى الفعل الأصلاح، و الفعل الأدون، صح ان صواباً أصوب من صواب.

ثم قال «ذَلِكَ الْيَوْمُ» يعنى اليوم الذى وصفه و أخبر عنه هو «الْحَقُّ» الذى لا شك فى كونه و حصوله.
 وقوله «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً» فيه دلالة على أن العباد قادرين على اتخاذ المآب و تركه. و إنما قال «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ» لأنه قادر عليه و مزاح العلة فيه.

و المآب المرجع، و هو (مفعول) من آب يؤب أوبا. و قال سفيان: معناه مرجعا.

قال عبيد:

و كل ذى غيبة يؤوب و غائب الموت لا يؤوب (١)

(١) مر في ٤٦٨ / ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٠

وقوله نَا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا»

معناه الاخبار من الله تعالى أنه خوف عباده و أعلمهم المواضع التي ينبغي أن يحذروها. ثم بين ما يكون بعد ذلك فقال وَمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ»

و معناه ينتظر جزاء ما قدمه، فان قدم طاعة انتظر الثواب، و إن قدم معصية انتظر العقاب يَقُولُ الْكَافِرُ»

في ذلك اليوم اَلْيَتَنِي كُنْتُ تُرَابًا»

أى يتمنى أن لو كان ترابا لا- يعاد و لا يحاسب ليتخلص من عقاب ذلك اليوم، لأنه ليس معه شيء يرجوه من الثواب. و قيل: ان الله يحشر البهائم و ينتصف للجماء من القرناء فإذا أنصف بينها جعلها ترابا، فيتمنى الكافر عند ذلك لو كان مثل أولئك ترابا. و قيل: هو مثل قوله «يا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَهٗ» (١)

٧٩-سورة النازعات ص: ٢٥٠

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاک و هى ست و أربعون آية في الكوفى و خمس و أربعون فى البصرى و المدنيين

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٢٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)

يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا

هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥١

أربع عشرة آية.

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً «عظاماً ناخرة» بألف، الباقون «نخرة» بلا ألف من قرأ «ناخرة» اتبع رؤس الآى نحو (الساخرة، و الحافرة) و من

قرأ نخرة- بلا ألف- قال لأنه الأكثر في كلام العرب، و لما

روى عن على عليه السلام انه قرأ «نخرة»

و قال النحويون: هما لغتان مثل باخل و بخل، و طامع و طمع. و قال الفراء النخرة البالية و الناخرة المجوفة.

و قوله «وَ النَّازِعَاتِ» قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التي عددها. و قال قوم: تقديره و رب النازعات و ما ذكر بعدها، لأنه لا يجوز

اليمين إلا بالله تعالى.

و هو ترك الظاهر. و

قد روينا عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام أن لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه، و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به. و إنما كان كذلك، لأنه من باب المصالح التي يجوز أن تختلف به العبادات، و إنما جاز أن يقسم هو تعالى بما شاء من خلقه، للتنبيه على موضع العبرة فيه إذ القسم يدل على عظم شأن المقسم به.

و معنى (النازعات) الملائكة تنزع الأرواح من الأبدان، فالنازعات الجاذبات الشيء من أعماق ما هو فيه. و قال الحسن و قتادة: هي النجوم أى تنزع من أفق السماء إلى أفق آخر. و قال عطاء: هي القسي تنزع بالسهم. و قال السدي: هي النفوس تنزع بالخروج من البدن. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٢

و قوله «عَزَقًا» معناه إغراقاً أى إبعاداً فى النزاع.

و قوله «وَالنَّاشِطَاتِ نَشِطًا» قيل: هي الخارجات من بلد إلى بلد بعيد الاقطار ينشط كما ينشط الوحش بالخروج من بلد إلى بلد. و الهموم تنشط بصاحبها أى تخرج به من حال إلى حال، قال هيبان بن قحافة:

أمست همومى تنشط المناشطا الشام طورا ثم طورا واسطا «١»

و قال ابن عباس: هي الملائكة أى تنشط بأمر الله إلى حيث كان. و قال قوم: هو ملك الموت ينشط روحه من خلقه، و قال قوم: هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب. و قال عطاء: هي الوحش تنشط من بلد إلى بلد قال رؤيه:

تنشط منها كل معلاه الوهق يعنى بقر الوحش. قال الفراء: تنشط نفس المؤمن كما ينشط العقال من يد البعير. قال ابن خالويه، و اكثر ما سمعته أنشطته بالألف، قالوا: كأنه انشط من عقال. فإذا شددت الحبل فى يد البعير قلت: نشطته و إذا حللته قلت أنشطته.

و قوله «وَالسَّابِحَاتِ سَبِيحًا» معناه المارات بغوص معظمها فى المائع و قد يكون ذلك فى الماء و قد يكون فيما جرى مجراه، و ذلك كسبح دود الخل، و قد يكون السبح فى الهواء تشبيهاً بالماء. و قال مجاهد: السابحات الملائكة، لأنها تسبح فى نزولها بأمر الله كما يقال:

الفرس يسبح فى جريه إذا أسرع. و قال قتادة: هي النجوم أى تسبح فى فلكها.

و قال عطاء: هي السفن. و قال قوم: هو ملك الموت يقبض روح المؤمن وحده سهلاً سرحاً كالسابع فى الماء.

و قوله «فَالسَّابِقَاتِ سَبِيحًا» يعنى الكائنات قبل غيرها على معنى صفة من الصفات. و قال مجاهد: هي الملائكة، لأنها سبقت إلى طاعة الله. و قال قوم: لأنها

(١) القرطبي ١٩ / ١٩٠ و مجاز القرآن ٢ / ٢٨٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٣

تسبق الشياطين إلى الوحى. و قال عطاء: هي الخيل السابقة. و قيل: هي النجوم- ذكره قتادة- أى يسبق بعضها بعضاً فى السير. و قوله «فَالْمِيدَاتِ أَمْرًا» قال ابن عباس و قتادة و عطاء بن السائب: هي الملائكة تدبر الأشياء. و قيل: تدبير الملائكة فى ما و كلت به من الرياح و الأمطار و نحو ذلك من الأمور. و جواب القسم محذوف، كأنه قال: ليعثن للجزاء و الحساب ثم بين أى وقت يكون الجزاء و الثواب و العقاب، فقال «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ» فالرجف حركة الشيء من تحت غيره بترديد و اضطراب، و هي الزلزلة العظيمة رجف يرجف رجفا و رجفا و رجوفا، و أرجفوا إذا أزعجوا الناس باضطراب الأمور، كما ينزعج الذى يرجف ما تحته، و منه الرجفة و هي الزعزعة الشديدة من تحت ما كان من الحيوان. و قيل: ان الأرض مع الجبال تتزعزع.

و قوله «تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ» و معناه تتبع الراجفة الرادفة أى تجيء بعدها، و هي الكائنة بعد الاول فى موضع الردف من الراكب، ردفهم الأمر ردفاً فهو رادف، و ارتدف الراكب إذا اتخذ رديفاً. و قال الحسن و قتادة: هما النفختان: أما الاولى فتميت الأحياء، و أما الثانية فتحى الموتى بإذن الله.

وقوله «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ» أى كائنه على الانزعاج و الاضطراب، و جفت تجف و جفناً و وجيفاً و أوجف فى السير إذا أزعج الركاب فيه. و قال ابن عباس:

معنى «وَاجِفَةٌ» أى خائفة.

و قوله «أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ» أى خاضعة ذليلة من هول ذلك اليوم قال الشاعر:

لما اتى خبر الزبير تهدمت سور المدينة و الجبال الخشع «١»

و قوله «يَقُولُونَ أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» حكاية عما قاله الكافرون

(١) مر فى ٣١٢/١، ٢٠٤ و ١٥٢/٧، ٢٠٩ و ٣٦٩/٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٤

المنكرون للبعث و النشور، فإنهم ينكرون النشور و يتعجبون من ذلك، و يقولون على وجه الإنكار أننا لمرودون فى الحافرة. و قيل: حافرة بمعنى محفورة، مثل «ماءٍ دافِقٍ» «١» بمعنى مدفوق. و قال ابن عباس و السدى: الحافرة الحياة الثانية.

و قيل: الحافرة الأرض المحفورة. أى نرد فى قبورنا بعد موتنا أحياء؟! قال الشاعر:

أ حافرة على صلح و شيب معاذ الله من جهل و عار «٢»

فالحافرة الكائنة على حفر أول الكرة يقال: رجع فى حافرتة إذا رجع من حيث جاء، و ذلك كرجوع القهقري، فردوا فى الحافرة أى ردوا كما كانوا أول مرة، و يقال: رجع فلان على حافرتة أى من حين جاء. و قولهم: النقد عند الحافرة معناه إذا قال بعثك رجعت عليه بالثمن. و قال قوم: معناه النقد عند حافر الدابة.

و قوله «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» أى النفخة الثانية «فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» أى على وجه الأرض، فالعرب تسمى وجه الأرض من الفلاة ساهرة أى ذات سهر لأنه يسهر فيها خوفاً قال أمية بن أبى الصلت:

و فيها لحم ساهرة و بحر و ما فاهوا به لهم مقيم «٣»

و قال آخر:

فإنما قصرك ترب الساهرة ثم تعود بعدها فى الحافرة

من بعد ما كانت عظاماً ناخره «٤»

و قال الحسن و قتادة و مجاهد و الضحاك: الساهرة وجه الأرض. و قال قوم

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٨

(٢) تفسير القرطبي ١٩٥/١٩ و الطبرى ١٩/٣٠

(٣) القرطبي ١٩٧/١٩

(٤) اللسان (نخر)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٥

«بِالسَّاهِرَةِ» أى من بطن الأرض إلى ظهرها. و قالوا أيضاً منكرين للبعث «أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً» نرد و نبعث. و العظام جمع عظم، و هى مأخوذة من العظم و ذلك لعظم صلابتها و عظمها فى نفسها. و النخرة البالية بما حدث فيها من التغيير و اختلال البنية، جذع نخر إذا كان بهذه الصفة، و إذا لم تختل بنيته لم يكن نخراً و إن بلى بالوهن و الضعف. و قيل: ناخرة مجوفة ينخر الرياح فيها بالمرور فى جوفها و قيل: ناخرة و نخرة سواء، مثل ناخلة و نخل، و نخرة أوضح فى المعنى، و ناخرة أشكل برءوس الآى. و قيل: نخرة بالية مجوفة

بالبلى.

ثم حكى أيضاً ما قالوه، فإنهم «قالوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ» فالكرة المرة من المَرّ و هي الواحدة من الكر، كَرَّ يكر كره، و هي كالضربة الواحدة من الضرب.

و الخاسر الذهاب رأس ماله فتلك الكرة كأنه قد ذهب رأس المال منها، فكذلك الخسران. و إنما قالوا «كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ» أى لا يجيء منها شيء كالخسران الذى لا يجيء منه فائدة. و كأنهم قالوا: هو كالخسران بذهاب رأس المال، فلا يجيء به تجارة، فكذلك لا يجيء بتلك الكرة حياة. و قيل معنا «تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ» على ما تعدنا من العذاب. و قال الحسن: معناه كاذبه ليست كائنة.

قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٥ الى ٢٥] ص: ٢٥٥

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٦

احدى عشرة آية.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و نافع «طوى اذهب» غير منونة. الباقون «طوى اذهب» منونة. و قرأ نافع «تزكى» مشددة الزاى بمعنى تزكى، فأدغم التاء فى الزاى. الباقون خفيفة الزاى، فحذفت احدى التاءين. قال ابو عمرو:

يقال: تزكى مشدداً إذا أردت تتصدق، و لم يدع موسى فرعون إلى ان يتصدق، و هو كافر. و إنما قال له هل لك ان تصير زاكياً، قال: فالتخفيف هو الاختيار.

و من نون (طوى) جعله اسم واد، و من لم ينون جعله اسم الأرض، لأنه معدول من (طاو). و من كسر الطاء قال: قدس مرتين، و تبين فيه البركة مرتين، مثل ثنى و عدى.

هذا خطاب من الله تعالى لنبىه محمد صلى الله عليه و آله يقول له «هَلْ أَتَاكَ» يا محمد «حَدِيثُ مُوسَى» فلفظه لفظ الاستفهام و المراد به التقرير «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ» أى حين ناداه الله «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» فالنداء الدعاء على طريقه يا فلان، و النداء مد الصوت بنداؤه، فمعنى «ناداه» قال له يا موسى. ثم أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى و (الوادى المقدس) يعنى المطهر و (طوى) قال مجاهد و قتادة: واد، و

قيل طوى التقديس. و قرأ الحسن «طوى» بكسر الطاء. و قيل طوى بالبركة و التقديس بنداؤه مرتين، قال طرفه بن العبد:

أعادل إن اللوم فى غير كنهه على طوى من غيئك المتردد «١»

أى اللوم المكرر، و (طوى) غير مصروف، لأنه اسم البقعة من الوادى

(١) مر فى ١٦٥ / ٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٧

و هو معرفة، و يجوز أن يكون معدولا من (طاوى) فى قول الزجاج.

و قوله «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» اخبار من الله - عز و جل - عن حال فرعون بأنه طغى، و معناه تجاوز الحد فى الاستعلاء، و التمرد و الفساد، يقال طغى يطغى طغياناً فهو طاغ، و نظيره البغى، بغى على الناس يبغى بغياً فهو باغ و هم البغاة و الطغاة، و نظير الطغيان العدوان، و هو المجاوزة لحد الصغيرة، و كل من طغى فقد عتا و اعتدى.

ثم ذكر ما أمره أن يقول له بأن قال «فَقُلْ هَلْ لَكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَزْكُوا» أى ادعوه إلى الله وطريق الجنة، و «قل» على وجه التلطف فى الكلام «هَلْ لَكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَزْكُوا» و تطهر من المعاصى، فالتركى طلب الطالب أن يصير زاكياً، تركى يتركى تركياً، و الزاكى النامى فى الخير، و الزكاء النماء فى الخير، و لو نمت فى الشر لم يكن زاكياً «وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ» معناه و أهديك الى طريق الحق الذى إذا سلكته وصلت إلى رضى الله و ثوابه، فالهداية الدالة على طريق الرشده من الغى.

و قد يكون دلالة على معنى ليس برشد و لا غى كالدلالة على الحركة فقط. و قوله «فَتَخْشَىٰ» فالخشية توقع المضرة من غير قطع بها لا محالة، و الخشية و الخوف و التقية نظائر، يقال: خشى يخشى خشيةً، فهو خاش، و ذاك مخشى. و فى الكلام حذف و تقديره فأتاه فدعاه «فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ» و قوله «فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ» حكاية عن فرعون أنه كذب موسى فى ما دعاه اليه و جحد نبوته و عصاه فى ما أمره به من طاعة الله «ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ» أى ولى فرعون الدبر بعد ذلك، فالادبار تولية الدبر، و نقيضه الإقبال و أقبل فلان إذا استقامت له الأمور على المثل أى هو كالمقبل إلى الخير، و أدبر فلان إذا اضطربت عليه حاله، ففرعون ولى الدبر ليطلب ما يكسر به حجة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٨

موسى عليه السلام فى الآية الكبرى، و هى المعجزة العظيمة، فما ازداد إلا غوايئه، لأنه لا يقاوم الضلال الحق. و قوله «ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ» فالسعى الاسراع فى المشى، و فى إدباره يسعى فى هذه الحال دليل على خوفه. و قيل: إنه لما رأى العصا انقلبت حية فى عظمها خاف منه، فأدبر يسعى.

و قوله «فَحَشَرَ فَنَادَىٰ» فالحشر الجمع من كل جهة، و قد يكون الجمع بضم جزء إلى جزء، فلا يكون حشراً، فإذا جمع الناس من كل جهة، فذلك الحشر، و لهذا سمي يوم الحشر. و الحاشر الذى يجمع الناس من كل جهة الى الخراج، و إنما طلب السحرة، فلما اجتمعوا ناداهم فقال لهم «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ» فالأعلى المختص بعلو معنى صفته على غيره مما لا يناله بكيد و ينال هو به، و من هنا خرج بالعلو الى التعظيم، و لم يكن مثل ذلك فى جهة من الجهات، و كأنه قال: أنا الذى أنال بالضرر من شئت و لا ينالنى غيرى. و كذب- لعنه الله- إنما هذه صفة الذى خلقه و خلق جميع الخلق، و معنى «نادى» هاهنا قال: يا معشر الناس أنا ربكم الأعلى، إذ نادى بهذا القول. و قيل: كلمته الاولى «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» «١» و قوله الآخر هذا «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ» ذكره ابن عباس و مجاهد و الشعبي و الضحاك.

ثم حكى تعالى ما عامله به من العقاب فقال (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرِةِ وَالْأُولَىٰ) فالنكال عقاب بنكل من الاقدام على سببه بشدته، نكل به تنكيلا إذا شوه به فى عقابه بما يكون زاجراً لغيره عن مثل حذيه أشد الزجر الذى يزعج النفس. و قال الحسن و قتادة: معناه عذاب الدنيا و عذاب الآخرة. و قال مجاهد: أول عمله و آخره و قال بعضهم: نكاله فعلته الأولى، و هو قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٣٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٥٩

و فعلته الأخيرة هو قوله (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ) و قال قوم: معناه نكال الدنيا بالغرق و نكال الآخرة ما صار اليه بعد الموت من العقاب. و قال الحسن (الآية الكبرى) اليد البيضاء. و قال غيره: قلب العصا حية.

قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٦ الى ٣٣] ص: ٢٥٩

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)

ثمان آيات.

يقول الله تعالى بعد ما ذكر ما تقدم من قصة موسى وفرعون و ما فعله الله بقوم فرعون من الإهلاك و الدمار (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) يعني فيما قصه و اخبر به دلالة يمكن أن يعتبر بها العامل العاقل، فيعرف الحق و يميز بينه و بين الباطل، يقال: اعتبرته اعتباراً و عبرة، و منه العبارة لأنه يعبر بالمعنى فيها الى نفس المخاطب للافهام، و منه عبور النهر و تعبير الرؤيا بإخراج ما فيها بعبورها المعنى إلى النفس السائلة عنها.

و قوله (لِمَنْ يَخْشَى) إنما خص من يخشى بالعبرة، لأنه الذي يعتبر بها و ينتفع بالنظر فيها دون الكافر الذي لا يخشى عذاب الله، كما قال (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) «١».

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٠

ثم خاطب الكفار الجاحدين بالله تعالى على وجه التبكيت لهم و التوبيخ (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا) و معناه أ أنتم أشد أمراً بصغر حالكم (أم السَّمَاءِ) في عظم جرمها و شأنها في وقوفها و سائر نجومها و أفلاكها. قال بعض النحويين (بناها) من صلة السماء. و المعنى أم التي بناها. و قال آخرون (السماء) ليس مما يوصل، و لكن المعنى أ أنتم أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً. ثم بين كيف خلقها فقال (بناها) و الله تعالى لا يكبر عليه خلق شيء أشد من خلق غيره، و إنما أراد أنتم أشد خلقاً عندكم و في ظنكم مع صغركم أم السماء مع عظمها و شدة إحكامها؟ و بين انه تعالى بنى السماء و (رَفَعَ سَمَكَهَا) يعني ارتفاعها، فالسمك مقابل للعمق، و هو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو، و بالعكس منه العمق. و الطول ذهاب الجسم في جهة الطول. و العرض ذهابه في جهة العرض، و هو بالاضافة الى ما يضاف اليه.

و قوله (فَسَوَّاهَا) فالتسوية جعل أحد الشئيين على مقدار الآخر على نفسه او في حكمه، و كل ما جعل في حقه على ترتيبه مع غيره فقد سوى، فلما كان كل شيء من السماء مجعولاً في صفة على ترتيبه مع غيره كانت قد سويت على هذا الوجه.

و قوله (وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد:

معناه اظلم ليلها. و قال ابو عبيدة: كل أغطش لا يبصر. و قال: ليلها أضاف الظلام الى السماء لان فيها ينشأ الظلام و الضياء بغروب الشمس و طلوعها على ما دبرها الله.

و قوله (وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا) قال مجاهد و الضحاك أخرج نورها.

و قوله (وَ الْأَرْضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) قال مجاهد و السدي: معناه دحاها مع ذلك، كما قال (عُتِّلُّ بِعِيدَ ذَلِكَ) أى مع ذلك. و قال ابن عباس: ان الله دحا الأرض بعد السماء، و إن كانت الأرض خلقت قبل السماء، و معنا دحاها بسطحها دحا يدحو دحواً و دحيت ادحى

دحياً لغتان، قال أمية بن أبي الصلت: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦١

دار دحاها ثم أعمر بابها و اقام بالأخرى التي هي أمجد «١»

و قال أوس بن حجر:

ينفى الحصا عن جديد الأرض مبترك كأنه فاحص أو لاعب داح «٢»

و قوله «أَخْرَجَ مِنْهَا» يعنى من الأرض «ماءها» يعنى المياه التي تخرج من الأرض و فيها منافع جميع الحيوان، و به قوام حياتهم كما قال «وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» «٣» «وَ مَرْعَاهَا» أى و اخرج المرعى من الأرض، و هو النبات الذى يصلح أن ترعاه الماشية، فهى ترعاه بأن تأكله فى موضعه، رعت ترعى رعيًا و مرعى، و سمي النبات الذى يصلح أن يرعى به.

و قوله «وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا» أى و اثبت الجبال فى الأرض. و الارساء الإثبات بالثقل، فالسفينه ترسو أى تثبت بثقلها، فلا تزول عن مكانها،

و ربما ارست بالبحر بما يطرح لها. فأما الجبال فإنها أوتاد الأرض، و أرسيت بثقلها، و في جعلها على الصفة التي هي عليها أعظم العبرة.

و قوله «مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ» أى خلقنا ما ذكرناه من الأرض و ما يخرج منها من المياه و المراعى نفعاً و متعةً تنتفعون بها معاشر الناس و ينتفع بها أنعامكم: الإبل و البقر و الغنم، ففي الأشياء التي عددها أعظم دلالة و أوضح حجة على توحيد الله، لأن الأرض مع ثقلها الذي من شأنه ان يذهب سفلا هي واقفة بإمساك الله تعالى، و هي على الماء. و من شأن الماء أن يجرى فى المنحدر، و هي واقفة بإمساك الله تعالى فقد خرجت عن طبع الثقل، و ذلك لا يقدر عليه غير القادر لنفسه الذي يخترع

(١) تفسير الطبرى ٢٦ / ٣٠ [.....]

(٢) ديوانه ١٦ و مقاييس اللغة ١ / ٢٣٠

(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٢

الأشياء اختراعاً، دون القادر بقدره الذي لا يقدر أن يفعل فى غيره إلا على وجه التولية بأن يعتمد عليه، فدل ذلك على ان الفاعل لهذه الأشياء لا يشبه الأشياء و لا تشبهه. و فى إخراج الماء من الأرض عبر لا تحصى كثرة بما فيه من المنفعة، و ما له من المادة على موضع الحاجة، و سد الخلّة مع ما فيه من المنفعة و التوفيق فى السير الى المكان البعيد بالسهولة، كل ذلك من الله تعالى به على خلقه و أنعم به عليهم.

و قوله «مَتَاعاً» نصب على المفعول له، و تقديره اخرج منها ماءها و مرعاها للامتاع لكم لان معنى أخرج منها ماءها و مرعاها أمتع بذلك.

قوله تعالى: [سورة النازعات (٧٩): الآيات ٣٤ الى ٤٦] ص: ٢٦٢

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَ بَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨)

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)

إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ثلاث عشرة آية.

قرأ أبو جعفر و عياش عن أبي عمرو «إنما أنت منذر من يخشاها» بالتثنية.

الباقون على الاضافة. و المعنى واحد. فمن نون جعل «من» فى موضع النصب. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٣

و إنما اختار ذلك، لأنه جعله «منذراً» فى الحال. و من اضافة استخف ذلك كما استخف فى قوله «عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ» «١» و التثنية مقدر، لان المعنى إنه منذر فى الحال، و فيما بعد. و من أضاف جعلها فى موضع جر. و المنذر النبى صلى الله عليه و آله قال الله تعالى «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «٢» قال قوم: المنذر النبى صلى الله عليه و آله و الهادى على عليه السلام، و قيل «لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» داع يدعوهم الى الحق.

يقول الله تعالى مهدداً للمكلفين من خلقه «فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى» قال ابن عباس: الطامة القيامة. و قال الحسن: الطامة هي النفخة الثانية. و قيل: هي الصيحة التي تطم على كل شىء، و هي الصيحة التي يقع معها البعث و الحساب و العقاب و الثواب. و قيل هي

الطامة الغامرة الهائلة، و في المثل: ما من طامة إلا و فوقها طامة قال الفراء: يقال: تطم على كل شيء يطم. و قال قوم: الطامة الغامرة، لما يتدفق بغلظها و كثرتها. و قيل: هي الغاشية المجللة التي تدفق الشيء بالغلظ. ثم بين متى مجيئها فقال «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى» و معناه تجيء الطامة في يوم يتذكر الإنسان ما عمله في دار التكليف من خير او شر و سعى فيه، و يعلم ما يستحقه من ثواب و عقاب «و بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى» أى لمن يراها و يبصرها شاهداً، فالتبريز اظهار الشيء بمثل التكشيف الذى يقضى اليه بالاحساس، و يقال: فلان مبرز في الفضل إذا ظهر به أتم الظهور، و بارز قرنه أى ظهر اليه من بين الجماعة.

ثم قسم احوال الخلق في ذلك اليوم من العصاة و المطيعين، فقال «فَأَمَّا مَنْ طَغَى» بأن تجاوز الحد الذى حده الله، و ارتكب المعاصى و الطغيان العصيان بمجاوزة الحد فيه الى الافراط فيه، فكل كافر طاغ بافراطه فى ظلم نفسه، و ظلم النفس كظلم غيرها فى التعاضم. و قوله «وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» معناه اختار منافع الحياة الدنيا

(١) سورة الأحقاف آية ٢٤

(٢) سورة الرعد آية ٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٤

بارتكاب المعاصى و ترك ما وجب عليه، فالإيثار إرادة الشيء على طريقة التفضيل له على غيره، و مثله الاختيار، لأنه يختاره على انه خير من غيره، فمن آثر الأذى على الأولى فهو منقوص بالحاجة، كما ان من آثر القبيح على الحسن كان منقوصاً. و قيل: المعنى من آثر نعيم الحياة الدنيا على نعيم الآخرة و الحياة حياتان: حياة الدنيا و هى المنقطعة الفانية، و حياة الآخرة، و هى الدائمة، فمن آثر الباقي الدائم على الفانى المنقطع كان حسن الاختيار، و من آثر الفانى على الباقي كان سىء الاختيار مقبحاً. ثم بين تعالى ما له فى الآخرة فقال «فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى» أى النار مثواه و مستقره و موضع مقامه. ثم ذكر من هو بصد ذلك فقال «وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» و معناه من خاف مقام مسأله ربه عما يجب فعله أو تركه و عمل بموجب ذلك بأن فعل الطاعة و أمتنع من المعصية «و نهى نفسه عن الهوى» و ما تدعو اليه شهواته، فالهوى اريحية فى النفس تدعو إلى ما لا يجوز فى العقل، فاتباع الهوى مذموم، و ليس يجوز أن يعمل شيئاً لداعى الهوى و إن عمل لداعى العقل على موافقة الهوى لم يضره. و قيل:

هم قوم صغرت الدنيا فى عينهم حين رأوا الآخرة- ذكره قتادة- و قيل: الزهد فى الدنيا، و الرغبة فى الآخرة هو التمسك بطاعة الله و اجتناب معصيته.

ثم بين تعالى ما له فى مقابلة ذلك من الثواب، فقال «فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» أى هى مقره و مأواه، فالالف و اللام تعاقب الضمير كقولهم مررت بحسن الوجه أى حسن وجهه. و قال الزجاج: تقديره هى المأوى له و لا يكون بدلا من الهاء كما لا يكون بدلا من الكاف فى قولك غض الطرف، قال: و قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير فلا سعداً بلغت و لا كلاباً «١»

(١) مر فى ٣٤١ / ٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٥

و يروى (فلا كعباً) و الجنة البستان الذى يجنه الشجر فجنة الخلد بهذه الصفة على ما فيها من القصور و الابنية الحسنة التى قد جمعت كل تحفة و طرفه مما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين، من غير أذى ملحق بحال فى عاجل و لا آجل. و روى أن قصورها مبنية بفاخر الجواهر من الياقوت و الزبرجد، و منه ما هو بلبنة من فضة و لبنة من ذهب، فتعظيم الله لها و تشويقه اليها يدل على أنها على اجل حال

تشتهى فيها مع أنه لا يتعاضم في مقدور الله - عز و جل - .

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله، فقال «يَسْتَلُونَكُ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا» أى متى يكون قيامها على ما وصفها ف (أيان) بمعنى (متى) الا- أن (متى) أكثر استعمالاً فى السؤال عن الزمان ونظيرها (أين) فى السؤال عن المكان. ولذلك فسرت (أيان) ب (متى) و الارساء الثبوت من قولهم: رست السفينة ترسو رسوا فهى راسية إذا ثبتت و منه. قوله «أرساها» و يجوز أن يكون المراد بالمرسى المصدر.

و يجوز أن يكون وقت الارساء و المعنى متى ثبت أمرها بقيامها.

و قوله «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا» أى انه ليس عندك علم متى تكون، و إنما عندك علم أنها تكون- ذكره الحسن- و قال غيره: هى حكاية قولهم، أى قد أكثرت من ذكرها، فمتى تكون؟. و قوله «إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا» أى قل لهم إلى الله تعالى إجراؤها، فالمنتهى موضع بلوغ الشيء، و كأنه قيل: إلى ربك منتهى أمرها بإقامتها لان منتهى أمرها بذكرها و وصفها و الإقرار بها إلى الرسول بإقامتها، و منتهى أمرها بإقامتها إلى الله تعالى لا- يقدر عليه إلا- الله تعالى. و قيل: المعنى إلى ربك منتهى علمها أى لا يعلم إلا هو متى وقت قيامها- ذكره الحسن-.

و قوله «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا» خطاب من الله للنبي صلى الله عليه وآله بأنه إنما التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٦ يخوف من يخاف ذلك اليوم و هو يوم القيامة، و إنما خص الإنذار بمن يخشى، لأنه لما كان المنتفع بالإنذار من يخشى فكأنه خص بالإنذار. و الكافر لما لم ينتفع بذلك فكأنه لم ينذر أصلاً.

ثم بين تعالى سرعه مجيئها و قرب حضورها فقال «كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا» و قال قتادة: معناه إنهم إذا رأوا الآخرة صغرت الدنيا فى أعينهم حتى كأنهم لم يقيموا بها إلا مقدار عشيء أو مقدار ضحاها يعنى ضحى العشيء. و أضيف الضحى إلى العشيء، و ضحوة الضحى اليوم الذى يكون فيه، فإذا قلت أتيتك صباحاً و مساءً، فالمعنى أتيتك العشيء أو غداتها، قال الفراء: انشدنى بعض بنى عقيل:

نحن صبحنا عامراً فى دارها عشيء الهلال أو سرارها

قبل اصفرار الشمس و احمرارها «١»

أراد عشيء الهلال أو عشيء سرار العشيء فهذا أشد من ذلك.

(١) القرطبي ٢٠٨/١٩ و الطبرى ٢٨/٣٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٧

٨٠-سورة عبس ص: ٢٦٧

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك، و هى اثنتان و أربعون آية فى الكوفى و المدنين و احدى و أربعون فى البصرى

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٢٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)

أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)

عشر آيات.

قرأ عاصم وحده «فتنفعه الذكرى» بالنصب على أنه جواب (لعل) فجرى مجرى جواب الأمر والنهى، لأن (لعل) للترجي فهي غير واجبة، كما أن الأمر غير واجب في حصول ما تضمنه. الباقون بالرفع عطفاً على (يذكر). وقرأ نافع وابن كثير «تصدى» مشددة الصاد على أن معناه تتصدى فأدغم، أحدى التائين في الصاد لقرب مخرجهما. الباقون «تصدى» بتخفيف الصاد بإسقاط أحدى التائين.

وقرأ ابن أبي بزة وابن فليح عن ابن كثير «تلهى» بتشديد اللام بمعنى تتلهى، فأدغم أحدى التائين في اللام. الباقون بتخفيف اللام وحذف أحدى التائين التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٨

يقول الله تعالى «عَبَسَ وَتَوَلَّى» ومعناه قبض وجهه وأعرض، فالعبوس تقبض الوجه عن تكرهه، والعبوس البسور وهو التقطيب وعبس فلان في وجه فلان مثل كلعج، ومنه اشتق اسم عباس، ومعنى «تَوَلَّى» أعرض وذهب بوجهه عنه فصرفه عن ان يليه يقال: تولى عنه بمعنى أعرض عنه، وتولاه بخلاف تولى عنه، فان تولاه بمعنى عقد على نصرته، وتولى عنه أعرض.

وقوله «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» معناه عبس لأن جاءه الأعمى، وقال ابن خالويه:

تقديره إذ جاءه الأعمى، والأعمى المراد به عبد الله بن أم مكتوم - في قول ابن عباس ومجاهد وقادة والضحاك وابن زيد - وقال الفراء: كانت أم مكتوم أم أبيه.

وقال غيره: كانت أمه. وقال ابن خالويه أبوه يكنى أبا السرج. وختلفوا فيمن وصفه الله تعالى بذلك، فقال كثير من المفسرين وأهل الحشو: إن المراد به النبي صلى الله عليه وآله قالوا وذلك

أن النبي صلى الله عليه وآله كان معه جماعة من أشرف قومه ورؤسائهم قد خلا بهم فاقبل ابن أم مكتوم ليسلم فأعرض النبي صلى الله عليه وآله عنه كراهية أن تكره القوم إقباله عليه فعاتبه الله على ذلك.

وقيل: إن ابن أم مكتوم كان مسلماً، وإنما كان يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وهو لا يعلم أن رسول الله مشغول بكلام قوم، فيقول يا رسول الله.

وهذا فاسد، لأن النبي صلى الله عليه وآله قد أجل الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب، وقد وصفه بأنه

«لَعَلِّي خُلِقْتُ عَظِيمٌ» (١) وقال «وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوكَ مِنْ حَوْلِكَ» (٢) وكيف يعرض عمن تقدم وصفه مع قوله تعالى «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (٣) ومن عرف النبي صلى الله عليه وآله وحسن أخلاقه وما خصه الله

تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن

(١) سورة ٦٨ القلم آية ٤

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٩

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٥٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٦٩

الصحبة حتى قيل إنه لم يكن يصافح احداً قط فينزع يده من يده، حتى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده. فمن هذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الإسلام، على أن الأنبياء عليهم السلام منزهون عن مثل هذه الأخلاق و عما هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم، ولا يجوز مثل هذا على الأنبياء من عرف مقدارهم وتبين نعمتهم.

وقال قوم: إن هذه الآيات نزلت في رجل من بنى أمية كان واقفاً مع النبي صلى الله عليه وآله، فلما اقبل ابن أم مكتوم تنفر منه، و

جمع نفسه و عبس في وجهه و أعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك و أنكره معاتبه على ذلك.
 و قوله «وَمَا يُدْرِيكَ» خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و تقديره «قل» يا محمد «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكِّي» و إنما أضاف العبوس إلى النبي صلى الله عليه و آله من أضاف «وَمَا يُدْرِيكَ» أنه رآه متوجهاً إليه ظن انه عتب له دون أن يكون متوجهاً إليه على أن يقول لمن فعل ذلك و يوبخه عليه. و معنى قوله «يَزَّكِّي» أى يتزكى بالعمل الصالح، فأدغم التاء في الزاى، كما أدغمت في الذال فى قوله «يَذَّكَّرُ» و معناه يتذكر، و لا يجوز إدغام الزاى فى التاء، لأنها من حروف الصغير، و هى الصاد و السين و الزاى.
 و قوله «أَوْ يَذَّكَّرُ» معناه أو يتذكر ما أمره الله تعالى به، و يفكر فيما أمره بالفكر فيه. و قد حث الله تعالى على التذكير فى غير موضع من القرآن فقال «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (١) و قال «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» (٢) و ينبغى للإنسان أن يستكثر من ذكر ما يدعو إلى الحق و يصرف عن الباطل.
 ثم بين انه متى يذكر «فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى» أى الفكر فيما أمره الله به من

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥

(٢) سورة ٢٣ الرعد آية ٢١ و سورة الزمر آية ٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٠

القرآن و غيره من الادلة.

و قوله «أَمَّا مَنْ اسْتَيْغَى» معناه أما من كان غنياً أو وجدته موسراً، فالاستغناء الاكتفاء بالأمر فيما ينفى الضرر و قد يكتفى الإناء فى ملئه بما فيه، فلا- يستغنى استغناء فى الحقيقة. و قوله «فَأَنْتَ لَهُ تَصِيدُ» فالتصدي هو التعرض للشىء كتعرض العطشان للماء. و أصله الصدى، و هو العطش. و رجل صديان أى عطشان و الصدى الصوت الذى يردده الجبل أو الحمام و نحوهما، قال مجاهد: المراد ب «مَنْ اسْتَيْغَى» عتبه بن ربيعة و شيبه بن ربيعة. و قال سفيان: نزلت فى العباس، فقال الله تعالى «وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكِّي» أى قل له و ما عليك ألا يتزكى، فالتزكى هو التطهر من الذنوب، و أصله الزكاء و هو النماء، فلما كان الخير ينمى للإنسان بالتطهر من الذنوب كان تزكياً.

ثم قال «وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى» يعنى عبد الله بن أم مكتوم جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله، و هو يخشى معصية الله و الكفر، و الخشية هى الحذر من مواقع المعصية خوفاً من عقاب الله تعالى «فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى» أى تعرض عنه فالتلهى عن الشىء هو التروح بالاعراض عنه و التلهى به التروح و الإقبال عليه و منه قولهم إذا استأثر الله بشىء فله عنه أى اتركه و أعرض عنه.

قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ١١ الى ٢٣] ص: ٢٧٠

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥)
 كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قَبِيلِ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)
 ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧١

ثلاث عشرة آية.

يقول الله تعالى «كَلَّا» أى ليس الأمر ينبغى أن يكون على هذا، و قوله «إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» أى كلا إن السورة تذكرة «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ» أى التنزيل أو الوعظ.

و قال قوم: الهاء عماد، و المبتدأ محذوف و تقديره إنها هى تذكرة. و التذكرة حضور الموعظة ففيتها أعظم الفائدة و فى الغفلة اكبر

الآفة.

و الفرق بين التذكرة و المعرفة أن التذكرة ضد الغفلة و المعرفة تضاد الجهل و السهو، فكلاهما يتعاقبان على حال الذكر دون السهو، كتعاقب العلم و أضداده على حال الذكر دون السهو، و الذكر معظم، لأنه طريق إلى العلم بالحق من الباطل و الصحيح من الفاسد. و قيل: إن قوله «كلا» دال على أنه ليس له ان يفعل ذلك في ما يستأنف. فاما الماضي فلم يدل على انه معصية، لأنه لم يتقدم النهي عنه. و قوله «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ» دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن القدرة مع الفعل، و أن المؤمن لا قدرة له على الكفر، و أن الكافر لا يقدر على الايمان، لأنه تعالى بين أن من شاء ان يذكره ذكره، لأنه قادر عليه.

و قوله «فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ» أى ما ذكرناه تذكرة في صحف مكرمة أى معظمة مبيجة، و وصفت الصحف بأنها مكرمة تعظيماً لما تضمنته على الحكمة. و قوله «مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ» أى مصونة عن ان تنالها أيدي الكفار الانجاس. و قال الحسن: مطهرة من كل دنس. و قوله «مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ» أى رفعها الله عن دنس الانجاس و نزهها عن ذلك. و قوله «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» قيل السفارة ملائكة موكلون بالاسفار من كتب الله. و السفارة الكتبة لاسفار الحكمة، واحدهم سافر، كقولك كاتب التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٢

و كتبه، و واحد الاسفار سفر. و أصله الكشف من الأمر، سمرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، فالكاتب يسفر بالكتاب عما في النفس. و قال ابن عباس: السفارة الكتبة، و فى رواية أخرى عنه إنها الملائكة. و قال قتادة: هم القراء: و قيل: هم الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله و رسوله، و سفير القوم الذى يسفر بينهم فى الصلح، و سمرت بين القوم إذا أصلحت بينهم، قال الشاعر:

و لم أدع السفارة بين قومي و ما أمشى بغش إن مشيت (١)

و اسفر الصبح إذا أضاء. و قوله «كِرَامٍ بَرَرَةٍ» من صفة السفارة، و صفهم الله بأنهم كرام، و هو جمع كريم، و هو الذى من شأنه أن يأتى بالخير من جهته مهناً من غير شائب يكدره، و هى صفة مدح، و منه أخذت الكرمه لشرف ثمرتها، و الكرم يتعاضم، فالنبي أكرم ممن ليس بنبي، و المؤمن أكرم ممن ليس بمؤمن. و (البررة) جمع بار، تقول بر فلان فلاناً يبره فهو بار إذا أحسن اليه و نفعه. و البر فعل النفع اجتلاباً للمودة. و البار فاعل البر، و جمعه بررة مثل كاتب و كتبة. و أصله اتساع النفع منه، و منه البر سمي به تفاؤلاً باتساع النفع به، و منه البر لاتساع النفع به.

و رجل برّ، و امرأة برّة و الجمع بررة، و لا يجمع الا على هذا استغنا به.

و قوله «فَتَبَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ» معناه لعن الإنسان، قال مجاهد: و هو الكافر. و قيل: معناه إنه حل محل من يدعى عليه بالقتل فى ماله بقبح الفعل، فيخرجه مخرج الدعاء عليه و لا يقال: إن الله دعا عليه بالقتل لقبح اللفظ بذلك لما يوهم من تمنى المدعو به. و معنى «ما أكفَرَهُ» أى شىء اكفره؟! على وجه التقرير له و التوبيخ. و قيل معناه النفى، و تقديره ما أجحده لنعم الله مع ظهورها

(١) الطبرى ٣٠ / ٣٠ و القرطبي ٢١٤ / ١٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٣

«مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ» تعجباً له، لأنه يعلم أن الله خلقه من نطفة، ثم بين تعالى مما ذا خلقه فقال «مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ» فالتقدير جعل الشىء على مقدار غيره، فلما كان الإنسان قد جعل على مقدار ما تقتضيه الحكمة فى أمره من غير زيادة و لا نقصان كان قد قدر أحسن التقدير، و دبر أحسن التدبير «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» أى سهل له سبيل الخير فى دينه و دنياه بأن بينه له و أرشده اليه و رغبه فيه، فهو يكفر هذا كله و يجحده و يضع حق الله عليه فى ذلك من الشكر و إخلاص العبادة. و قال ابن عباس و قتادة و السدى: يسر خروجه من بطن أمه. و قال مجاهد: سهل له طريق الخير و الشر، كقوله «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» (١). و قال الحسن: سبيل الخير، و قال ابن زيد: سبيل الثواب، و قال الحسن «يسره»: معناه بصره طريق الهدى و الضلال. و قيل يسر خروجه من بطن أمه، فانه

كان رأسه الى رأس أمه و رجلاه إلى رجليها، فقلبه الله عند الولادة ليسهل خروجه منها. و قالوا: يسرى و يسراة جمعوه على (فعله) و أجروه مجرى (فاعل) من الصحيح.

و قوله «ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ» فالاماتة أحداث الموت. و فى الناس من قال:

الاماتة عرض يضاد الحياة مضادة المعاقبة على الحال الواحدة، و هى حال تعديل البنية الحيوانية، و ذلك أن ما لا يصح أن تحله حياة لا يصح أن يحله موت. و قال قوم: الموت عبارة عن نقض البنية الحيوانية أو فعل ما ينافى ما تحتاج اليه الحياة من الرطوبات و المعانى. و قوله «فَأَقْبَرَهُ» الإقبار جعل القبر لدفن الميت فيه، يقال:

أقبره إقباراً، و القبر الحفر المهيأ للدفن فيه، و يقال: أقبرنى فلاناً أى جعلنى اقبره فالمقبر هو الله تعالى يأمر عباده أن يقبروا الناس إذا ماتوا، و القابر الدافن للميت

(١) سورة ٧٦ الإنسان آية ٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٤

بيده قال الأعشى:

لو أسندت ميتاً الى نحرها عاش و لم ينقل الى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر «١»

و قوله (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) فالانشار الأحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي انشر الله الموتى فنشروا كقولهم أحياهم فحيوا، و المشيئة هى الارادة و المعنى إذا شاء الله تعالى أن يحيى الميت أحياء- و هو قول الحسن - للجزاء بالثواب و العقاب.

و قوله (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) معناه كلا لما لم يقض ما عليه مما أمره الله به، لأنه قد أمره بأشياء واجبة فلم يفعلها: من إخلاص عبادته و شكره بحسب مقتضى نعمه. و قال مجاهد: لا يقضى أحد أبداً كل ما افترض الله عليه.

قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ٢٤ الى ٣٢] ص: ٢٧٤

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدائقٍ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)

تسع آيات.

قرأ اهل الكوفة «أنا صببنا» بفتح الألف على البدل من «طعامه» أو على انه خبر مبتدأ محذوف. الباقي بالكسر على الاستئناف. يقول الله تعالى لخلقه منبهاً لهم على قدرته على احياء الخلق بعد موتهم و نشرهم

(١) قد مر فى ٤ / ٤٦٠ و ٧ / ٤٩٦ و هو فى ديوانه ٩٣ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٥

و مجازاتهم بأن أمره ان ينظر إلى طعامه الذى يأكله و يتقوته، و يفكر كيف يخلقه الله و يوصله اليه و يمكنه من الانتفاع به. و بين كيفية ذلك فقال «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا» أى أنزلنا الغيث إنزالاً «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا» فالشق قطع الشيء طولاً و مثله الصدع و الفرج و الفطر، و من ذلك شق الأرض و شق الخشبة و شق الشعرة فأما قطع اللبنة، و قطع الشجر، فعلى خلاف ذلك، فبين تعالى أنه يشق الأرض و يخرج منها ما أنبته من أنواع النبات. و من فتح «أنا» على البدل، فعلى انه بدل اشتمال، و يكون موضعه جراً فتقديره فلينظر إلى أنا صببنا. و قال آخرون: موضعه نصب، لان الأصل ب (أنا) و (لأنا) فلما أسقط الخافض نصب على المعنى، فتقديره فلينظر

الإنسان إلى حدوث طعامه او نبات طعامه، لأنه موضع الاعتبار.

وقال المبرد: تقديره فليُنظر الإنسان إلى طعامه، لأننا صببنا فأخرجنا أى لهذه العلة كان طعامه، لأن قوله «أَنَا صَيَّبْنَا» ليس من الطعام فى شىء، وقال ابو على:

وهو بدل الاشتمال، لان ما ذكره يشتمل على الطعام فهو بمنزلة قوله «قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارَ» (١).

وقوله «فَأَتَيْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبًّا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا...» فالانبات إخراج النامى حالا بعد حال، يقال أنبت الله انباتاً فنبت نباتاً، ففاعل النبات و الانبات واحد إلا- أن الانبات يؤخذ منه صفة المنبت، و النبات يؤخذ منه النابت. و ليس النبات فاعلاً لكنه الصائر على تلك الصفة بتصيير غيره، غير انه لما أسند الفعل اليه اشتق له منه اسم الفاعل. و الحب جمع الحبة مثل الشعير و الحنطة و السمسم و الدخن و الارز و غير ذلك، و كذلك يسمى حب اللؤلؤ تشبيهاً بذلك فى تدويره. و القضب الرطبة- فى قول الضحاك، و الفراء- و أهل مكة يسمون القث قضباً. و أصله فيما يقطع رطباً من

(١) سورة ٨٥ البروج آية ٤-٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٦

قولهم: قضبته و أقضبته قضباً إذا قطعه رطباً، و منه القضيب و المقتضب. و الزيتون معروف. و إنما ذكره الله تعالى لعظم النفع به و الدهن الذى يكون منه «وَنَخْلًا» أى و أنبتنا من الأرض نخلا و هو شجر الرطب و التمر «وَوَحِيدَاتٍ غُلْبًا» فالحديقة البستان المحوط و جمعه حدائق، و منه أحدق به القوم إذا أحاطوا به، و منه الحدقة لما أحاط بها من جفنها. و الغلب جمع أغلب و غلبا، و هى الغلاظ بعظم الأشجار، و شجرة غلباء إذا كانت غليظة قال الفرزدق:

عوى فاثار اغلب ضيغياً فويل ابن المراغة ما استثارا (١)

وقوله «وَوَافِكِهَةٌ وَأَبًّا» يعنى ثمر الأشجار التى فيها النفع و الالذاذ، يقال تفكه بكذا إذا استعمله للاستمتاع به و الفاكهة تكون رطبة و يابسة. و الأب المرعى من الحشيش و سائر النبات الذى ترعاه الانعام و الدواب، و يقال أبا إلى سيفه فاستله كقولك هب اليه و بدر اليه، فيكون كبدور المرعى بالخروج قال الشاعر:

جدنا قيس و نجد دارنا و لنا الأب بها و المكرع (٢)

وقوله «مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ» فالمتاع كل شىء فيه الذاذ الامساس من مأكلا او منظر أو مشمم أو ملمس، و أصله المصدر من قولهم: أمتعته امتاعاً و متاعاً و متع النهار إذا ارتفع، لأن ارتفاعه يستمتع به. فبين تعالى انه خلق ما خلق و أنبت ما أنبت من الأرض لامتناع الخلق به من المكلفين و أنعامهم التى ينتفعون بها.

و الانعام الماشية بنعمة المشى من الإبل و البقر و الغنم بخلاف الحافر بشدة وطئه بحافره من الخيل و البغال و الحمير.

قوله تعالى: [سورة عبس (٨٠): الآيات ٣٣ الى ٤٢] ص: ١٧٦

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (٣٥) وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

(١) ديوانه ٢/٤٤٣

(٢) القرطبي ١٩/٢٢٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٧

عشر آيات.

قوله «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ» قال ابن عباس: هي القيامة. وقيل: هي النفخة الثانية التي يحيا عندها الناس. وقال الحسن: الصاحفة هي التي يصيح لها الخلق، و هي النفخة الثانية. و الصاحفة هي الصاكة بشدة صوتها الآذان فتصمها، صخ يصخ صيخاً، فهو صاخ. و قد قلبها المضاعف باكرهه التضعيف، فقال: أصاخ يصيح اصاخة قال الشاعر:

يصيح للنبأ أسماعه إصاخة الناشد للمنشد «١»

و مثله تظنيت، و الأصل تظننت. ثم بين شدة أهوال ذلك اليوم فقال «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ» من (أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ) من (صَاحَتِهِ) التي هي زوجته في الدنيا (وَ بَيْنِيهِ) يعني أولاده الذكور نفر من هؤلاء حذراً من مظلمة تكون عليه. وقيل: لئلا يرى ما ينزل به من الهوان و الذل و العقاب. و قيل: نفر منه ضجرأً به لعظم ما هو فيه. و قيل: لأنه لا يمكنه ان ينفعه بشيء و لا ينتفع منه بشيء و قوله (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) فالمراد به الذكر من الناس و تأنيته امرأة، فالمعنى إن كل انسان مكلف مشغول بنفسه لا يلتفت إلى غيره، من صعوبة الأمر و شدة أهواله. و الشأن الأمر العظيم، يقال: لفلان شأن من

(١) القرطبي ٢٢٢ / ١٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٨

الشأن أى له أمر عظيم، و أصله الواحد من شئون الرأس، و هو موضع الوصل من متقابلاته التي بها قوام أمره. و معنى (يغنيه) أى يكفيه من زيادة عليه أى ليس فيه فضل لغيره لما هو فيه من الامر الذى قد اكتنفه و ملأ صدره، فصار كالغنى عن الشيء فى أمر نفسه لا تنازع اليه.

ثم قسم تعالى احوال العصاة و المؤمنين، فقال (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْتَفِرَّةٌ) أى مكشوفة مضيقته، فالاسفار الكشف عن ضياء من قولهم: أسفر الصبح إذا أضاء، و سمرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، و منه السفر، لأنه يكشف عن أمور تظهر به، قال توبة الحميرى. و كنت إذا فاجأت ليلي تبرقت فقد رابني منها الغداة سفورها «١»

أى كشفها قناعها. و قوله «ضاحكةً مُّسْتَبَشِرَةٌ» أى من فرحها بما أعددتا لها من الثواب تكون ضاحكة مسرورة. و الضحك الاستبشار و إن أضيف إلى الوجه، فالمراد به أصحاب الوجوه، فأما الاسفار و الاشراف فيجوز ان يكون للوجوه خاصة بما جعل الله فيها من النور، لتفرق الملائكة بين المؤمنين و الكفار.

ثم قال (وَ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أى يكون على تلك الوجوه غبار و جمعه غبرة «تَرْهَقُهَا» أى تغشاها «قَتَرَةٌ» و هى ظلمة الدخان، و منه قتر الصائد موضعه الذى يدخل فيه للتدفى به.

ثم اخبر أن من كان على وجهه الغبرة التي تغشاها القتر «هُمُ الْكُفَرَةُ» جمع كافر «الْفَجَرَةُ» جمع فاجر، كما أن كاتباً يجمع كتبه، و ساحراً يجمع سحره. و ليس فى ذلك ما يدل على مذهب الخوارج من ان من ليس بمؤمن لا بد أن يكون كافراً من حيث أن الله قسم الوجوه هذين القسمين. و ذلك انه تعالى ذكر قسمين من

(١) الطبرى ٣٤ / ٣٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٧٩

الوجوه متقابلين، وجوه المؤمنين و وجوه الكفار، و لم يذكر وجوه الفساق من أهل الملة. و يجوز ان يكون ثم صفة اخرى بخلاف ما لهذين، بان يكون عليها غبرة لا يغشاها قتره او يكون عليها صفرة، و لو دل ذلك على ما قالوه لوجب أن يدل قوله «يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُودٌ وَ تَسْوَدُّ وَجُودٌ» «١» على أن كل من لا يبيض وجهه من المؤمنين يجب أن يكون مرتدأً، لأنه تعالى قال لهم «أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» «٢» و

الخوارج لا تقول ذلك، لان من المعلوم ان- هاهنا- كفاراً في الأصل ليسوا مرتدين عن الايمان.

٨١- سورة التكويد ص: ٢٧٩

اشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي تسع وعشرون آية بلا خلاف

[سورة التكويد (٨١): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٢٧٩

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
 إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)
 وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)
 وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُيِّجِرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ
 (١٤)

(١، ٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٠

أربع عشرة آية.

قرأ ابن كثير و اهل البصرة «سجرت» خفيفة الجيم. الباقر بتشديدها وقرأ اهل المدينة و ابن عامر و حفص عن عاصم «نشرت» خفيفة الشين. الباقر بالتشديد. وقرأ نافع و باقى اهل المدينة و ابن عامر فى روايه ابن ذكوان و عاصم إلا يحيى و رويس «سعرت» بتشديد العين. الباقر بتخفيفها. وقرأ ابو جعفر «قتلت» مشددة التاء، الباقر بتخفيفها.

يقول الله تعالى مخبراً عن وقت حضور القيامة و حصول شدايدها «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» فاللفظ و إن كان ماضياً فالمراد به الاستقبال، لأنه إذا اخبر تعالى بشيء فلا بد من كونه، فكأنه واقع. و الفعل الماضى يكون بمعنى المستقبل فى الشرط و الجزاء، و فى أفعال الله، و فى الدعاء إذا تكرر كقولك حفظك الله و أطال بقاءك.

و معنى (كورت)- فى قول ابن عباس و أبى بن كعب و مجاهد و قتادة و الضحاك- ذهب نورها. و قال الربيع بن خيثم: معناه رمى بها، و التكويد تليف على جهة الاستدارة و منه كور العمامة، كور يكور تكويراً، و منه الكارة، و يقال: كورت العمامة على رأسى اكورها كوراً و كورتها تكويراً. و يقال: طعنه فكوره أى رمى به، ذكره الأزهرى، و منه قولهم: أعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من النقصان بعد الزيادة فالشمس تكور بأن يجمع نورها حتى يصير كالكاره الملقاه فيذهب ضوءها و يجدد الله- عز و جل- للعباد ضياء غيرها.

و قوله (وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) فالنجوم جمع نجم، و هو الكوكب و جمعه التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨١

كواكب. و منه نجم النبات إذا طلع ينجم نجماً فهو ناجم، و كذلك نجم القرن، و نجم السن. و الانكدار انقلاب الشيء حتى يصير الأعلى الأسفل بما لو كان ماء لتكدر. و قيل: اصل الانكدار الانصباب. قال العجاج:

ابصر خربان فضاء فانكدر «١»

و قال مجاهد و الربيع بن خيثم و قتادة و ابو صالح و ابن زيد: انكدرت معناه تناثرت. و قوله (وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) فمعنى تسيير الجبال

تصييرها هباءً و سراباً و قوله (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) فالعشار جمع عشراء، و هي الناقة التي قد أتى عليها عشرة أشهر من حملها، و هو مأخوذ من العشرة. و الناقة إذا وضعت لتمام فقى سنة. و قال الفراء: العشار لفتح الإبل التي عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم. و قال الجبائي:

معناه ان السحاب يعطل ما يكون فيها من المياه التي ينزلها الله على عباده في الدنيا.

و حكى الازهرى عن أبى عمرو انه قال: العشار الحساب. قال الازهرى: و هذا لا- أعرفه فى اللغة. و المعنى إن هذه الحوامل التي يتنافس أهلها فيها قد أهملت.

و قوله (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) قال عكرمة: حشرها موتها. و غيره قال: معناه تغيرت الأمور بأن صارت الوحوش التي تشرذم في البلاد تجتمع مع الناس و ذلك ان الله تعالى يحشر الوحوش ليوصل اليها ما تستحقه من الأعواض على الآلام التي دخلت عليها، و ينتصف لبعضها من بعض، فإذا عوضها الله تعالى، فمن قال:

العوض دائم قال تبقى منعمه على الأبد. و من قال: العوض يستحق منقطعاً اختلفوا فمنهم من قال: يديمها الله تفضلاً لئلا يدخل على العوض غم بانقطاعه. و منهم من قال: إذا فعل بها ما تستحقه من الاعواض جعلها تراباً.

(١) مر فى ١٤٦/٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٢

و قوله «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» معناه ملئت ناراً كما يسجر التنور، و أصل السجر الملاء قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى و صدعا مسجورة متجاوز أقدامها (١)

أى مملوءة، و منه «الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» (٢) قال ابن عباس و أبى بن كعب:

سجرت أوقدت، فصارت ناراً. و قال شمر بن عطية: صارت بمنزلة التنور المسجور و قال الحسن و الضحاك: معناه ملئت حتى فاضت على الأرضين فتنسقاها حتى تكون لجاج البحار و رؤس الجبال بمنزلة واحدة، و قيل: معنى «سُجِّرَتْ» جعل ماؤها شراباً يعذب به أهل النار. و قال الفراء: معناه افضى بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً. و من ثقل أراد الكثير، و من خفف، فلأنه يدل على القليل و الكثير.

و قوله «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» معناه ضم كل واحد منها إلى شكله، و النفس قد يعبر به عن الإنسان و يعبر به عن الروح، و قال عمر بن الخطاب و ابن عباس و مجاهد و قتادة: كل إنسان بشكله من أهل النار و أهل الجنة. و قال عكرمة و الشعبي: معنى زوجت ردت الأرواح إلى الأجساد. و قيل: معناه يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان.

و قوله «وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ» فالمؤودة المقتولة بدفنها حية، فكانت العرب تند البنات خوف الاملاق، وأدها يئدها وأدأ، فهى مؤودة أى مدفونة حية، و على هذا جاء قوله «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ» (٣) و

قال قتادة: جاء قيس ابن عاصم التميمى إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: انى وأدت ثمانى بنات فى الجاهلية، فقال النبى صلى الله عليه و آله (فأعتق عن كل واحدة رقبة) قال انى صاحب أبل. قال (فاهد إلى

(١) مر فى ١١٨/٧ و ٤٠٣/٩

(٢) سورة ٥٢ الطور آية ٦

(٣) سورة ٦ الانعام آية ١٥١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٣

من شئت عن كل واحدة بدنة).

وقيل موءودة للثقل الذي عليها من التراب. وقوله «وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا» (١) أى لا يتقله، قال الفرزدق:

ومنا الذى منع الوائدت وأحيا الوئيد فلم يواد (٢)

و إنما يسأل عن الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها، وهو أبلغ من سؤاله، لأن هذا مما لا يصلح إلا بذنوب، فأى ذنب كان لك، فإذا

ظهر انه لا ذنب لها جاءت الطامة الكبرى على قاتلها، لأنه رجع الأمر اليه بحجة يقر بها. وقال قوم:

تقديره سئلت قتلها بأى ذنب قتلت، فالكنايه عنها أظهر. و روى فى الشواذ، و هو المروى عن ابن عباس وغيره من الصحابة أنهم قرءوا

«و إذا الموءودة سألت بأى ذنب قتلت» جعلوها هى السائلة عن سبب قتلها لا المسؤولة و هو المروى فى اخبارنا

وقوله «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» فالنشر بسط المطوى، و النشر للصحف و الثياب و نحوها. و الصحف جمع صحيفة و هى الصحيفة التى

فيها اعمال الخلق من طاعة و معصية، فتنشر عليه ليقف كل انسان على ما يستحقه.

وقوله «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ» فالكشط القلع عن شدة التراق كشط جلدة الرأس يكشطها كسطاً إذا قلعها. فقلع السماء عن مكانها على

شدة ما فيها من اعتماد كقلع جلدة الرأس عن مكانها، و الكشط و النشط واحد. و فى قراءة عبد الله «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ».

وقوله «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُيِّجَتْ» معناه اشتعلت و أضمرت، فالتسجير تهيج النار حتى تتأجج، و منه السعير، لأنه حال هيج الثمن بالارتفاع و

الانحاط، و أسعرت الحرب و الشر بين القوم من هذا. و من شدد أراد الكثير، و من خفف فلائنه يدل على القليل و الكثير. و قال قتادة:

يسعرها غضب الله و خطايا بنى آدم.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥

(٢) ديوانه ٢٠٣/١ و اللسان (وآد)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٤

وقوله «وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ» أى قربت من أهلها يوم القيامة فالازلانف إنداء ما يحب، و منه الزلفة القربة، و أزدلف إلى الامر اقتراب منه.

و منه المزدلفة لأنها قريب من مكة. وقوله «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ» هو جواب «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» و ما بعدها من الشروط، و

المعنى إن عند ظهور الأشياء التى ذكرها و عددها تعلم كل نفس ما عملته من طاعة أو معصية، و قد كان غافلا عنه. و هو كقوله

«أَخْصَاةُ اللَّهِ وَ نَسْوَةٌ» (١).

قوله تعالى: [سورة التكويد (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩] ص: ٢٨٤

إشارة

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَشْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ

بِضَنِينٍ (٢٤)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ

يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

خمس عشرة آية.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و الكسائى و رويس «بظنين» بالطاء أى ليس على الغيب بمتهم، و الغيب هو القرآن، و ما تضمنه من الأحكام

وغير ذلك من اخباره عن الله. الباقون - بالضاد - بمعنى انه ليس بخيلا لا يمنع أحداً من تعليمه ولا يكتمه

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٥

دونه. وفي المصحف بالضاد.

قوله «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ» معناه اقسام و (لا) صلة. وقد بينا نظائره فيما مضى. و (الخنس) جمع خانس، و هو الغائب عن طلوع، خنست الوحشية في الكناس إذا غابت فيه بعد طلوع. و

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن الخنس النجوم لأنها تخنس بالنهار و تبدو بالليل.

وقيل: تخنس في مغيبها بعد طلوعها، و به قال الحسن و مجاهد. و قال ابن مسعود و سعيد بن جبير و الضحاك: هي الظباء.

وقيل: القسم بالنجوم الخنس بهرام و زحل و المشتري و عطارد و الزهرة. و قوله «الْجَوَارِ الْكُنُوسِ» معناه النجوم التي تجرى في مسيرها ثم تغيب في مغاربها على ما دبره تعالى فيها ففى طلوعها، ثم جريها في مسيرها، ثم غيبتها في مواقعها من الآية العظيمة و الدلالة الباهرة المؤدية إلى معرفته تعالى ما لا يخفى على متأمل معرفته و عظيم شأنه، فالجارية النجوم السيارة، و الجارية السفن في البحار، و الجارية المرأة الشابة.

و قوله «الْكُنُوسِ» نعت ل «الْجَوَارِ» و هو جمع (كانس) و هي الغيب في مثل الكناس، و هو كناس الوحشية بيت تتخذه من الشجرة تختفي فيه، قال طرفة:

كأن كناسي ضالته مكفانها و اطرقتي تحت صلب مؤيد «١»

و قوله «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ» قسم آخر، و

معنى «عسس» أدبر بظلامه - في قول أمير المؤمنين عليه السلام

و ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد - و قال الحسن و مجاهد في رواية و الفضل بن عطية: أقبل بظلامه، و تقول العرب:

عسس الليل إذا أدبر بظلامه. قال علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبح لها تنفسا و انجاب عنها ليلها و عسسا «٢»

(١) ديوانه ٢٥ و تفسير القرطبي ٢٣٦ / ١٩ [.....]

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٨٨ و الطبري ٣٠ / ٤٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٦

وقيل: عسس دنا من أوله و اظلم، و العس طلب الشيء بالليل، عس يعس عساً، و منه أخذ العسس. و قال صاحب العين: العس نقض الليل عن أهل الريئة و العس قدح عظيم من خشب أو غيره، و كأن أصله امتلاء الشيء بما فيه، فقدح اللبن من شأنه أن يمتلئ به، و يمتلئ الليل بما فيه من الظلام، و عسس أدبر بامتلاء ظلامه. و قال الحسن «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ» معناه إذا أظلم و الصبح إذا تنفس إذا أسفر.

و قوله «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» قسم آخر بالصبح إذا أضاء و امتد ضوءه يقال:

تنفس الصبح و تنفس النهار إذا امتد بضوئه، و التنفس امتداد هواء الجوف بالخروج من الفم و الأنف يقال: تنفس الصعداء.

و قوله «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ» جواب الأقسام التي مضت، و معنى «إِنَّهُ لَقَوْلُ» يعنى القرآن «رَسُولٍ كَرِيمٍ» و هو جبرائيل عليه السلام -

في قول قتاده و الحسن - بمعنى إنه سمعه من جبرائيل، و لم يقله من قبل نفسه. و قال: يجوز أن يراد به محمد صلى الله عليه و آله فانه أتى به من عند الله. و قوله (ذِي قُوَّةٍ) معناه قوى على أمر الله. و قيل: معناه قوى في نفسه- في قول من قال: عنى به جبرائيل - لان من قوته قلبه قريات لوط بقوادم أجنحته.

و قوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) معناه عند الله صاحب العرش (مَكِينٍ) أى متمكن عنده، و فى الكلام تعظيم للرسول بأنه كريم، و أنه مكين عند ذى العرش العظيم و أن الله تعالى أكد ذلك أتم التأكيد. و قوله (مُطَاعٌ تَمَّ أَمِينٍ) من قال المراد بالرسول جبرائيل، قال معناه إنه مطاع فى الملائكة، أمين على وحى الله. و من قال: عنى به الرسول صلى الله عليه و آله قال: معناه إنه يجب أن يطاع و أن من أطاعه فيما يدعوه اليه كان فائزاً بخير الدنيا و الآخرة. و يرجو بطاعته الثواب و يأمن التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٧

من العقاب، و إنه صلى الله عليه و آله كان يدعى الأيمن قبل البعث، فالأيمن هو الحقيق بأن يؤتمن من حيث لا يخون، و لا يقول الزور، و يعمل بالحق فى الأمور.

ثم خاطب تعالى جماعة الكفار فقال (وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ) أى ليس صاحبكم الذى يدعوكم إلى الله و إخلاص عبادته بمؤف العقل على ما ترمونه به من الجنون.

و المجنون المغطى على عقله حتى لا يدرك الأمور على ما هى به للآفة الغامرة له، فبغمور الآفة يتميز من النائم، لان النوم ليس بآفة و لا عاهة.

و قوله (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) معناه إن النبى صلى الله عليه و آله رأى جبرائيل عليه السلام على صورته التى خلقه الله عليها بالأفق المبين، فالأفق ناحية من السماء يقال: هو كالنجم فى الأفق، و فلان ينظر فى أفق السماء. و قوله (مبين) أى هو ظاهر انه فى أفق السماء من غير تخيل لا يرجع إلى يقين. و قال الحسن و قتاده: الأفق المبين حيث تطلع الشمس. و قوله (وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ) قال ابن عباس و سعيد بن جبير و ابراهيم و الضحاك: معناه ليس على وحى الله و ما يخبر به من الاخبار بمتهم أى ليس ممن ينبغى أن يظن به الريه، لان أحواله ناطقة بالصدق و الامانة. و من قرأ بالضاد معناه ليس ببخيل على الغيب.

و قوله (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) معناه أنه ليس هذا القرآن قولاً لشیطان رجيم، قال الحسن: معناه رجمه الله باللعة. و قيل رجيم بالشهب طرداً من السماء، فهو (فعيل) بمعنى (مفعول). و قوله (فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ) معناه أين تذهبون عن الحق الذى قد ظهر أمره و بدت أعلامه الى الضلال الذى فيه البوار و الهلاك، و هو استبطاء لهم فى القعود عن النبى صلى الله عليه و آله، و العمل بما يوجهه القرآن، فالذهاب هو المصير عن شىء الى شىء بالنفوذ فى الأمر. قال بعض بنى عقيل: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٨

تصبح بنا حنفيه إذ رأتنا و أى الأرض نذهب بالصباح «١»

يعنى إلى أى الأرض. و قيل معناه فأى طريق يسلكون أبين من الطريق الذى بينه لكم «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» يمكنكم أن تتوصلوا به إلى الحق. و الذكر ضد السهو و عليه يتضاد العلم و أضداده، لأن الذاكر لا يخلو من أن يكون عالماً او جاهلاً مقلداً أو شاكاً، و لا يصح شىء من ذلك مع السهو الذى يضاد الذكر.

و قال الرماني: الذكر إدراك النفس الذى يضاد للمعنى بما يضاد السهو. و «العالمين» جمع عالم. و قد فسرناه فى ما مضى.

و قوله «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» على أمر الله و وعظ. و قوله «وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» قيل فى معناه ثلاثة اقوال:

أحدها - ص: ٢٨٨

و ما تشاؤون من الاستقامة إلا و قد شاءها الله، لأنه قد جرى ذكرها فرجعت الكناية إليها، و لا يجوز أن يشاء العبد الاستقامة إلا و قد شاءها الله، لأنه أمر بها و رغب فيها أتم الترغيب، و من ترغيبه فيه إرادته له.

و الثاني - ص: ٢٨٨

و ما تشاؤون شيئاً إلا أن يشاء الله تمكينكم منه، لان الكلام يقتضى الاقتدار على تمكينهم إذا شاء و منعهم إذا شاء.

الثالث - ص: ٢٨٨

و ما تشاؤون إلا أن يشاء الله ان يلفظ لكم فى الاستقامة لما فى الكلام من معنى النعمة.

و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال شيبتنى (هود) و أخواتها (الواقعة) و (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و هو جميع ما وعظ الله به عباده. فان قيل: ليس ان أنساً لما سئل هل اختضب رسول الله صلى الله عليه و آله قال ما شأنه الشيب، فقال: أو شين هو يا أبا حمزة. فقال كلكم يكرهه؟

(١) تفسير القرطبي ٢٤١ / ١٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٨٩

قيل عنه جوابان أحدهما - أنه

روى أن علياً عليه السلام لما غسل رسول الله صلى الله عليه و آله وجد فى لحيته شعرات بيضاء

، و ما لا يظهر إلا بعد التفهيش لا يكون شيئاً. الثانى - أنه أراد لو كان أمر يشيب منه إنسان لشبت من قراءة ما فى هذه السورة، و ما فيها من الوعيد كما قال (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى) «١» و إنما أراد عظم الأحوال على ما بيناه.

٨٢-سورة الانفتار ص: ٢٨٩

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك، و هى تسع عشرة آية بلا خلاف

[سورة الانفتار (٨٢): الآيات ١ الى ١٢] ص: ٢٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَ إِذَا الْكُوَاكِبُ انشَرتْ (٢) وَ إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَ أَخْرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا

شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩)

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ (١٢)

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٠

اثنتا عشرة آية.

قرأ أهل الكوفة (فعدلك) خفيفاً. الباقون مشدداً. وقرأ أبو جعفر (بل يكذبون) بالياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب. وادغم حمزة و الكسائي اللام في التاء و وافقهم الحلواني عن هشام.

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من عباده، وفيه تهديد و وعيد فانه يقول (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) يعنى انشقت، فالانفطار انقطاع الشىء من الجهات مثل تظفر، و منه الفطير قطع العجين قبل بلوغه بما هو مناف لاستوائه، فطره يفطره إذا أوجده بما هو لقطع ما يصد عنه. و الانفطار. و الانشقاق و الانصداع واحد.

وقوله (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) معناه إذا النجوم تساقطت و تواقعت، فالانتثار تساقط الشىء من الجهات يقال: انتثر ينتثر انتشاراً و نثره ينثره نثراً، و استنثر استنثاراً و النثر من الكلام خلاف النظم (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) أى خرق بعض مواضع الماء إلى بعض يقال فجر الأنهار يفجرها تفجيراً، و منه الفجر لانفجاره بالضياء، و منه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب. و قال قتادة: معنى فجرت أى تفجر عذبها فى مالحتها، و مالحتها فى عذبها.

وقوله (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) معناه بخرت يقال: بعثر فلان حوضه و بخرته بمعنى واحد إذا جعل أسفله أعلاه، و البخره إثارة الشىء بقلب باطنه إلى ظاهره.

و قال ابن عباس: بعثرت بحثت.

وقوله (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) جواب الشرط فى قوله (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) و ما بعده من الشروط. و معنى (مَا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ) ما أخذت التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩١

و تركت مما يستحق به الجزاء. و قيل: معناه كل ما يستحق به الجزاء مما كان فى أول عمره او آخره. و قيل: معناه ما قدمت من عملها و ما أخرت من سنه سنتها يعمل بها- ذكره القرطى- و قال ابن عباس و قتادة: معناه ما قدمت من طاعة أو تركت و قيل ما قدمت بعمله.

وقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) خطاب لجميع الناس من المكلفين يقول الله لهم لكل واحد منهم (مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) أى أى شىء غرك بخالفك حتى عصيته فيما أمرك به و نهاك عنه، فالغرور ظهور أمر يتوهم به جهل الامان من المحذور تقول:

غر يغر غروراً و اغتره يغتره اغتراراً قال الحارث ابن حلزة:

لم يغروكم غروراً و لكن رفع الآل جمعهم و الضحاء «١»

و الكريم القادر على التكرم من غير مانع، و من هذه صفته لا يجوز الاغترار به، لأن تكرمه على ما تقتضيه الحكمة من مجازاة المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته.

قال قتادة: غر الشيطان غروراً، و قيل: غره بجهله الوجه فى طول الامهال، و قوله (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ) نعت ل (ربك)، و هو فى موضع الجر. و قوله (فسواك) التسوية التعديل، و المراد- هاهنا- تسوية الله تعالى آله من اليدين و الرجلين و العينين و نحو ذلك (فعدلك) فى المزاج على وجه يصح معه وجود الحياة. و من خفف الدال أراد صرفك إلى أى صورة شاء من حسن أو قبح، و من ثقل أراد جعلك معدل الخلق معتدلاً. و اختار الفراء التشديد، لأن (فى) مع التعديل أحسن و (الى) مع العدل.

وقوله (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) فالصورة البنية التى تميل بالتأليف الى ممايلة الحكاية. و هى من صاره يصوره صوراً إذا ماله، و منه قوله

(فَصِّرْهُنَّ لِيَكَنَّ) «١» أى املهن اليك، و لو كانت بنية من غير ممايله لم يكن صورة. و قال مجاهد: معناه (فى أى صوره ما شاء ركبك) من شبه أب أو أم أو خال أو عم.

و قال قوم: معناه فى أى صورة ما شاء ركبك من ذكر أو أنثى و جسيم أو نحيف و طويل أو قصير و مستحسن أو مستقبح، و من قال: الإنسان غير هذه الجملة أستدل بقوله (فى أى صوره ما شاء ركبك) قالوا لأنه بين أنه يركب القابل فى أى صورة شاء، فدل على أنه غير الصورة. و قد بينا القول فى تأويل ذلك، على أن عندهم أن ذلك الحى لا يصح عليه التركب و الله تعالى بين أنه يركبه كيف شاء، و فى أى صورة شاء و ذلك خلاف مذهبهم.

ثم قال (كَلَّا يَلِئْ تَكْذُوبُونَ بِالَّذِينَ) و معنى (كلا) الردع و الزجر أى ارتدعوا و انزجروا، و قيل: معناه حقاً بل تكذبون معاشر الكفار بالدين الذى هو الجزاء من الثواب و العقاب لانكاركم البعث و النشور- ذكره مجاهد و قتاده- و قيل: بل تكذبون بالدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه و آله ثم قال مهدياً لهم (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ) يعنى من الملائكة يحفظون عليكم ما تعملون من الطاعة و المعصية. ثم وصفهم فقال (كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) أى لا يخفى عليهم شىء من الذى تعملونه فيثبتون ذلك كله. و قيل: إن الملائكة تعلم ما يفعله العبد إما باضطرار كما تعلم أنه يقصد إلى خطابنا و أمرنا و نهينا و إما باستدلال إذا رآه و قد ظهر منه الأمور التى لا تكون إلا- عن علم و قصد من نحو التحرى فى الوزن و الكيل، و رد الوديعه و قضاء الدين مما يتعمد فيه أهل الحقوق دون غيرهم، و قال الحسن: يعلمون ما تفعلون من الظاهر دون الباطن. و قيل: بل هو على ظاهر العموم لان الله تعالى يعلمهم إياه.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٣

قوله تعالى: [سورة الانقطار (٨٢): الآيات ١٣ الى ١٩] ص: ٢٩٣

إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧)

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)
سبع آيات.

قرأ ابن كثير و أهل البصرة (يوم لا تملك) برفع الميم. الباقون بالنصب على الظرف، و يجوز أن ينصبه بإضمار فعل أى نقول يوم لا تملك، و من رفع استأنف و يجوز أن يجعله بدلا مما قبله. و قيل: ان (يوم) إذا أضيف إلى فعل مضارع رفع و إذا أضيف إلى فعل ماض نصب، نحو قولهم: يوم يفعل، و يوم فعل، و قال ابو على: من رفع جعله خبر ابتداء محذوف، و تقديره هو يوم. و من نصب فعلى أن يكون الخبر على الجزاء، فكأنه قال الجزاء يوم لا تملك نفس.

يقول الله تعالى مخبراً (إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) و هم الذين يفعلون الطاعات التى يستحقون بها الجنة و الثواب بأنواع اللذات جزاء على طاعاتهم، و اخبر أيضاً (وَإِنَّ الْفُجَّارَ) و هم الذين خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته و المراد به- هاهنا- الكفار (لَفِي جَحِيمٍ) جزاء على كفرهم و معاصيهم (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) و ما هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) يعنى لا يكونون غائبين عن الجحيم بل يكونون مؤبدين فيها، و ليس يدل ذلك على أن فساق أهل الملة لا يخرجون من النار، لأننا بينا أن الآية مخصوصة بالكفار من حيث بينا فى غير موضع أن معهم ثواباً دائماً على إيمانهم لم ينحبط لبطلان القول بالتحابط، فإذا لا بد من إخراجهم من النار ليوفوا ثوابهم. و قوله (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٤

(الَّذِينَ)

معناه إن الفجار يصلون في الجحيم يوم الجزاء على الاعمال. وسمى الإسلام ديناً لأنه يستحق به الجزاء لأن أصل الدين الجزاء، ودين اليهودية وغيرها يستحق بها العقاب. ومعنى قوله (يَصْلَوْنَهَا) يلزمون بها بكونهم فيها و منه المصطلح الملازم للنار متدياً بها، صلى يصلى صلا و اصطلح يصطلح اصطلاء.

وقوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ) تعظيم ليوم الجزاء بلفظ الاستفهام، والغرض فيه التنبيه على عظم حاله و ما يستحق به من ثواب و عقاب ليعمل العباد بما يؤدهم إلى الثواب و الجنة و النجاة من العقاب، و عظم يوم الدين لشدة الحاجة إلى نعيم الجنة، و النجاة من النار و من جملة العصاة، فلا يوم أعظم من ذلك.

ثم فسر تعالى ذلك و بينه بعد أن عظمه فقال (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا) و معناه لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممن يستحق العقاب كما يملك كثير من الناس ذلك في الدنيا، فان الامر في ذلك اليوم لله وحده لم يملك أحداً شيئاً من الأمور كما ملكهم أشياء كثيرة في دار الدنيا. و قيل: معناه إنه لا يمكن أحداً أن يجازى أحداً إلا بالحق بأمر الله تعالى.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٥

٨٣-سورة المطففين ص: ٢٩٥

إشارة

مكية في قول ابن عباس و قال الضحاك هي مدينة و هي ست و ثلاثون آية بلا خلاف

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٦] ص: ٢٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا- يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)
ست آيات.

(ويل) كلمة موضوعة للوعيد و التهديد، و يقال ذلك لمن وقع في هلاك و عقاب. و قيل: إن ويدا واد في جهنم قعره سبعون سنة. و قيل (ويل) دعاء عليهم. و قال ابن عباس: كان أهل المدينة من أحبب الناس كيلا إلى أن انزل الله تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل، فهدد الله تعالى بهذا الخطاب كل من بخس غيره حقه و نقصه ما له من مكيل او موزون، فالمطفف المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. و الطفيف النزر القليل، و هو مأخوذ من طف الشيء و هو جانبه، و التطفيف التنقيص على وجه الخيانة في الكيل أو الوزن. و أما التنقيص التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٦

في ما يرجع إلى مقدار الحق فلا يكون تطفيفاً. و لفظه (المطفف) صفة ذم لا تطلق على من طفف شيئاً يسيراً إلى أن يصير إلى حال تتفاحش. و في الناس من قال:

لا يطلق حتى يطفف أقل ما يجب فيه القطع في السرقة، لأنه المقطوع على أنه كبيرة.

وقوله (الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) فالأكتيال الأخذ بالكيل و نظيره الاتزان و هو الأخذ بالوزن، و الاعتداد الأخذ بالعدد، يقال: أكتال يكتال أكتيالاً، و كاله يكيله كيلا و كايه مكايله و تكايل تكايلا، و إنما ذكر في الذم (إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) لبيان منزلتهم في تعدى الحق بأنهم لم ينقصوا الناس عن طريق مسامحة يعاملون الناس بمثل ذلك بل على محض الظلم في البخس و

يقال:

اكتالوا ما عليهم بمعنى أخذوا ما عليهم، و اکتالوا منهم أى استوفوا منهم. وقيل:

على الناس، فكنى عنهم. وقوله (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) كان عيسى ابن عمر يجعل (هم) فصلا فى موضع رفع بمعنى الفاعل. و الباقر يجعلونه فى موضع نصب، و هو الصحيح، و هو قول اكثر المفسرين. و أهل الحجاز يقولون:

وزنتك حقك و كلتك طعامك. و غيرهم يقولون: كالوا لهم و وزنوا لهم، و فى الكتاب (كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ) بلا الف. و من قال تقديره: كالوا لهم أو وزنوا لهم، قال حذف (لهم) للإيجاز من غير إخلال بالمعنى، و يقال أخسر و خسر لغتان إذا نقص الحق.

و قوله (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) تبكى للكافر و لكل ظالم و باخس حق غيره فى صورة الاستفهام. و (الظن) هاهنا بمعنى العلم، و تقديره ألا يعلم انه يبعث يوم القيامة و يجازى على أفعاله من طاعة او معصية فيجازى بحسبها فى اليوم الذى وصفه بأنه يوم عظيم. و يحتمل أن يكون المراد بالظن الحسبان ايضاً من ظن الجزاء و البعث و قوى فى نفسه ذلك، و إن لم يكن عالماً يجب عليه أن التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٧

يتحرز و يجتنب المعاصى خوفاً من العقاب الذى يجوزه و يظنه، كما أن من ظن العطب فى سلوك طريق وجب أن يتجنب السلوك فيه. قال البلخي: قال قوم: المعنى افما يوقنون انهم مبعوثون، جعله خطاباً للمؤمنين المصدقين بالبعث. ثم زاد فى صفه يوم القيامة الذى وصفه بأنه يوم عظيم و بينه فقال (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أى يوم يبعثون يوم تقوم الناس من قبورهم و يجتمعون فى ارض المحشر، و إنما يقومون من قبورهم الى ارض المحشر لجزاء رب العالمين، و حذف ذلك للدلالة عليه، و يحتمل «يَوْمَ يَقُومُ» ثلاث أوجه: النصب على ذلك اليوم يقوم أو مبعوثون يوم يقوم. و الرفع على الاستئناف، و الجر على البدل من (ليوم عظيم) و قال قتادة: يقومون مقدار ثلاثمائة سنة و يقصر على المؤمنين حتى يكون كإحدى صلاة المكتوبة. و روى فى الخبر عن النبى صلى الله عليه و آله ان أحدهم ليغيب فى رشحه الى انصاف أذنيه.

قوله تعالى: [سورة المطففين (٨٣): الآيات ٧ الى ١٧] ص: ٢٩٧

إشارة

كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَ نِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١)

وَ مَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا- بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

احدى عشرة آية. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٨

روى حفص عن عاصم و المسيبى إلا هبة (بل ران) بإظهار اللام. الباقر بالإدغام. و أمال اهل الكوفة إلا الأعشى و البرجمى (ران). قيل فى اصل قوله (كلا) قولان:

أحدهما- ص: ٢٩٨

إنها كلمة واحدة من غير تركيب وضعت للردع و الزجر، و جرى ذلك مجرى الأصوات من نحو (صه، و مه) و ما أشبههما.

والتانى - ص: ٢٩٨

أن يكون الكاف للتشبيه دخلت على (لا) و شددت للمبالغة في الزجر مع الإيدان بتركيب اللفظ.
و معنى الآية ارتدعوا أيها الكفار و العصاة و انزجروا عن المعاصى معاشر الكفار، ليس الامر على ما تظنون بل (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ) يعنى كتابهم الذى ثبتت أعمالهم من المعاصى و الفجور (أَلْفَى سَجِّينٍ) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: يعنى فى الأرض السابعة السفلى، و هو قول الضحاك. و قال مجاهد: تحت صخرة فى الأرض السابعة السفلى، و

روى فى الخبر أن (سجين) جب فى جهنم.

و قال ابو عبيدة: سجين شديد، و أنشد:

ضرباً تواصى به الأبطال سجيناً «١»

يعنى شديداً، فكأنه كشدة السجن، و يكون معناه شديد عذابه. و قيل:

السجين هو السجن على التخليد فيه، فهو (فعيل) من سجنته أسجنه سجنًا، و فيه مبالغة، كما يقال: شرب من الشرب، و سكير من السكر، و شرير من الشر.

و قيل: الوجه فى جعل كتاب الفجار فى سجين أن تخليده فيه يقوم مقام التقرير و إن عقابهم لا يفنى و لا يبسد كما لا يفنى كتاب سيئاتهم و لا يبسد، ثم قال على وجه التعظيم و التفضيل (ما أدراك ما سَجِّينٌ) أى تفصيله لا تعلمه و إن علمته

(١) مر فى ٤٥ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٩٩

مجملاً. ثم قال مفسراً لذلك (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) فالرقم طبع الخط بما فيه علامة لأمر يقال: رقمه يرقمه رقماً فهو راقم و الشئ مرقوم و منه رقت الثوب بعلامة لثلا يختلط. و المعنى إن هذا الكتاب الذى هو فى السجن كتاب قد كتب فيه جميع أفعاله من المعاصى و الكفر. ثم قال (وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) فهو تهديد لمن كذب بيوم الجزاء و لم يصدق بصحة الخبر بكونه، ثم فسر من عنى من المكذبين، فقال (الَّذِينَ يَكُذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ) يعنى يوم الجزاء، و هو يوم القيامة، لأن من كذب بالباطل و جحده لا يتوجه اليه الوعيد بل هو ممدوح فلو أطلق كان فيه إبهام. ثم قال (وَمَا يَكُذِّبُ بِهِ) أى ليس يكذب بيوم الجزاء (إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فالمعتدى المتجاوز الحق إلى الباطل، يقال: اعتدى اعتداءً، فهو معتد. و العادى الخارج عن الحق، عدا يعدو عدواناً و أصله مجاوزة الحد و من ذلك العداوة و هى مجاوزة الحد فى الإبغاض، و العدو مجاوزة الحد فى اسراع المشى، و الأثيم مكتسب القبيح أثم يَأْتُمُّ إِثْمًا فهو آثم و ائيم و أئمه تأثيماً إذا نسبه إلى الإثم، و تأثم من فعل كذا كقولك تخرج منه للاثم به و قال قتادة: ائيم فى مريته، ثم وصف المعتدى الأثيم، فقال (إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا) أى إذا قرئت عليه حجج الله من القرآن و ما فيه من الأدلة (قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فواحد الأساطير أسطورة مثل أحادوثه و أحاديث. و قيل: معناه أباطيل الأولين.

و قيل: معناه هذا ما سطره الأولون أى كتبه، و لا أصل له. ثم قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) معناه ليس الامر على ما قالوه بل غلب على قلوبهم يقال منه: رانت الخمر على عقله تريناً ريناً إذا سكر فغلبت على عقله، فالرين غلبة السكر على القلب. قال ابو زيد الطائى:

ثم لما رأوه رانت به الخمر و إن لا يرينه بابقاء ترينه

أى مخافة يسكر، فهى لا تبقيه و قال الراجز: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٠

لم تروحنى نكرت و رين بى و رين بالسافى الذى أمسى معى

وقال الحسن و قتادة: الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب. وقال ابن زيد: غلبت الذنوب على القلوب، فلا يخلص اليها خير العلوم. وقيل: معنى «ران» غطى و عشى. وقوله (ما كانوا يَكْسِبُونَ) (ما) فى موضع رفع، لأنها الفاعلة لران و ما يكسبون يعنى من المعاصى، لان الطاعات و ان كسبوها فما رانت على قلوبهم قال البلخى: و فى ذلك دلالة على صحته ما يقوله أهل العدل فى تفسير الطبع و الختم و الإضلال، لأنه تعالى اخبر انهم الذين يجعلون الرين على قلوبهم.

ثم قال (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) قال الحسن و قتادة: هم محجوبون عن إحسانه. وقيل: عن كرامته. وقيل: ممنوعون. و أصل الحجب المنع. و منه قولهم: الاخوة تحجب الأم عن الثلث الى السدس.

ثم بين تعالى ما يفعل بهم فقال (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) و معناه لازموا الجحيم بكونهم فيها لا يغيبون عنها يقال: صلى بالنار يصلى صلياً، فهو صال و المصطفى الملازم للنار للتدفى بها.

ثم حكى انه يقال لهم على وجه التقرير و التبكيت: هذا الذى فعل بكم من العقاب (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) فى دار التكليف، و انما سمي مثل هذا الخطاب تقيراً لأنه خبر بما يقرع بشدة الغم على وجه الدم، فكل خبر على هذا الوصف فهو تقيير و توبيخ.

قوله تعالى: [سورة المطففين (٨٣): الآيات ١٨ الى ٢٨] ص: ٣٠٠

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيٍّ (١٨) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسَبِّحُونَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠١

احدى عشرة آية.

قرأ الكسائى وحده (خاتمه مسك) بألف قبل التاء. الباقون (خاتمه مسك) فالختام مصدر، و الخاتم صفة، و نظيره: رجل كريم الطابع و الطباع قال الفرزدق:

فتبن خباتى مصرعات و بت أفض إغلاق الختام «١»

و قرأ ابو جعفر و يعقوب (تعرف) بضم التاء و فتح الراء (نضرة) بالرفع على ما لم يسم فاعله. الباقون بفتح التاء و كسر الراء و نصب (نضرة).

لما ذكر الله تعالى الفجار و ما أعده لهم من أنواع العقاب و أليم العذاب ذكر الأبرار و هو جمع بر مثل جبل و أجال. و الأبرار الذين فعلوا الطاعات و اجتنبوا المعاصى، و اخبر (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيٍّ) أى مراتب عالية محفوفة بالجلالة، فقد عظمها الله تعالى بما يدل على عظم شأنها فى النعمة، و جمعت بالواو و النون تشبيها بمن يعقل فى الفضل و عظم الشأن. و قال ابن عباس: العليون الجنة. و قال كعب و قتادة و مجاهد و الضحاك: أرواح المؤمنين فى السماء السابعة، و قال الضحاك - فى رواية - عليون سدرة المنتهى، و هى التى اليها ينتهى كل شىء من أمر الله تعالى.

و قيل: عليون علو على علو مضاعف، و لهذا جمع بالواو و النون تفخيماً لشأنه

(١) ديوانه ٢/ ٦٦٥ و القرطبي ١٩/ ٢٦٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٢

قال الشاعر:

فأصبحت المذاهب قد أذاعت به الاعصار بعد الوابلينا

يريد مطراً بعد مطر غير محدود العدد، وكذلك تفخيم شأن العدد الذي ليس على الواحد، نحو ثلاثين إلى تسعين، و جرت العشرون عليه. وقيل: عليون أعلى الأمكنة. وقال الحسن: معنى في عليين في السماء. وقال الجبائي: معناه في جملة الملائكة العليين، فلذلك جمع بالواو والنون.

ثم قال تعالى على وجه التعظيم لشأن هذه المنازل و تفخيم أمرها (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ) لان تفصيلها لا يمكن العلم بها إلا بالمشاهدة دون علم الجملة. ثم قال (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) أى الكتاب الذى ثبت فيه طاعتهم (مرقوم) أى مكتوب فيه جميع طاعاتهم بما تقر به أعينهم و توجب سرورهم بصد الكتاب الذى للفقار، لان فيه ما يسؤهم و يسخن أعينهم (يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ) أى يشهد هذا الكتاب الملائكة المقربون أى يشاهدون جوائزهم و يرونها. و معنى المقربون- هاهنا- هم الذين قربوا إلى كرامة الله فى أجل المراتب.

ثم اخبر تعالى (إِنَّ الْأَبْرَارَ) و هم أهل البر الذين فعلوه لوجهه خالصاً من وجوه القبح، فالبر النفع الذى يستحق به الشكر و الحمد يقال: برّ فلان بوالده فهو بار به و برّ به، و جمعه أبرار (لَفِي نَعِيمٍ) أى و يحصلون فى ملاذ و أنواع من النفع (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) قال ابن عباس: الأرائك الاسرة. و قال مجاهد: هى من اللؤلؤ و الياقوت، واحدا أريكة، و هو سرير فى حجلة ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الملك و الكرامة، و الحجلة كالقبة على الاسرة. ثم قال (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) أى تتبين فى وجوههم إشراق النعمة و السرور بها.

و قوله (يُشَقُّونَ مِنْ رَحِيقٍ) فالرحيق الخمر الصافية الخالصة من كل غش. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٣

قال الخليل: هى أفضل الخمر و أجودها. قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم برداً يصفق بالرحيق السلسل

و قوله (مختم) قيل إن هذا الخمر مختم فى الآنية بالمسك، و هو غير الذى يجرى فى الأنهار. و قوله (ختامه مسك) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- ان مقطعه مسك بأن يوجد ريح المسك عند خاتمة شربه- ذكره ابن عباس و الحسن و قتادة و الضحاك.

و الثانى- أنه ختم اناؤه بالمسك بدل الطين الذى يختم بمثله الشراب فى الدنيا- ذكره مجاهد و ابن زيد- و من قرأ (خاتمه) مسك أراد آخر شرابه مسك و يفتح التاء فى (خاتمه) لان العرب تقول: خاتم و خاتم و خاتام و خيتام. و من قرأ (خاتمه) أراد شرابهم مختم بالمسك. و المسك معروف، و هو أجل الطيب سمي مسكاً، لأنه يمسك النفس لطيب ريحه و المسك- بالفتح- الجلد لامساكه ما فيه (وَ فِي ذَلِكْ) يعنى فى ذلك النعيم الذى وصفه الله (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) فالتنافس تمنى كل واحد من النفسين مثل الشىء النفس الذى للنفس الاخرى أن يكون له تنافسوا فى الشىء تنافساً و نافسه فيه منافسة، و الجليل الذى ينفس بمثله نفيس، و نفس عليه بالأمر ينفس نفاسة إذا ضمن به لجلالته.

و قوله (وَ مِزَاجُهُ) أى مزاج ذلك الشراب الذى وصفه (مِنْ تَشْنِيمٍ) فالمزاج خلط المائع بالمائع كما يمزج الماء الحار بالبارد، و الشراب بالماء. يقال أمزجه مزجاً و امتزج امتزاجاً و مازجه مازجاً و تمازجاً تمازجاً. و التسنيم عين الماء يجرى من علو إلى سفلى يتسنى عليهم من الغرف، و اشتقاقه من السنام. و قال عكرمة: من تشريف، و يقال: سنام البعير لعلوه من بدنه.

و قوله (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) قيل فى نصب (عين) وجوه: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٤

أولها- أن (تسنيم) معرفة و (عيناً) قطع منها، أو حال.

الثانى- أن يكون (تسنيم) مصدراً فيجرى مجرى (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ يَتِيمًا) «١».

الثالث- على تقدير أعنى عيناً، مدحاً.

الرابع- يسقون عيناً، و الباء زائدة، يقال: شربت عيناً و شربت بالعين و قد فسرناه فى (هل أتى).

قوله تعالى: [سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٩ الى ٣٦] ص: ٣٠٤

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ثمان آيات.

قرأ حفص (فكهيين) بغير الف بمعنى فرحين مرحين. الباقون «فاكهيين» بألف بمعنى لاهين، وهو بمنزلة طامع وطمع، فالفاكه الطالب ما يتفكه به من نوادر الأمور و الفاكه الناعم المعجب بحاله و التفكه التمتع بالمأكل من غير أخذه للقوت. وقرأ أبو عمرو- في رواية هارون- و حمزة و الكسائي (هل ثوب) بالإدغام، لقرب مخرج اللام من الثاء. الباقون، و اليزيدي عن أبي عمرو بالإظهار.

(١) سورة ٩ البلد آية ١٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٥

قيل إن هذه الآية نزلت في جماعة من كفار قريش كانوا يعيرون جماعة من المسلمين الذين سبقوا إلى الإيمان، و يهزءون منهم، فقال الله تعالى مخبراً بأن المجرمين كانوا من الذين آمنوا بالله و وحدوه و أخلصوا له العبادة و صدقوا أنبياءه (يضحكون) على وجه الاستهزاء بهم و السخرية منهم «و إِذَا مَرُّوا بِهِمْ»

يعنى إذا مر بهم المؤمنون و جازوا عليهم غمز بعضهم بعضاً عليهم على وجه التعجب منهم و السخرية «و إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ» يعنى الكفار إذا انقلبوا إلى أهلهم و أصحابهم «انْقَلَبُوا فَكِهِينَ» أى لاهين. و من قرأ «فكهيين» أراد مرحين «معجبيين» بحالهم «و إِذَا رَأَوْهُمْ» يعنى الكفار إذا رأوا المؤمنين فى دار الدنيا «قالوا» يعنى بعضهم لبعض «إِنَّ هَؤُلَاءِ» و أشاروا به إلى المؤمنين «لَضَالُّونَ» عن طريق الحق و عادلون عن الاستقامة، فقال الله تعالى «وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ» أى لم يرسل هؤلاء الكفار حافظين على المؤمنين، فيحفظون ما هم عليهم، و المراد بذلك الدم لهم بعب المؤمنين بالضلال من غير أن كلفوا منعهم من المراد و أن ينطقوا فى ذلك بالصواب، فضلوا بالخطأ فى نسيهم إياهم إلى الضلال، فكانوا ألوم منهم لو أخطئوا فيه، و قد كلفوا الاجتهاد.

ثم قال «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ» معناه إن يوم القيامة الذى يجازى الله تعالى كل احد على عمله فيجازى المؤمن بالثواب و النعيم، و يجازى الكافر بالعذاب و الجحيم، ففى ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين فى الدنيا، و قيل الوجه فى ضحك أهل الجنة من أهل النار أنهم لما كانوا أعداء الله تعالى و أعداءهم جعل لهم سروراً فى تعذيبهم و لو كان العفو قد وقع عنهم لم يجز أن يجعل السرور فى ذلك، لأنه مضمن بالعداوة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص:

٣٠٦

و قد زالت بالعفو.

و قوله «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ» معناه إن المؤمنين على سرر فى الحجال واحداها أريكة ينتظرون ما يفعله الله بهم من الثواب و النعيم فى كل حال، و ما ينزل بالكفار من اليم العقاب و شديد النكال.

ثم قال «هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- هل جوزى الكفار إذا فعل بهم هذا الذى ذكر بما كانوا يفعلون.

الثانى- ينتظرون هل جوزى الكفار، فيكون موضعه نصباً ب «ينتظرون»، و الاول استئناف لا موضع له. و إنما قال «هل ثوب» لأن الثواب فى أصل اللغة الجزاء الذى يرجع على العامل بعمله، و إن كان الجزاء بالنعيم على الاعمال فى العرف، يقال: ثاب الماء يثوب ثوباً إذا

رجع، و تاب اليه عقله إذا رجع. و منه التثاؤب.

و قال قوم: يقول المؤمنون بعضهم لبعض: هل جوزى الكفار ما كانوا يفعلون سروراً بما ينزل بهم. و يجوز أن يكون ذلك من قول الله أو قول الملائكة للمؤمنين تنبيهاً لهم على أنه جوزى الكفار على كفرهم و سخرتهم بالمؤمنين و هزئهم، بأنواع العذاب ليزدادوا بذلك سروراً إلى سرورهم.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٧

٨٤- سورة الانشقاق ص: ٣٠٧

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاك، و هي خمس و عشرون آية في الكوفي و المدني و ثلاث في البصرى

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٩] ص: ٣٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤)
 وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ
 حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)
 تسع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه و هو متوجه إلى جميع المكلفين على وجه الوعيد لهم و التخويف من عقابه و التنبيه لهم على قرب أوان مجيئه
 «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» و تقديره اذكر إذا السماء انشقت، و معناه إذا انفطرت السماء و تصدعت و انفرجت، فالانشقاق افتراق امتداد عن
 التمام، فكل انشقاق افتراق و ليس كل افتراق انشقاقاً و قيل: الانشقاق الانفطار، و الانصداع الانفراج.

و قوله «وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ» قال ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٨
 و قتاده: معناه سمعت و أطاعت أى كأنها سمعت بأذن و أطاعت بانقياد لتدبير الله.

تقول العرب أذن لك هذا الامر إذناً بمعنى أسمع لك قال عدى بن زيد:

ايها القلب تعلق بددن إن همى فى سماع و أذن

و قال آخر:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به و إن ذكرت بسوء عندهم أذنوا «١»

أى سمعوا و قال عدى بن زيد:

فى سماع يأذن الشيخ له و حديث مثل ماذى مشار «٢»

و قيل إن معنى «و حقت» حق لها أن تأذن بالانقياد لأمر ربها، يقال: حق له أن يكون على هذا الأمر بمعنى جعل ذلك حقاً.

و قوله «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ»

روى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: (تمد الأرض يوم القيامة مثل الأديم)

و معنى «مُدَّتْ» بسطت إن الله تعالى يأمر بأن تمد مد الأديم العكاظى حتى يزيد فى سعتها. و قيل معناه إنها تبسط بانديكاك جبالها و
 آكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء.

وقوله «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ» معناه القت ما فيها من المعادن وغيرها، و تخلت منها، و ذلك مما يؤذن بعظم الأمر كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة. و قال قتادة و مجاهد: أخرجت الأرض أثقالها. و قوله «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ» قد فسرناه و ليس هذا على وجه التكرار، لأن الأول فى صفة السماء و الثانى فى صفة الأرض فليس بتكرار و هذا كله من أشرط الساعة و جلائل الأمور التى تكون فيها. و جواب «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» محذوف و تقديره إذا كانت هذه الأشياء التى ذكرها و عددها رأى الإنسان ما قدم من خير او شر، و قيل جوابه فى «إِنَّكَ كَادِحٌ» قال ابن خالويه الفاء مقدره

(١) مر فى ٤٤ / ٥

(٢) مر فى ٢٨٧ / ٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٩

و التقدير إذا السماء انشقت إلى قوله «وَحُقَّتْ» فى أيها الإنسان إنك كادح. و قال البلخى: الواو زائدة و جواب قوله «أَذْنَتْ لِرَبِّهَا» و «حُقَّتْ» و هو كقوله «حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» و الأول هو الوجه.

وقوله «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ» خطاب لجميع المكلفين من البشر من ولد آدم يقول الله لهم و لكل واحد منهم «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ» و الكدح السعى الشديد فى الامر يقال: كدح الإنسان فى أمره يكدح، و فيه كدوح و خدوش أى آثار من شدة السعى فى الامر، و معنى «كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا» أيها الإنسان إنك فى أمرك بشدة و مشقة إلى أن تلقى جزاء عملك من ربك، فأنت لا تخلو فى الدنيا من مشقة، فلا تعمل لها، و اعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكدح، فالغنى و الفقير كل واحد منهما يكدح ما يقتضيه حاله. و قوله «فَمَلَأْنَاهُ» تفخيم لشأن الامر الذى يلقى من جهته، فجعل لذلك لقاء جزائه، لقاءه و هذا من المعانى العجيبة و الحكمة البالغة و الهاء فى «فَمَلَأْنَاهُ» يحتمل أمرين: أن تكون كناية عن الله، و تقديره فملاقى ربك أى تلاقى جزاء ربك، و يحتمل أن تكون كناية عن الكدح، و تقديره فملاقى كدحك الذى هو عملك. و قال تميم بن مقبل:

و ما الدهر إلا تارتان فمهما أموت و اخرى ابتغى العيش اكدح «١»

أى ادؤب و أسعى فى طلب العيش. ثم قسم تعالى أحوال الخلق يوم القيامة فقال «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ» يعنى من أعطى كتابه الذى فيه ثبت أعماله من طاعة او معصية بيده اليمنى «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» أى يواقف على ما عمل من الحسنات و ما له عليها من الثواب، و ما حط عنه من الأوزار إما بالتوبة أو المغفرة، فالحساب اليسير التجاوز عن السيئات، و الاحتساب بالحسنات. و من

(١) مر فى ٢١٢ / ٣ و ٧٧ / ٤ و ٢٤٣ / ٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٠

نوقش بالحساب هللك، روى عن النبى صلى الله عليه و آله

، و قوله «وَيُنْقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا» أى فرحاً مستبشراً. و قيل المراد بالأهل - هاهنا- هم الذين أعد الله لهم من الحور العين، و يجوز أن يكون المراد أقاربه إذا كانوا من أهل الجنة و السرور هو الاعتقاد أو العلم بوصول نفع اليه فى المستقبل أو دفع ضرر عنه و قال قوم: هو معنى فى القلب يلتذ لأجله بنيل المشتهى يقال: سر بكذا من مال أو ولد أو بلوغ أمل يسر سروراً.

قوله تعالى: [سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١٠ الى ١٥] ص: ٣١٠

وَ أَمَّا مَنِ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَ يَضِلُّ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ

يَحُورَ (١٤)

بلى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)

ست آيات.

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير والكسائي «يصلى» بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام. الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد خفيفة. و أماله أهل الكوفة إلا عاصماً.

لما ذكر الله تعالى حكم من يعطى كتابه يمينه من المؤمنين وأهل الطاعات وما أعد لهم من أنواع النعيم وانقلابه إلى أهله مسروراً، ذكر حكم الكفار الذين يعطون كتاب أعمالهم وراء ظهورهم، و روى أنه يخرج شماله من ظهره، و يعطى كتابه فيه.

و الوجه في ذلك ما قدمناه من كون ذلك اماره للملاكة و الخلائق أنه من أهل النار كما أن إعطاء الكتاب باليمين علامة على أنه من أهل الجنة.

ثم حكى ما يحل به فقال «فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا» فالثبور الهلاك أى يقول وا هلاكاه. و المثبور الهالك. و قيل: إنه يقول وا ثبوره. و قال الضحاك يدعو التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١١

بالهلاك. و أصل الثبور الهلاك يقال: ثبره الله يثبره ثبراً إذا أهلكه. و مثير الناقة الموضع الذى تطرح ولدها فيه، لأنها تشفى به على الهلاك، و ثبر البحر إذا جزر لهلاكه بانقطاع مائه، يقال: تثابرت الرجال فى الحرب إذا تواتبت، لاشفائها على الهلاك بالمواتبة. و المثابر على الشيء المواظب عليه لحمله نفسه على الهلاك بشدة المواظبة.

و ثبير جبل معروف. و المثبره تراب شبيه بالنورة إذا وصل عرق النخل اليه وقف، لأنه يهلكه، و إنما يقول: وا ويلاه وا لهفاه وا هلاكاه، لأنه ينزل به من المكروه لأجله مثل ما ينزل بالمتفجع عليه.

و قوله «وَيَصْلَى سَعِيرًا» معناه إن من هذه صفته يلزم الكون فى السعير، و هى النار المتوقدة على وجه التأيد.

و قوله «إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا» معناه إنه اقتطعه السرور بأهله عما يلزمه أن يقدمه. فهو ذم له بهذا المعنى، و لو لم يكن إلا السرور بأهله لم يذم عليه و قيل: معناه إنه كان فى أهله مسروراً بمعاصى الله. ثم اخبر عنه «إِنَّهُ ظَنَّ» فى دار التكليف «أَنَّ لَنْ يَحُورَ» أى لن يبعثه الله للجزاء، و لا يرجع حياً بعد أن يصير ميتاً يقال: حار يحور حوراً إذا رجع، و تقول: كلمته فما أحر جواباً أى ما ردّ جواباً. و فى المثل (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) أى من الرجوع إلى النقصان بعد التمام، و حوره إذا رده إلى البياض و المحور البكرة، لأنه يدور حتى يرجع إلى مكانه، و المعنى إنه ظن ان لن يرجع إلى حال الحياة فى الآخرة، فلذلك كان يرتكب المآثم و ينتهك المحارم. فقال الله رداً عليه ليس الأمر على ما ظنه «بلى» إنه يرجع حياً و يجازى على أفعاله.

و قوله «إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا» معناه إنه يخبر عن أنه لن يجوز، بلى و يقطع الله عليه بأنه يجوز على انه بصير به و بجميع الأمور.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٢

قوله تعالى: [سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١٦ الى ٢٥] ص: ٣١٢

فَلَا أُفْسِمُ بِالسَّفْعِ (١٦) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (١٧) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتُرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمِعُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

عشر آيات.

قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائي بفتح الباء من «لتركبن» و معناه لتركبن أنت يا محمد. الباقون بضم الباء على أن يكون خطاباً للجميع.

يقول الله تعالى مقسماً بالشفق، وقد بينا أن (لا) صلة في مثل هذا، والتقدير أقسم، وقد بينا أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لاحد أن يقسم إلا بالله. وقال بعضهم: أقسم برب الشفق، والشفق هو الحمرة التي تبقى عند المغرب في الأفق. وقال الحسن و قتادة: الشفق الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة. وقال قوم: هو البياض. والصحيح أن الشفق هو الحمرة الرقيقة في المغرب بعد مغيب الشمس وأصله الشفق في العمل، وهو الرقة على خلل فيه، وأشفق على كذا إذا رق عليه وخاف هلاكه. وشفق إذا رق بالخوف من وقوعه. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: عليّ ثوب كأنه الشفق يريد حمرة. والاعتبار بالشفق أنه علامة لوقت بعينه لا يختلف اقتضى اثبات عالم به.

وقوله «وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ» قسم آخر بالليل و اتساقه. وقيل: معنى وسق التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٣ جمع إلى مسكنه ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه، يقال: وسقته أسقه وسقاً إذا جمعته، و طعام موسوق أى مجموع في الغرائر والاعوية. والوسق الطعام المجتمع وقدره ستون صاعاً. وقوله «وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ» قسم آخر بالقمر و اتساقه أى اجتماعه على تمام و هو افتعال من الوسق، فإذا تم نور القمر واستمر في ضيائه، فذلك الاتساق له. وقال قتادة: معناه إذا استدار. وقال مجاهد: إذا استوى.

وقوله «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ» جواب القسم، ومعناه منزلة عن منزلة و طبقة عن طبقة وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كل شيء يحن الى شكله. وقيل: معنى «طَبَقًا عَن طَبَقٍ» جزاء عن عمل. وقيل: معناه شدة عن شدة. وقيل: طبقات السماء بعروج الأرواح. وقيل: معناه حالاً عن حال من أحياء وإماتة، ثم أحياء. وقيل: معناه لتصيرن الى الآخرة عن الدنيا. وقال ابو عبيدة: معناه لتركن سنة الأولين و من كان قبلكم. ثم قال على وجه التبكيت لهم و التفرغ «فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أى أى شيء لهم لأجله لا يصدقون بالله و اليوم الآخر و لا يعترفون بالثواب والعقاب. وقيل: معناه ما لهم لا يؤمنون أى ما وجه الارتباب الذى يصرفهم عن الايمان.

وقوله «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمِعُونَ» عطف على قوله «لَا يُؤْمِنُونَ» والمعنى ما الذى يصرفهم عن الايمان و عن السجود لله و الخضوع له و الاعتراف بوحدانيته إذا يلى عليهم القرآن الذى أنزلته على محمد صلى الله عليه و آله الذى يلين القلب للعمل من الوعد و الوعد و الوعيد يميز به بين الحق و الباطل، و هو مع ذلك معتذر عليهم الإتيان بمثله، فهو معجز له صلى الله عليه و آله. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٤

ثم قال تعالى «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ» معناه إن الذى يمنعهم من السجود عند تلاوة القرآن تكذيبهم جهلاً بما عليهم و عدولاً عن الحق. و فى ذلك التحذير من الجهل و الحث على طلب العلم. وقيل: معناه ما لهم لا يؤمنون، و لا بد من الجزاء على الاعمال ثم قال: تكذيبهم عن جهل منهم يصرفهم عن ذلك. وقوله «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ» قال قتادة و مجاهد: معناه بما يوعون فى صدورهم و إنما قال: يوعون، لأنهم يحملون الآثام فى قلوبهم، فشبه ذلك بالوعاء، يقال:

أوعيت المتاع و وعيت العلم، قال الفراء: الأصل جعل الشيء فى وعاء، و القلوب شبه أوعية لما يحصل فيها من معرفة او جهل. ثم قال للنبي صلى الله عليه و آله «فَبَشِّرْهُمْ» يا محمد جزاء على كفرهم «بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أى مؤلم، ثم استثنى من جملة من يخاطبه فقال «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» بالله «وَعَمِلُوا» الاعمال «الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»، أى غير منقوص، فى قول ابن عباس و قال غيره: غير مقطوع، وقيل: غير منغص بالمن الذى يؤذى. و إنما قيل له:

من، لأنه قطع له عن شكر النعمة. قال الزجاج: تقول العرب: مننت الحبل إذا قطعتة قال لبيد:

لمعفر قهد تنازع شلوه غبس كواسب ما يمن طعامها (١)

أى ما ينقص. وقيل ما يكدر، وكان ابن مجاهد و محمد بن القاسم الأنبارى يقفان على قوله «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و يتدوّن بقوله «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» قال ابن خالويه: فسألتهما عن ذلك فقالا: الاستثناء منقطع و معناه (لكن).

(١) مر في ٣٢٢ / ١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٥

٨٥- سورة البروج ص: ٣١٥

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاك، و هي اثنتان و عشرون آية بلا خلاف

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)
النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَ هُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
(٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)
عشر آيات.

قوله: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ» قسم من الله تعالى بالسما، و منهم من قال:

تقديره رب السماء. و قد بينا ما فى ذلك فى غير موضع. ثم وصف السماء بأنها ذات البروج. فالبروج المنازل العالية. و المراد- هاهنا- منازل الشمس و القمر- فى قول المفسرين- و مثل ذلك قوله «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» «١» أى فى

(١) سورة النساء آية ٧٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٦

منازل عالية. و قيل: السماء اثنتى عشر برجاً يسير القمر فى كل برج منها يومين و ثلثاً، فذلك ثمانية و عشرون منزلاً. ثم يستتر ليلتين، و مسير الشمس فى كل برج منها شهر. و قيل: البروج النجوم التى هى منازل الشمس و القمر.

و قوله «وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ» قسم آخر بهذا اليوم. و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله انه اليوم الذى يجازى فيه و يفصل فيه القضاء، و هو يوم القيامة

- و هو قول الحسن و قتادة و ابن زيد-

قوله «وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ» قسم آخر بالشاهد و المشهود،

فالشاهد النبى صلى الله عليه و آله و المشهود يوم القيامة- فى قول الحسن بن على عليه السلام

و تلا- قوله «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» «١» و قال (ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ) «٢»، و هو قول ابن عباس و سعيد بن المسيب، و فى روايه اخرى عن ابن عباس إن الشاهد هو الله، و المشهود يوم القيامة. و

قال قتادة:

الشاهد يوم الجمعة، و المشهود يوم عرفة. و قال الجبائي: الشاهد هم الذين يشهدون على الخلائق، و المشهود هم الذين يشهدون عليهم، قال: و يجوز أن يكون المراد المدركين و المدركات. و جواب القسم محذوف، و تقديره الأمر حق في الجزاء على الاعمال. و قيل الجواب قوله «قُتِلَ أَصِحَابُ الْأَخْدُودِ» و قال الأخفش: يجوز أن يكون على التقديم و التأخير، و تقديره (قتل اصحاب الأخدود ... و السماء ذات البروج) و قوله (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ) معناه لعن. و قيل لعنوا بتحريقهم في الدنيا قبل الآخرة. و قال الجبائي: يحتمل أن يكون المعنى بذلك القاتلين، و يحتمل أن يكون المقتولين، فإذا حمل على القاتلين، فمعناه لعنوا بما فعلوه من قتل المؤمنين و إن حمل على المقتولين، فالمعنى انهم قتلوا بالإحراق بالنار. و ذكر الله هؤلاء

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٠ [.....]

(٢) سورة ١١ هود آية ١٠٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٧

المؤمنين بحسن بصيرتهم في الصبر على دينهم حتى أحرقوا بالنار، لا يعطون التقيّة بالرجوع عن الايمان. و الأخدود هو الشق العظيم في الأرض، و منه ما

روى في معجزة النبي صلى الله عليه و آله أن الشجرة دعاها النبي صلى الله عليه و آله فجعلت تخذ الأرض خدًا، حتى أته. و منه الخد لمجارى الدموع. و المخدة لوضع الخد عليها، و تخذ لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

و قوله (النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ) فجرت النار على البدل من الأخدود، و هو بدل الاشتمال، و وصفها بأنها ذات الوقود، فالوقود - بفتح الواو - ما يشعل من الحطب و غيره - و بضم الواو - الإيقاد. و إنما وصفها بأنها ذات الوقود مع أن كل نار ذات وقود لامرين:

أحدهما - انه قد يكون نار ليست ذات وقود كنار الحجر و نار الكبد.

و الثاني - انه أراد بذلك وقوداً مخصوصاً، لأنه معروف، فكأنه أراد الوقود بأبدان الناس، كما قال (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) «١» و قوله (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) أى حين هم قعود عليها أى بالقرب منها، و قال الربيع بن أنس: الكفار الذين كانوا قعوداً على النار خرج لسان منها فأحرقهم عن آخرهم. و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام (أنهم كانوا من المجوس)

و قال الضحّاك:

كانوا من بنى إسرائيل. و قيل: كانوا من اليمن. و معناه هم عليها قعود حين كان أولئك الكفار قعوداً عند النار. و القعود جمع قاعد كقولك: شاهد و شهود، و راع و ركوع، و القعود أيضاً مصدر قعد يقعد قعوداً.

و قوله (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) أى حضور على مشاهدتهم لهم، فكل حاضر على ما شاهده إما بسمع أو بصر، فهو شاهد. و المشاهد هو

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤ و سورة ٦٦ التحريم آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٨

المدرّك بحاسة.

و قوله (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) معناه انه لم ينقم هؤلاء الكفار من أولئك المؤمنين الذين أحرقوهم بالنار إلا لايمانهم بالله تعالى القاهر الذى لا يُقهر (الحميد) فى جميع أفعاله، فالنقمة إيجاب مضرّة على حال مذمومة.

و نقيض النعمة النعمة، فهؤلاء الجهال نعموا حال الايمان، لأنهم جعلوها بجهلهم حالاً مذمومة قال الشاعر:

ما نعموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا «١»

و الداعى لهم إلى ان ينعموا من الايمان الجهل و الخلف، لأن ما سبقوا اليه من الجهل يدعوهم إلى عداوة من خالفهم و سخر آرائهم، و إن ذلك يفسد عليهم ملكهم و يصرف الوجوه عنهم.

و قوله (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) صفة (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) و المعنى إن هؤلاء الكفار نعموا من المؤمنين إيمانهم بالله تعالى العزيز، و معناه القاهر الذي لا يغالب الحميد و معناه المستحق للحمد على جميع أفعاله (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) و معناه له التصرف في السموات و الأرض و لا اعتراض لاحد عليه. ثم قال (وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى عالم بجميعه لا يخفى عليه شىء من ذلك.

و قوله (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ) قال ابن عباس و قتادة و الضحاك:

حرقوهم بالنار (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) إنما شرط عدم التوبة، لأنهم لو تابوا لما توجه اليهم الوعيد، و إن لم يتوبوا توجه اليهم الوعيد بقوله (فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ) يعنى فى الآخرة (وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ) فى الدنيا- فى قول الربيع- قال الفراء: لما خدّدوا للمؤمنين الأحاديث و طرحوا فيها النار و طرحوا فيها المؤمنين ارتفعت النار عليهم،

(١) مر فى ٣/ ٥٥٩، ٥٧٠ و ٥/ ٣٠٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣١٩

فأحرقتهم فوق الأحاديث و نجا المؤمنون.

و قال قوم (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ) جواب القسم فى أول السورة، و هذا غير صحيح، لان الكلام قد طال و انقطع بالأخبار ما بينها، و قال الزجاج: لهم عذاب بكفرهم، و عذاب باحراقهم المؤمنين.

قوله تعالى: [سورة البروج (٨٥): الآيات ١١ الى ٢٢] ص: ٣١٩

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَ يُعِيدُ (١٣) وَ هُوَ الْعُفُورُ الْوُدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)

فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنٌ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَ اللَّهُ مَن وَرَائِهِمْ مَحِيطٌ (٢٠)

بَلْ هُوَ قَوَّانٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

اثنتا عشرة آية.

قرأ حمزة و الكسائي إلا قتيبة و خلف «المجيد» بالخفض جعلوه نعتاً للعرش.

الباقون بالرفع على أنه نعت لله تعالى، و قرأ نافع «محفوظ» بالرفع. الباقون بالخفض نعتاً للوح. و من رفع جعله نعتاً للقرآن.

أخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين، فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدقوا بتوحيد الله و اخلاص عبادته (وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من الاعمال، و اجتنبوا القبائح (لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى لهم بساتين تجرى من تحت أشجارها التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص:

٣٢٠

الأنهار (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) فالفوز النجاة بالنفع الخالص، و أصله النجاء، و قيل للمهلكة مفازة تفاؤلاً كأنه قيل: منجاء، و فاز فلان بكذا أى خلص له نفعه، يفوز فوزاً. و لا- يقال إلا- فى تعظيم النفع الذى صار له، و إنما ذكر الكبير- هاهنا- لان النعيم لهؤلاء العاملين كبير

بالإضافة إلى نعيم من لا- عمل له ممن يدخل الجنة، لما فيه من الإجلال و الإكرام و المدح و الإعظام. و قيل: الفوز الحظ الواقع من الخير.

ثم قال متوعداً و متهدداً للكفار و العصاة (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) يا محمد و البطش الأخذ بالعنف، بطش به يبطش بطشاً و يبطش أيضاً، فهو باطش، و إذا وصف بالشدة فقد تضاعف مكروهه و ترايد إيلامه. و قوله (إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ) قال ابن عباس: معناه إنه يبدأ العذاب و يعيده لاقتضاء ما قبله ذلك. و قال الحسن و الضحاك و ابن زيد: يبدأ الخلق و يعيده لأن الأظهر في وصفه تعالى بأنه المبدئ المعيد العموم في كل مخلوق (وَهُوَ الْغَفُورُ) يعنى الستار على خلقه معاصيهم (الْوَدُودُ) أى واد لهم و محب لمنافع خلقه (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) و معناه صاحب العرش، العظيم المجيد و قال ابن عباس: معناه الكريم. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً المجيد بالجر جعلوه نعتاً للعرش. و معناه ذو العرش الرفيع. الباقون بالرفع جعلوه نعتاً للغفور أى هو الغفور الودود المجيد ذو العرش، قال المبرد: يجوز أن يكون نعتاً لقوله إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ

المجيد فيكون قد فصل بينهما، و فيه بعد لأنه قال «لَشَدِيدٌ» و قال «إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ، وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ» و فصل بهذا كله، يقال: مجدت الإبل تمجد مجوداً إذا رعيتها فرعت و شبت. و لا فعل لك، أو أمجدتها أمجداً إذا اشبتها من العلف و ملأت بطونها و لا- فعل لها في ذلك، و فى المثل فى كل شجر نار و استمجد المرح و الغفار. و معناه كثر ناره لأنه ليس فى الشجر أكثر ناراً من الغفار.

و قوله تعالى (فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ) معناه ما يشاؤه و يريده من أفعال نفسه يفعله التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢١ لا يمنعه من ذلك مانع و لا يعترض عليه معترض، و لا يجوز أن يكون المراد إنه فعال لكل ما يريد لأن ذلك يقتضى انه فعال لكل ما يريد أن يفعله العباد، و ذلك انه يستحيل أن يفعل ما يريد أن يفعله العباد، لأن فى ذلك إبطال الامر و النهى و الطاعة و المعصية و الثواب و العقاب، إذ لا يأمرهم أن يفعلوا ما قد فعله، و لا ينهاهم عنه، و لأنه قد أراد من الكفار أن يؤمنوا، لأنه قد أمرهم بالإيمان و ما فعل إيمانهم و قد قال الله تعالى (وَمَا اللَّهُ بِرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ) «١» و لو فعل ظلمهم لكان قد أراد ظلمهم. و قوله (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ) معناه تذكر يا محمد حديثهم تذكر معتبر، فإنك تنتفع به، و هذا من الإيجاز الحسن و التفخيم الذى لا يقوم مقامه التصريح لما يذهب الوهم فى أمرهم كل مذهب و يطلب الاعتبار كل مطلب.

و قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) معناه بل هؤلاء الكفار الذين كفروا كذبوا بالبعث و النشور فاعرضوا عما يوجب الاعتبار بفرعون و ثمود، و اقبلوا على ما يوجب الكفر و التكذيب من التأكيد، و لم يعلموا أن (اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) يقدر أن ينزل بهم ما انزل بفرعون. و قيل المعنى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) و ما كان منهم إلى أنبيائهم فاصبر كما صبر الرسل قبلك (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) ايثاراً منهم لأهوائهم و اتباعاً لسنن آبائهم.

و قوله (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) أى هم مقدور عليهم كما يكون فيما أحاط الله بهم، و هذا من بلاغة القرآن. و قوله (بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) أى كريم فالمجيد الكريم العظيم الكريم بما يعطى من الخير، فلما كان القرآن يعطى المعانى الجليلة و الدلائل النفيسة كان كريماً مجيداً بما

(١) سورة آل عمران ١٠٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٢

يعطى من ذلك، لأن جميعه حكم. و قيل: الحكم على ثلاثة أوجه لا رابع لها: معنى يعمل عليه فيما يخشى و يتقى، و موعظة تلين القلب للعمل بالحق، و حجة تؤدى إلى تمييز الحق من الباطل فى علم دين أو دنيا، و علم الدين أشرفهما و جميع ذلك موجود فى القرآن.

وقوله (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) عن التغيير والتبديل والنقصان والزيادة. وقال مجاهد: المحفوظ أم الكتاب، وقيل: انه اللوح المحفوظ الذي كتب الله جميع ما كان ويكون فيه- ذكره أنس بن مالك- أي كأنه بما ضمن الله من حفظه في لوح محفوظ ومن رفع (محفوظ) جعله صفة القرآن. ومن قرأه بالخفض جعله صفة اللوح.

٨٦- سورة الطارق ص: ٣٢٢

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي سبع عشرة آية في الكوفي والبصري والمدني الأخير وست عشرة آية في المدني الاول

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ إلى ١٠] ص: ٣٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)
فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٣

عشر آيات.

قرأ (لما) بالتشديد عاصم وحمزة وابن عامر بمعنى (إلا-) وقد جاء (لما) مشدداً بمعنى (إلا) في موضعين: إن، والقسم، كقولهم سألتك لما فعلت بمعنى إلا فعلت قال قوم: تقديره لما، فحذفت إحدى الميمات كراهة اجتماع الأمثال. وقرأ الباقر بالتخفيف جعلوا (ما) صلة مؤكدة: وتقديره لعلها حافظ، واللام لام الابتداء التي يدخل في خبر (إن) و (أن) مخففة من الثقيلة.

هذا قسم من الله تعالى بالسما والطارق، وقد بينا القول فيه فالطارق هو الذي يجيء ليلاً وقد فسره الله تعالى وبينه بأنه (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) فالنجم هو الكوكب قال الحسن: المراد بالنجم جميع النجوم. وقال ابن زيد: هو زحل.

وقوله (وَمَا أَدْرَاكَ) معناه أنه لم تدر حتى أعلمتك، وكل ما يعلمه الإنسان فالله أعلمه بالضرورة أو بالدليل. قال قتادة: طروق النجم ظهورها بالليل وخفاؤها بالنهار.

وقوله (وَالتَّارِقِ) تبين عن معنى وصفه بالطارق. وقوله (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) تبين عن ماهيته نفسه يقال: طرقتي فلان إذا أتاني ليلاً وأصل الطرق الدق، ومنه المطرقة، لأنه يندق بها، والطريق لائن المارة تدقه بأرجلها، والطارق لأنه يحتاج إلى الدق للتبنيه. والنجم هو الكوكب الطالع في السماء، يقال لكل طالع ناجم تشبيهاً به، ونجم النجم إذا طلع، وكذلك السن والقرن. ويوصف بالطالع والغارب، لأنه إذا طلع من المشرق غاب رقبه من المغرب، والثاقب المضيء المنير، وثقوبه توقده وتنوره، تقول العرب: أثقب ناركة أي اشعلها حتى تضيء. وثقب لسانها التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٤

بخروج الشعاع منها والثاقب أيضاً العالى الشديد العلو، تقول: العرب للطائر إذا ارتفع ارتفاعاً شديداً قد ثقب. كله كأنه ثقب الجو الأعلى. وقال مجاهد و قتادة وابن عباس: الثاقب المضيء. وقال ابن زيد: هو العالى وهو زحل.

وقوله (إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) جواب القسم و (إن) هاهنا المخففة من الثقيلة التي يتلقى بها القسم، والمعنى إن كل نفس لعلها حافظ- فيمن خفف- ومن شدد قال: (ان) بمعنى (ما) وتقديره ليس كل نفس إلا عليها حافظ. وقال قتادة: حافظ من الملائكة يحفظون عمله و رزقه و أجله، فالحافظ المانع من هلاك الشئ يحفظه يحفظه حفظاً واحتفظ به احتفاظاً فأما أحفظه فمعناه أغضبه، و

تحفظ من الامر إذا امتنع بحفظ نفسه منه و حافظ عليه إذا واطب عليه بالحفظ.

وقوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) أمر من الله تعالى للمكلفين من الناس أن يفكروا و يعتبروا مما ذا خلقهم الله. ثم بين تعالى مما ذا خلقهم فقال (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ) فالدقيق هو صب الماء الكثير باعتماد قوى، و مثله الدفع، فالماء الذى يكون منه الولد يكون دققاً و هى النطفة التى يخلق الله منها الولد إنساناً أو غيره، و ماء دافق معناه مدفوق، و مثله شرّ كاتم، و عيشة راضية.

ثم بين ذلك من أى موضع يخرج هذا الماء، فقال (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ) فالصلب هو الظهر، و الترائب جمع تريبة و هو موضع القلادة من صدر المرأة- فى قول ابن عباس- و هو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب. قال المثقب.

و من ذهب يشن إلى تريب كلون العاج ليس بنى غصون «١»

و قال آخر:

و الزعفران على ترائبها شرقاً به اللبات و النحر «٢»

(١) اللسان و التاج (ترب) و مجاز القرآن ٢/ ٢٩٤

(٢) قائله المخبل تفسير القرطبي ٥/ ٢٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٥

و قيل: إن نطفة الرجل تخرج من ظهره، و نطفة المرأة من صدرها، فإذا غلب ماء الرجل خرج الولد إلى شبه أهل بيت أبيه و إذا غلب ماء المرأة خرج إلى شبه أهل بيت أمه.

و قوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) قال عكرمة و مجاهد: معناه إنه تعالى على رد الماء فى الصلب قادر. و قال الضحاك: إنه على رد الإنسان ماء كما كان قادر، و الرجع الماء و أنشد ابو عبيدة للمنخل فى صفة سيف:

ايض كالرجع رسوب إذا ما ثاخ فى محتفل يختلى «١»

و معنى الآية إن الذى ابتداء الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب و الترائب حياً قادر على إعادته (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) لان الاعادة أهون من ابتداء النشأة، و قال الحسن و قتادة معناه أنه على رجع الإنسان بالاحياء بعد الممات قادر.

و قوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) معناه تختبر باظهارها و إظهار موجهها لان الابتلاء و الاختبار و الاعتبار كله إنما هو بإظهار موجب المعنى، ففى الطاعة الحمد و الثواب و فى المعصية الذم و العقاب، و واحد السرائر سريرة و هى الطوية فى النفس، و هو اسرار المعنى فى النفس، و قد يكون الاسرار من واحد بعينه مع إطلاع غيره عليه فلا- يكون سريرة. و قيل: إن الله يفصح العاصى بما كان يستر من معاصيه و يجلل المؤمن بإظهار ما كان يسره من طاعته ليكرمه الناس بذلك و يجلوه.

ثم بين تعالى أنه لا قدرة لهذا الإنسان الذى يعيده الله- على معاصيه- و يعاقبه على دفع ذلك عن نفسه و لا ناصر له يدفعه. فالقدرة هى القوة بعينها.

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٦

قوله تعالى: [سورة الطارق (٨٦): الآيات ١١ الى ١٧] ص: ٣٢٦

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥)

وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

سبع آيات.

هذا قسم من الله تعالى بالسماء ذات الرجح. قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك: ذات المطر. و قال ابن زيد: يعنى شمسها و قمرها و نجومها تغيب ثم تطلع.

وقيل: رجح السماء إعطاؤها الخير يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الازمان رجعه يرجعه رجعا إذا أعطاه مرة بعد مرة. وقيل: الرجح الماء الكثير تردده بالرياح التي تمر عليه قال المنخل في صفة سيف:

أبيض كالرجح رسوب إذا ما ناخ في محتفل يختلى.

و قال الفراء: تبتدى بالمطر ثم ترجع به في كل عام. و قوله (وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) قسم آخر بالأرض ذات الصدع. و قال ابن عباس و قتادة و الضحاك و ابن زيد: ذات الصدع انشقاقها بالنبات لضروب الزروع و الأشجار: صدع يصدع صدعا و تصدع الشيء تصدعا و انصدع انصدعا و صدعه تصديعا.

و قوله (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضِيلٍ) جواب القسم، و معناه ان ما ذكره من اعادة الخلق و إنشائهم النشأة الثانية قول فصل أى هو قول يفصل الحق من الباطل. و مثله فصل القضاء، و كل معنى فانه يحتاج فيه إلى فصل حقه من باطله. ثم قال (وَ مَا هُوَ بِالْهَزَلِ) أى مع أنه فصل ليس

بهزل و الهزل نقيض الجد و مثله اللهو و اللعب و العبث التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٧

يقال: هزل يهزل هزلا.

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) أى يحتالون في رفع الحجج و إنكار الآيات و يفعلون ما يوجب الغيظ يقال: كاده يكيده كيدا و كايده مكايده و تكايد القوم تكايدا أى يحتالون في رفع الحجج و إنكار الآيات، فقال تعالى (وَ أَكِيدُ كَيْدًا) أى أجازيهم على كيدهم، و سمي الجزاء على الكيد باسمه لاذواج الكلام. و قيل: المعنى أنهم يحتالون لهلاك النبي و أصحابه، و أنا أسبب لهم النصر و الغلبة و أقوى دواعيهم إلى القتال، فسمى ذلك كيدا من حيث يخفى عليهم ذلك.

و قوله (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا) خطاب للنبي صلى الله عليه و آله بأن يمهلهم قليلا و أجرى المصدر على غير لفظه كما قال (أَتَبَّتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) (١) و (رُوَيْدًا) معناه إمهالا يقال: أرودته اروادا و تصغيره رويد. و قال قتادة: معناه قليلا، و المعنى لا تعجل على طلب هلاكهم بل اصبر عليهم قليلا، فان الله يهلكهم لا- محالة بالقتل و الذل في الدنيا و ما ينزل عليهم في الآخرة من أنواع العقاب، و إن ما وعدتك لا يبعد عنهم.

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٨

٨٧-سورة الأعلى ص: ٣٢٨

إشارة

مكية في قول ابن عباس و قال الضحاك هي مدنية، و هي تسع عشرة آية بلا خلاف

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَيَنْقُرُوكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا- مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَتُيَسَّرُ لِّلْإِنْسَانِ (٨) فَذَكَرَ إِنْ نَفَعَتِ
الذِّكْرَى (٩)
سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠)
عشر آيات.

قرأ الكسائي وحده (قدر فهدي) خفيفاً. الباقون بالتشديد و هما لغتان على ما فسرناه فيما مضى.
هذا امر من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله و يدخل في ذلك جميع أمته يأمرهم بأن يسبحوا الله، و معناه ان ينزهوه عن كل ما لا يليق به من الصفات المذمومة و الافعال القبيحة و الإخلال بالواجبات، لان التسييح هو التنزيه لله عما لا يجوز عليه كوصفه بأنه لا إله إلا هو، فينفى ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته مع الإقرار بأنه التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٢٩
لا إله إلا هو وحده. و قال ابن عباس و قتادة: معنا (سبح ...) قل سبحان ربي الأعلى، و روى أنه لما نزلت هذه السورة، قال النبي صلى الله عليه وآله ضعوا هذا في سجودكم و قيل: معناه أن نزه اسم ربك بأن لا تسمى به سواه. و قيل: معناه نزه ربك عما يصفه به المشركون و أراد بالاسم المسمى، و قيل معناه صل باسم ربك الأعلى.

و قيل: ذكر الاسم و المراد به تعظيم المسمى، كما قال الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكمما و من بيك حولاً كاملاً فقد اعتذر «١»

و الأعلى معناه القادر الذي لا قادر أقدر منه. و صفة الأعلى منقولة إلى معنى الاقدر حتى لو بطل معنى علو المكان لم يبطل أن يفهم بحقيقتها او هي غير مضمنة بغيرها و لم ينقل إلى صفة الأرفع و إنما يعرف في رفعة المكان.

و قوله (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) نعت لقوله (ربك) و موضعه الجر و معناه الذي خلق الخلق فسوى بينهم في باب الأحكام. و قيل: معنا فسوى أى عدل خلقهم، فالتسوية الجمع بين الشئين بما هما فيه (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالتقدير تنزيل الشئ على مقدار غيره، فالله تعالى خلق الخلق و قدرهم على ما اقتضته الحكمة (فَهَدَى) معناه أرشدهم إلى طريق الرشده من الغي، و هدى كل حيوان إلى ما فيه منفعة و مضرتة حتى انه تعالى هدى الطفل إلى ثدي أمه و ميزه من غيره، و اعطى الفرخ حتى طلب الرزق من أبيه و أمه. و العصفور على صغره يطلب مثل ذلك بهداية الله تعالى له إلى ذلك (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) معناه الذي أنبت الحشيش من الأرض لمنافع جميع الحيوان (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) فالغناء ما يقذف به السيل على جانب الوادى من الحشيش و النبات. و الاحوى الأسود، و الحوة السوداء قال ذو الرمة:

(١) مر في ٥ / ٥٦٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٠

لمياء في شفتيها حوة لعس و في اللثات و في أنيابها شنب «١»

و قيل: أحوى معناه يضرب إلى السواد و قال الفراء: فيه تقديم و تأخير و تقديره الذي أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء، و قيل: الغناء الهشيم اليابس المتفتت اسود من احتراقه بعد خضرته و نعمته، قال ذو الرمة:

فرخاء حواء أشرابية و كفت فيها الذهاب و حفتها البراعيم «٢»

و قوله (سَيَنْقُرُوكَ فَلَا تَنْسَى) معناه سنأخذ عليك قراءة القرآن، فلا تنسى ذلك، فالاقراء أخذ القراءة على القارى بالاستماع لتقويم الزلل، و القراءة التلاوة و القارى التالى، و النسيان ذهاب المعنى عن النفس بعد ان كان حاضراً لها، و نقيضه الذكر، و مثله السهو، يقال: نسى ينسى نسياناً فهو ناس، و الشئ منسى، و التذكير لما نسى و التنبيه لما غفل. و قيل (فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أى ما شاء

نسيانه مما لا- يكلفك القيام بأدائه، لان التكليف مضمن بالذكر. وقيل: إلاً ما شاء الله كالاستثناء في الأيمان، وإن لم يقع مشيئة النسيان وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر انزاله. وقال الفراء: لم يشأ الله أن ينسى شيئاً فهو كقوله (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ولا يشاء. ويقول القائل: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية ألا يمنعه، ومثله الاستثناء في الأيمان.

وقوله (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) معناه إن الله تعالى يعلم السرّ والعلانية، فالجهر رفع الصوت ونقيضه الهمس، وهو ضعف الصوت أى يحفظ عليك ما جهرت به وما أخفيته مما تريد أن تعيه، جهر بالقراءة يجهر جهراً. ومنه قوله

(١) مر في ١٥ / ١ و ٣٠٨ / ٥

(٢) اللسان و الصراح و التاج (ذهب، برعم)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣١

«وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا» (١).

قوله «وَيُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى» أى نسهل لك العمل المؤدى الى الجنة فاليسرى عبارة عن الجنة هنا، واليسرى الكبرى فى تسهيل الخير بها و اليسرى الفعلى من اليسر، وهو سهولة عمل الخير. وقوله «فَمَذَكَّرُ» أمر للنبي صلى الله عليه وآله أن يذكر الخلق و يعظهم «إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى» وإنما قال ذلك، وهى تنفع لا محالة فى عمل الايمان و الامتناع من العصيان، كما يقال: سلّه إن نفع السؤال أى فيما يجوز عندك، وقيل:

معناه ذكرهم ما بعثتك به قبلوا أو لم يقبلوا، فان إزاحه علتهم تقتضى اعلامهم و تذكيرهم و إن لم يقبلوا. وقوله «سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى» معناه سيتعظ و ينتفع بدعائك و ذكرك من يخاف الله و يخشى عقابه: لان من لا يخافه لا ينتفع بها.

قوله تعالى: [سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ٣٣١

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصَلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْبَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) تسع آيات.

قرأ ابو عمرو و حمزة «بل يؤثرون» بالياء على الخبر عن الغائب. الباقرن بالتاء على الخطاب للمواجهين، و أدغم اللام فى التاء حمزة و الكسائى إلا قتيبه و الحلوانى عن هشام فى كل موضع.

لما أمر الله تعالى النبى صلى الله عليه وآله بالتذكرة و بين انه ينتفع بها من يخاف عقابه

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ١١٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٢

ذكر- هاهنا- أنه يتجنبها أى يتجنب الذكرى الأشقى، فالتجنب المصير فى جانب عن الشىء بما ينافى كونه، فهذا الشقى تجنب الذكرى بأن صار بمعزل عنها بما ينافى كونها، فالشقوة حالة تؤدى إلى شدة العقاب و نقيضها السعادة، شقى يشقى شقوة و شقاء و أشقاء الله يشقيه اشقاء عقبه عقاباً بكفره و سوء عمله.

ثم بين أن هذا الشقى هو «الَّذِي يَصَلَى النَّارَ الْكُبْرَى» يعنى نار جهنم، و وصفها بالكبرى لان الحاجة إلى اتقائها أشد و ذلك من كبر

الشأن إذ الكبير الشأن هو المختص بشدة الحاجة اليه أولى باتقائه، فكلما كان أكبر شأنًا فالحاجة اليه أشد. و قال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، و النار الصغرى نار الدنيا، و قال الفراء: النار الكبرى التي في الطبقة السفلى من جهنم. و قوله «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى» معناه إن هذا الشقى لا يموت في النار فيتخلص من العذاب، و لا يحيى حياة له فيها لذة، بل هو في ألوان العذاب و فنون العقاب. و قيل: لا يجد روح الحياة. و قوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» معناه قد فاز من تزكى يعنى صار زاكياً بأن عمل الطاعات- في قول ابن عباس و الحسن- و قال ابو الأحوص و قتادة: يعنى من زكى ماله «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ» على كل حال «فَصَيَّلَمَى» على ما أمره الله به. ثم خاطب الخلق فقال «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أى تختارون الحياة الدنيا على الآخرة بأن تعملوا للدنيا و لا تعملوا للآخرة، و ذلك على وجهين:

أحدهما- يجوز للرخصة. و الآخر- محذور معصية لله.

ثم قال تعالى «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» أى منافع الآخرة من الثواب و غيره خير من منافع الدنيا و أبقي، لأنها باقية و هذه فانية منقطعة. و قوله «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صِدْحِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى» يعنى ما ذكره الله و فصله من حكم المؤمن و الكافر و ما أعد الله لكل واحد من الفريقين مذکور في التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٣

كتب الأولين في الصحف المنزلة على إبراهيم و التوراة المنزلة على موسى. و قيل من قوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» إلى آخر السورة هو المذكور فيها، و قيل «مَنْ تَزَكَّى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» فهو ممدوح في الصحف الأولى، كما هو ممدوح في القرآن.

و قيل: كتب الله كلها أنزلت في شهر رمضان فأما القرآن فانه أنزل لأربع عشرة منه. و فى ذلك دلالة على أن إبراهيم كان قد أنزل عليه كتاب بخلاف قول من ينكر نبوته و يزعم أنه لم ينزل عليه كتاب، و لا- يكون نبى إلا- و معه كتاب، حكى ذلك عن النصارى أنهم قالوا: لم يكن إبراهيم نبياً، و إنما كان رجلاً صالحاً.

٨٨-سورة الغاشية ص: ٣٣٣

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاك، و هى ست و عشرون آية بلا خلاف

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١ إلى ١٠] ص: ٣٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤)

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)

عشر آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٤

قرأ اهل البصرة و أبو بكر عن عاصم «تصلى» بضم التاء على ما لم يسم فاعله يعنى تصلى الوجوه «ناراً حامية» الباقون بفتح التاء على أن تكون الوجوه هى الفاعلة هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه و آله يقول له هل أتاك يا محمد و معناه قد أتاك «حديث الغاشية» قال ابن عباس و الحسن و قتادة: الغاشية يوم القيامة تغشى الناس بالاهوال. و قال سعيد بن جبیر: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار بالعذاب و الشواظ. و الغاشية المجللة لجميع الجملة، غشيت تغشى غشياناً فهى غاشية، و أغشاها غيرها إغشاء إذا جعلها تغشى. و غشاها تغشيه، و تغشى بها تغشياً.

وقوله «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَائِشَةٌ» معناه إن وجوه العصاة والكفار في ذلك ذليله خاضعة من ذل المعاصي التي فعلتها في دار الدنيا. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه وإنما ذكر الوجوه، لأن الذل والخضوع يظهر فيها.

وقوله «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» قال الحسن و قتادة: معناه لم تعمل لله في الدنيا، فاعمالها في النار. وقال قوم: معناه عاملة ناصبة في دار الدنيا بما يؤديها إلى النار، وهو مما اتصلت صفتهم في الدنيا بصفاتهم في الآخرة. ومعنى الناصبة والنصبه التعبه وهى التى أضعفها الانتصاب للعمل يقال: نصب الرجل ينصب نصباً إذا تعب في العمل ثم بين تعالى ما يعمل بمن وصفه من ذوى الوجوه، فقال «تَصَلِي نَاراً حَامِيَةً» أى تلزم الإحراق بالنار الحامية التى فى غاية الحرارة و «تَسْقَى» أيضاً «مِنْ عَيْنِ آيِيَةٍ» قال ابن عباس و قتادة: آية بالغه النهاية فى شدة الحر.

وقوله «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ» فالضريح نبات تأكله الإبل يضر ولا ينفع كما وصفه الله «لَا يُشْرِبُونَ وَلَا يُعْنَى مِنْ جُوعٍ» وإنما يشتهبه الامر عليهم فيتوهموا انه كغيره من النبات الذى ينفع، لان المضارعة المشابهة، و منه أخذ الضرع و قيل: الضريح الشرق. وقال ابن عباس و مجاهد و قتادة: هو سم. وقال الحسن: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٥

لا أدري ما الضريح لم أسمع من اصحاب محمد صلى الله عليه وآله فيه شيئاً. وقال قوم: ضريح بمعنى مضرع أى يضرعهم و يذلهم. و قيل: من ضريح يضرع آكله فى الإعفاء منه لخشونته و شدة كراهته.

ثم بين وجوه المطيعين المؤمنين الذين عملوا الطاعات فقال «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» أى منعمة فى أنواع اللذات «لِيَسِعَ بِهَا رَاضِيَةٌ» بما أداها اليه من الثواب و الجزاء و الكرامة جزاء لطاعته التى عملها فى الدنيا. وقوله «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» أى فى بستان أجنه الشجر على الشرف و الجلالة و علو المكان و المنزلة، بمعنى أنها مشرفة على غيرها من البساتين و هى انزه ما يكون.

قوله تعالى: [سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٣٣٥

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِاعِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)

عشر آيات.

قرأ «لا يسمع» بالياء المضمومة «فيها لاغيئة» رفعا على ما لم يسم فاعله لان التانيث ليس بحقيقى و قد فصل بينهما ب (فيها) ابن كثير و أبو عمرو و ريس. و قرأ نافع وحده «لا تسمع» بالتاء مضمومة «لاغيئة» مرفوعة، لان اللفظ لفظ التانيث.

الباقون بفتح التاء على الخطاب «لاغيئة» منصوبة، لأنها مفعول بها.

لما ذكر الله تعالى ان المؤمنين يحصلون فى جنه عالية فى الشرف و المكان التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٦

بين انه «لا تسمع فيها» فى تلك الجنة «لاغيئة» وهى كلمة لا فائدة فيها قال الشاعر:

عن اللغا و رفث التكلم «١»

و اللغو و اللغا بمنزلة واحدة، و لغى يلغى، و لغا يلغو، و الغاه الغاء. و قيل «لاغيئة» بمعنى ذات لغو، كقولهم نابل و دارع أى ذو نبل و درع، و تامر ذو تمر قال الحطيئة:

و غررتنى و زعمت إنك لابن بالصيف تامر «٢»

وقيل: إنها المصدر مثل العاقبة. و يجوز أن يكون نعتاً، و تقديره لا يسمع فيها كلمة لاغيئة و الأول أصح، لقوله «لا لغو فيها ولا تأثيم» «٣» وإنما نفى اللاغيئة عن الجنة، لان فى سماع ما لا فائدة فيه ثقلا على النفس. ثم بين أن فيها أيضاً أى فى تلك الجنة عيناً من الماء جارية، لان فى العين الجارية متعة ليس فى الواقف.

وقوله «فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ» ليرى المؤمن بجلوسه عليها جميع ما حوله من الملك.

وقوله «وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ» أى على حافة العين الجارية، كلما أراد شربها وجدها مملوءة، فالأكواب جمع كوب، وهى الأباريق التى ليس لها خراطيم، فهى للشراب من الذهب و الفضة و الجواهر يتمتعون بالنظر اليها بين أيديهم و يشربون بها ما يشتهون من لذيذ الشراب، وهى كأفخر الأكواز التى توضع بين يدى الملوك.

وقيل: الأكواب كالأباريق لا عرى لها و لا خراطيم وهى آنية تتخذ للشراب فاخرة حسنة الصورة. وقوله «وَ نَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ» قال قتادة: النمارق الوسائد واحدها نمرقة وهى الوسادة، وهى تصلح للراحة، و رفع المنزلة، وقوله «وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» فالزرابى البسط الفاخرة واحدهما زربية. وقيل قد سمع (نمرقة) بضم النون و الراء و كسرهما

(١) مر فى ١٣٢ / ٢، ١٦٤، ٢٣٠ و ١٣٨ / ٧ و ١٩٣ / ٨ و ١٢٠ / ٩

(٢) مر فى ٤٦٨ / ٨ [.....]

(٣) سورة ٥٢ الطور آية ٢٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٧

ثم نبه تعالى على الادلة التى يستدل بها على توحيده و وجوب إخلاص العبادة له فقال (أَفَلَا يَنْظُرُونَ) أى أفلا يتفكرون بنظرهم (إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) و يعتبرون بما خلقه الله عليه من عجب الخلق، و مع عظمه و قوته يذلل الصبى الصغير فينقاد له بتسخير الله و يبركه و يحمل عليه ثم يقوم، و ليس ذلك فى شىء من الحيوان، بتسخير الله لعباده و نعمته به على خلقه (وَ إِلَى السَّمَاءِ) أى و ينظرون إلى السماء (كَيْفَ رُفِعَتْ) رفعها فوق الأرض و جعل بينهما هذا الفضاء الذى به قوام الخلق و حياتهم. ثم ما خلقه فيه من عجائب الخلق من النجوم و الشمس و القمر و الليل و النهار الذى بجميع ذلك ينتفع الخلق و به يتم عيشهم و نفعهم «وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ» أى و يفكرون فى خلق الله تعالى الجبال أوتاد الأرض و مسكه لها و لولاها لمادت الأرض بأهلها، و لما صح من الخلق التصرف عليها (وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) أى و ينظرون إلى الأرض كيف بسطها الله و سطحها و وسعها و لولا ذلك لما صح الانتفاع بها و الاستقرار عليها، و هذه نعم من الله تعالى على خلقه لا يوازيها نعمة منعم، و لا يقاربها إحسان محسن فيجب أن يقابل ذلك بأعظم الشكر.

قوله تعالى: [سورة الغاشية (٨٨): الآيات ٢١ الى ٢٦] ص: ٣٣٧

فَذَكَّرْنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)
ست آيات.

قرأ أبو عمرو و الكسائى بمسيطر بالسين باختلاف عنهما. الباقون بالصاد إلا حمزة، فانه أشم الصاد زاياً. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٨

لما بين الله تعالى الدلالة على وحدانيته و نبه على الاستدلال بها، قال لنبه محمد صلى الله عليه و آله (فَذَكَّرْنَا) يا محمد (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ) فالتذكير التعريف للذكر بالبيان الذى يقع به الفهم، و النفع بالتذكير عظيم، لأنه طريق للعلم بالأمور التى نحتاج اليها و ملين القلب للعمل بها، و مذكر يعنى بنعم الله تعالى عندهم و ما يجب عليهم فى مقابلتها من الشكر و العبادة فقد أوضح الله تعالى طريق الحجج فى الدين و أكده غاية التأكيد بما لا يسع فيه التقليد بقوله (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ) و قوله (وَ ذَكَرْنَا فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) «١» و قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) «٢» و (لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) «٣» و (لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) «٤» و (لَآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ) «٥» و قوله

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وقوله ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٧) و محاجه إبراهيم عليه السلام للكافر بربه «٨» وقوله ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (٩) وقوله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (١٠).

وقوله ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ فالمسيطر المسلط على غيره بالقهر له يقال تسيطر فلان على فلان، و سيطر إذا تسلط، و على وزن مسيطر مبيطر. قال ابو عبيدة:

لا ثالث لهما من كلام العرب، و قيل: كان هذا قبل فرض الجهاد، ثم نسخ،

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٧

(٣) سورة ١٦ النحل آية ١١، ٦٩

(٤) سورة ١٦ النحل آية ١٣

(٥) سورة ٣ آل عمران آية ١٩٠

(٦) سورة ٢ البقرة آية ١١١ و سورة ٢٧ النمل آية ٦٤

(٧) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥

(٨) انظر ٢/٣١٦ من هذا الكتاب

(٩) سورة ٥٩ الحشر آية ٢

(١٠) سورة ٤٧ محمد آية ٢٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٣٩

و يجوز أن يكون غير منسوخ، لان الجهاد ليس يكره القلوب.

وقوله ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ﴾ قيل في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما- انه منقطع و تقديره، لكن من تولى و كفر فيعذبه الله العذاب الأكبر الثاني- إلا من تولى فإنك مسلط عليه بالجهاد، فالله يعذبه العذاب الأكبر.

وقال الحسن المعنى: إلا من تولى و كفر، فكله إلى الله. و قيل معناه إلا من تولى و كفر فلست له بمذكر، لأنه لا يقبل منك، فكذلك لست تذكره.

وقوله ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾ فالإياب الرجوع، آب يؤب أوباً و إياباً و تأوب تأوباً و أوب يؤوب تأوباً، و يقال: أيب إياباً على (فعل، فيعلا) من الأوب و على هذا قرئ في الشواذ (إيابهم) بالتشديد، قال عبيد:

و كل ذى غيبة يؤوب و غائب الموت لا يؤوب «١»

و المعنى ان مرجع الخلق يوم القيامة إلى الله فيحاسبهم و يجازى كل واحد منهم على قدر عمله، فحساب الكفار مقدار ما لهم و عليهم من استحقاق العقاب، و حساب المؤمن بيان ما له و عليه حتى يظهر استحقاق الثواب.

(١) مر في ٦/٤٦٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٠

إشارة

مكية في قول ابن عباس و قال الضحاك هي مدينة و هي ثلاثون آية في الكوفي و تسع و عشرون في البصري و اثنتان و ثلاثون في المدنيين

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ١٤] ص: ٣٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْفَجْرِ (١) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِر (٤)
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِإِذَى حَجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَل رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ ثَمُودَ
الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)
وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَيْوُطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ
لِبَالِمُرْصَادٍ (١٤)

أربع عشرة آية قرأ حمزة و الكسائي و خلف (و الوتر) بكسر الواو. الباقون بفتحها و هما لغتان. قال ابو عبيدة: الشفع الزكا و الوتر الخسا. و قرأ نافع و ابو عمرو (يسرى) بياء في الوصل دون الوقف. و قرأ ابن كثير بياء في الوصل و الوقف، و كذلك (بالوادي) الباقون بغير ياء في وصل و لا وقف. من أثبت الياء، فلأنها الأصل و من حذفها، فلأنها رأس آية و الفواصل تحذف منها الياءات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤١

هذا قسم من الله تعالى بالفجر و ليال عشر، و قسم منه بالشفع و الوتر و الليل إذا يسرى، و جواب القسم قوله (إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمُرْصَادٍ) و (الْفَجْرِ) شق عمود الصبح فجره الله لعباده يفجره فجراً إذا أظهره في أفق المشرق مبشراً بادبار الليل المظلم و إقبال النهار المضيء، و الفجر فجران: أحدهما المستطيل، و هو الذي يصعد طولاً كذنب السرحان و لا حكم له في الشرع، و الآخر هو المستطير، و هو الذي ينشر في أفق السماء، و هو الذي يحرم عنده الأكل و الشرب لمن أراد الصوم في شهر رمضان، و هو ابتداء اليوم. و قال عكرمة و الحسن: الفجر فجر الصبح.

و قوله (وَ لَيَالٍ عَشْرٍ) قال ابن عباس و الحسن و عبد الله بن الزبير و مجاهد و مسروق و الضحاك و ابن زيد: و هي العشر الأول من ذي الحجة شرفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير و اتقاء الشر على طاعة الله في تعظيم ما عظم و تصغير ما صغره، و ينالون بحسن الطاعة الجزاء بالجنة. و قال قوم: هي العشر من أول محرم، و الاول هو المعتمد.

و قوله (وَ الشَّفْعِ وَ الوَتْرِ) قال ابن عباس و كثير من أهل العلم: الشفع الخلق بما له من الشكل و المثل، و الوتر الخالق الفرد الذي لا مثل له، و قال الحسن: الشفع الزوج، و الوتر الفرد من العدد، كأنه تنبيه على ما في العدد من العبرة بما يضبط لأنه من المقادير التي يقع بها التعديل. و قال ابن عباس و عكرمة و الضحاك: الشفع يوم النحر، و الوتر يوم عرفه، و وجه ذلك أن يوم النحر مشفع بيوم نحر بعده، و ينفرد يوم عرفه بالموقف و في رواية أخرى عن ابن عباس و مجاهد و مسروق و أبي صالح: أن الشفع الخلق، و الوتر الله تعالى. و قال ابن زيد: الشفع و الوتر كله من الخلق.

فقال عمران بن حصين: الصلاة فيها شفع و فيها وتر، و قال ابن الزبير: الشفع:

اليومان الأولان من يوم النحر و الوتر اليوم الثالث. و في رواية أخرى عن ابن التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٢

عباس: الوتر آدم و الشفع زوجته. قال ابو عبيدة: يقال أوترت و وترت.

و قوله (وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِر) معناه يسير ظلاماً حتى ينقضي بالضيء المبتدئ ففي تسييره على المقادير المرتبة، و مجيئه بالضيء عند تقضيه في الفصول أدل دليل على أن فاعله يختص بالعز و الاقتدار الذي يجل عن الأشباه و الأمثال.

وقوله (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) أى لذي عقل - فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و الحسن - و قيل العقل الحجر، لأنه يعقل عن المقبحات و يزجر عن فعلها، يقال: حجر يحجر حجراً إذا منع من الشيء بالتضييق، و منه حجر الرجل الذى يحجر على ما فيه، و منه الحجر لامتناعه بصلابته.

وقوله (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه و آله، و تنبيه للكفار على ما فعل بالأمم الماضية لما كفروا بوحانية الله، و اعلام لهم كيفية إهلا-كهم. و قيل: عاد الأولى عاد ابن آرم. و قيل: إن (إرم) بلد منه الاسكندرية - فى قول القرطبي - و قال المعري: هو دمشق. و قال مجاهد: هم أمه من الأمم. و قال قتادة: هم قبيلة من عاد. و قوله (ذاتِ الْعِمَادِ) قال ابن عباس و مجاهد: ذات الطول من قولهم: رجل معمد إذا كان طويلاً. و قيل ذات عمد للآليات ينتقلون من مكان إلى مكان، للانتجاع - ذكره قتادة - و قال ابن زيد: ذات العماد فى إحكام البنيان. و قال الضحاك: معناه ذات القوى الشداد.

و قال الحسن: العماد الابنية العظام. و قيل: ان (ارم) هو سام بن نوح، و ترك صرفه لأنه أعجمى معرفه. و قوله (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) يعنى فى عظم أجسامهم و شدة قوتهم و قوله (وَ تَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) موضع (تمود) جر بالعطف على قوله (بعاد) أى و تمود و لم يجره لأنه أعجمى معرفه، و معنى (جأبوا الصخر) أى التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٣

قطعوا الصخر من الجبال بشدة قوتهم، يقال: جاب يحوب إذا قطع قال النابغة:

أتاك ابو ليلى يحوب به الدجى دجى الليل جواب الغلاة غشمشم

قال مجاهد: قطعوا الجبال بيوتاً كما قال (وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ) «١» و قوله (وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ) قال ابن عباس: معناه ذى الجنود الذين كانوا يشدون أمره. و قال مجاهد: كان يوتد الأوتاد فى أيدي الناس. و قال قتادة: ملاعب كان يلعب له فيها، و يضرب تحتها بالأوتاد. و قيل: ذى الأوتاد لكثرة الأوتاد التى كانوا يتخذونها للمضارب و لكثرة جموعهم، و كان فيهم أكثر منه فى غيرهم. و قيل: إن فرعون كان إذا غضب على الرجل مده بين أربعة أوتاد حتى يموت.

و قوله (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ) معناه إن هؤلاء الذين ذكروناهم تجاوزوا فى الظلم الحد فى البلاد، و خرجوا عن حد القلة و فسر ذلك بقوله (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ) يعنى أكثروا فى البلاد الفساد، ثم بين ما فعل بهم عاجلاً فقال (فَصَبَّ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ) يا محمد صلى الله عليه و آله (سَوَّطَ عَذَابٍ) أى قسط عذاب كالعذاب بالسوط الذى يعرف إلا أنه أعظم، و يجوز أن يكون عنى قست عذاب يخالط اللحوم و الدماء كما يخالط بالسوط من قولهم: ساطه يسوطه سوطاً فهو سائط قال الشاعر:

أ حارث إنا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما «٢»

و قيل: المعنى إنه جعل سوطه الذى ضربهم به انه صب عليهم العذاب، و قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ) معناه إن ربك يا محمد لا يفوته شىء من اعمال العباد كما لا يفوت من المرصاد. و المرصاد مفعال من رصده يرصده رصداً، فهو راصد إذا راعى ما يكون منه ليقابله بما يقتضيه، و

قيل لأمير المؤمنين عليه السلام اين كان ربنا قبل

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٩

(٢) تفسير الشوكاني ٤٢٤/٥ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٤

أن يخلق السموات و الأرض؟ فقال: (أين) سؤال عن مكان، و كان الله و لا مكان.

و قيل لاعرابى: أين ربك يا اعرابى؟! قال بالمرصاد. و قال ابن عباس معناه إنه يسمع و يرى أعمال العباد. و قال الحسن و الضحاك:

لبالمرصاد بانصاف المظلوم من الظالم، و معناه لا يجوزُه ظلم ظالم حتى ينصف المظلوم منه.

قوله تعالى: [سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠] ص: ٣٤٤

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أُنِّي لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَ لَا- يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ست عشرة آية.

قرأ ابن عامر و ابو جعفر (فقدر) مشدد الدال. و قرأ ابو عمرو و اهل التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٥

البصرة (بَلْ لَا- تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَ لَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ) ثلاثهن بالياء. الباقون ثلاثهن بالتاء. و الاول على وجه الخبر عن الذين تقدم ذكرهم من الكفار. و الثانى على وجه الخطاب، و تقديره قل لهم يا محمد صلى الله عليه و آله. و قرأ اهل الكوفة (تحاضون) بالتاء و الالف. الباقون بغير الف و الياء فى جميع ذلك مفتوحة يقال:

حضضته و حثته و (تحاضون) مثل فاعلته و فعلته إلا أن المفاعلة بين اثنين فأكثر و قرأ الكسائى و يعقوب (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا، وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا) على ما لم يسم فاعله. و الفعل مسند إلى (أحد)، و المعنى لا يعذب عذابه أحد فداء له من العذاب، لأنه المستحق له، فلا يؤخذ بذنب غيره. الباقون بكسر الذال (و لا يوثق) بكسر التاء و تأويله لا يعذب عذاب الله أحد، و لا يوثق وثاقه احد و هو قول الحسن و قتادة.

لما توعد الله تعالى الكفار و جميع العصاة بما قدمه من الوعيد على المعاصى و أخبرهم بما فعل بالأمم الماضية جزاء على كفرهم. و حكى أنه لبالمرصاد لكل عاص قسم أحوال الخلق من البشر، فقال (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) أى اختبره و الابتلاء هو إظهار ما فى العبد من خير أو شر من الشدة و الرخاء و الغنى و الفقر حسب ما تقتضيه المصلحة، فان عمل بداعى العقل ظهر الخير، و إن عمل بداعى الطبع ظهر الشر. و مثل الابتلاء الامتحان و الاختبار.

و قوله (فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ) معناه أعطاه الخير و أنعم عليه به، و الإكرام إعطاء الخير للنفع به على ما تقتضيه الحكمة إلا- أنه كثر فيما يستحق بالإحسان، و نقيض الإكرام الهوان (فَيَقُولُ) العبد عند ذلك (رَبِّي أَكْرَمَنِ) أى أنعم على و أحسن إليّ. و من أثبت الياء، فلأنها الأصل و من حذفها فلأنها رأس آية، و اجتزأ بكسرة النون الدالة على حذفها. التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٦

ثم قال (وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أى اختبره بعد ذلك بأن يضيق عليه رزقه قدر البلغة و الأصل القدر، و هو كون الشيء على مقدار، و منه تقدير الشيء طلب قدره من مقدار غيره (فَيَقُولُ) العبد عند ذلك (رَبِّي أَهَانَنِ) فقال الله تعالى ردًا لتوهم من ظن أن الإكرام بالغنى و الاهانة بالفقر بأن قال (كلا) ليس الامر على ما توهمه. و إنما الإكرام فى الحقيقة بالطاعة، و الاهانة بالمعصية، و قوله (كَلَّا) معناه ليس الأمر على ما ظن هذا الإنسان الكافر الذى لا يؤمن بالله و اليوم الآخر- ذكره قتادة- ثم بين ما يستحق به الهوان بقوله (بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَ لَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ) أى الهوان لهذا، لا لما توهمتم، تقول: حضضته بمعنى حثته و (تَحَاضُونَ) بمعنى تحضون فاعلته و فعلته إلا أن المفاعلة بين اثنين فأكثر. و قال الفراء: لا تحاضون بمعنى لا تحافظون، و أصله تتحاضون، فحذف إحدى التائين.

وقوله (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا) أى جمعاً، يقال لمت ما على الخوان ألمه لماً إذا أكلته اجمع، و التراث الميراث. وقيل: هو من يأكل نصيبه و نصيب صاحبه. وقوله (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) قال ابن عباس و مجاهد و ابن زيد: معناه كثيراً شديداً يقال: جم الماء فى الحوض إذا اجتمع و كثر قال زهير:

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم (١)

وقوله (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) معناه التهديد و الوعيد الشديد أى حقاً إذا دكت الأرض بأن جعلت مثل الدكة مستوية لا خلل فيها و لا- تلول، كما قال (لا ترى فيها عوجاً و لا أمتاً) (٢) و هو يوم القيامة، فالدك حط المرتفع بالسط، يقال اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره و ناقة دكاء إذا كانت كذلك، و منه الدكان لاستوائه فكذلك

(١) مر فى ١٤٣ / ٧

(٢) سورة ٢٠ طه آية ١٠٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٧

الأرض إذا دكت استوت فى فراشها فذهبت دورها، و قصورها و سائر أبنيتها حتى تصير كالصحراء الملساء بها. قال ابن عباس: يوم القيامة تمد الأرض مداً كالأديم، و قوله (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) معناه و جاء أمر الله أو عذاب الله و قيل: معناه و جاء جلائل آياته، فجعل مجيء جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنها و قال الحسن: معناه و جاء قضاء الله، كما يقول القائل: جاءتنا الروم أى سيرتهم.

و قال بعضهم: معنى (جاء) ظهر بضرورة المعرفة، كما توصف الآية إذا وقعت ضرورة تقوم مقام الرؤية.

وقوله (وَالْمَلِكُ صَفًّا صَفًّا) معناه كصفوف الناس فى الصلاة يأتى الصف الاول ثم الصف الثانى ثم الثالث على هذا الترتيب، لان ذلك أشكل بحال الاستواء من التشويش و التخليط بالتعديل فى الأمور، و التقويم أولى.

وقوله (وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) أى أحضرت جهنم ليعاقب بها المستحقون لها و يرى أهل الموقف هو لها، و عظم منظرها. و قوله (يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ) اخبار منه تعالى بأن الإنسان يتذكر ما فرط فيه فى دار التكليف من ترك الواجب و فعل القبيح و يندم عليه. ثم قال تعالى (وَأَنْتَ لَهُ الذَّكْرَى) و معناه من اين له الذكرى التى كان أمر بها فى دار الدنيا، فإنها تقوده إلى طريق الاستواء و تبصره الضلال من الهدى، فكأنه قال و أنى له الذكرى التى ينتفع بها، كما لو قيل يتندم و أنى له الندم.

ثم حكى ما يقول الكافر المفرط الجانى على نفسه و يتمناه، فانه يقول (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) أى يتمنى انه كان عمل الصالحات لحياته بعد موته أو عمل للحياة التى تدوم له، فكان أولى بى من التمسك بحياة زائلة. ثم قال (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعْذَبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ) معناه فى

قراءة من كسر الذال إخبار من الله تعالى أنه لا يعذب عذاب الله التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٨

أحد فى ذلك اليوم. و من فتح الذال قال: المعنى لا يعذب عذاب الجانى الكافر الذى لم يقدم لحياته أحد من الناس لأننا علمنا أن إبليس أشد عذاباً من غيره بحسب إجرامه و إذا أطلق الكلام لقيام الدلالة على ذلك قيل معناه لا- يؤخذ أحد بذنب غيره، لأنه المستحق للعذاب و لا يؤخذ الله أحداً بجرم غيره.

وقوله (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ) أى لا يشد بالسلاسل و الاغلال (أَحَدٌ) على المعنيين اللذين ذكرناهما.

وقوله (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ) قال ابن زيد عن أبيه: إن النفس المطمئنة التى فعلت طاعة الله و تجنبت معاصيه تبشر عند الموت و يوم البعث بالثواب و النعيم. و قيل: ان المطمئنة بالمعرفة لله و بالايان به- فى قول مجاهد- و قيل:

المطمئنة بالبشارة بالجنة. و قال الفراء: تقديره يا أيتها النفس المطمئنة بالايان و المصدقة بالثواب و البعث (ارْجِعِي) تقول لهم الملائكة إذا أعطوهم كتبهم بايمانهم (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ) أى إلى ما أعده الله لك من الثواب، و قد يجوز أن يقولوا لهم هذا القول

يريدون ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع.

ثم بين ما يقال لها و تبشر به بأنه يقال لها (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ) أى إلى الموضع الذى يختص الله تعالى بالأمر و النهى به دون خلقه (راضيةً) بثواب الله و جزيل عطائه (مَرْضِيَّةً) الافعال من الطاعات، و إنه يقال لها «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» الذين رضيت عنهم و رضيت أفعالهم «وَادْخُلِي جَنَّتِي» التى وعدتكم بها و أعددت نعيمكم فيها، و روى عن ابن عباس أنه قرأ ادخلى فى عبدى بمعنى فى جسم عبدى، قال ابن خالويه: هى قراءة حسنة. قال المبرد: تقديره يا أيتها الروح ارجعى إلى ربك فادخلى فى عبادى فى كل واحد من عبادى تدخل فيه روحه.

بيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٤٩

٩٠-سورة البلد ص: ٣٤٩

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و قال الضحاك، أنزلت حين افتتحت مكة و هى عشرون آية بلا خلاف

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)
 أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)
 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)
 عشر آيات.

قرأ أبو جعفر «لبدًا» بتشديد الباء. الباقون بالتخفيف.

قوله «لَا أُقْسِمُ» معناه أقسم، و لا صلة، كما قال الشاعر:

و لا ألوم البيض ان لا تسخرًا (١)

أى ان تسخر. وقيل: هى ردًا لكلام على طريق الجواب، لمن قد ظهر منه

(١) مر فى ١/ ٤٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٠

الخلافاً أى ليس الامر على ما يتوهم. و قد بينا نظائر ذلك فيما مضى. فإذا أثبت انه اقسام، فلا ينافى قوله «وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» لأن هذا قسم آخر مثله. و إنما يكون مناقضة لو أراد نفي القسم بقوله «لَا أُقْسِمُ» فأما إذا كان الامر على ما بيناه فلا تنافى بينهما. قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد: يعنى بالبلد مكة.

و قوله «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» فمعناه فى قول ابن عباس أنه حلال لك به قتل من رأيت حين أمر بالقتال، فقتل ابن حنظل صبراً، و هو أخذ بأستار الكعبة و لم يحل لأحد بعده. و به قال مجاهد و ابن زيد و الضحاك. و قال عطاء: لم يحل إلا لنيكم ساعة من النهار. و قال الحسن: معناه و أنت فيه محسن و أنا عنك راض.

وقيل: معناه أنت حل بهذا البلد أى أنت فيه مقيم، و هو محلل. و المعنى بذلك التنبيه على شرف البلد بشرف من حل فيه من الرسول الداعى إلى تعظيم الله و إخلاص عبادته المبشر بالثواب و المنذر بالعقاب، و يقال: رجل حل أى حلال و قالوا: حل معناه حال. أى ساكن.

و قوله (وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدٌ) قسم آخر بالوالد و ما ولد، قال ابن عباس و عكرمة:

المعنى بذلك كل والد و ما ولد يعنى العاقل. و قال الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاك و سفيان و ابو صالح: يعنى آدم و ولده. و قال ابو عمران الحوبى: يعنى به إبراهيم عليه السلام و ولده.

و قوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) جواب القسم، و معنى كبد قال ابن عباس و الحسن: فى شدة. و قال قتادة: معناه يكابد الدنيا و الآخرة. قال مجاهد و ابو صالح و إبراهيم النخعي و عبد الله بن شداد: معناه فى انتصاب قامه، فكأنه فى شدة قوام مخصوص بذلك من سائر الحيوان، قال لبيد: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥١

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا و قام الخصوم فى كبد «١»

أى فى شدة نصب، فالكبد فى اللغة شدة الأمر يقال: تكبد اللبن إذا غلظ و اشتد، و منه الكبد، كأنه دم يغلظ و يشتد، و تكبد الدم إذا صار كالكبد، و الإنسان مخلوق فى شدة أمر بكونه فى الرحم. ثم فى القماط و الرباط، ثم على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، فينبغى له أن يعلم ان الدنيا دار كد و مشقة، و أن الجنة هى دار الراحة و النعمة.

و قوله «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» معناه أ يظن هذا الإنسان أن لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى و ارتكب معاصيه فبئس الظن ذلك. و قيل: إنها نزلت فى رجل يقال له أبو الاسدين كان من القوة بحيث يقف على أديم عكاظى فيجرى العسرة من تحته، فتقطع و لا يبرح من عليه فقال الله تعالى (أَيَحْسَبُ) لشدته و قوته (أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) ثم حكى ما يقول هذا الإنسان من قوله (أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا) قال الحسن: معناه يقول أهلكت مالا كثيراً، فمن يحاسبنى عليه، حميق أ لم يعلم ان الله قادر على محاسبته، و اللبد الكثير الذى قد تراكب بعضه على بعض، و منه تلبد القطن و الصوف إذا تراكب بعضه على بعض، و كذلك الشعر و منه اللبد و من قرأ (لبداً) بتشديد الباء، فهو جمع لا بد.

و قوله (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَزِرْهُ أَحَدٌ) ا يظن هذا الإنسان انه لم يبصره أحد فيطالبه من اين كسب هذا المال، و فى أى شىء أنفقه - ذكره قتادة - و قيل: معنا ا يظن أن لم يره أحد فى إنفاقه، لأنه كاذب. و قال الحسن: يقول: أنفقت مالا كثيراً فمن يحاسبنى عليه. و قيل الآية نزلت فى رجل من بنى جمح يكنى أبا الاسدين، و كان قوياً شديداً.

(١) ديوانه ١٩ / ١ و مجاز القرآن ٢ / ٢٩٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٢

ثم نبهه تعالى على وجوه النعمة التى أنعم بها عليه ليستدل بها على توحيد و خلع الأنداد دونه بقوله «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ» ليبصر بهما «وَلِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ» لينطق بهما «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» ليستدل بهما. و فى ذلك دليل واضح على أنه صادر من مختار لهذه الافعال التى فعلها بهذه الوجوه، فأحكمها لهذه الأمور، فالمحكم المتقن لا يكون إلا من عالم، و تعليقه بالمعاني لا يكون إلا من مختار، لأنه لا يعلق الفعل بالمعاني إلا فى الارادة. و قال ابن مسعود: و ابن عباس: معنى هديناه النجدين: نجد الخير و الشر، و به قال الحسن و مجاهد و الضحاك و قتادة، و فى رواية عن ابن عباس أنهما الثديان، و النجدان الطريقان للخير و الشر. و أصل النجد للعلو و نجد بلد سمي نجد العلوة عن انجفاض تهامة، و كل عال من الأرض نجد، و الجمع نجود، و رجل نجد بين النجدة إذا كان جلدًا قوياً، لاستعلائه على قوته، و استنجدت فلاناً فانجدنى أى استعنته على خصمى فأعانتى، و النجد الكرب و الغم. و النجاد ما على العاتق من حمالة السيف، و شبه طريق الخير و الشر بالطريقين العالين لظهوره فيهما.

قوله تعالى: [سورة البلد (٩٠): الآيات ١١ الى ٢٠] ص: ٣٥٢

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

عشر آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٣

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و الكسائي «فك رقبه أو اطعم في يوم ذي مسغبة» بغير الف على انه فعل ماض. الباقون «فك رقبته» على الاضافة و يكون الاضافة إلى مفعول «أو إطعام» فوجه الأول قوله «فلا اقتحم العقبة فك رقبه» الثاني أنه على جواب و «ما أدراك ما العقبة» فيكون الجواب بالاسم و تلخيصه هلا اقتحم العقبة و لا يجوز الصراط إلا من كان بهذه الصفة فك رقبه او يطعم يتيمًا في يوم ذي مسغبة مجاعة، فلا اقتحم بمعنى لم، كما قال «فلا صدق ولا صلى» (١) و معناه لم يصدق و لم يصل، و إنما لم يكرر (لا) لان معنا «ثم كان من الذين آمنوا» يدل على انه لم يقتحم و لم يؤمن، وقرأ ابو عمرو و حمزة و حفص و خلف «مؤصدة» بالهمز. الباقون بغير همز و هما لغتان، يقال: أصدت الباب او صده إيصاداً فهو مؤصد بالهمز، و أوصدته فهو مؤصد بغير همز. و الوصيد الباب من أوصدت.

لما نبه الله تعالى الإنسان على وحدانيته و إخلاص عبادته بقوله «ألم نجعل له عيينة و لساناً و شفقتين» و ما فيهما من الدلالة على قدرته و علمه و انه هدى الإنسان طريق الخير و الشر و رغبه في اتباع الخير و زجره عن إتباع الشر، قال حائلاً له على فعل الخير بقوله «فلا اقتحم العقبة» قال الحسن. عقبة- و الله شديدة- مجاهدة الإنسان نفسه و هواه و عدوه و الشيطان، و لم يكرر (لا) في اللفظ، و هي بمنزلة المكرر في المعنى كأنه قال: أ فلا اقتحم العقبة و حذف الاستفهام، و المراد به التنبيه، و الاقتحام الدخول على الشدة يقال اقتحم اقتحاماً، و اقحم إقحاماً و تقحم تقحماً و قحم تقحيماً و نظيره الإدخال و الإيلاج. و المعنى هلا دخل في البر على صعوبة كصعوبة اقتحام العقبة، و العقبة الطريقة التي ترتقى على صعوبة و يحتاج فيها إلى معاقبة الشدة بالتضييق

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٤

و المخاطرة، و قيل: العقبة النتنة الضيقة في رأس الجبل يتعاقبها الناس، فشبهت بها العقبة في وجوه البر التي ذكرها الله تعالى. و عاقب الرجل صاحبه إذا صار في موضعه بدلا منه. و قال قتادة: فلا اقتحم العقبة إنها قحمة شديدة، فاقتموها بطاعة الله. و قال أبو عبيدة: معناه فلم يقتحم في الدنيا.

ثم فسر العقبة فقال «و ما أدراك ما العقبة فك رقبته أو إطعام في يوم ذي مسغبة» و تقديره اقتحام العقبة فك رقبته، لان العقبة جثة و الفك حدث، فلا يكون خبراً عن جثته. قال ابو على و (لا) إذا كانت بمعنى (لم) لم يلزم تكرارها.

ثم بين تعالى ما به يكون اقتحام العقبة فقال «فك رقبته» فالفك فرق يزيل المنع، و يمكن معه أمر لم يكن ممكناً قبل، فكفك القيد و الغل، لأنه يزول به المنع، و يمكن به تصرف في الأرض لم يكن قبل، فكفك الرقبه فرق بينها و بين حال الرق بإيجاب الحرية و إبطال العبودية. و قوله «أو إطعام في يوم ذي مسغبة» فالمسغبة المجاعة سغب يسغب سغباً إذا جاع، فهو ساغب قال جرير:

تعلل و هى ساغبة بنيتها بأنفاس من الشبم القراح (١)

و قوله «يتيماً» نصب ب «إطعام» في قراءة من نون نصبه بالمصدر. و من قرأ على الفعل الماضى نصبه به، فهو مفعول به في الحالين، و اليتيم الصبي الذي قد مات أبوه و أمه، و الأغلب في اليتيم من الأب في الناس. و قوله «ذا مقربة» معناه ذا قرابة، و لا يقال: فلان قرابتي

و إنما يقال ذو قرابتى، لأنه مصدر، كما قال الشاعر:
يبكى الغريب عليه حين يعرفه و ذو قرابته فى الناس مسرور
و قوله «أَوْ مَشْكِينًا» عطف على يتيمًا. و «ذَا مَتْرَبِيَّةٌ» معناه ذا حاجة شديدة

(١) اللسان (قروح)

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٥

من قولهم: ترب الرجل إذا افتقر- فى قول ابن عباس- أيضاً و مجاهد، يقال:
أترب الرجل إذا استغنى، و ترب إذا افتقر.

و قوله «نُتْمَ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» معناه كان الإنسان من جملة المؤمنين إذا فعل ذلك و عقد الايمان، ثم أقام على إيمانه «و تَوَاصَوْا»
أى وصى بعضهم بعضاً «بِالصَّبْرِ» على الشدائد و المحن و المصائب «و تَوَاصَوْا» أيضاً «بِالْمَرْحَمَةِ» أى وصى بعضهم بعضاً بأن يرحموا
الفقراء و ذوى المسكنة.

و قوله «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» معناه إنهم متى فعلوا ذلك كانوا أصحاب الميمنة الذين يعطون كتابهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات
اليمين إلى الجنة، و الميمنة اليمن و البركة، و المرحمة حال الرحمة.

و قوله «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا» معناه إن الذين يجحدون نعم الله و يكذبون أنبياءه «هُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» أى ذات الشمال فيؤخذ بهم
الى النار، و يعطون كتابهم بشمالهم، و اشتقاقه من الشؤم خلاف البركة «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ» قال ابن عباس و مجاهد و الضحاك: معناه
عليهم نار مطبقة.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٦

٩١-سورة الشمس ص: ٣٥٦

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و هى خمس عشرة آية فى الكوفى و البصرى و ست عشرة فى المدنيين

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (١) وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)
وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا (٥) وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا (٦) وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (٧) فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)
وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)
عشر آيات.

قرأ ابن كثير و ابن عامر و عاصم «و ضحاها» بفتح أو اخر هذه السورة.

و قرأ الكسائى بامالة ذلك كله. و قرأ ابو عمرو و نافع جميع ذلك بين الكسر و الفتح.

و قرأ حمزة «و ضحها» كسراً و فتح «تلاها» و «طحاها» فمن فتح، فلأنه الأصل، و الامالة تخفيف. و بين بين تخفيف يشعر بالأصل. فأما
حمزة فأمال بنات الياء. و فخم بنات الواو.

هذا قسم من الله تعالى بالشمس وضحاها، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه تبييناً على عظم شأنه و كثرة الانتفاع به، فلما كانت الشمس قد عظم الانتفاع بها وقوام العالم من الحيوان والنبات بطلووعها وغروبها، جاز القسم التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٧

بها، ولما فيها من العبرة بنشء الضوء حتى تقوى تلك القوة العظيمة بإذن الله.

وقوله «وَضُحَاهَا» يعني ضحاها الشمس، وهو صدر وقت طلوعها، وضحي النهار صدر وقت كونه، قال الشاعر:

أعجلها اقدحى الضحاء ضحى وهى تناصى ذوائب السلم «١»

وأضحى يفعل كذا إذا فعله فى وقت الضحى، ويقال: ضحى بكبش أو غيره إذا ذبحه فى وقت الضحى من أيام الأضحى. ثم كثر حتى قيل لو ذبحه آخر النهار.

وقوله «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا» قسم آخر بالقمر وتلوه الشمس ووجه الدلالة من جهة تلو القمر للشمس من جهة المعاقبة على أمور مرتبة فى النقصان والزيادة، لأنه لا يزال ضوء الشمس ينقص إذا غاب جرمها، ويقوى ضوء القمر حتى يتكامل كذلك دائبين، تسخيراً من الله للعباد بما ليس فى وسعهم أن يجروه على شىء من ذلك المنهاج. وقال ابن زيد: القمر إذا اتبع الشمس فى النصف الاول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر بالطلع، وفى آخر الشهر يتلوها فى الغروب وقال الحسن «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا» أى يضىء نورها «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا» يعنى ليلة الهلال. وقيل: تلاها فى الضوء.

وقوله «وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا» قسم آخر بالنهار إذا جلاها يعنى الشمس بضوءها المبين بجرمها. وقيل معناه إذا جلا الظلمة، فالهاء كناية عن الظلمة، ولم يتقدم لها ذكر لأنه معروف غير ملتبس «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا» قسم آخر بالليل إذا يغشاها يعنى الشمس بظلمته عند سقوط الشمس.

وقوله «وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا» قال قتادة: معناه والسماء وبنائها جعل (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر. وقال مجاهد والحسن: معنى والسماء وما بناها والسماء

(١) قائلة النابغة الجعدى. اللسان (ضحاً)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٨

ومن بنى السماء وهو الله تعالى. وقوله «وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا» قسم آخر بالأرض وما طحها، ويحتمل ذلك وجهين: أحدهما- ان يكون المعنى والأرض وطحوها.

والثانى- والأرض ومن طحها، وهو الله تعالى ومعنى طحها بسطها حتى أمكن التصرف عليها. وقال مجاهد والحسن: طحها ودحاها واحد، بمعنى بسطها يقال طحا يطحو طحواً ودحا يدحو دحواً وطحها بك همك. ومعناه انبسط بك إلى مذهب بعيد، فهو يطحو بك طحواً قال علقمة:

طحها بك قلب فى الحسان طروب

ويقال: القوم يطحن بعضهم بعضاً عن الشىء أى يدفع دفعاً شديداً الانبساط والظواحي النسور تنبسط حول القتلى، وأصل الطحو البسط الواسع. وقوله «وَالنَّفْسِ وَمَا سَوَّاهَا» قسم آخر بالنفس وما سواها، وهو محتمل أيضاً لأمريين: أحدهما- ونفس وتسويتها، والثانى- ونفس ومن سواها، وهو الله تعالى. وقال الحسن يعنى بالنفس آدم ومن سواها الله تعالى. وقيل: ان (ما) فى هذه الآيات بمعنى (من) كما قال «فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ» «١» وإنما أراد (من) وقال ابو عمرو بن العلاء: هى بمعنى الذى، وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد: سبحان ما سبحت له بمعنى سبحان من سبحت له.

وقوله «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» قال ابن عباس ومجاهد و قتادة والضحاك وسفيان: معناه عرفها طريق الفجور والتقوى ورغبها فى

التقوى وزهداها في الفجور.

وقال قوم: خذلها حتى اختارت الفجور وألهمها تقواها بأن وفقها لها. وقوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» جواب القسم واللام مقدره، و تقديره لقد أفلح من زكاهها أي

(١) سورة النساء آية ٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٥٩

من زكى نفسه بالصدقة، وقد خاب من دساها وأخفى عن المتصدق. والمعنى قد أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح أو اجتناب المعصية- وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة- وقال قوم: معنا قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دساها نفسه وقوله «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» معناه قد خاب أي خسر من دس نفسه في معاصي الله منهمكاً في القبائح التي نهاه الله عنها. وقيل: معناه دساها بالبخل، لأن البخل يخفى نفسه ومنزله لئلا يطلب نائله، و دسا نفسه نقيض زكاهها بالعمل الصالح، وكذلك دساها بالعمل الفاسد حتى صيرها في محاق وخسران. ويقال دسا فلان يدسو دسواً و دسوة فهو داس نقيض زكا يزكو زكا فهو زاك. وقيل معنى دساها أي دسها بمعنى حملها ووضع منها بمعصية. وأبدل من أحدى السينين ياء، كما قالوا تظنيت بمعنى تظننت قال الشاعر:

تقضى البازي إذا الباري كسر «١»
بمعنى تقضض.

قوله تعالى: [سورة الشمس (٩١): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٣٥٩

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

ست آيات قرأ أهل المدينة و ابن عامر «فلا- يخاف» بالفاء وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة و أهل الشام. الباقون بالواو، وكذلك في مصاحفهم.

يقول الله تعالى مخبراً عن ثمود و هم قوم صالح «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا» قال

(١) مر في ١/ ٢٨٦ و ٧/ ٣٥٨ و ٨/ ١٤٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٠

ابن عباس: يعنى بعدابها أى بعداب الطاغية فأتاها ما كذبت به. وقال مجاهد: بمعصيتها- وهو قول ابن زيد- وهو وجه التأويل، و الطغوى و الطغيان مجاوزة الحد فى الفساد و بلوغ غايته، تقول: طغى يطغى إذا جاوز الحد، و منه قوله «لَمَّا طَغَى الْمَاءُ» «١» أى لما تجاوز المقدار على ما جرت به العادة و كثر. وقوله «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا» أى كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود، و قيل اسمه قدار بن سالف.

وقال قوم: عقر الناقة هو تكذيبهم. وقيل: لا، بل هو غيره. وقيل: كانوا أقروا بأن لها شرباً و لهم شرب غير مصدقين بأنه حق. و الشقاء شدة الحال فى مقاساة الآلام، فالاشقا هو الأعظم شقاء، و نقيض الشقاء السعادة، و نقيض السعد النحوس يقال: شقى يشقى شقاء، فهو شقى نقيض سعيد، و أشقاه الله اشقاء.

وقوله «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ» يعنى صالحاً، فانه قال لهم: ناقه الله و تقديره فاحذروا ناقه الله، فهو نصب على الإغراء كما تقول: الأسد الأسد، أى احذره «وَسُقْيَاهَا» فالسقاء الحظ من الماء. و هو النصيب منه، كما قال تعالى «لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ» «٢» و

السقى التعريض للشرب.

وقوله «فَكَذَّبُوهُ» أى كذب قوم صالح صالحاً و لم يلتفتوا إلى قوله، «فَعَقَرُوهَا» يعنى الناقة. فالعقر قطع اللحم بما يسيل الدم عقره يعقره عقراً فهو عاقر، و منه عقر الحوض و هو أصله، و العقر نقض الشىء عن أصل بنية الحيوان، و عاقر الناقة أحمر ثمود، و هم يروه و كلهم رضوا بفعله. فعمهم البلاء بأن عاقبهم الله تعالى لرضاهم بفعله. و قوله «فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا» معناه أهلكتهم الله تعالى عقوبة على ذنبهم من تكذيب صالح و عقر الناقة. و قيل: معنى دمدم عليهم دمر

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٥٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦١

عليهم. و قيل: معناه أطبق عليهم بالعذاب. يقال دمدمت على الشىء إذا ضيقت عليه، و ناقة دمدمة قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الاطباق قلت دمدمت. و قيل «فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ» أى غضب عليهم، فالدمدمة ترديد الحال المتكرهه، و هى مضاعفة ما فيه المشقة، فضعف الله تعالى على ثمود العذاب بما ارتكبوا من الطغيان.

و قوله «فَسَوَّاهَا» أى جعل بعضها على مقدار بعض فى الاندكاك و اللصوق بالأرض، فالتسوية تصيير الشىء على مقدار غيره.

و قوله «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا» قال ابن عباس و الحسن و قتادة و مجاهد: معناه لا يخاف الله تعالى تبعه الدمدمه. و قال الضحاك: معناه لم يخف الذى عقرها عقباها و العقبى و العاقبة واحد، و هو ما أدى اليه الحال الأولى، قال ابو على: من قرأ بالفاء فللعطف على قوله «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا» فلا يخاف كأنه تبع تكذيبهم عقروهم أى لم يخافوا. و من قرأ (ولا) بالواو جعل الجملة فى موضع الحال، و تقديره فسواها غير خائف عقباها أى غير خائف أن يتعقب عليه فى شىء مما فعله.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٢

٩٢-سورة الليل ص: ٣٦٢

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك و هى إحدى عشرون آية بلا خلاف

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ١٣] ص: ٣٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)
فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَ اتَّقَى (٥) وَ صَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَّتهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى (٨) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)
فَسَنِيَّتهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَ إِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولَى (١٣)
ثلاث عشرة آية.

هذا قسم من الله تعالى بالليل إذا غشيه الظلام، فأظلم و ادلهم و غشى الأنام لما فى ذلك من الهول المحرك للنفس بالاستعظام.

ثم اقسام بالنهار إذا تجلّى، و معناه إذا أنار و ظهر للابصار لما فى ذلك من الاعتبار. و قيل التقدير و الليل إذا يغشى النهار، فيذهب بضوئه «و النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى» أى جلّى الليل، فأذهب ظلمته، ذكره الحسن. و الغشى إلباس الشىء ما يغمر و يستر جملته، و إنما كرر

ذكرهما في السورتين لعظم شأنهما، و جلاله موقعهما في باب التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٣
الدلالة على توحيد الله - ذكره قتادة -.

وقوله «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى» للتناسل بينهما. ويحتمل أن يكون المراد و من خلق الذكر و الأنثى، و في قراءة عبد الله «و الذي خلق الذكر و الأنثى» لان (ما) بمعنى الذي، و هو الله، فيكون القسم بالله. و على الأول يكون القسم بخلق الله. و قيل: المراد بالذكر و الأنثى آدم و حواء عليهما السلام.

وقوله «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى» جواب للقسم، و معناه إن سعيكم لمختلف، فسعى المؤمن خلاف سعى الكافر. و معنى «شتى» أى متفرق على تباعد ما بين الشيتين جداً، و منه شتان أى بعد ما بينهما جداً كبعد ما بين الثرى و الثريا. و يقال: شتت أمر القوم و شتتهم ريب الزمان.

وقوله «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى» معناه من أعطى حق الله و اتقى محارم الله - ذكره قتادة - «وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى» قال ابن عباس و عكرمة: و صدق بالخلف.

و قال الضحاك: صدق بتوحيد الله، و قال مجاهد و الحسن: يعنى صدق بالجنة. و قال قتادة: بوعد الله، و الحسنى النعمة العظمى بحسن موقعها عند صاحبها، و هذه صفة الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين و حرمة من كذب بها.

وقوله «فَقَسِيْرٌ لِّیُسْرَى» معناه يسهل عليه الأمر، فالتيسير تصيير الأمر سهلاً. و مثله التسهيل و التخفيف، و نقيض التيسير التعسير و هو تصيير الامر صعباً.

و اليسير نقيض العسير، يقال: أيسر إذا كثر ماله يوسر ايساراً. و تقديره فسيسره للحال اليسرى، فلذلك أنث فحال اليسير اليسرى، و حال العسير العسرى.

و التيسير لليسرى يكون بأن يصيرهم إلى الجنة. و التيسير للعسرى بأن يصيرهم إلى النار. و يجوز أن يكون المراد بالتمكين من سلوك طريق الجنة، و التمكين من سلوك طريق النار. و معناه إنا لسنا نمنع المكلفين من سلوك أحد الطريقتين و لا نضطرهم التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٤

إليه، و إنما نمكنهم بالإقرار عليهما و رفع المنع، و الترغيب في إحداهما، و التهديد في الأخرى. فان احسن الاختيار اختار ما يؤديه إلى الجنة. و إن أساء فاختار ما يؤدي به إلى النار فمن قبل نفسه أتى.

وقوله «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى» يعنى به من منع حق الله الذي أوجب عليه من الزكاة و الحقوق الواجبة في ماله، و استغنى بذلك و كثر ماله، فسيسره للعسرى يعنى طريق النار. و قد بينا كيفية تيسير الله لذلك من التمكين أو التصيير فلا حاجة لإعادته. و العسرى البلية العظمى بما تؤدي إليه، و نقيضها اليسرى، و هو مأخوذ من العسر و اليسر، فحال العسر العسرى و حال اليسر اليسرى، و ذكره الأيسر، و الأمر الأعسر. و قال الفراء: المعنى فسيسره للعود إلى الصالح من الاعمال و نيسره من الاعمال للعسرى على مزوجة الكلام. و الأولى أن تكون الآيتان على عمومهما في كل من يعطى حق الله، و كل من يمنع حقه، لأنه ليس - هاهنا - دليل قاطع على أن المختص بها إنسان بعينه، و قد

روى أنها نزلت في أبى الدحداح الانصارى، و سمره بن حبيب

، و روى في ذلك قصة معروفة. و روى في غيره.

وقوله

«وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» معناه أى شىء يغنى عن هذا الذى بخل بماله، و لم يخرج حق الله منه «إِذَا تَرَدَّى» يعنى فى نار جهنم - فى قول قتادة و أبى صالح - و هو المروى عن أبى جعفر عليه السلام.

و قال مجاهد: معناه إذا مات.

و قال قوم: معناه «إِذَا تَرَدَّى» في القبر أى شىء يغنيه. و قيل «إِذَا تَرَدَّى» في النار فما الذى يغنيه.
 و قوله «إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى» قال قتاده معناه إن علينا لبيان الطاعة من المعصية و قيل فى قوله «إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى» دلالة على وجوب هدى
 المكلفين إلى الدين، و انه التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٥
 لا يجوز إضلالهم منه. و قوله «وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ» معناه الاخبار من الله بأن له دار الآخرة و الجزء فيها على الأعمال، و الامر و النهى ليس
 لاحد سواه، لان دار الدنيا قد ملك فيها أقواماً التصرف، و قوله «وَالأُولَى» معناه و إن لنا الأولى ايضاً يعنى دار الدنيا. فانه الذى خلق
 الخلق فيها، و هو الذى مكنهم من التصرف فيها و هو الذى ملكهم ما ملكهم، فهى ايضاً ما له على كل حال.

قوله تعالى: [سورة الليل (٩٢): الآيات ١٤ الى ٢١] ص: ٣٦٥

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨)
 وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)
 ثمان آيات.

قوله «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى» وعيد من الله تعالى للمكلفين. تقول خوفتكم المعاصى التى تؤديكم إلى نار تلتطى.
 و قرأ ابن كثير «ناراً تلتطى» بتشديد التاء ادغم احدى التاءين فى الأخرى، لادن الأصل تلتطى. و قيل: انه ادغم نون التنوين فى التاء.
 الباقون بالتخفيف فحدفوا احدى التاءين. و التلتطى تلهب النار بشدة الإيقاد تلتطى النار تلتطى تلتطى و لظى اسم من اسماء جهنم.
 و قوله «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ» و قصر عما أمرته كما تقول: لقي فلان العدو فكذب: إذا نكل و رجع - ذكره الفراء - فكانه
 كذب فى الطاعة أى لم يتحقق. و قال المفسرون فيها قولان: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٦
 أحدهما - الانذار بنار هذه صفتها، و هى درك مخصوص من أدراك جهنم فهى تختص هذا المتوعد الذى كذب بآيات الله و جحد
 توحيد «وَتَوَلَّى» عنها بأن لم ينظر فيها أو رجع عنها بعد أن كان نظر فيها فصار مرتداً. و الثانى محذوف لما صحبه من دليل الآى
 الاخر، كأنه قال و من جرى مجراه ممن عصى، فعلى هذا لا متعلق للخوارج فى أن مرتكب الكبيرة كافر.
 و قوله «وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى» معناه سيبعد من هذه النار من كان اتقى الله باجتناى معاصيه «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ» أى يعطى ماله «يَتَزَكَّى»
 يطلب بذلك طهارة نفسه، فالتجنب تصيير الشىء فى جانب عن غيره، فالاتقى يصير فى جانب الجنة عن جانب النار يقال: جنبه الشر
 تجنبياً و تجنب تجنباً و جانبه مجانبة، و رجل جنب، و قد اجنب إذا أصابه ما يجانب به الصلاة حتى يغتسل.
 و قوله «وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى» معناه ليس ذلك ليد سلفت تكافى عليها و لا ليد يتخذها عند أحد من العباد. و قوله «إِلَّا ابْتِغَاءً
 وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى» معناه بل إنما فعل ذلك طلب رضوان الله، و ذكر الوجه طلباً لشرف الذكر. و المعنى إلا ابتغاء ثواب الله و طلب
 رضوانه. و قوله «وَ لَسَوْفَ يَرْضَى» معناه إن هذا العبد الذى فعل ما فعله لوجه الله سوف يرضى بما يعطيه الله على ذلك من الثواب و
 جزيل النعيم يوم القيامة.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٧

٩٣- سورة الضحى ص: ٣٦٧

إشارة

مكية فى قول ابن عباس الضحاك، و هى إحدى عشرة آية بلا خلاف

[سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالصُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤)
 وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا
 تَقْهَرْ (٩)
 وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)
 احدى عشرة آية.

روى أن عروة ابن الزبير قرأ «ما ودعك ربك» بالتخفيف من قولهم:
 ودع يدع أى ترك يترك، و هو قليل، لان سيويه قال: استغنوا ب (ترك) عن (ودع) فلم يستعملوه. الباقون بالتشديد.
 هذا قسم من الله تعالى بالضحى، و هو صدر النهار، و هو الضحى المعروف- فى قول قتادة- و قال الفراء: هو النهار كله من قولهم:
 ضحى فلان للشمس إذا ظهر لها. و فى التنزيل «وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى» «١».

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٨

وقوله (وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى) قسم آخر، و قال الحسن: معنى (سجى) غشى بظلامه. و قال قتادة: معنى (سجى) سكن و هذا من قولهم:
 بحر ساج أى ساكن، و به قال الضحاك، يقال: سجا يسجو سجواً إذا هدئ و سكن، و طرف ساج قال الأعشى:
 فما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم و بحرك ساج لا يوارى الدعا مصا «١»
 و قال الراجز:

يا حبذا القمراء و الليل الساج و طرق مثل ملاء الساج «٢»

وقوله (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) جواب القسم. و قيل: إنه لما تأخر عنه الوحي خمس عشرة ليلة، قال قوم من المشركين: و دع الله
 محمداً و قلاه. فانزل الله تعالى هذه السورة تكديباً لهم و تسلياً للنبي صلى الله عليه و آله، لأنه كان اغتم بانقطاع الوحي عنه- ذكره
 ابن عباس و قتادة و الضحاك- و معنى (ما ودعك) ما قطع الوحي عنك، و معنى (قلى) أبغض- فى قول ابن عباس و الحسن و ابن
 زيد- و القالى المبغض يقال: قلاه يقلاه فلا إذا أبغضه. و العقل دال على انه لا يجوز ان يقلى الله احداً من أنبيائه. و التقدير ما قلاك،
 فحذف الكاف للدلالة الكلام عليه، و لأن رؤس الآى بالياء، فلم يخالف بينها، و مثله (فآوى، و فهدى، و فأغنى) لأن الكاف فى جميع
 ذلك محذوفة، و لما قلناه.

وقوله (وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) خطاب للنبي صلى الله عليه و آله يقول الله تعالى له إن ثواب الآخرة و النعيم الدائم فيها خير
 لك من الأولى يعنى من الدنيا، و الكون فيها لكونها فانية. قال ابن عباس: له فى الجنة ألف قصر من اللؤلؤ ترابه المسك، و فيه من
 كل ما يشتهى على أعم الوصف.

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ٢٠ و ديوانه ١٠٠

(٢) مجاز القرآن ٣ / ٣٠٢ و اللسان (سجى) و الكامل ٢٤٤ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٦٩

وقوله (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) وعد من الله له أن يعطيه من النعيم و الثواب و فنون النعم ما يرضى النبي صلى الله عليه و آله
 به و يؤثره.

ثم عدد عليه النعمة في دار الدنيا فقال (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) ومعناه تقريره على نعم الله عليه حين مات أبوه وبقى يتيمًا فأواه بأن سخر له عبد المطلب أولاً، ولما مات عبد المطلب آواه إلى أبي طالب، وسخره للاشفاق عليه والحنين على حفظه ومراعاته. وقوله «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» قيل في معناه أقوال:

أحدها- وجدك لا تعرف الحق فهداك اليه بأن نصب لك الأدلة وأرشدك اليها حتى عرفت الحق، وذلك من نعم الله. وثانيها- وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة، فهداك اليها وثالثها- وجدك في قوم ضلال أي فكأنك واحد منهم. ورابعها- وجدك مضلولا عنك فهدى الخلق إلى الإقرار بنبوتهك والاعتراف بصدقك فوجدك ضالاً بمعنى مضلول كما قيل ماء دافق بمعنى مدفوق، و سر كاتم بمعنى مكتوم.

وخامسها- أنه لما هاجر إلى المدينة ضل في الطريق، و ضل دليله فأرشدهم الله الى الطريق الواضح حتى وصلوا فإذا قيل: السورة مكية أمكن أن يقال: المراد بذلك الاستقبال والاعلام له أنه يكون هذا على وجه البشارة له به، ولم يكن فعلا له معصية، لأنه ليس ذهاباً عما كلف.

وقوله (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) فالعائل الفقير، وهو ذو العيلة من غير جدء عال يعيل عيلة إذا كثر عياله و افتقر قال الشاعر: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٠

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل «١»

أي متى يفتقر. وقيل ان ذكر النعم من المنعم يحسن على وجهين:

أحدهما- التذكير للشكر و طلب الزيادة منها فهذا جود و كرم.

والآخر- عند كفر المنعم عليه، فهذا التذكير على الوجه الاول.

وقوله (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) أي لا تقهره لظلمه بأخذ ماله فكذلك من لا ناصر له لا تغلظ في أمره، والخطاب متوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو نهى لجميع المكلفين وقيل: معناه لا تقهره على ماله.

وقوله (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) فالانتهاز هو الصياح في وجه السائل الطالب للرفد، يقال: نهره و انتهره بمعنى واحد، وهو متوجه إلى جميع المكلفين.

وقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) معناه اذكر نعم الله وأظهرها وتحدث بها.

وقد قيل: من شكر النعمة الحديث بها.

فان قيل: في هذا و نظائره مما عدده الله على خلقه من النعم و امتنانه عليهم كيف يمنن الله تعالى على خلقه بالنعم و ذلك من فعل النجل، لان الواحد منا لو من على غيره بما يسدى اليه كان مقبحاً؟! قيل: إنما يقبح الامتنان إذا كان الغرض الإضرار بالنعم عليه و التفضيل به، فاما إذا كان الغرض تعريف النعمة و تعديدها و إعلامه وجوها ليقابلها بالشكر فيستحق به الثواب والمدح، فانه نعمة اخرى و تفضل آخر يستحق به الشكر فبطل ما قالوه.

(١) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٢ و قد مر في ٣/ ١٠٩ و ٥/ ٢٣٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧١

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي ثمان آيات بلا خلاف

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)
ثمان آيات.

روى أصحابنا ان أ لم نشرح من الضحى سورة واحدة لتعلق بعضها ببعض و لم يفصلوا بينهما ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) و أوجبا قراءتهما في الفرائض في ركعة و ألا- يفصل بينهما. و مثله قالوا في سورة (أ لم تر كيف) و (الإيلاف) و في المصحف هما سورتان فصل بينهما ببسم الله.

و المعنى بهذه الآيات تعداد نعم الله تعالى على النبي صلى الله عليه و آله في الامتنان بها عليه فقال (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) فالشرح فتح الشيء باذهاب ما يصد عن إدراكه فالله تعالى قد فتح صدر نبيه باذهاب الشواغل التي تصد عن إدراك الحق و تعظيمه بما يجب له. و منه قول القائل: اشرح صدرى لهذا الأمر. و شرح فلان كتاب كذا، و منه تشريح اللحم إذا فتحه و رققه. و منه قوله (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٢
لِلْإِسْلَامِ

«١». و قال البلخي: كان النبي صلى الله عليه و آله ضاق صدره بمغاضبة الجن و الانس له فاتاه الله من آياته و وعده ما اتسع قلبه لكل ما حملة الله و أمره به. و قال الجبائي:

شرح الله صدره بأن فعل له لطفاً بسنن منه إلى ما كلفه الله و سهل عليه، و كان ذلك ثواباً على طاعته لا يجوز فعله بالكفار، و عكسه ضيق الصدر كما قيل في قوله (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) «٢» و الصدر الموضع الأرفع الذي فيه القلب، و منه أخذ صدر المجلس تشبيهاً بصدر الإنسان.

و صدرته بكذا إذا جعلته في أول كلامك. و الصدر لأن الأوامر تصدر عنه.

و صدره إذا أخذ ما يصدر عنه و الأصل الانصراف عن الشيء.

و قوله (وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ) قال الحسن: يعنى بالوزر الذي كان عليه في الجاهلية قبل النبوة. و قال مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد: يعنى ذنبك. قالوا:

و إنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع انها صغائر مكفرة لشدة اغتمامهم بها و تحسرهم على وقوعها مع ندمهم عليها. و هذان التأويلان لا يصحان على مذهبنا، لان الأنبياء عليهم السلام لا يفعلون شيئاً من القبائح لا قبل النبوة و لا بعدها و لا صغيرة و لا كبيرة، فإذا ثبت هذا، فمعنى الآية هو أن الله تعالى لما بعث نبيه و أوحى اليه و انتشر أمره و ظهر حكمه كان ما كان من كفار قومه و تتبعهم لأصحابه باذاهم له و تعرضهم إياهم ما كان يغمه و يسؤه و يضييق صدره و يثقل عليه، فأزال الله ذلك بأن أعلى كلمته و أظهر دعوته و قهر عدوه. و أنجز وعده و نصره على قومه، فكان ذلك من أعظم المنن و أجزل النعم.

فإذا قيل: السورة مكية، و كان ما ذكرتموه بعد الهجرة؟!

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٢٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٣

قيل: ليس يمنع أن يكون الله أخبره بأن ذلك سيكون فيما بعد ليبشره به و يسليه عما هو عليه فجاء بلفظ الماضي و أراد الاستقبال، كما قال (وَ نَادَى أَصِيْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ) «١» و كما قال (وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ) «٢» و الوزر الثقل فى اللغه، و منه اشتق اسم الوزير لتحمله أثقال الملك. و إنما سميت الذنوب أوزاراً لما فيها من العقاب العظيم.

و قوله (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) نعت للوزر، و وصفه بأنه انقض ظهره بمعنى أثقله، و الانقاض الأثقال الذى ينتقض به ما حمل عليه، أنقض ينتقض انقاضاً و النقض و الهدم واحد، و نقض المذهب إبطاله بما يفسده. و قال الحسن و مجاهد و قتادة و ابن زيد: معنى انقض أثقل، و بغير نقض سفر إذا أثقله السفر.

و قوله (وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) قال الحسن و مجاهد و قتادة: معناه إنى لا اذكر إلا ذكرت معى يعنى ب (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه و آله).

و قوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) يدل على أن التأويل فى قوله (وَ وَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ) ما قلناه، لأن الله بشره أنه يكون مع العسر يسراً و روى عن ابن عباس أنه قال: لن يغلب عسر واحد يسرين، لأنه حمل العسر فى الآيتين على انه واحد لكونها بالألف و اللام، و اليسر منكر فى تشبيه الفائدة، و الثانى غير الاول، و العسر صعوبة الامر و شدته، و اليسر سهولته.

ثم قال له (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) قال ابن عباس: معناه فإذا فرغت من فرضك فانصب الى ما رغبتك الله فيه من العمل. و قال قتادة: معناه فإذا فرغت من صلواتك فانصب الى ربك فى الدعاء. و قال مجاهد: معناه فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب الى عبادة ربك. و معنى (فَانصَبْ) ناصب يقال: ناله هم ناصب أى ذو

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣

(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٤

نصب. و يقال: أنصبتى الهم فهو منصب قال الشاعر:

تعناك هم من أميمه منصب «١»

و قال النابغة:

كلينى لهم يا اميمه ناصب «٢»

أى فيه نصب كقوله (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) «٣» أى ذات رضى. و الخطاب و إن كان متوجهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله فالمراد به جميع المكلفين من أمته، و الفراغ انتفاء كون الشىء المضاد لكون غيره فى المحل. و نقيضه الشغل، و هو كون الشىء المضاد فى المحل و منه أخذ شغل الافعال، و لهذا لا يوصف تعالى بأنه يشغله شىء عن شىء، لأنه تعالى يخترع ما شاء من الافعال.

و قوله (وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) حث له على الرغبة فى الطلب من الله تعالى دون غيره.

(١) مر فى ٨ / ٥٦٧

(٢) مر فى ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٥ ٣٢٩ و ٨ / ١٢٢، ٥٦٧

(٣) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ و سورة ١٠١ القارعة آية ٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٥

٩٥-سورة التين ص: ٣٧٥

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي ثمان آيات بلا خلاف

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سَيْنِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ
بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)
ثمان آيات.

هذا قسم من الله تعالى بالتين والزيتون، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة: هو التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس. قال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام، وكان صاحب تفسير، قال: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان، والزيتون الذي يعصر (وَطُورِ سَيْنِينَ) هو قسم آخر. وقال مجاهد وقتادة (الطور) جبل. و (سَيْنِينَ) معناه مبارك، فكأنه قيل: جبل فيه الخير الكثير، لأنه أضافه إضافة تعريف. وقال الحسن: طُورِ سَيْنِينَ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، فهو عظيم التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٦

الشأن. وقيل: سَيْنِينَ بمعنى حسن، لأنه كثير النبات والشجر- في قول عكرمة- وقوله (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) قسم آخر، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وإبراهيم: البلد الأمين مكة، والأمين بمعنى آمن، كما قال الله تعالى (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا) «١» قال الشاعر:

ألم تعلمي يا اسم ويحك انني حلفت يميناً لا أخون أميني «٢»

يريد أمني، وقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) جواب القسم قال ابن عباس: خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم منتصب القامة وسائر الحيوان منكب. وقال الفراء: معناه إنا لنبلغ بالأدنى أحسن تقويمه، وهو اعتداله واستواء شبابه، وهو أحسن ما يكون. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: معناه في أحسن صورة والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل، قومه تقويماً فاستقام، وتقوم.

وقوله (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) قال ابن عباس وإبراهيم وقتادة: معناه إلى أرذل العمر، وقال الحسن ومجاهد وابن زيد: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة ثم استثنى من جملتهم (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى وأخلصوا العبادة له (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي وأضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات، وبين أن من هذه صفته (فَلَهُمْ أَجْرٌ) أي ثواب على طاعتهم (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي غير منقوص. وقيل غير مقطوع، وقال مجاهد: غير محسوب، وقيل غير مكدر بما يؤدي ويغم.

وقوله (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) معناه أي شيء يكذبك أيها الإنسان بعد هذه الحجج بالدين الذي هو الجزاء. وقال قتادة: معناه فمن يكذبك أيها الإنسان

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٧

(٢) تفسير القرطبي ١١٣/٢٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٧

بعدها بالدين الذي هو الجزاء والحساب، وهو قول الحسن وعكرمة.

وقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) تقرير للإنسان على الاعتراف بأنه تعالى أحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً، لأنه لا خلل فيه ولا اضطراب يخرج عما تقتضيه الحكمة وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة في أن الله يخلق الظلم والفساد. والحكم الخبر بما فيه فائدة بما تدعو إليه الحكمة، فإذا قيل: حكم جائر فهو بمنزلة حجة داحضة مجازاً بمعنى أنه حكم عند صاحبه كما أنها حجة عنده، وليست حجة في الحقيقة. وقيل:

المعنى أى شىء يكذبك بالدين، ويحملك على جحد الجزاء يوم القيامة وأنا أحكم الحاكمين. وروى عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) قال: سبحانك اللهم بلى، و

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (إذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها فليقل: بلى).

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٨

٩٦-سورة العلق ص: ٣٧٨

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آية في الكوفي والبصري وعشرون في المدنيين

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٣٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)
 عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيْقَى (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩)
 عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)
 عشر آيات.

روى عن عائشة ومجاهد وعطاء وابن سيار: ان أول آية نزلت قوله (أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) وهو قول أكثر المفسرين. وقال قوم: أول ما نزل قوله (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وقد ذكرناه فيما مضى.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ان يقرأ باسم ربه الذى خلق الخلق، و أن يدعو بأسمائه الحسنی. و فى تعظيم الاسم تعظيم المسمى، لأن الاسم وصف ليذكر به المسمى بما لا سبيل إلى تعظيمه إلا بمعناه، فلهذا لا يعظم اسم الله حق التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٧٩

تعظيمه إلا من هو عارف به و معتقد لعبادة ربه، فهو معتقد بتعظيم المسمى لا وجه له يعتد به إلا تعظيم المسمى، و لهذا قال الله تعالى (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) «١» و قال (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ) «٢» و قال الله تعالى (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) «٣» و الباء زائدة، و تقديره اقرأ اسم ربك.

و قوله (الذى خلق) فى موضع جر، نعت ل (ربك) الذى خلق الخلائق و أخرجهم من العدم إلى الوجود. و قوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) تخصيص لبعض ما ذكره بقوله (الذى خلق) لأنه يشتمل على الإنسان وغيره، و إنما أفرد الإنسان بالذكر تشريفاً له و تنبيهاً على ما خصه الله به من سائر الحيوان، و بين أنه مع ذلك خلقه الله من علق، و هو القطعة الجامدة من الدم، و إنما قال (علق) و هو جمع

علقة لأن المراد بالإنسان الجمع، لأنه اسم جنس، وسمى به قطع الدم التي تعلق لرطوبتها بما تمر به، فإذا جفت لا تسمى علقاً، وواحدها (علقة) مثل شجرة و شجر. و علق في معنى الجمع، لان الإنسان جمع على طريق الجنس، و النطفة تستحيل في الرحم علقه ثم مضغه و يسمى ضرب من الدود الأسود العلق، لأنه يعلق على الشفتين لداء يصيبها فيمتص الدم. و في خلق الإنسان من علق دليل على ما يصح أن ينقلب اليه الجوهر.

وقوله (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) معناه اقرأ القرآن و ربك الأكرم و معنى الأكرم:

الأعظم كرمًا و في صفة الله تعالى معناه الأعظم كرمًا بما لا يبلغه كرم، الذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه، لأنه يعطى من النعم ما لا يقدر على مثله غيره، فكل نعمة من جهته تعالى، إما بأن اخترعها أو سببها و سهل الطريق إليها.

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ١١٠

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥٢

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٧٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٠

وقوله (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) (الذي) في موضع رفع، لأنه نعت لقوله (و ربك) و المعنى إنه تعالى امتن على خلقه بما علمهم من كيفية الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه، فقد نوه الله بذكر القلم إذ ذكره في كتابه، و قد وصف بعض الشعراء القلم فقال:
لعاب الافاعي القاتلات لعابه و أرى الجنا اشتارته أيد عواسل

وقوله (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) امتنان من الله تعالى على خلقه بأن علمهم ما لم يكونوا عالمين به إما بخلق العلوم في قلوبهم من الضروريات أو بنصب الأدلة لهم على الوصول إليها فيما لم يعلموه ضرورة، و ذلك من أعظم نعم الله تعالى على خلقه. و في ذلك دلالة على انه تعالى عالم لان العلم لا يقع إلا من عالم.

وقوله (كلا) ردع و زجر و تقديره ارتدعوا و انزجروا معاشر المكلفين، ثم اخبر (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ) و يحتمل أن يكون بمعنى حقاً على وجه القسم بأن الإنسان ليطغى أى ليجاوز الحد في العصيان و الخروج عن الطاعة (أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى) أى إذا كثر ماله و استغنى بطر و طغى، و خرج عن الحد المحدود له، و يجوز أن يقال: زيد رآه استغنى من الرؤية بمعنى العلم، و لا يجوز من رؤية العين، زيد (رآه) حتى تقول رأى نفسه، لان الذي يحتاج إلى خبر جاز فيه الضمير المتصل لطول الكلام بلزوم المفعول الثاني. و قرأ ابو عمرو (رآه) بفتح الراء و كسر الهمزة.

و قرأ نافع و حفص عن عاصم بالفتح فيهما. الباقون بفتح الراء و بعد الهمزة الف على وزن (وعاه) على إمالة الفتحة، و ابو عمرو يميل الالف.

ثم قال على وجه التهديد لهم (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ)

فالرجعى و المرجع و الرجوع واحد أى مصيرهم و مرجعهم إلى الله فيجازيهم الله على أفعالهم على الطاعات بالثواب، و على المعاصى بالعقاب. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨١

وقوله (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ) تقرير للنبي صلى الله عليه و آله و إعلام له ما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة. و قيل: إن الآيات نزلت في أبى جهل بن هشام، و المراد بالعبد في الآية النبي صلى الله عليه و آله

فان أبا جهل كان ينهى النبي صلى الله عليه و آله عن الصلاة و كان النبي صلى الله عليه و آله لما قال ابو جهل: أ لم أنهك عن الصلاة انتهره و اغلظ له، فقال أبو جهل، أنا اكثر أهل هذا الوادى نادياً- ذكره ابن عباس و قتادة-

و المعنى أ رأيت يا محمد صلى الله عليه و آله من فعل ما ذكرناه من منع الصلاة، و ينهى المصلين عنها؟

ما ذا يكون جزاؤه؟ و ما يكون حاله عند الله؟ و ما الذى يستحقه من العقاب؟.

قوله تعالى: [سورة العلق (٩٦): الآيات ١١ الى ١٩] ص: ٣٨١

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
لَنَشْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ (١٥)

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)
تسع آيات.

لما قال للنبي صلى الله عليه و آله (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عِبْدًا إِذَا صَلَّىٰ) بين ما ينبغى أن يقال له فانه يقال له (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ) هذا الذى صلى (عَلَى الْهُدَىٰ) و الطريقة الصحيحة (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ) أى بأن يتقى معاصى الله كيف يكون حال من ينهاه عن الصلاة و يزجره عنها؟! ثم قال للنبي صلى الله عليه و آله (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) بما يقال له و أعرض عن قبوله. و الإصغاء اليه (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) أى يعلم ما يفعله و يدرك ما يصنعه، فالهدى البيان عن الطريق المؤدى إلى الغرض الحكيم يقال: التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٢

هداه إلى الحق فى الدين يهديه هدى، و العمل بالبيان عن طريق الرشد هدى، و كذلك باللطف فيه. و التقوى تجنب ما يؤدى إلى الردى، اتقاه اتقاء و تقوى و الأصل وقياً. فأبدلت الواو تاء، و الياء واواً، لأن التاء أحسن أولاً من الواو مع مناسبتها بالقرب و امتناع المخرج، و التقدير أَرَأَيْتَ الذى فعل هذا الفعل ما الذى يستحق بذلك من الله من العقاب. ثم قال على وجه التهديد (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ) عن هذا الفعل و القول (لَنَشْفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ) أى لنغيرن بها إلى حال تشويهه، يقال:

سفعته النار و الشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تشويهه، و قيل: هو أن يجرب بناصيته إلى النار، و الناصية شعر مقدم الرأس. و هو من ناصى يناصرى مناصاة إذا واصل قال الراجز:

قَيَّ يَنَاصِيهَا بِلَادِ قَيِّ (١)

فالناصية متصله بشعر الرأس. و قوله (ناصية) بدل من (الناصية) بدل النكرة من المعرفة و وصفها بأنها (كَادِيَةٌ خَاطِئَةٌ) و منعاه أن صاحبها كاذب فى أقواله خاطئ فى أفعاله و أضاف الفعل اليها لما ذكر الخبر بها. و قوله (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) و عيّد للذى قال: أنا أكثر هذا الوادى نادياً بأن قيل له (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) إذا حل عقاب الله به. و قال ابو عبيدة: تقديره، فليدع أهل ناديه، كقوله (وَ شِئْلِ الْقَرِيَّةِ) «٢» و النادى الفناء و منه قوله (وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرِ) «٣» ثم قال «سَنَدْعُ» نحن (الزَّبَانِيَةَ) يعنى الملائكة الموكلين بالنار- فى قول ابن عباس و قتادة و مجاهد و الضحاك- و قال ابو عبيدة: واحد الزبانية زبينة، و قال الكسائى واحدهم زبنى.

و قال الأخفش: واحدهم زابن. و قيل: زبينة. و يجوز أن يكون اسماً للجمع مثل

(١) مرفى ١١ / ٦ و ١١ / ٩، ٤٧٧، ٥٠٨ [.....]

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢

(٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٣

أبائيل، و الزبن الدفع، و الناقة تزبن الحالب أى تركضه برجلها، و قال الشاعر:

و مستعجب مما يرى من أناتنا و لو زبنته الحرب لم يترمرم

ثم قال (كَلَّا) أى ارتدع و انزجر ف (لَا تَطَّعُهُ) أى لا تطع هذا الكافر، فانه ليس الامر على ما يظن هذا الكافر و هو أبو جهل الذى نزلت

الآيات فيه «وَاسْجُدْ» لله تعالى و أطعه «وَاقْتَرِبْ» من ثوابه بطاعته. و قيل: معناه تقرب اليه بطاعته دون الرياء و السمعة. و السجود- هنا- فرض و هو من العزائم، و هى أربعة مواضع: ألم تنزيل، و حم السجدة، و النجم، و اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ. و ما عداها فى جميع القرآن مسنون ليس بمفروض. و فيه خلاف ذكرناه فى الخلاف.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٤

٩٧-سورة القدر ص: ٣٨٤

إشارة

مدنية فى قول الضحاك. و قال عطاء الخراسانى هى مكية، و هى خمس آيات بلا خلاف.

[سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥] ص: ٣٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥)

خمس آيات قرأ الكسائى و خلف «مطلع الفجر» بكسر اللام على معنى وقت طلوعه.

الباقون بالفتح على المصدر، و روى عن ابن عباس انه قرأ «من كل امرئ» بمعنى من الملائكة. الباقون «من كل أمر» بمعنى الواحد من الأمور.

يقول الله تعالى مخبراً انه أنزل القرآن فى ليلة القدر، فالهاء كناية عن القرآن، و إنما كنى عما لم يجر له ذكر، لأنه معلوم لا يشتهبه الحال فيه. و قال ابن عباس:

أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر، و قال الشعبى: إنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر، و ليلة القدر هى الليلة التى يحكم الله فيها و يقضى بما يكون فى السنة بأجمعها من كل أمر- فى قول الحسن و مجاهد- يقال: قدر الله هذا الأمر يقدره قدرًا إذا جعله على مقدار ما تدعو اليه الحكمة. و قيل: فسر الله تعالى ليلة التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٥

القدر بقوله «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (١) و قيل: سميت ليلة القدر لعظم شأنها و جلاله موقعها من قولهم: فلان له قدر و الأول أظهر، و ليلة القدر فى العشر الأواخر من شهر رمضان بلا خلاف، و هى ليلة الأفراد بلا خلاف، و قال أصحابنا: هى احدى الليلتين إما ليلة احدى و عشرين أو ثلاث و عشرين، و جوز قوم: أن يكون سائر ليالى الأفراد احدى و عشرين و ثلاث و عشرين، و خمس و عشرين، و سبع و عشرين و تسع و عشرين، و جوزوا أيضاً تقديمها فى سنة و تأخيرها فى أخرى، و إنما لم تعين هذه الليلة ليتوفر العباد على العمل فى سائر الليالى. و القدر كون الشىء على مساواة غيره من غير زيادة و لا نقصان، ففى ليلة القدر تجدد الأمور على مقاديرها جعلها الله فى الآجال و الأزاق و المواهب التى يجعلها الله للعباد، و يقع فيها غفران السيئات و يعظم منزلة الحسنات على ما لا يقع فى ليلة من الليالى، فينبغى للعاقل أن يرغب فيما رغبه الله بالمبادرة إلى ما أمر به على ما شرط فيه. و الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون من الخير الجزيل و النفع الكثير فيها دون غيرها فلما جعل الله تعالى الخير الكثير يقسم فى ليلة القدر بما جعله الله فيها من هذا المعنى، و لذلك قال «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» تعظيماً لشأنها و تفخيماً، و انك يا محمد لا تعلم حقيقة ذلك.

ثم بين تعالى ذلك فقال «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» و المعنى إن الثواب على الطاعة فيها خير يفضل على ثواب كل طاعة تفعل فى

الف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقيل إن الله يتفضل على خلقه في هذه الليلة و ينعم عليهم بما لا يفعل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر ربما لا يكون مثله في الف شهر و كانت أفضل من الف شهر

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٦

ليس فيها ليلة القدر. و الشهر في الشرع عبارة عن ما بين هلالين من الأيام، و سمي شهراً لاشتهاره بالهلال. و قد يكون الشهر ثلاثين و يكون تسعة و عشرين إذا كانت هلالية، فان لم تكن هلالية فهي ثلاثون. و قوله «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا» معناه تنزل الملائكة و الروح الذي هو جبرائيل بكل أمر في ليلة القدر إلى سماء الدنيا حتى يعلمه أهل سماء الدنيا، فيكون لطفاً لهم و حتى يتصوره العباد ينزل بأمر الله إليها، فتصرف آمالهم إلى ما يكون منها فيقوى رجاؤهم بما يتجدد من تفضل الله فيها. و قيل: إن نزولها بالسلامة و الخير و البركة إلى تلك الساعة «يَاذُنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» أى ما ينزلون به كله بأمر الله، و يكون الوقف- هاهنا- تاماً على ما قرأ به القراء المشهورون، و على ما حكيناه عن ابن عباس و هو قول عكرمة و الضحاك: لا يكون تاماً.

و قوله «سِلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ» قيل هو سلام الملائكة عليهم السلام بعضهم على بعض إلى طلوع الفجر. و قيل: معناه سلام هي من الشر حتى مطلع الفجر- ذكره قتادة- و قيل إن فضل الصلاة فيها و العبادات على الف شهر يراد بها الى وقت طلوع الفجر، و ليست كسائر الليالي التي فضلت بالعبادة في بعضها على بعض و المطلع الطلوع، و المطلع موضع الطلوع، و جر (مطلع) ب (حتى) لأنها إذا كانت بمعنى الغاية خفضت الاسم بإضمار (الى) و نصبت الفعل بإضمار (الى أن) كقولك: دخلت الكوفة حتى مسجدها، أى حتى انتهيت إلى مسجدها، و الفعل كقولك:

أسير حتى أدخلها، بمعنى الى ان أدخلها.

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٧

٩٨-سورة البينة ص: ٣٨٧

إشارة

مدنية في قول ابن عباس و الضحاك، و هي ثمان آيات في الكوفي و المدنيين، و تسع في البصرى

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤)
وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقَائِمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ (٨)

ثمان آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٨

قرأ نافع وابن عامر - في رواية ابن ذكوان «خير البرئية» و «شر البرئية» مهموزتان الباقون بغير همز. من همز جعله من (برأ الله الخلق يبرؤهم) ومنه البارئ و من لم يهزم يجوز أن يكون خفف. و يجوز أن يكون من البرى الذى هو التراب، كما يقال: بغاك من سار إلى القوم البرىء، و روى أبو نشيط من طريق القرطى «لمن خشى ربه» بضم الهاء من غير إشباع. الباقون بضم الهاء، و وصلها بواو فى اللفظ يقول الله تعالى «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَّفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» قال الحسن و قتادة معناه لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة. و قال قوم: معناه لم يكونوا منفيين من كفرهم أى زائلين. و قيل: معناه لم يكونوا ليركوا منفيين من حجج الله حتى تأتيهم البينة التى تقوم بها الحجة عليهم و قال الفراء: معناه لم يكونوا منفيين من حجج الله بصفتهم للنبي صلى الله عليه و آله أنه فى كتابهم و قيل معناه لم يكونوا زائلين من الدنيا، و الانفكاك على وجهين: على لا يزال و لا بد لها من خبر و حرف الجحد. و يكون على الانفصال فلا يحتاج إلى خبر و لا حرف جحد، كقولك انفكك الشىء من الشىء قال ذو الرمة:

قلانص ما تنفك إلا مناخه على الخسف أو يرمى بها بلداً ففرا (١)

فجعله الفراء من (انفكك الشىء من الشىء) و جعله غيره من (ما يزال) إلا أنه ضرورة. و الانفكاك انفصال عن شدة اجتماع. و اكثر ما يستعمل ذلك فى النفي كما أن (ما زال) كذلك تقول: ما انفك من هذا الأمر أى ما انفصل منه لشدة ملابسته له. و المعنى أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب يعنى اليهود و النصارى و من المشركين يعنى عباد الأصنام لا يفارقون الكفر إلى أن تأتيهم البينة يعنى الحجج الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل، و هى من البيونة. و فصل الشىء من غيره

(١) ديوانه ١٧٣ (كمبريج) و روايته (حراجيج) بدل (قلانص)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٨٩

فالنبي صلى الله عليه و آله حجة و بيته، و إقامة الشهادة العادلة بينه، و كل برهان و دلالة فهو بيته، و قوله «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ» هو بيان تلك البينة، بينها بأنه رسول من قبل الله يتلو عليهم صحفاً مطهرة، يعنى فى السماء لا يمسه إلا الملائكة المطهرون من الانجاس و قوله «فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ» معناه فى تلك الصحف كتب جمع كتاب «قِيَمَةٌ» فالقيمة المستمرة فى جهة الصواب، فهو على وزن (فيعلة) من قام الأمر يقوم به إذا أجزاه فى جهة الاستقامة. و قال قتادة: صحفاً مطهرة يعنى من الباطل و هو القرآن يذكره بأحسن الذكر و ينشئ عليه بأحسن الثناء.

و قوله «وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ» اخبار من الله تعالى أن هؤلاء الكفار لم يختلفوا فى نبوة النبي صلى الله عليه و آله لأنهم مجمعين على نبوته بما وجدوه فى كتبهم من صفاته، فلما أتاهم بالبينة الظاهرة و المعجزة القاهرة تفرقوا و اختلفوا، فأمن بعضهم و كفر بعضهم. و فى ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إن الكفار خلقوا كفاراً فى بطون أمهاتهم، لأنه تعالى بين أنهم لم يختلفوا فى ذلك قبل مجيء معجزاته و أدلته، و لا يلزم على ذلك أن يكون مجيئ الآيات مفسدة من حيث وقع الفساد عندها، لأنه ليس حد المفسدة ما يقع عنده الفساد، بل حده ما يقع عنده الفساد و لولاه لم يقع، من غير أن يكون تمكيناً، و هاهنا المعجزات تمكين فلم يكن مفسدة.

ثم قال تعالى «وَمَا أُمُّوا» أى لم يأمرهم الله تعالى «إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ» وحده و لا يشركون بعبادته غيره «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» لا يخلطون بعبادته عبادة سواه.

و قوله «حُفَاءً» جمع حنيف، و هو المائل إلى الحق، و الحنفية الشريعة المائلة إلى الحق، و أصله الميل، و من ذلك الأحنف: المائل القدم إلى جهة القدم الأخرى.

و قيل: أصله الاستقامة، و إنما قيل للمائل القدم أحنف على وجه التفاؤل، و قوله التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٠

«وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ» أى يدوموا عليها و يقوموا بحدودها «وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ» المفروضة من أموالهم. ثم قال «وَذِكْرُكَ دِينِ الْقِيَمَةِ» أى ذلك

الذى تقدم ذكره دين القيمة و تقديره ذلك دين الملة القيمة و الشريعة القيمة.

و قوله «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ» دليل على فساد مذهب المجبرة: ان الله خلق الكفار ليكفروا به، لأنه صرح هاهنا أنه خلقهم ليعبدوه. و ليس فى الآية دلالة على أن أفعال الجوارح من الايمان، و لا من الدين، لأنه يجوز أن يكون المراد «وَذَلِكَ» إشارة إلى الدين، و تقديره و الدين بذلك هو دين القيمة، لأن من لا- يعتقد جميع ذلك و يؤمن بجميع ما يجب عليه فليس بمسلم. و قد تقدم قوله «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» ثم قال «وَذَلِكَ» يعنى و ذلك الدين «دِينُ الْقِيَمَةِ» و ليس يلزم أن يكون راجعاً إلى جميع ما تقدم، كما لا يلزم على مذهبهم فى قوله «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا» «١» أن يكون راجعاً إلى الشرك، و قتل النفس و الزنا، بل عندهم يرجع إلى كل واحد من ذلك. فكذلك- هاهنا- و قد استوفينا ما يتعلق بذلك فى كتاب الأصول.

و فى الآية دلالة على وجوب النية فى الطهارة، لأنه بين تعالى أنه أمرهم بالعبادة على الإخلاص، و لا يمكن ذلك إلا بالنية و القربة، و الطهارة عبادة

لقوله صلى الله عليه و آله (الوضوء شرط الايمان)

و ما هو شرط الايمان لا يكون إلا عبادة.

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار و المشركين فقال «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ» يعنى من جحد توحيد الله و أنكر نبوة نبيه و أشرك معه إلهاً آخر فى العبادة «فِي نَارِ جَهَنَّمَ» معاقبين فيها جزاء على كفرهم «خَالِدِينَ فِيهَا» أى مؤبدين لا يفتنى عقابهم. ثم قال «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» أى شر الخليقة، و البرية

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩١

(فعيلة) من برأ الله الخلق إلا أنه ترك فيهما الهمز، و من همز فعلى الأصل. و يجوز أن يكون (فعيلة) من البرى و هو التراب. ثم أخبر عن حال المؤمنين فقال «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و أقرؤا بتوحيده و اعترفوا بنبوة نبيه «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» أى هم أحسنهم حالة. و إنما أطلق بأنهم خير البرية، لأن البرية هم الخلق، و لا- يخلوا أن لا- يكونوا مكلفين، فالمؤمن خير منهم لا محالة. و إن كانوا مكلفين: فاما أن يكونوا مؤمنين أو كافرين أو مستضعفين، فالمؤمن خيرهم أيضاً لا محالة بما معه من الثواب. و قوله «جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» يعنى جزاء إيمانهم و طاعاتهم عند الله يوفيههم الله يوم القيامة، ثم فسر ذلك الجزاء فقال «جَنَّاتُ عَدْنٍ» أى بساتين إقامة «خَالِدِينَ فِيهَا» أى مؤبدين فيها «أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» أى رضى أفعالهم «وَرَضُوا عَنْهُ» بما فعل بهم من الثواب. و الرضا هو الارادة، إلا أنها لا تسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها، و لم يتعقبها كراهية، فتسمى حينئذ رضا، فأما الارادة لما يقع فى الحال او فيما يفعل بعد، فلا تسمى رضا، فرضى الله عن العباد إرادته منهم الطاعات التى فعلوها، و رضاهم عنه إرادتهم الثواب الذى فعله بهم، ثم قال «ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ» أى ذلك الرضا و الثواب و الخلود فى الجنة لمن خاف الله فترك معاصيه و فعل طاعاته.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٢

٩٩-سورة الزلزال ص: ٣٩٢

إشارة

مدنية فى قول ابن عباس و قال الضحاك مكية، و هى ثمان آيات فى الكوفى و المدنى الأول، و تسع آيات فى البصرى و المدنى الأخير

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨] ص: ٣٩٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)
 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
 يَرَهُ (٨)

ثمان آيات.

قرأ عاصم في رواية أبان عنه «خيراً يره و شراً يره» بضم الياء فيهما بمعنى انه يريه غيره. الباقون بفتح الياء بمعنى انه يراه و يبصره. وقرأ ابن عامر- في رواية هشام- و ابن عامر و الكسائي عن أبي بكر- بسكون الهاء- في قوله «خيراً يره، و شراً يره» الباقون بالإشباع فيهما. قال ابو علي: الاشباع هو الأصل، و هو الوجه، كما تقول: اكرم هو، و ضرب هو. و إنما يجوز إسكانها في الشعر. و قد حكى ابو الحسن أنها لغة رديئة فمن سكن فعلى هذه اللغة. وقرأ ابو جعفر من طريق التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٣

ابن العلاف و روح- بضم الياء- من غير صلة بو او فيهما و قد بينا الوجه فيه.
 يقول الله تعالى مخوفاً لعباده أهوال يوم القيامة و منذراً لهم بالآيات الباهرة بأن قال «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» فالزلزلة شدة الاضطراب بما يهدم البنيان زلزل يزلزل زلزالا، فكأنه مكرر (زل، يزل، يزل) للتكثير و التعظيم، و الزلزال- بكسر الزاي- المصدر، و بالفتح الاسم، و قال الحسن: زلزلت و رجفت بمعنى واحد و قوله «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» قال ابن عباس و مجاهد: معناه أخرجت موتاها، و أنقل الأرض ما فيها مدفون من الموتى و غيرها، فان الأرض تلفظ بكل ما فيها عند انقضاء أمر الدنيا، و تجديد أمر الآخرة.
 و قوله «وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا» معناه يقول الإنسان: أى شىء اصارها إلى هذه الحالة التى ترى بها، يقول الإنسان ذلك متعجباً من عظم شأنها و أنه لأمر عظيم لفظت بما فيها، و تخلت من جميع الأمور التى استودعها. و قوله «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» قيل معناه يظهر بالدليل الذى يجعله الله فيها ما يقوم مقام اخبارها بأن أمر الدنيا قد انقضى و أمر الآخرة قد أتى، و انه لا بد من الجزاء و أن الفوز لمن اتقى و أن النار لمن عصى، و قيل: معناه تحدث أخبارها بمن عصا عليها إما بأن يقلبها حيواناً قادراً على الكلام فتتكلم بذلك أو يحدث الله تعالى الكلام فيها، و نسبة اليها مجازاً او يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام فعبر عنه بالكلام، كما قال الشاعر:
 امتلأ الحوض و قال قطنى مهلاً رويداً قد ملأت بطنى «١»
 و قال آخر:

(١) مر فى ١/ ٢٣١ و ٨/ ٨٥، ٣٦٩، ٤٧١ و ٩/ ١١١، ٣٦٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٤

و قالت له العينان سمعاً و طاعة «١»

و يقولون عيناك تشهد لسهرك، و غير ذلك مما قد مضى نظائره. و قال ابن مسعود: الأرض تتكلم يومئذ، فتقول أمرنى الله بهذا. و قوله «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» معناه إن الأرض تحدث بهذا، فتقول: إن ربك يا محمد أوحى اليها.

قال العجاج:

وحى لها القرار فاستقرت «٢»

أى أوحى اليها بمعنى القى إليها من جهة تخفى يقال: أوحى و وحى بمعنى واحد، ثم قال تعالى «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» اخبار من الله تعالى بأن ذلك اليوم يصدر الناس اشتاتاً أى مختلفين «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» أى ليجازوا على أعمالهم او ليريهم الله جزاء أعمالهم، و قيل: معنى رؤية الأعمال المعرفة بها عند تلك الحال، و هى رؤية القلب، و يجوز أن يكون التأويل على رؤية العين

بمعنى ليروا صحائف أعمالهم يقرؤن ما فيها لقوله «و قالوا ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ صَغيرَةً ولا كَبيْرَةً إِلَّا أْحْصَاهَا» وقيل ليروا جزاء أعمالهم حسب ما قدمناه، وقيل يرى الكافر حسناته فيتحسر عليها، لأنها محبطة، و يرى المحسن سيئاته مكفرة و حسناته مثبتة ثم قال تعالى على وجه الوعيد «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» قال ابو عبيدة: مثقال ذرة شرأ يره أى يرى ما يستحق عليه من العقاب، و يمكن أن يستدل بذلك على بطلان الإحباط، لان عموم الآية يدل أنه لا يفعل شيئاً من طاعه أو معصية إلا و يجازى عليها و على مذهب القائلين بالإحباط بخلاف ذلك، فان ما يقع محبباً لا يجازى عليه و لا يدل على أنه لا يجوز

(١) مرفى ١ / ٤٣١ و ٦ / ٤٥ و ٨ / ٤٧١ ، ٤٧٩

(٢) مرفى ٢ / ٤٥٩ و ٣ / ٨٤ و ٤ / ٦١ و ٦ / ٤٠٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٥

أن يعفى عن مرتكب كبيرة، لأن الآية مخصوصة بلا خلاف، لأنه ان تاب عفى عنه و قد شرطوا أن لا يكون معصية صغيرة، فإذا شرطوا الامرين جاز أن نخص من يعفو الله عنه.

١٠٠-سورة العاديات ص: ٣٩٥

إشارة

مكية في قول ابن عباس و قال الضحاك: هي مدنية، و هي إحدى عشرة آية بلا خلاف

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَنْزَلَ بِهِ نَعْمًا (٤)
فَوَسَّطْنَا بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا فِي الْقُبُورِ (٩)
وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)
احدى عشرة آية.

قوله «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا» قسم من الله تعالى بالعاديات. قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و عطاء: يعنى الخيل تضبح ضبحاً، فضبحاً نصب على المصدر. و قال التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٦

عبد الله بن مسعود: يعنى الإبل، فعلى قول ابن عباس أراد ضبح الخيل فى الجهاد و الحرب، و قال ابن مسعود: أراد ضبح الإبل فى طريق الحج. و

روى عن على عليه السلام أن المراد به الإبل، لأنه لم يكن يومئذ خيل للمسلمين.

و الضبح فى الخيل اظهر عند أهل اللغة. و

روى عن على عليه السلام أن الضبح فى الخيل الحمحمه عند العدو

وقيل الضبح شدة النفس عند العدو. و ضبحت الخيل تضبح ضبحاً و ضباحاً. و قال أبو عبيدة: ضبح و ضبع بمعنى واحد أى تمد أضياعها فى السير.

وقوله «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» معناه المظهرات بسنابكها النار قدحاً، يقال:

أورى القادح النار يورى إيراً إذا قدح قدحاً، وتسمى تلك النار نار الجباحب لضعفها، قال النابغة:

تجدد السلوقى المضاعف نسبحه و يوقدن بالصفاح نار الجباحب «١»

و هو رجل بخيل كانت ناره ضعيفة لثلا براها الأضياف. و قال قتادة و الضحاك و عطاء «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» الخيل حين تورى النار

بسنابكها، و قال ابن عباس: هم الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب، و قال مجاهد: يعنى إبطال الرجال، و قال عكرمة: الاسنة.

وقوله «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا» قال ابن عباس: يعنى الخيل فى سبيل الله. و قيل:

إنما ذكر (صبحاً) لأنهم كانوا يسيرون إلى العدو ليلاً فيأتوهم صباحاً، و قيل: إنهم لعزهم أغاروا نهاراً، و قيل إنما أقسم بالمغيرات صباحاً

لعظم شأنها فى الغارة على أعداء الله من المشركين و معناه أمر الغارة عظيم، و إنما القسم تنبيه على عظم الشأن و تأكيد للاخبار.

وقوله «فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا» إخبار منه تعالى أن هذه الخيل تثير الغبار بعدوها

(١) مر فى ٧١ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٧

و سمي الغبار النقع، لأنه يغوص فيه صاحبه كما يغوص فى الماء يقال: نقعه ينقعه نقعاً، فهو ناقع، و استنقع استنقاعاً و انتقع انتقاعاً. و

قال قتادة: النقع الغبار.

و قيل: الهاء فى قوله «به» عائد إلى معلوم أى بالمكان أو بالوادي.

وقوله «فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا» قال قتادة: يعنى وسطن بذلك المكان جمع العدو.

و قال مجاهد: يعنى جمع الفريقين. و قوله «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» جواب القسم و معناه- فى قول ابن عباس و قتادة و الحسن و مجاهد

و ابن زيد- لكفور، فالكنود الكفور و منه الأرض الكنود التى لا تنبت شيئاً، و أصله منع الحق و الخير، قال الأعشى:

أحدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد «١»

و قيل: إنها سميت كند لقطعها إياها عن سماك.

وقوله «وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ» قال الحسن: معناه إن حسن الإنسان على ذلك لشاهد. و قال قتادة: تقديره و إن الله على ذلك لشهيد.

وقوله «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» قيل تقديره و إنه لشديد الحب للخير. و قيل: معناه و إنه لشديد الحب للمال، فهو يظلم الناس بمنعه.

و قال الحسن: لشديد معناه لشحيح يمنع منه حق الله. و قال المبرد و الربيع: معناه من أجل حب الخير الذى هو المال أو الملك لبخيل

ثم قال على وجه التنكير على الإنسان و الوعيد له «أَفَلَا يَعْلَمُ» يعنى الإنسان الذى وصفه «إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ» معناه اثير ما فى القبور

و أخرج، و مثله بخر. و قوله «وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ» قال سفيان: معناه ميز الحق من الباطل. و قال غيره:

معناه جمع و أبرز.

وقوله «إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ» إخبار من الله تعالى و اعلام لخلقه أن الذى خلقهم و دبرهم فى ذلك اليوم بهم لعالم خبير

بأحوالهم لا يخفى عليه شىء

(١) مجاز ٣٠٧ / ٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٨

من ذلك.

كان سبب نزول هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سرية إلى حنين من كنانة واستعمل عليهم أحد النقباء: المنذر بن عمرو الأنصاري، فغابت عن النبي صلى الله عليه وآله ولم يعلم لها مخبر فانزل الله تعالى السورة وأخبر بحال القوم.

١٠١-سورة القارعة ص: ٣٩٨

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي إحدى عشرة آية في الكوفي و عشر في المدنيين و ثمان في البصري

[سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١] ص: ٣٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

احدى عشر آية.

قرأ حمزة و يعقوب (ما هي) بحذف الهاء في الوصل، الباقون بإثباتها، و لم التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٣٩٩
يختلفوا في الوقف أنه بالهاء و معنى (القارعة) البلية التي تقرر القلب بشدة المخافة تقول: قرع يقرع قرعاً و هو الصوت بشدة اعتماد، و منه انشقت القرعة، و تقارع القوم في القتال إذا تضاربوا بالسيوف، و قرع رأسه إذا ضرب في أعلى الشعر حتى يذهب، و القرعة كالضرب بالقال. و قال وكيع: القارعة، و الواقعة، و الحاقة القيامة.

وقوله «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» تعظيم لشأنها، و تفخيم لأمرها و تهويل لشدتها. و معناه و أى شىء القارعة، و معناه إنك يا محمد صلى الله عليه وآله لا تعلم كبر وصفها و حقيقة أمرها على التفصيل و إنما تعلمها على طريق الجملة. ثم وصفها الله تعالى فقال «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» و المعنى إن القارعة التي وصفها و ذكرها تقرر القلوب يوم تكون الناس بهذه الصفة. و الفراش الجراد الذى ينفرش و يركب بعضه بعضاً، و هو غوغاء الجراد- فى قول الفراء- و قال ابو عبيدة: هو طير يتفرش و ليس بذباب، و لا بعوض. و قال قتادة: الفراش هو هذا الطير الذى يتساقط فى النار و السراج. و المبثوث المتفرق فى الجهات، كأنه محمول على الذهاب فيها، يقال: بثه يبيثه إذا فرقه، و أثبته الحديد إذا ألفتته اليه، كأنك فرقته بأن جعلته عند اثنين.

وقوله «وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» فالعهن الصوف الألوان- فى قول أبى عبيدة- قال زهير:

كأن فئات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم «١»

و يقال: عهن و عنه. و قيل: إن الخلائق لعظم ما يرونها من الأهوال و يغشاهم من العذاب يهيم كل فريق على وجهه، و يذهب فى غير جهة صاحبه.

وقوله «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» قال الفراء الموازين

(١) ديوانه ٧٧ (دار بيروت)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٠

و الأوزان واحد، يقولون: هل لك فى درهم بميزان درهمك، و وزن درهمك.

وقال الحسن: في الآخرة ميزان له كفتان. وهو قول الجبائي و أكثر المفسرين.

ثم اختلفوا: فمنهم من قال: يجعل الله تعالى في إحدى الكفتين نوراً علامة للطاعات و في الأخرى ظلمة علامة للمعاصي فأيهما رجح على الآخر حكم لصاحبه به. و قال آخرون: إنما يوزن صحف الاعمال فما فيها الطاعات تجعل في كفة و ما فيها المعاصي في كفة أخرى فأيهما رجح حكم لصاحبه به. و قال قوم: الميزان عبارة عن العدل و مقابلة الطاعات بالمعاصي، فأيهما كان أكثر حكم له به و عبر عن ذلك بالثقل مجازاً لأن الاعمال أعراض لا يصح وزنها و لا وصفها بالثقل و الخفة، قال الشاعر:

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندي لكل مخاصم ميزانه (١)

يريدون كلامه في معارضته، فبين الله تعالى أن من كانت طاعته أكثر كان ثوابه أعظم، فيكون صاحبها «فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً» أي مرضية، ففاعل - هاهنا - بمعنى المفعول، لان معناه ذو رضا كقولهم (نابل) أي ذو نيل، قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب و ليل اقاسيه بطيء الكواكب (٢)

أي ذو نصب و قال آخر:

و غررتني و زعمت أنك لابن بالصيف تامر (٣)

أي ذو لبن و ذو تمر.

و قال مجاهد «ثَقُلْتُ مَوَازِيئَهُ» على جهة الميل، ثم بين من كانت معاصيه أكثر و قلت طاعاته «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» أي مأواه هاوية يعني، جهنم، و إنما سماها

(١) القرطبي ٢٠/١٦٦ و الشوكاني ٥/٤٧٢

(٢) في مر ٥/٣٦٨ و ٦/٩٥، ٣٢٩ و ٨/١٢٢، ٥٦٧

(٣) مر في ٨/٤٦٨ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠١

(أمه) لأنه يأوى إليها كما يأوى الولد إلى أمه، و سميت هاوية - لما قال قتادة و ابو صالح - من أن العاصي يهوى إلى أم رأسه في النار. ثم قال على وجه التفضيم و التعظيم لأمرها «وَمَا أَدْرَاكَ» يا محمد صلى الله عليه و آله «مَا هِيَ» أي انك تعلمها على الجملة و لا تعلم تفصيلها و أنواع ما فيها من العقاب.

و الهاء في قوله «ما هي» للسكت إلا أنه اجرى الوصل معها مجرى الوقف، و يجوز فيها الحذف، ثم فسر الله تعالى فقال «نَارٌ حَامِيَةٌ» أي هي نار حامية شديدة الحرارة

١٠٢-سورة التكاثر ص: ٤٠١

إشارة

مكية في قول ابن عباس و الضحاك و هي ثمان آيات بلا خلاف

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨] ص: ٤٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

ثمان آيات.

قرأ ابن عامر «آلهاكم» ممدوداً، و روى عن الكسائي - بهمزتين - و المراد به الإنكار التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٢
و قرأ ابن عامر و الكسائي «لترون» مضمومة التاء «ثم لترونها» مفتوحة التاء.

الباقون بالفتح فيهما، قال أبو علي: وجه الضم أنهم يحشرون إليها فيرونها في حشرهم إليها فيرونها، و لذلك قرأ الثانية بالفتح، كأنه أراد لترونها. و من فتح فعلى أنهم يرونها. و قوله «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا» مثل الأول في أنه من إِبْصَارِ الْعَيْنِ، و قيل: إن هذه السورة نزلت في حين من قريش، و هما بنو أسهم و بنو عبد مناف، تفاخروا حتى ذكروا الأموات، فقال الله تعالى مخاطباً لهم «أَلَهَاكُمْ التَّكَاثُرُ» فاللهاء الصرف إلى اللهو و اللهو الانصراف إلى ما يدعو اليه الهوى، يقال: لها يلهو لهواً، و لهى عن الشىء يلهى لهياً، و منه قوله (إذا استأثر الله بشىء فإله عنه) و التكاثر التفاخر بكثرة المناقب، يقال: تكاثروا إذا تعادوا ما لهم من كثرة المناقب، و المتفاخر متكبر لأنه تناول بغير حق. فالتكاثر التباهى بكثرة المال و العدد. و قيل: ما زالوا يتباهون بالعز و الكثرة حتى صاروا من أهل القبور و ماتوا - ذكره قتادة -. و قوله «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» فالزيارة إتيان الموضع، كإتيان المأوى في الالفه على غير اقامة، زاره يزوره زيارةً، و منه زور تزويراً إذا شبه الخط في ما يوهم أنه خط فلان و ليس به، و المزورة من ذلك اشتقت. و قيل في معناه قولان: أحدهما حتى ذكرتم الأموات. و قال الحسن: معناه حتى متم.

و

قوله «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا» معناه ارتدعوا و انزجروا «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» في القبر «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» بعد الموت - روى ذلك عن علي عليه السلام

- و قيل إنه يدل على عذاب القبر.

و قوله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» نصب «عِلْمَ الْيَقِينِ» على المصدر، و معناه ارتدعوا و انزجروا، لو تعلمون علم اليقين، و هو الذى يثلج الصدر بعد اضطراب الشك و لهذا لا يوصف الله بأنه متيقن. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٣

و قوله «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» يعنى قبل دخولهم اليها فى الموقف.

و قوله «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا» بعد الدخول اليها.

و قوله «عَيْنَ الْيَقِينِ» كقولهم هذا محض اليقين، و المعنى إنكم لو تحققتم و تيقنتم أنكم ترون الجحيم و أنكم إذا عصيتم و كفرتم عوقبتم، لشغلكم هذا عن طلب التكاثر فى الأموال فى الدنيا، و لا يجوز همز واو «لترون» لأنها واو الجمع و مثله، واو «لتبلون» لا تهمز. و قوله «ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ» يعنى معاشر المكلفين «يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. و قال سعيد بن جبيرة و قتادة: النعيم فى المأكول و المشرب و غيرهما من الملاذ. و قال عبد الله بن مسعود و مجاهد: النعيم الصحة. و قال قوم: يسألهم الله عن كل نعمة. و الفرق بين النعيم و النعمة أن النعمة كالانعام فى التضمنين لمعنى منعم، أنعم انعاماً و نعمة، و كلاهما يوجب الشكر. و النعيم ليس كذلك، لأنه من نعم نعيماً فلو عمل ذلك بنفسه لكان نعيماً لا يوجب شكراً. و النعمة - بفتح النون - من نعم - بضم العين - إذا لان.

و قيل المعنى «لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» عن ولاية على عليه السلام. و قيل: عن شرب الماء البارد. و قيل عن الأمن و الصحة. و قيل عن النورة فى الحمام. و روى ذلك عن عمر بن الخطاب.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٤

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي ثلاث آيات بلا خلاف في جملتها و إن اختلفوا في تفصيلها.

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣] ص: ٢٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)
ثلاث آيات.

هذا قسم من الله تعالى بالعصر. قال ابن عباس: المراد بالعصر - هاهنا - الدهر. و هو قول الكلبي. و قال الحسن و قتادة: هو العشى، و كلاهما فيه العبرة من جهة مرور الليل و النهار. و أصل العصر عصر الثوب و نحوه، و هو فتله لإخراج مائه، فمنه عصر الدهر، لأنه الوقت الذي يمكن فتل الأمور كفتل الثوب.

قال العجاج:

عصراً و حضناً عيشة المعذلجا

أى الناعم، و قال فى العشى:

يروح بنا عمر و قد قصر العصر و فى الروحة الاولى الغنيمه و الأجر «١»

و به سميت العصر، لأنها تعصر بالتأخير، و العصاره ما يعتصر من العنب

(١) القرطبي ١٧٩ / ٢٠ و الشوكاني ٤٨٨ / ٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٥

و غيره، و «المعصرات» السحائب التى تنعصر بالمطر. و الاعصار غبار كالعمود يصعد إلى السماء. و العصر الالتجاء إلى الملجأ. و العصر الجارية التى قد دنا بلوغها لأنه عصر شبابها، و انعصار ماء الشباب منها. و الاعتصار استخراج المال من الإنسان، لأنه ينحلب كما ينحلب ما يعصر. و العصران الغداة و العشى، و العصران الليل و النهار. قال الشاعر:

و لن يلبث العصران يوم و ليلة إذا طلبا ان يدركا ما تيمما «١»

و قوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) جواب القسم. و فيه اخبار من الله أن الإنسان يعنى الكافر (لفى خسر) أى لفى نقصان بارتكاب المعاصى و كفره بالله و الخسر هلاك رأس المال للإنسان و بارتكاب المعاصى فى هلاك نفسه خسران، و هو اكبر من رأس ماله. و قوله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) استثناء من جملة الناس المؤمنين المصدقين بتوحيد الله بإخلاص عبادته العاملين بالطاعات (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) أى تواصى بعضهم بعضاً باتباع الحق و اجتناب الباطل (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) تواصى بعضهم بعضاً بالصبر على تحمل المشاق فى طاعة الله. و قال الحسن و قتادة: الصبر على طاعة الله. و الصبر حبس النفس عما تنازع اليه من الأمر حتى يكون الداعى إلى الفعل.

و قد أمر الله تعالى بالصبر و التواضع. و الحق ما دعا اليه العقل.

(١) القرطبي ١٧٩ / ٢٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٢٠٦

١٠٤-سورة الهمة ص: ٤٠٦

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي تسع آيات بلا خلاف

[سورة الهمة (١٠٤): الآيات ١ إلى ٩] ص: ٤٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)
وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُؤَادَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)
تسع آيات.

قرأ حمزة و الكسائي و خلف و ابن عامر و ابو جعفر و روح (جمع) بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف، لأنه يقع على القليل و الكثير. و من شدد أراد جمعه من وجوه شتى شيئاً بعد شيء (و عدده) أى جعله عدة. و من قرأ مخففاً أراد جمع مالا و عدداً أى و قوماً ذوى عدد أنصاراً. و قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً (عمد) بضمين جعلوه جمع عمود و عمد، مثل قدوم و قدم، و زبون و زين. الباقون بفتح العين و الميم، لأنهم قد قالوا فى جمع عمود عمد، كما قالوا فى جمع أديم آدم. و فى جمع أهاب أهب.

هذا و عید من الله تعالى و تهديد (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) فالهمزة الكثير الطعن التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٧
على غيره بغير حق، العائب له بما ليس فيه عيب لجهله و سفهه و شدة إقدامه على مكاره غيره، يقال: همز الناس يهزمهم همزاً، و هو همزة. و مثله ضحكة أى كثير الضحك و عيبه أى كثير العيب. فكذلك همزة كثير الهمز بالطعن. و منه الهمزة فى الكلام لأنها تخرج كالطعنة بقوة اعتماد، و قال ابن عباس: الهمزة الطعان. و اللمزة المغتاب و قال زياد الأعجم:
تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا و إن تغيت فأنت الهامز اللمز «١»

و قال ابن عباس: الهمزة اللمزة المشاء بالنميمة، المفرق بين الاحبة الباغى المبرئ العيب بالمكابرة. و قيل: نزلت فى مشرك بعينه كان يعيب الناس و يلمزهم - ذكره ابن عباس - و قال قوم: نزلت فى الوليد بن المغيرة. و قال السدى:
نزلت هذه السورة فى الأحنس ابن شريق، و كان يهزم النبي صلى الله عليه و آله و يلمزه. و قيل:
نزلت فى جميل بن عامر الجهنى. و قال مجاهد و ورقاء و ابن عباس: ليست خاصة لاحد بل هى عامة.
و قوله (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَدَهُ) نعت للهمزة الذى تقدم ذكره فى أنه يجمع المال و يحبه، و لا يخرج حق الله منه.
و قوله (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) معناه يظن هذا الذى جمع المال، و لا يخرج حق الله منه أنه سيخلده. و قوله (أَخْلَدَهُ) يخلده، كما قيل أهلك إذا حدث به سبب الهلاك من غير أن يقع هلاكه بعد. و إنما ذلك بمعنى أوجب إخلاده و هلاكه و قيل: ليس المراد أنه يظن أنه لا يموت، و لكن يجب أنه يبقى من ماله إلى أن يموت. و قيل: معناه إنه يعمل عمل من يحسب أن ماله أخلده. و قال الحسن:
معناه يحسب أن ماله أخلده حتى يفنيه.

(١) مجاز القرآن ٣١١ / ٢٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٨

و قوله (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) معناه ليقذفن و ليطرحن من وصفناه بجمع المال و منع حق الله فى الحطمة. ثم قال (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا

الْحَطْمَةُ) تَفْحِيمًا لَهَا. ثم فسرها فقال (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) أى هى نار الله الموقدة، و الحطمة الكثيره الحطم أى الاكل، و رجل حطمه. و حطم الشيء إذا كسره و أذهبه، و تحطم إذا تكسر و أصله الكسر المهلك. و قوله (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ) معناه يبلغ ألمها و وجعها الأفندة، تقول: أطلعت على أرض كذا إذا بلغتها، و قوله (إِنَّهَا) يعنى النار (عَلَيْهِمْ) يعنى الكفار (مُؤَصِّدَةً) أى مطبقه، يقال اصدت الباب أو صده إذا أطبقته، و أوصدته إيصاداً لغتان، و منه قوله (وَ كَلَّبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ) «١» و ابو عمرو يهمز (مُؤَصِّدَةً) إذا لين الهمز، لئلا يخرج من لغه إلى لغه أخرى. و قوله (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) فالعمد جمع عمود، و قيل: جمع عماد، كقولك: أهاب و أهب، و يجوز عمد، و العمود عمود مستدير مستطيل قوى على شدة الاعتماد. و قال ابن مسعود: معناه إن النار مطبقة بعمد ممددة. و قال ابن عباس: فى عمد مغلغلين بها. و قال قتادة: فى عمد يعذبون بها. و قيل: الاطباق بالعمد الممددة ليتأكد بأسهم من الخروج منها.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٠٩

١٠٥-سورة الفيل ص: ٤٠٩

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و الضحاك، و هى خمس آيات بلا خلاف

[سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)
خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبىه محمد صلى الله عليه و آله و يتوجه إلى جميع المكلفين من قومه، يقول لهم على وجه التنبيه على عظم الآيه التى أظهرها و المعجزة التى فعلها، منبهاً بذلك على توحيده و وجوب إخلاص العبادة له، فقال (أَلَمْ تَرَ) و معناه أ لم تعلم، فالرؤية- هاهنا- بمعنى العلم، لأن رؤية البصر لا تتعلق بما قد تقضى و عدم، كأنه قال: أ لم تعلم (كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) الذين قصدوا هدم البيت و هلاك أهله، فاهلكهم الله تعالى، و كان الذى قصد لهدم البيت ابرهه ابن الصباح، و هو المعروف بابرهه الاشرم، و يكتنى أبا يكسوم. و قيل: إنه لم يسلم من قومه غيره، فولى إلى أهله فكل ما نزل منزلاً- تساقط منه عضو فلما وصل اليهم أخبرهم الخبر ثم هلك، و كان ابرهه رجلا من اليمن ملكته الحبشه عليهم، و كان سبب قصده إياها لتخريبها أنه بنى كنيسة عظيمة أراد ان يحج إليها بدل الكعبة. و قال التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٠

الحسن: كان السبب فى ذلك أن العرب هدمت كنيسة للحبشه، و هم نصارى، فأراد تخريب الكعبة فى مقابله ذلك، فاقبل فى جمع

كثيف معه أفيله، فجعل الله كيدهم في تضليل عما قصدوا له من تخريب الكعبة (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) فمعنى أبابيل جماعات في تفرقة زمرة و زمرة لا- واحد لها- في قول أبي عبيدة و الفراء- كما لا واحد للعباديد و الشمايط. و زعم ابو جعفر الرواسي أنه يسمع في واحدها أبالة. و قال الكسائي: سمعت النحويين يقولون واحده (أبُول) مثل (عجول) و قال بعضهم: (ابيل) و قال ابن عباس معنى أبابيل يتبع بعضها بعضاً. و قال قتادة:

معنى أبابيل كثيرة متتابعة. و قيل: إنها كانت سود الجريئة تحمل في مناقيرها و اكفها الحجارة- في قول عبيد بن عمير- و قيل: كان مع كل طائر ثلاثة أحجار اثنان في رجليه و واحد في منقاره، و قال موسى بن أبي عائشة: كانت الحجارة أكبر من العدسة و أصغر من الحمصة. و قيل كان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره و قيل: إن المعروف بأبرهة الأشرم الذي ملكته الحبشة كان يكنى أبا يكسوم و قيل: إنه لم يسلم من قومه غيره فولى إلى أهله و كلما نزل منزلاً تساقط منه عضو فلما وصل اليهم أخبرهم الخبر ثم هلك. و قيل كان الفيل إذا وجهه نحو مكة وقف و لم يسر، و إذا وجهه إلى جهة غيرها سار إنذاراً من الله لهم و موعظة، و كان هذا من أعظم المعجزات في ذلك الوقت أظهره الله تعالى ليدل به على وجوب معرفته و إخلاص عبادته. و قال قوم:

إنه كان معجزة لنبي كان في ذلك الزمان، و يجوز أن يكون ذلك خالد بن سنان.

و قيل إنه كان ذلك توطئاً لنبوة نبينا صلى الله عليه و آله، لأنه كان ولد في عام الفيل.

و قوله (تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ) أى تقذفهم بحجارة (مِنْ سَجِيلٍ) قال ابو عبيدة كل شديد سجيل. قال ابن مقبل: التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١١

ضرباً تواصى به الابطال سجيلاً (١)

و قيل هى حجارة من الجحيم و هى (سجين) ثم أبدلت النون لاماً، كما قالوا فى أصيلان اصيلاً. و قيل: معنى من (سجيل) أى من طين مطبوخ كالآجر.

و قيل: هو (سنگ و گل) بلغة الفرس فأعرب، و كذلك روى عن ابن عباس و قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) فالعصف ورق الزرع- فى قول أبى عبيدة- و هو عصفية، لان الريح تعصفه أى تذهب به يميناً و شمالاً. و قيل: معنى (كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) أى مأكول الثمرة كما يقال: فلان حسن أى حسن الوجه، فاجرى مأكول على العصف من أجل أكل ثمرته، لأن المعنى معلوم للإيجاز. و قال قتادة: العصف التبن، و معنى مأكول قد أكلت بعضه المواشى و كسرت بعضه.

و قال الزجاج: معنى مأكول وقع فيه الاكال. و قيل العصف التبن بلغة بنى حنيفة، و بلسان قريش النخالة.

و قصة أصحاب الفيل من الأدلة الواضحة و الحجج اللائحة على الملحدين، و من أنكر الصانع، لأنه لا يمكن نسب ذلك إلى طبيعة و لا موجب كما تأولوا الزلازل و الرياح و الخسوف و غير ذلك مما أهلك الله به الأمم، لأنه ليس فى الطبيعة إقبال طير بأحجار و تقصد اقواماً دون غيرهم حتى تهلكهم بما ترميهم به، و لا تعدى إلى غيرهم، بل ذلك من أوضح الأدلة على انه من فعل الله تعالى، و ليس لأحد أن يضعف ذلك و ينكر الخبر به، لأن النبى صلى الله عليه و آله لما قرأ على أهل مكة هذه السورة، كانوا قريبي عهد بالفيل، فلو لم يكن كذلك و لم يكن له اصل لأنكروه، فكيف و هم ارخوا به كما أرخوا بنيان الكعبة و موت قصى و غيره. و قد نظم الشعراء فى قصة الفيل الشعر و نقلته الرواة، فلا يمكن جحد ذلك، لأنه مكابرة.

(١) مر فى ٤٥ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٢

إشارة

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدينة و هي أربع آيات في الكوفي و البصري و خمس في المدنيين

[سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤] ص: ٤١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)
أربع آيات.

قرأ ابن عامر (لالاف قريش) بقصرها، و لم يجعل بعد هذه الهمزة ياء على وزن (لعلاف)، «إيلافهم» بياء بعد الهمزة خلاف لفظ الأول. الباقون (لإيلاف قريش إيلافهم) جميعاً بهمزة بعدها ياء. وقرأ أبو جعفر و ابن فليح (الإفهم) بهمزة بلا ياء بعدها مثل (علافهم) و رواه أبو الحسن حماد - بهمزتين مكسورتين - بعدها ياء. الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل (عيلافهم) قال الأزهرى:

الإيلاف الاجارة بالحفارة يقال: أولف يولف و ألف يؤلف إذا أجاز الإبل بالحفارة. و الفت المكان ألفة و الفاء و ألفته إيلافاً بمعنى واحد. و قد قدمنا القول فيما رواه أصحابنا أن (ألم تر كيف) و (لإيلاف) سورة واحدة، مثل (الضحى و ألم التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٣)

نشرح) فعلى هذا العامل في «لإيلاف» قوله (فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش) و هو قول الحسن. و من قال: هما سورتان لم يجز ذلك، فقال العامل فيها، قوله (فليعبدوا) فكأنه قال لذلك الانعام (فليعبدوا) و مثله في تقديم القول فيه قوله (أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني) «١» لان تأمروني اعتراض على هذا التفسير، و إنما جاز أن يعمل ما بعد الفاء فيما قبله لأنها زائدة غير عاطفة، كقولك زيدا فاضرب، و تريد فاضربه، فهي على شبه الجواب الذي يجوز فيه تقديم المعمول كقولك زيدا:

إن يأتي زيدا أكرمه. و لو كانت عطفاً لم يجز التقديم، كما لا يجوز في الواو، و لا (ثم). و قيل العامل فيه (اعجبوا) لإيلاف قريش إلا انه حذف للدلالة الكلام عليه.

و قيل هو على (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ ... لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) أى فعل ذلك لا يلافهم و الإيلاف أصحاب الالف بحسن التدبير و التلطف، يقال: ألف يألف الفاء، و آلفه يؤلفه إيلافاً إذا جعله يألف، و اتلف القوم اتلتافاً و تألفوا تألفاً و ألفهم تألفاً. و الإيلاف نقيض الايحاش، و نظيره الإيناس. و الف الشيء لزومه على عادة في سكون النفس اليه.

و قوله (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال ابن زيد و الكلبي: كانت لهم رحلتان رحلة الصيف إلى الشام و رحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة. و الرحلة حال السير على الراحلة و هي الناقة القوية على السفر، و منه الحديث المروى (الناس كابل مائة لا يوجد فيها راحلة)

و الرحل متاع السفر و الارتحال احتمال الرحل للمسير في السفر. و الشتاء أوان شدة البرد. و الصيف زمان شدة الحر. و فصول السنة أربعة: ربيع، و صيف و خريف، و شتاء.

و قوله لِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

أمر من الله تعالى للمكلفين أن يوجهوا عبادتهم إلى الله رب البيت الحرام دون غيره من الأصنام (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ)

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٤

بما أعطاهم من الأموال و سبب لهم من الأرزاق بالسعى في التجارة في رحلة الشتاء و رحلة الصيف (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) الغارة بالحرم

الذى جبل قلوب العرب على تعظيمه. وقيل (آمنهم) من الجذام. قال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام بالكوفة يقرأ (ألم تر، وإيلاف) ولا يفرق بينهما.

١٠٧-سورة الماعون ص: ٤١٤

إشارة

وتسمى سورة (أرأيت) مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك مدنية وهي سبع آيات في الكوفي والبصري وست في المدنيين. عدّ أهل الكوفة والبصري (يراؤن) رأس آية، يجوز أن يقال (أريت) بحذف الهمزة. ولا يجوز أن يقال (ريت) لأن ألف الاستفهام يصير غيرها

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧] ص: ٤١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

سبع آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٥

قوله (أَرَأَيْتَ) خطاب للنبي صلى الله عليه وآله على وجه التعجب له من الكافر (الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ) و ذهابه عن الايمان به مع وضوح الأمر فيه و قيام الدلالة على صحته و المراد بالدين الجزاء من الثواب و العقاب، فالتكذيب بالجزاء من أضرّ شيء على صاحبه، لأنه يعدم به أكثر الدواعى إلى الخير، و الصوارف عن الشر، فهو يتهالك في الاسراع إلى الشر الذى يدعو له طبعه لا يخاف عاقبة الضرر فيه.

وقوله (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ) وصف الذى يكذب بالدين، فبين أن من صفته أنه يدع اليتيم، و معناه يدفعه عنفاً، و ذلك لأنه لا يؤمن بالجزاء عليه، فليس له رادع عنه، كما لمن يقر بأنه يكافئ عليه، دعه يدعو دعاً إذا دفعه دفعاً شديداً، و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة (يدع اليتيم) معناه يدفعه عن حقه. و قوله (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) معناه و لا يحث على طعام المسكين بخلا به، لأنه لو كان لا يحض عليه عجزاً عنه لم يذم به، و كذلك لو لم يحض عليه من غير قبيح كان منه لم يذم عليه، لأن الذم لا يستحق إلا بما له صفة الوجوب إذا أخل به أو القبيح إذا فعله على وجه مخصوص.

وقوله (قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) تهديد لمن يصلى على وجه الرياء و السمعة. و إنما أطلق مع انه رأس آية يقتضى تمام الجملة، لأنه معرف بما يدل على انه أراد من يصلى على جهة الرياء و النفاق، ثم بين ذلك بقوله (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) قال ابن عباس و مسروق: معناه يؤخرونها عن وقتها، و قال قتادة: معناه غافلون.

و قال مجاهد: لاهون كأنهم يسهون للهوهم عنها و اللهو يوجب تأخيرها عن وقتها لأنه قال عن صلاتهم. و قيل: ساهون فيها (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ) معناه إنهم يراؤن بصلاتهم الناس دون أن يتقربوا بها إلى الله. و إنما ذم السهو فى الصلاة مع انه ليس من فعل العبد بل هو من فعل الله، لأن الذم توجه فى الحقيقة على التعرض للسهو التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٦

بدخوله فيها على وجه الرياء و قلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضى صرف الهم اليها.

وقوله (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) قال ابو عبيدة: كل ما فيه منفعة، فهو الماعون، و قال الأعشى:

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم «١»

و قال الراعى:

قوم على الإسلام لما يمنعون ماعونهم و يضيعوا التنزيلا «٢»

و قال اعرابى فى ناقة: إنها تعطيك الماعون أى تنقاد لك، و الماعون أصله القلة من قولهم: المعن القليل قال الشاعر:
فان هلاك مالك غير معن

أى غير قليل، فالماعون القليل القيمة مما فيه منفعة من آله البيت نحو الفاس و المقدحة و الابرة و الدلو- و هو قول ابن مسعود و ابن عباس و إبراهيم و أبى مالك و سعيد ابن جبير- و سئل عكرمة فقل له: من منع ذلك فالويل له؟ قال: لا، و لكن من جمع ذلك بأن صلى ساهياً مرثياً و منع هذا.

و قوله (فويل للمصلين) و هو يعنى المنافقين، فدل على أن السورة مدنية لأنه لم يكن بمكة نفاق. و يقال: معن الوادى إذا جرت مياهه قليلاً قليلاً. و الماء المعين الجارى قليلاً قليلاً. و أمعن فى الامر إذا أبعد فيه قليلاً قليلاً. و روى عن على عليه السلام أنه قال: الماعون الزكاة ، و هو قول ابن عمر و الحسن و قتادة و الضحاك و قال الشاعر:

(١) ديوانه ١٩٩ و اللسان (معن) و مجاز القرآن ٣١٣ / ٢

(٢) اللسان (معن) و مجاز القرآن ٣١٥ / ٢ و قد مر فى ٣٧٣ / ٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٧

بمع صبيره الماعون صبا «١»

فالصبير السحاب. و قال أنس بن مالك: الحمد لله الذى لم يجعلها فى صلاتهم و إنما جعلها عن صلاتهم، فتأولها من تركها متعمداً، و المراد بالصلاة هنا الفرض.

١٠٨-سورة الكوثر ص: ٤١٧

إشارة

مكية فى قول ابن عباس و قال الضحاك مدنية، و هى ثلاث آيات بلا خلاف

[سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣] ص: ٤١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

ثلاث آيات.

هذا خطاب من الله لنبىه صلى الله عليه و آله على وجه تعداد نعمه عليه. يقول (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) فالإعطاء إخراج الشىء إلى آخذ له، و هو على وجهين: إعطاء تملك و إعطاء غير تملك. فإعطاء الكوثر إعطاء تملك، كإعطاء الأجر، و أصله التناول من عطا يعطوا إذا تناول. و (الكوثر) الشىء الذى من شأنه الكثرة، و الكوثر الخير الكثير. و هو (فوعل) من الكثرة، قال عطاء: هو حوض النبى صلى الله عليه و آله الذى

(١) القرطبي ٢٠/٢١٩ والشوكاني ٥/٤٨٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٨

يكثر الناس عليه يوم القيامة. وقال ابن عباس: هو الخير الكثير. وروى عن عائشة: أن الكوثر نهر في الجنة جانبها قباب الدر والياقوت، وقال الحسن: الكوثر القرآن. وقال ابن عمر: هو نهر يجري في الجنة على الدر والياقوت وقوله (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) أمر من الله تعالى لنبهه ويدخل معه جميع المكلفين يأمرهم بالصلاة وأن ينحروا وقال ابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء: معنى وانحر انحر البدن متقرباً إلى الله بنحرها خلافاً لمن نحرها للأوثان، وقيل: معناه (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) صلاة العيد (وَأَنْحَرِ) البدن والاضاحي، وقيل: معناه صل لربك الصلاة المكتوبة واستقبل القبلة بنحره. تقول العرب: منازلنا نتناحر هذا ينحر هذا أى مستقبله، وانشد بعضهم:

أبا حكم ها انت عم مجالد و سيد أهل الأبطح المتناحر «١»

و

روى عن علي عليه السلام أن معناه ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر

- وهذه الرواية غير صحيحة -

المروى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن معناه وانحر البدن والاضاحي.

وقوله (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) فالشائئ المبغض تقول: شنته اشنؤه شناء إذا أبغضته، وقال ابن عباس: معناه عدوك، وهو قول سعيد بن جبير، وقال:

هو العاص بن وائل السهمي، فانه قال في النبي صلى الله عليه وآله إنه أبتري لا عقب له، فقال الله تعالى (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) يعنى الذى انقطع عنه كل خير، وقيل: إنه أراد به انه لا- ولد له على الحقيقة، وأن من ينسب اليه ليس بولد له، والأبتري هو المنقطع عن الخير، وقيل: هو الذى لا عقب له- ذكره مجاهد- وقال قتادة: معناه الأقل الأذل بانقطاعه عن الخير. وقيل: قوله (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) جواب لقول قريش انه أبتري لا ولد له ذكر إذا مات قام مقامه يدعو اليه، وقد انقطع أمره.

(١) القرطبي ٢٠/٢١٩ والشوكاني ٥/٤٨٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤١٩

فقيل: إن شانتك هو الأبتري الذى ينقطع ما هو عليه من كفره بموته، فكان الامر كما اخبر به، وقيل: الحمار الأبتري المقطوع الذنب، فشبه به. وقيل: فى السورة تشاكل المقاطع للفواصل وسهولة مخارج الحروف بحسن التأليف وتقابل المعانى بما هو أولى لان قوله (فصل لربك) احسن من صل لنا، لأنه يجب أن يذكر فى الصلاة بصفة الربوبية (وانحر) هاهنا أحسن من قوله (وانسكه) لأنه على برّ يعم بعد برّ يخص.

و (الأبتري) احسن من (الأخس) لأنه أدل على الكناية فى النفس، فهذه الحروف القليلة قد جمعت المحاسن الكثيرة. و ما لها فى النفس من المنزلة أكثر بالفخامة والجزالة وعظم الفائدة التى يعمل عليها وينتهى اليها.

١٠٩-سورة الكافرون ص: ٤١٩

إشارة

مكية فى قول ابن عباس، وقال الضحاك مدنية، وهى ست آيات بلا خلاف

[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦] ص: ٤١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)
ست آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٠

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائي (ولى دين) ساكنة الياء. الباقون بفتحها من فتح الياء فلخفة الفتحة. و من أسكنها فانه كره الحركة على حرف العلة. وقرأ (دينى) بياء فى الحالين يعقوب. الباقون بلا ياء فيهما. من أثبت الياء، فلأنها الأصل. و من حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها. و قيل: إن هذه السورة نزلت جواباً لقول جماعة من المشركين دعوا النبى صلى الله عليه و آله إلى أن يعبد آلهتهم سنة و يعبدوا هم إلهه سنة. و فيهم نزل قوله «أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» (١) هذا قول ابن عباس. و قيل: إنهم قالوا: نشر كك فى أمرنا، فان كان الذى فى أيدينا خيراً كنت قد أخذت بحظ منه، و إن كان الذى فى يدك خيراً قد أخذنا بحظ منه. و قيل: إن الذى قال ذلك الوليد ابن المغيرة و العاص ابن وائل و الأسود ابن المطلب و أمية ابن خلف. و قيل: إنهم قالوا: تتداول العبادة ليزول ما بيننا من البغضاء و العداوة، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله أن يقول لهم «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» و معناه لا أعبد ما تعبدون لفساد عبادة الأوثان، و لا أنتم عابدون ما أعبد لجهلكم بوجوب إخلاص العبادة لله، لان العقل يقتضى أنه صلى الله عليه و آله لهذا امتنع و امتنعوا. و إنما كرر ذكر العبادة لتصريفها فى الفوائد المختلفة و قد نفى عبادة المؤمن للوثن كيف تصرف الحال فى ماض أو حاضر أو مستقبل لقبحها، و نفى عبادة الكافر لله مع إقامته على الجهل بوجوب إخلاص العبادة له.

و قيل: فى وجه التكرير فى السورة أن ظاهر ذلك و إن كان تكريراً، فليس فى الحقيقة تكريراً أصلاً، و لا- تكرر فى اللفظ إلا فى موضع واحد سنيته بعد بيان المعنى إن شاء الله، و ذلك أن قوماً من المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه و آله مناقلة العبادة سنة يعبدون فيها ما يعبده صلى الله عليه و آله و سنة يعبد هو ما يعبدون لزوال العادة بوقوع العبادة

(١) سورة الزمر آية ٦٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢١

على هذه الجهلة فجاء الكلام على طريق الجواب لانكار ما سألوا، فقيل «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» و هذا نفى منه لما يعبدون فى الاستقبال ثم قال «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا تَعْبُدُونَ» على نفى العبادة لما عبدوا فى الماضى، و هذا واضح فى أنه لا تكرر فى لفظه و لا- معناه. و قوله «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» فعلى التكرير فى اللفظ دون المعنى من قبل أن التقابل يوجب أن معناه و لا أنتم عابدون ما عبدت إلا انه عدل بلفظه إلى اعبد للاشعار أن ما عبدت هو ما أعبد، و استغنى بما يوجه التقابل من معنى عبدت عن الإفصاح به. و عدل عن لفظه لتضمن معنى آخر فيه، و كان ذلك أكثر فى الفائدة و أولى بالحكمة، لأنه دل على (عبدت) دلالة التصريح باللفظ فان قيل فهلا قال: ما عبدت ليتقابل اللفظ، كما تقابل المعنى؟ قيل: هو فى حكم التقابل فى اللفظ من حيث هو دال عليه إلا انه عدل عن الإفصاح به للاشعار بأن معبوده واحد كيف تصرف الحال، و كان هذا أبعد فى الإيهام أن معبوده فيما مضى غير معبوده فيما يستقبل. و قد يجوز فى الماضى و المستقبل ان يقع أحدهما موقع الآخر إذا كان فى الكلام ما يدل عليه، كما قال «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ» (١) على معنى ينادون، و منه قولهم: يدعوهم ابن رسول الله فلا يجيبونه، و يدعوهم ابن زياد إلى الباطل فيسرعون اليه.

فان قيل: فهلا- دل على اختلاف المعنى باختلاف اللفظ إذ هو الأصل فى حسن البيان؟ قيل: إن التقابل فى ذلك قد صير اللفظ فى حكم المختلف، لأنه مقيد به، و دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق نحو: زيد قائم بالتدبير على خلاف معنى زيد قائم.

فان قيل: فهلا- دل على ذلك من أصول مختلفة إذ هو أدل على خلاف المعنى بصريح الجهة؟ قيل: إنه لما أريد نفى العبادة على

تصريف الأحوال صرف لفظ

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٢

العبادة لتصريف المعنى، و لم يصلح فيه أصول مختلفة، لثلا- يوهم النفي نفى معنى غير تصريف عبادة الله على الوجوه والأسباب كلها، و كان تصريف لفظ العبادة لتصريف معناها أحق و أولى من تصريف معناها في غير لفظها لما فيه من التشاكل المنافي للتنافر، و لفظه (الكافرون) في السورة مخصوصة بمن علم الله من حاله أنه يموت على كفره.

و لا- يجوز ان يكون المراد العموم لأننا علمنا دخول كثير ممن كان على الكفر ثم دخل في الإسلام، و قيل: ان الالف و اللام في الآية للمعهود، لأن (أيا) لا- يوصف إلا- بالجنس، فخرج اللفظ على الجنس من حيث هو صفة ل (أى) و لكن (أيا) للمخاطبين من الكفار بأعيانهم فال الى معنى المعهود في انه يرجع إلى جماعة بعينها، و نحوه يا أيها الرجال ادخلوا الدار، فلم تأمر جميع الرجال، و لكن أمرت الذى أشرت اليهم بإقبالك عليهم. و قيل: يجوز أن تكون الآية عامة، و التقدير و لا أنتم عابدون ما أعبد بالشرط الذى ذكرتموه من أنى أعبد إلهكم، لان هذا الشرط لا يكون ابداءً، و لكن يجوز أن يؤمنوا فيما بعد بغير هذا الشرط.

فان قيل: ما فائدة الكلام؟

قيل الإنكار لما لا يجوز من مناقلة العبادة على ما توهمه قوم من الكفار لتقوم الحجة به من جهة السمع كما كانت من جهة العقل مع الاعجاز الذى فيه. فان قال قائل: من أى وجه تضمن الاعجاز؟ قيل: له من جهة الاخبار بما يكون في مستقبل الأوقات مما لا سبيل إلى علمه إلا بوحي الله إلى من يشاء من العباد، فوافق المخبر بما تقدم به الخبر، و فى ذلك أكبر الفائدة و أوضح الدلالة.

فان قيل: ما معنى «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ»؟

قيل معناه لكم جزاء دينكم ولى جزاء ديني و حسبك جزاء دينهم وبالوا و عقاباً كما حسبك بجزاء دينه نعيماً و ثواباً، التبيان في تفسير

القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٣

فان قيل: لم لا ذكرت الحجة فى أن ما يدعون اليه لا يجوز.

قيل له: تقييحاً لها من حيث أخرجت مخرج مقالة يكفى العلم بفسادها، حكايتها مع الاستغناء بما فى العقول عن الدلالة على بطلانها.

فان قيل: فهلا أنكر عليهم من طريق أن كل ما دعوا اليه لا يجوز للإيجاز؟

قيل: لأنه إنكار متصل على حد ما يسألوا و لو أنكر انكاراً مجملاً لم يبين به تفصيل ما سأله إلا بأن يحكى على انفراده. ثم يحمل

الإنكار به فحينئذ يفهم منه معنى المفصل.

فان قيل: فهلا بين ذكرهم بصفة غير منكر؟

قيل: قد بين ذلك بعلم التعريف له إلا- أنه بصفات الذم التى فيها معنى الزجر و هى دالة على أحوالهم فيما دعوا له من الباطل، و

تفحموا من أحوال الجاهل.

فان قيل: فلم قال «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ» مع ما يقتضى ظاهره التسليم؟

قيل: مظهرة فى الإنكار، كما قال تعالى «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» (١) لما صاحبه من الدليل على التمكين و شدة الوعيد بالقبح لأنه إذا اخرج

الكلام مخرج التسليم للأمر دل على أن الضرر لا يلحق إلا المسلم اليه، فكأنه قيل له: أهلك نفسك إن كان ذلك خيراً لك.

فان قال: فلم قيل: و لا أنتم عابدون ما أعبد، و لم يقل من أعبد؟

قيل له: لأنه مقابل لقوله «و لا أنا عابد ما عبدتُم» من الأصنام، و لا يصلح هاهنا إلا (ما) دون (من) لأنه يعنى و لا أنا عابد ما عبدتم من

الأصنام ثم حمل الثانى على الاول للتقابل حتى لا يتنافر. و قيل: ان معناه و لا أنا عابد عبادتكم و لا أنتم عابدون عبادتى، لان عبادته

متوجهة إلى الله، وعبادتهم متوجهة إلى الأصنام

(١) سورة ٤١ (فصلت) حم السجدة آية ٤٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٤

ف (ما) هاهنا مع ما بعدها بمنزلة المصدر.

فان قيل: فلم أنكر ما لا يجوز في الحكمة بألين النكير مع خروجه إلى أفحش القبح؟

قيل: ليس ذلك بألين النكير في المعنى و إن خرج لفظه ذلك المخرج، لأنه إنما عومل تلك المعاملة ليجعل في حيز ما يكفى فيه التنبيه، حتى يظهر انه أقبح قبيح و هذا ضرب من البلاغة عجيب يفهمه كل عاقل له أدنى فطنة. و يعلم موضعه في الحكم فان قيل: ما الدليل على ان تأويل السورة ما ذكرتم دون غيره من التأويلات قيل: الدليل على ان ذلك الكلام إذا احتمل وجهين فصاعداً في اللغة، و أحد الوجهين يجوز، و الآخر لا يجوز، و جب ان يكون تأويله ما يجوز عليه تعالى و يليق به دون ما لا يليق به و لا يجوز عليه، تعالى الله.

١١٠-سورة النصر ص: ٤٢٤

إشارة

مدنية في قول ابن عباس و الضحاك، و هي ثلاث آيات بلا خلاف

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣] ص: ٤٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

ثلاث آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٥

هذا وعد من الله تعالى لنبية صلى الله عليه و آله بالنصر بالفتح قبل وقوع الأمر. و قال الحسن و مجاهد: وعده الله فتح مكة و نصرته على كفار قريش، فيجىء النصر و وقوعه على التوقع له، و النصر المعونة على العدو للظهور عليه، لان المعونة قد تكون بالمال على نوائب الزمان، و قد تكون على العدو، و هي النصر دون المعونة الأخرى. و الفتح الفرج الذى يمكن معه الدخول فى الامر بملك العدو الناصب للحرب، و قد يكون الفرج بالفرق فقط، فلا يكون الفتح بذهاب العدو الذى صار علماً على هذا المعنى.

وقوله تعالى «وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» يعنى فى طاعة الله و طاعتك: من الإسلام و التزام الأحكام و اعتقاد صحته و توطين النفس على العمل به. و أصل الدين الجزاء. ثم يعبر به عن الطاعة التى يستحق بها الجزاء، كما قال «فِي دِينِ الْمَلِكِ» (١) أى فى طاعته. و الفوج جماعة من جماعة، و الأفواج جماعات من جماعات. و هكذا كان الناس يدخلون فى الدين جماعة بعد جماعة من جملة القبيلة حتى يتكامل اسلام الجميع.

وقوله «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ» امر من الله تعالى لنبية صلى الله عليه و آله بأن يترهه عما لا يليق به من صفات النقص، و أن يستغفره. و وجه وجوب ذلك بالنصر و الفتح، أن النعمة به تقتضى القيام بحق النعمة المنافى للمصيبة. فكأنه قال قد حدث أمر يقتضى الاستغفار مما جرده الله لك فاستغفره بالتوبة يقبل ذلك منك، و مخرجه مخرج الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله و هو تعليم لجميع أمته. و معنى «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» نزهه عما لا- يجوز عليه مع شكرك إياه. و قيل معناه: صل شكراً له على ما جدد لك من

نعمة. والاستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الإصرار، وقد يكون على

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٧٦ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٦

وجه التسييح، والانقطاع إلى الله.

وقوله «إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» معناه إنه يقبل توبه من بقى كما قبل توبه من مضى.

والتَّوَابُ في صفة الله الكثير القبول للتوبة، و في صفة العباد الكثير الفعل للتوبة. و قال قتادة: عاش النبي صلى الله عليه وآله بعد هذا سنتين ثم توفي صلى الله عليه وآله.

١١١-سورة الذهب ص: ٤٢٦

إشارة

مكية في قول ابن عباس والضحاك، و هي خمس آيات بلا خلاف

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

خمس آيات.

قرأ عاصم «حمالة الحطب» نصباً على الذم. الباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء، ويجوز أن يكون ارتفع (امرأته) على انه فاعل «سَيَصْلَىٰ» فكانه قال سيصلى أبو لهب و امرأته ناراً ذات لهب. و قرأ ابن كثير «يدا أبي لهب» ساكنة الهاء على التخفيف، كما قالوا في نهر: الباقون بالثقل.

و روى أن أبا لهب كان قد عزم على أن يرمى النبي صلى الله عليه وآله بحجر فمنعه الله التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٧ من ذلك، و قال تبت يدها للمنع الذي وقع به. ثم قال «وَتَبَّ» بالعقاب الذي ينزل به فيما بعد. و قيل في قوله «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» أنه الدعاء عليه نحو قوله «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (١) فاما قوله «وَتَبَّ» فانه خبر محض، كأنه قال:

و قد تب. و قيل: إنه جواب لقول أبي لهب: تباً لهذا من دين، حين

نادى النبي صلى الله عليه وآله و آله بنى عبد المطلب، فلما اجتمعوا له قال لهم: إن الله بعثنى إلى الناس عاماً و إليكم خاصاً، و أن اعرض عليكم ما إن قبلتموه ملكتم به العرب و العجم، قالوا و ما ذلك يا محمد صلى الله عليه وآله قال: أن تقولوا لا إله إلا الله و انى رسول الله. فقال أبو لهب تباً لهذا من دين. فأنزل الله تعالى قوله «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ»

و التباب الخسران المؤدى إلى الهلاك تبه يتب تباً، و التباب الهلاك. و في «تَبَّتْ يَدَا» مع أنه إخبار ذم لابي لهب لعنه الله، و إنما قال: تبت يدها و لم يقل: تب، مع انه هو الهالك في الحقيقة لأنه جار مجرى قوله كسبت يدها، لأن اكثر العمل لما كان باليدين أضيف ذلك اليهما على معنى الخسران الذى أدى اليه العمل بهما.

و قوله «مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ» معناه ما نفعه ماله و لا الذى كسبه من الأموال، و لا دفع عنه عقاب الله حين نزل به، فالاغناء عنه

الدفع عنه، فأما الإغناء بالمال و نحوه فهو دفع وقوع المضارّ به.

وقوله «سَيَصِلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ» خبر من الله تعالى أن أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب، و هي نار جهنم المتلهبة. و في ذلك دلالة على صدق النبي صلى الله عليه و آله، لأنه اخبر بأنه يموت على كفره، و كان الأمر على ذلك.

وقوله «وَأَمْرًا تُهَيِّئُ لَهَا مِنَ الْخَطْبِ» قال ابن عباس و الضحاك و ابن زيد: إن امرأة أبي لهب كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه و آله إذا خرج إلى الصلاة

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ و سورة ٦٣ المنافقون آية ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٨

و قال عكرمة و مجاهد و قتادة: إنما وصفت بحماله الحطب، لأنها كانت تمشى بالنميمة و قيل: حمالة الحطب في النار. و في ذلك دلالة أيضاً قاطعة على أنها تموت على الكفر. و امرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب اخت أبي سفيان عمه معاوية، و قوله «فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ» فالمسد حبل من ليف، و جمعه أمساد و إنما وصفت بهذه الصفة تخسيساً لها و تحقيراً و الجيد العنق، قال ذو الرمة:

فعيناك عيناها و لونك لونها و جيدك إلا انه غير عاطل
و قال ابو عبيدة: المسد حبل يكون من ضروب، قال الراجز:

و مسد امر عن أياتق صهب عناق ذات منح زاهق «١»

و المسد الليف لان من شأنه أن يقتل للحبل. و أصل المسد المحور من حديد، لأنه يدور بالقتل، و قال قوم: هو الليف المفتل.

فان قيل: ما الذي كان يجب على أبي لهب حين سمع هذه السورة؟ أ كان يجب عليه أن يؤمن؟ فلو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله بأنه سيصلى ناراً ذات لهب، و إن لم يجب عليه الايمان فذلك خلاف الإجماع!! قيل: خبر الله مشروط بأنه سيصلى ناراً ذات لهب إن لم يؤمن، و يجب عليه أن يعلم ذلك، و هذا أبين الاجوبة و أظهرها. و الله أعلم.

(١) مجاز القرآن ٣١٥ / ٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٢٩

١١٢-سورة الإخلاص ص: ٤٢٩

إشارة

مكية في قول ابن عباس، و قال الضحاك مدنية، و هي أربع آيات

[سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤] ص: ٤٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

اربع آيات.

قرأ ابو عمرو- في رواية هارون عنه- «احد الله الصمد» بغير تنوين في الوصل. و قرأ في رواية نصر عن أبيه و احمد بن موسى عنه بالتنوين، و جه ترك التنوين أنه ينوى به الوقف، لأنه رأس آية مع انه قد يحذف التنوين لالتقاء الساكنين، و الوجه تحريكه، قال

الشاعر:

فالفقيه غير مستعجب ولا ذاكر الله إلا قليلاً «١»

و قرأ «كفوًا» بسكون الفاء - مهموزاً - حمزةً و نافع على خلاف عن نافع.

الباقون بضم الفاء مهموزاً. وإنما قال في أوائل هذه السور «قُلْ» و هي أوامر من الله تعالى، لان المعنى قال لى جبرائيل «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فحكى النبي صلى الله عليه و آله ما قيل له. و قيل لسورة الإخلاص و قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (المقشقتان) و معناهما المبرئتان من الكفر و النفاق، كما يقشقتس الهناء الجرب.

(١) مر ٢/ ٧٦ و ٣/ ٢١٥ و ٥/ ٢٣٩، ٣٩٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٠

و هذا امر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله ان يقول لجميع المكلفين «هُوَ اللَّهُ» الذى تحقق له العبادة «أَحَدٌ» و معناه واحد، فقوله «هو» كناية عن اسم الرب، لأنهم قالوا ما ربك؟ قال هو الله احد. و قال الكسائي «هو» عماد، و قوله «الله» ابتداء، و خبره (أحد) و أنكر الفراء أن يكون العماد مستأنفاً، و اصل (أحد) و احد فقلبت الواو همزةً، كما قيل: و ناه و أناه، لان الواو مكروهةً أولاً، و قد جاء وحد على الأصل قال الشاعر:

كأن رجلى و قد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد «١»

و حقيقة الواحد شىء لا ينقسم فى نفسه أو معنى صفته، فإذا أطلق احد من غير تقدم موصوف، فهو احد نفسه، فإذا جرى على موصوف، فهو احد فى معنى صفته، فإذا قيل: الجزء الذى لا يتجزأ واحد، فهو واحد فى معنى صفته، و إذا وصف تعالى بأنه احد، فمعناه أنه المختص بصفات لا يشاركه فيها غيره: من كونه قديماً و قادراً لنفسه و عالماً و حياً و موجوداً كذلك، و أنه تحقق له العبادة لا تجوز لأحد سواه. و لا يجوز أن يكون (أحد) هذه هى التى تقع فى النفس، لأنها أعم العام على الجملة أحد، و التفصيل، فلا يصلح ذلك فى الإيجاب، كقولك ما فى الدار احد أى ما فيها واحد فقط و لا اكثر، و يستحيل هذا فى الإيجاب، و فى قوله «الله أَحَدٌ» دليل فساد مذهب المجسمة، لأن الجسم ليس بأحد إذ هو اجزاء كثيرة، و قد دل الله بهذا القول على أنه احد، فصح انه ليس بجسم. و قوله «الله الصَّمَدُ» معناه الذى تحقق له العبادة هو الموصوف بأنه (الصمد) و قيل: فى معناه قولان: أحدهما- قال ابن عباس و شقيق و ابو وائل: إنه السيد المعظم، كما قال الاسدى:

(١) اللسان (وحد، انس)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣١

الابكر الناعى بخيرى بنى أسد بعمر و بن مسعود و بالسيد الصمد «١»

و قال الزبرقان:

و لا رهينته إلا السيد الصمد،

الثانى - ان معناه الذى يصمد اليه فى الحوائج ليس فوقه أحد، يقال: صمدت اليه أصمد إذا قصدت اليه إلا أن فى الصفة معنى التعظيم كيف تصرف الحال.

و من قال: الصمد بمعنى المصمت، فقد جهل الله، لأن المصمت هو المتضاغط الاجزاء و هو الذى لا جوف له و هذا تشبيه و كفر بالله تعالى.

و قوله «لَمْ يَلِدْ» نفى منه تعالى لكونه والد إله ولد.

وقوله «وَلَمْ يُولَدْ» نفى لكونه مولود إله والد، لأن ذلك من صفات الأجسام وفيه ردّ على من قال: إن عزير و المسيح أبناء الله تعالى، وإن الملائكة بنات الله.

وقوله «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» نفى من الله تعالى أن يكون له مثل أو شبيه أو نظير، والكفو والكفاء والكفى واحد، وهو المثل والنظير، قال النابغة:

لا تقذفني بركن لا كفاء له و لو تأثفك الاعداء بالرقد

و (أحد) مرفوع لأنه اسم (كان) و (كفوًا) نصب، لأنه نعت نكرة متقدمة، كما تقول: عندي ظريفًا غلام، تريد عندي غلام ظريف، فلما قدمت النعت على المنعوت نصبته على الحال- في قول البصريين- و على الظرف في قول الكوفيين- و التقدير في الآية و لم يكن له كفوًا، و أخص منه و لم يكن أحد كفوًا له، و إنما قدم الظرف الملقى مع أن تأخير الملقى أحسن في الكلام لأنه أفضل بذكر الأنبه الأعراف، كما يتقدم الظرف الذي هو خبر و موضعه التأخير لهذه العلة في مثل قولهم: لزيد مال و له عبد.

(١) مجاز القرآن الشاهد ٩٥٠: ٣١٦/٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٢

و لا حى من الأحياء إلا و له مثل إلا الله تعالى، فلذلك قال «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» و روى أن النبي صلى الله عليه و آله كان يقف عند آخر كل آية من هذه السورة، و كذلك كان يقرأ ابن مجاهد في الصلاة ابتداء.

١١٣-سورة الفلق ص: ٤٣٢

إشارة

مكية في قول ابن عباس و قال الضحاك هي مدنية، و هي خمس آيات بلا خلاف

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥] ص: ٤٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)
خمس آيات.

روى قتيبة إمالة (حاسد).

هذا أمر من الله تعالى لنبية محمد صلى الله عليه و آله و متوجه إلى جميع الخلق المكلفين بأن يستعيذوا من شر ما خلق، فالفلق الصبح- في قول ابن عباس و الحسن و سعيد ابن جبير و جابر و مجاهد و قتادة و ابن زيد- و في رواية عن ابن عباس: إن الفلق التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٣

الخلق. و قال قوم من أهل اللغة: الفلق الخلق، لأنه مفلوق. و منه «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ» «١» و «فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوَى» «٢» و قيل للدهية فلقه، لأنها تفلق الظهر و أصل الفلق الفرق الواسع من قولهم: فلق رأسه بالسيف يفلقه فلقةً إذا فرقه فرقاً واسعاً. و يقال: أبين من فلق الصبح، لأن عموده ينفلق بالضياء عن و فرق الصبح الظلام. و قيل له فجر لانفجاره بدهاب ظلامه.

وقوله «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» عام في جميع ما خلقه الله فإنه ينبغي أن يستعاذ من شره ممن يجوز أن يحصل منه الشر، وقيل: المراد من شر الأشياء التي خلقها مثل السباع والهوام والشياطين وغير ذلك.

وقوله «وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ» قال ابن عباس والحسن ومجاهد: من شر الليل إذا دخل بظلامه. وقيل: الغاسق كل هاجم بضرر كائناً ما كان، فالغاسق في اللغة هو الهاجم بضرره، وهو هنا الليل، لأنه يخرج السباع من آجامها والهوام من مكائنها، وأصله الجريان بالضرر من قولهم: غسقت القرحة إذا جرى صديدها. والغاسق صديد أهل النار لسيلانه بالعذاب، وغسقت عينه غسقاً إذا جرى دمعه بالضرر في الخلق. والليل غاسق لجريانه بالضرر في إخراج السباع، وقال كعب: الغسق بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، ومعنى «وقب» دخل، وقب يقب وقوباً إذا دخل. ومنه الوقبة النقرة، لأنه يدخل فيها.

وقوله «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» قال الحسن وقتادة: يعني السحرة الذين كل ما عقدوا عقداً نفثوا فيه، وهو شبيه بالنفخ، فأما الثفل فنفخ بريق،

(١، ٢) سورة ٦ الانعام آية ٩٥-٩٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٤

فهذا الفرق بين النفث والتفل، قال الفرزدق:

هما نفثا في في من فمويهما على النابح العاوى أشد رجام «١»

وقيل في شر النفثات قولان: أحدهما- إيهاهم أنهم يمرضون ويعافون، ويجوز ذلك مما يخيل رأى الإنسان من غير حقيقة لما يدعون من الحيلة بالأطعمة الضارة والأمور المفسدة. الثاني- أنه بضرب من خدمة الجن يمتحن الله تعالى بتخليتهم بعض الناس دون بعض. ولا- يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله سحر على ما رواه القصاص الجهال، لأن من يوصف بأنه مسحور، فقد خبل عقله. وقد أنكر الله تعالى ذلك في قوله «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا» «٢» ولكن قد يجوز أن يكون بعض اليهود اجتهد في ذلك فلم يقدر عليه، فأطلع الله نبيه على ما فعله حتى استخرج ما فعلوه من التمويه، وكان دلالة على صدقه ومعجزة له.

وقوله «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» فالحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن صاحبها، وإن لم يرد لها لنفسه. والغبطة أن يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبه وأن لم يرد زوالها عنه، فالغبطة محمودة والحسد مذموم. وفي السورة ما يستدفع به الشرور بإذن الله على تلاوة ذلك بالإخلاص فيه، والاتباع لأمر الله. و

كان النبي صلى الله عليه وآله كثيراً ما يعوذ به الحسن والحسين بهاتين السورتين.

وقيل إن اللواتي سحرن النبي صلى الله عليه وآله بنات لبيد بن أعصم اليهودي، سحرنه في إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى السورتين، وهما إحدى عشرة آية فحل بكل آية عقدة.

(١) ديوانه ٧٧١ (نشر الصاوي)

(٢) سورة ١٧ الإسراء آية ٤٧ و سورة ٢٥ الفرقان آية ٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٥

١١٤-سورة الناس ص: ٤٣٥

و هي ست آيات بلا خلاف

[سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦] ص: ٤٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)
 الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)
 ست آيات.

كان الكسائي في رواية أبي عمير يميل «الناس» لكسرة السين، و هو حسن الباقون يتركون الامالة، و هو الأصل.
 هذا أمر من الله تعالى لنبه محمد صلى الله عليه و آله و يدخل فيه المكلفون، يأمرهم أن يستعينوا «بِرَبِّ النَّاسِ» و خالقهم الذي هو «مَلِكِ النَّاسِ» و مدبرهم و إلههم «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ» و أن يقولوا هذا القول الذي هو «أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...»
 إلى آخرها و «بِرَبِّ النَّاسِ» هو الذي خلقهم و دبرهم على حسب ما اقتضته الحكمة و قوله «مَلِكِ النَّاسِ» إنما خص بأنه ملك الناس مع أنه ملك الخلق أجمعين لبيان أن مدبر جميع الناس قادر أن يعيدهم من شر ما استعاذوا منه مع أنه أحق بالتعظيم من ملوك الناس.
 و الفرق بين (ملك) و (مالك) حتى جازا جميعا في فاتحة الكتاب و لم يجز التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٦
 - هاهنا- إلا ملك، لأن صفته ملك تدل على تدبير من يشعر بالتدبير، و ليس كذلك مالك، لأنه يجوز أن يقال: مالك الثوب، و لا يجوز ملك الثوب، و يجوز أن يقال:

ملك الروم، و لا يجوز مالك الروم، فجرت- في فاتحة الكتاب- على معنى الملك في يوم الجزاء، و مالك الجزاء، و جرت في سورة الناس على (ملك) تدبير من يعقل التدبير، فكأن هذا أحسن و أولى.
 و قوله «إِلَهِ النَّاسِ» معناه أنه الذي يجب على الناس أن يعبدوه، لأنه الذي تحقق له العبادة دون غيره «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ» حديث النفس بما هو كالصوت الخفي و أصله الصوت الخفي من قول الأعشى:
 تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل «١»
 و قال روبة:

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق سرّاً و قد أوّن تأوين العقق «٢»

و الوسوسة كالمهمة و منه قولهم: فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتره من المرة. و سوس يوسوس و سواساً و وسوسة و توسوس توسوساً. و في معنى قوله «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ» ثلاثة أقوال:

أحدها- من شر الوسوسة التي تكون من الجنة و الناس، فأمر بالتعوذ من شر الجن و الانس.

الثاني- من شر ذى الوسواس و هو الشيطان، كما قال في الأثر: انه يوسوس فإذا ذكر العبد ربه خنس، فيكون قوله «مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» بيان انه منهم، كما قال «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» «٣» فأما «و الناس» فعطف عليه كأنه قيل من الشيطان

(١) مر في ٣٩٧ / ٤

(٢) مر في ٣٩٧ / ٤ و ٣٦٣ / ٩

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٥١

التبيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٧

الذي هذه صفته و الناس الذين هذه صفتهم، الثالث- من شر ذى الوسواس الخناس على العموم، ثم يفسر بقوله- عز و جل- من «الْجِنَّةِ

وَ النَّاسِ» كما يقال: نعوذ بالله من كل مارد: من الجن والانس و قوله «الْحَنَاسِ» معناه الكثير الاختفاء بعد الظهور، خنس يخنس خنوساً، و منه قوله «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ» (١) أى بالنجوم التى تخفى بعد ما تظهر بتصريف الحكيم الذى أجراها على حق حسن التدبير، و منه الخنس فى الانف لخفائه بانخفاضه عند ما يظهر بنتوئه. قال مجاهد: إذا ذكر العبد ربه خنس، فإذا غفل وسوس اليه و قوله «الَّذِي يُؤَسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ» قيل: ان الشيطان يعترى الإنسان بكلام خفى بفعله يصل مفهومه إلى قلبه من غير سماع صوته، كإنسان يتكلم من وراء حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع الصوت، و هذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة و أما الإنسان فإنما يوسوس غيره بأن يدعو إلى الفساد و يحسن ذلك و يغويه به و يسوفه التوبة و يمينه العفو، و قوله «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ» بيان لمن يكون منه الوسوسة و قد بين الله تعالى أنه يكون من قبيل الجن و من قبيل الانس. و الناس أصله من الأناص، فحذفت الهمزة التى هى فاء و يدل على ذلك الانس و الأناص. و اما فى تحقيقه نويس، فان الالف لما كانت ثانية زائدة أشبهت الف فاعل، فلما قلبت واواً شبهة بألف فاعل كذلك جازت الامالة فى المواضع التى أميل الاسم فيها لذلك، و من سأل عن قوله «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ. و قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. و سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ» و ما أشبه ذلك من الأوامر المتوجهة إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: كيف جاز من النبى صلى الله عليه و آله أن يقول: قل للأمة؟ و لو جاز ذلك لجاز أن يقول الإنسان لغلامه قل لزيد كذا فيقول غلامه لزيد: قل كذا. و هذا خلاف الغرض.

(١) سورة ٨١ التكوير آية ١٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ١٠، ص: ٤٣٨

قلنا عنه جوابان:

أحدهما- ان الامر و إن كان متوجهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله فالمراد به أمته معه، فكأنه خاطب الجميع بان يقولوا ذلك و أن يسبحوا و غير ذلك، فلا سؤال على هذا.

و الثانى- ان الله تعالى أمر النبى صلى الله عليه و آله بأن يفعل الذى أمره و أمره أيضاً بتلاوة كلامه، فلما كان قوله «قل، و سبح» من كلام الله و جب عليه أن يتلوه على وجهه و لو كان مأموراً بالفعل دون التلاوة لما وجب أن يأتى بلفظة «قل» فى هذه المواضع كلها و جميع أى القرآن فى البصرى ست آلاف و مائتان و أربع آيات.

و فى المدنى الاول ست آلاف و مائتان و سبع عشرة آية.

و فى الكوفى ست آلاف و مائتان و ست و ثلاثون آية.

و فى المدنى الأخير ست آلاف و مائتان و اربع عشرة آية.

و جميع ما نزل بمكة خمس و ثمانون سورة لا خلاف فى ذلك.

و بالمدينة تسع و عشرون سورة لا خلاف فى ذلك.

فذلك مائة و أربع عشرة سورة.

و على ما روينا على أصحابنا و عن جماعة متقدمين مائة و اثنتا عشرة سورة.

و عدد جميع كلمات القرآن تسع و سبعون ألفاً و مائتان و سبع و سبعون كلمة.

و يقال سبع و ثمانون كلمة. و يقال تسع و ثلاثون كلمة.

و جميع حروفه ثلاثمائة الف حرف و ثلاثة و عشرون ألفاً و خمسة عشر ألفاً.

و عدد نقطة مائة الف و ست و خمسون ألفاً و إحدى و ثمانون نقطة.

تم المجلد العاشر و به تم الكتاب و الحمد لله

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكمم وأنفسكمم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفي مصباحها، بل تتبج بأقوى وأحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشئته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافتهم الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريّة، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيتة و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" و "مفتق و فاني" / بنايه "القائمية"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعية، غير حكوميّة، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا تُوفى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفّق الكلّ توفيقاً مترائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

